رواية

إريكا يونغ

الخوف من الطيران

ترجمة: أسامة منزلجي




الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

الخوف من الطيران



اسم المؤلف: إريكا يونغ

عنوان الكتاب: الخوف من الطيران

ترجمة: أسامة منزلجي

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2017

Author: **Erica Jong**

Title: **Fear of Flying**

Translate: **Osama Menzlchi**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2017**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+964 (0) 770 2799 999
+964 (0) 770 8080 800
+964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+961 706 15017
+961 175 2616
+961 175 2617

دمشق: شارع كرجيه حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+963 11 232 2276
+963 11 232 2275
+963 11 232 2289

إريكا يونغ

الخوف من الطيران

ترجمة : أسامة منزلجي



إهداء المؤلفة

إلى

غريس دارلينغ غويفيث

وإلى جدّي صمويل ميرسكي

لهفي على حب النساء! من المعروف
أنه شيء جميل ومُخيف؛
إنهنّ يُلَمْنَ على كل مَنْ يموت من أجلهن،
فإذا ضاع، لا تجلب لهنّ الحياة
إلا سخريات الماضي وحده،
وانتقامهنّ أشبه بقفزة النمر،
قاتلة، وسريعة، ومُحطِّمة؛ ولكن، كما أنهنّ
مصدر عذاب حقيقيّ - فإنهنّ يُعانين منه.

إنهنّ على حق؛ فالرجل، الجائر غالباً،
جائر دائماً مع النساء؛ ثمة رِباط واحد ينتظرهن -
لا تُقابَل ثقتهن إلا بالخيانة؛
يتعلّمن الكبت، وقلوبهن المتفجّرة تميل
إلى معبودهن، إلى أنْ يأتي صاحب ثروة شبِق
ويشتريهن بالزواج - وماذا يتبقّى بعد ذلك؟
زوج جاحد - ثم، عشيق كافر -
ثم ملابس، ورعاية، وصلاة - وينتهي كل شيء.

بعضهن يتخذن عشيقاً، وبعضهن يلجأن إلى المال أو الصلاة،

وبعضهن يلتزمن بشؤون منزلهن، وأخريات ينغمسن في التسالي.

البعض يهربن، ولكن يُغيّرن اهتماماتهن،

يفقدن ميزة الفضيلة؛

قليلات يتغيرن بعد أنْ يعجزن عن تحسين أوضاعهن.

وضعهن ليس طبيعياً،

ينتقلن من قصرهن الممل إلى الزريبة القذرة:

بعضهن يقمن بدور الشيطان، ثم يكتبن رواية.

- لورد بايرون (من مسرحية *دون جوان*)

إريكا يونغ

كاتبة ومُدرّسة أميركية يهودية، من أصل بولوني. ولدت عام ١٩٤٢ لعائلة يهودية من أب يعمل رجل أعمال ولد في إنكلترا لعائلة من المهاجرين الروس وأم رسّامة ومُصممة رسوم أقمشة ودُمى. ولإريكا أخت اسمها سوزان متزوجة من رجل أعمال لبناني اسمه آرثر ضوّ. تزوجت إريكا أربع مرات ولها ابنة اسمها مولي يونغ - فاست من زواجها الثالث. وتقوم إريكا بزيارة هايدلبرغ في ألمانيا حيث كانت تُقيم مع زوجها الثاني في ثُكنة عسكرية، وتزور مدينة البندقية كثيراً. أتى المغني الأميركي بوب ديلون على ذكرها في أغنيته «**Highlands**». ساندت المثليين جنسياً وتشريع زواجهم مدّعية أنَّ «زواج المثليين نعمة وليس نقمة ويُعزز الاستقرار والعائلة وهو حتماً في صالح الأطفال». أشهر أعمالها قاطبة رواية ***«الخوف من الطيران»*** عام ١٩٧٣، وهي رواية أثارت وتُثير جدلاً واسعاً بسبب صراحتها الشديدة حول شؤون المرأة الجنسية، صدر منها أكثر من ثلاثين طبعة، وبيع منها أكثر من ٢٠ مليون نسخة. ومن مؤلفاتها الأخرى: ***«كيف تنقذين زواجك»***، ***«مظلات هبوط وقُبلات»***، ***«الشيطان طليقاً: إريكا يونغ تكتب عن هنري ميللر»*** و***«الخوف من الخمسين: مذكرات منتصف العمر»*** وغيرها... يتميّز أدب يونغ بجرأته الشديدة في الأمور الجنسية إلى درجة الإباحية أحياناً.

(١)

في الطريق إلى مؤتمر الأحلام أو النكاح الصِّرف[1]

تعدُّد الأزواج يعني أنْ يكون للمرأة أكثر من زوج.
والزواج من رجل واحد يعني الشيء نفسه.
• امرأة مجهولة

كان هناك ١١٧ مُحللاً نفسياً على متن الطائرة الأميركية المتوجهة إلى فيينا وكنتُ قد تلقّيتُ العلاج على يد ستة منهم على الأقلّ. وتزوجت السابع. ويعلم الله أنَّ ذلك كان ثناءً إما لانعدام كفاءة المُحللين النفسيين أو لعجزي المجيد عن التحليل النفسي بحيث إنني الآن أخاف الطيران أكثر مما كنتُ عندما باشرت مغامراتي التحليلية قبل نحو ثلاثة عشر عاماً.

في لحظة إقلاع الطائرة قبضَ زوجي على يدي بطريقة علاجيّة. قال «يا إلهي - إنها باردة كالثلج». كان ينبغي أنْ يكون قد توصّل

١ - العبارة من ابتداع وابتكار إريكا يونغ حصراً، وتعني النكاح الحر، أو النكاح الخالي من التبعات والمسؤوليات ودون تبادل أي حديث بين الطرفَين. وتعرّفه يونغ بقولها: إنه لقاء بين غريبَين يدفعهما حلم واحد، بعيداً عن أي إحساس بالندم أو بالذنب. فهو نقيّ ولا ينطوي على لعبة تصارع للقوى ومتحرر من أية دوافع خفيّة، ويوصف بأنه الجنس العابر والعفوي المثالي. باختصار، هو النكاح للنكاح ذاته. - المترجم

حينئذ إلى معرفة الأعراض بما أنه أمسك يدي خلال الكثير من رحلات الطيران الأخرى. تتحول أصابع يديّ (وقدميّ) إلى ثلج، وتندفع معدتي عالياً نحو قفصي الصدري، وتنخفض درجة حرارة أنفي إلى مستوى درجة حرارة أصابعي، وتنتصب حلمتا ثديّ وتُحتي داخل حمّالة صدري (أو في هذه الحالة، ثوبي - بما أنني لا أرتدي حمالة للصدر)، وخلال دقيقة من الصراخ تطابق قلبي مع المحركات ونحن نحاول أنْ نُثبت من جديد أنَّ قوانين الديناميكا الهوائية ليست الخزعبلات الواهية التي *أعلم*، من عمق أعماق قلبي، أنها كذلك فعلاً. وبغضّ النظر عن المعلومات الشيطانية الموجّهة للمسافرين، تصادفَ أني كنتُ مُقتنعة بأنّ تركيزي الخاص (وتركيز أمي - التي تبدو أنها دائماً *تتوقّع* أنْ يموت أولادها بحوادث تحطم طائرات) يُحافظ على هذا الطائر مُحلّقاً. إنني أهنّئ نفسي بعد نجاح كل عملية إقلاع، ولكن ليس بحماسة كبيرة لأنّ جزءاً من شخصيتي المتديّنة تقوله إنّه حالما تزداد ثقتك بنفسك *وتطمئن* تماماً لحالة الطيران تتحطم الطائرة على الفور. إنّ شعاري هو، كنْ حذراً باستمرار. يجب أنْ يسود مزاج من التفاؤل الحذر. لكنّ أفضل وصف لمزاجي في الحقيقة هو التشاؤم الحذر. وأقول لنفسي، حسن، *يبدو* أننا ارتفعنا عن الأرض واخترقنا الغيوم لكنّ الخطر لم يزل بعد. إنّ هذه، في الحقيقة، أخطر بقعة من الهواء. هنا بالذات فوق خليج جامايكا حيث تميل الطائرة وتنعطف وتنطفئ إشارة «ممنوع التدخين». هنا ربما سنسقط ونحن نصرخ ونتحطم إلى آلاف القطع الملتهبة. لذلك أبقى في حالة من التركيز الشديد، أساعد الربّان (صاحب نبرة منطقة الغرب الأوسط المُطمْئنة الذي اسمه دونيلي) في التحليق بالمسافرين الـ ٢٥٠ أولاد القحبة. شكراً لله على شعره القصير ولكنة وسط أميركا. وبما أنني من نيويورك، فإنني لا أثق بربان طائرة ذي لكنة نيويوركية.

حالما انطفأتْ إشارة ربط الأحزمة وبدأ الناس يتنقّلون في المقصورة، ألقيتُ نظرة متوترة حولي لأتعرَّفَ على الركّاب. هناك مُحللة نفسية ضخمة الصدر اسمها روز شوام - ليكن تبادلتُ معها الاستشارة مؤخراً حول ما إذا كان ينبغي أنْ أستغني عن مُحللي النفسي الحالي (الذي لم يكن موجوداً، والحمد لله). هناك الدكتور توماس فرومر، الخبير التيوتوني الخشن في الـ Anorexia Nervosa (فقدان الشهية)، الذي كان المُحلل النفسي الأول لزوجي. وهناك المريح المُمتلئ الدكتور آرثر فيت الابن، ثالث مُحلل نفسي (والأخير) لصديقتي بيا. والدكتور ريموند شريفت القميء المُكره الذي يُنادي على مُضيفة شقراء (اسمها «نانسي») كأنها سيارة أجرة. (تردّدتُ على عيادة الدكتور شريفت على مدى عام لا يُنسى عندما كنتُ في الرابعة عشرة وأتبع حِمية حتى الموت تكفيراً عن استمنائي وأنا على أريكة غرفة جلوس والديّ. وظلّ يصرّ على أنّ الجواد الذي كنتُ أحلمُ به هو والدي وأنَّ دورتي الشهرية ستعود إلى طبيعتها إذا «قبلتُ كوني امرأة»). الابتسام يسود، قرّر الدكتور هارفي سمكر الذي استشرته عندما قرّر زوجي الأول أنه يسوع المسيح وبدأ يُهدد بالمشي على الماء في بحيرة سنترال بارك. وهناك الغندور، ذو اليد الرقيقة، الدكتور إرنست كلمبنر، المُفترَض أنه «باحث نظري لامع» وآخر كُتبه هو دراسةٌ في التحليل النفسي لجون نوكس[٢]. وهناك ذو اللحية السوداء الدكتور ستانتن رابوبورت - روزن الذي اكتسب مؤخراً سمعة سيئة في دوائر التحليل النفسي في نيويورك عندما انتقل إلى دنفر وأنشأ فرعاً

٢ - جون نوكس (١٥١٤؟ - ١٥٧٢): لاهوتي ومؤرخ اسكتلندي. نُفيَ إلى إنكلترا ثم إلى القارة الأوروبية بين عاميّ ١٥٤٧ و ١٥٥٩ عاد إلى اسكتلندا وأسّس كنيسة اسكتلندا المشيخية عام ١٤٦٠. أبرز أعماله **«تاريخ الإصلاح في اسكتلندا»**. - المترجم

يُدعى «جماعة العلاج بالتزلج على الجليد عبر البلاد». وهناك الدكتور أرنولد آرنسون الذي يتظاهر بأنه يلعب الشطرنج على رقعة مغناطيسية مع زوجته الجديدة (وكانت مريضته حتى العام الفائت)، المغنّية جودي روز. وكلاهما يتلفّتان حولهما خِفيةً ليريا مَنْ ينظر إليهما - وللحظة من الزمن تتقابل عيناي مع عينيّ جودي روز. كان صيت جودي روز قد ذاع خلال حقبة الخمسينيات من القرن الماضي بسبب سلسلة من الأغاني الساخرة عن الحياة الثقافية الزائفة في نيويورك. كانت تغني بصوت مُنتحب وغير موسيقي عن عمد أغنية عن فتاة يهودية تتلقّى دورات في المدرسة الجديدة، وتقرأ الكتاب المقدس حبّاً بأسلوب كتابته، وتناقشُ مارتن بوبر[٣] في السرير، وتقع في حب مُحللها النفسي. وأضحت الآن متّحدة مع الدور الذي ابتكرته.

إلى جانب المُحللين النفسيين، وزوجاتهم، والطاقم المرافق، وعدد غفير من الأشخاص العاديين المساكين، كان هناك بعض أطفال المُحللين النفسيين جاؤوا للاستمتاع بالرحلة. كان أولادهم في الغالب مراهقين مكفهري الوجوه يرتدون بنطلونات واسعة من الأسفل ولهم شعور تسترسل حتى الكتفين ينظرون إلى آبائهم بقدرٍ من السخرية والتأنيب الواضحين. وتذكرتُ نفسي مسافرة إلى الخارج مع والديّ وأنا مراهقة وكيف كنت أحاول دائماً أنْ أتظاهر بأنهما ليسا برفقتي. حاولت أنْ أزوغ منهما في متحف اللوفر! أنْ أتجنّبهما في متحف أوفيتزي! أنْ أتأمّل وحيدة وأنا أشرب الكوكاكولا في مقهى في باريس وأتظاهر بأنّ الشخصَين الصاخبين الجالسين على الطاولة المجاورة ليسا والديّ - على الرغم من أنّ من الواضح أنهما كذلك. (في الواقع،

٣ - مارتن بوبر (١٨٧٨ - ١٩٦٥): لاهوتي يهودي، وفيلسوف وجودي، وعلّامة في الحصيديم (أي الأتقياء). ولد في النمسا. من أعماله «أنا وأنت» و«بين الرجل والرجل»، و«أقول الله». - المترجم

كنتُ أتظاهر بأنني منفيّة من الجيل الضائع وأبواي جالسان على مسافة ثلاثة أقدام مني) وها أنا ذا أعود إلى ماضيَّ الخاص، أو إلى كابوس مزعج أو إلى فيلم سينمائيّ رديء: *مُحلل نفسي وابن مُحلّل نفسي*. في طائرة مملوءة بأطباء نفسيين ومراهقتي تكتنفني من كل جانب. تائهة وسط الجو فوق الأطلسي مع ١١٧ مُحللاً نفسياً كثيرٌ منهم أصغى إلى قصتي الطويلة، الحزينة، ولا أحد منهم تذكّرها. هذه بداية مثالية للكابوس الذي ستتحول رحلتي إليه.

كنا متوجهين إلى فيينا وكانت المناسبة تاريخية. فقبل قرون عديدة، وحروب كثيرة، في عام ١٩٣٨، فرَّ فرويد من غرفة استشارته الشهيرة الكائنة في برغاس عندما هدَّد النازيون عائلته. فخلال سنوات الرايخ الثالث كان مجرد ذكر اسمه ممنوعاً في ألمانيا، وكان المُحللون النفسيون يُطردون (إنْ كانوا محظوظين) أو يُعدمون بغرف الغاز (إنْ لم يكونوا كذلك). والآن، وباحتفاء مهيب، تستقبل فيينا عودة المحللين النفسيين. بل إنهم سيفتتحون مُتحفاً لفرويد في غرفة استشارته القديمة. وسوف يُحييهم عمدة مدينة فيينا وسيُقام حفل استقبال في دار بلدية فيينا المبنية على الطراز القوطي. وتتضمن المغريات طعاماً مجانياً، وشراب الشنابس المجاني، ورحلات في نهر الدانوب، ونزهات إلى كروم العنب، وغناءً، ورقصاً، وخُدعاً، وأطروحات علمية وخُطَباً ورحلة إلى أوروبا تخصم تكاليفها من الضرائب. وقبل أي شيء، هناك الكثير من النمساويين العجائز الطيبين والـ ***Gemulitligkeit*** (الودودين). إنّ الشعب الذي اخترع ***Schmaltz*** (النزعة العاطفية) (وإحراق الموتى) سيُبيِّن للمُحلّلين النفسيين مدى الترحيب بعودتهم.

أهلاً بعودتكم! أهلاً بعودتكم! على الأقل أهلاً بأولئك الذين نجوا منكم من مُعتقل أوشفيتز، وبلسن، وقصف مدينة لندن وانتقاء أميركا.

Willkommen! (أهلاً بكم!) إنَّ أبرز صِفات النمساويين هي أنهم ساحرون.

ظل أمر إقامة المؤتمر في فيينا مثارَ جدال صاخب على مدى سنين، والعديد من المحليين النفسيين قدموا على مضض. كانت المُعاداة للساميّة جزءاً من المشكلة، ولكن كان هناك أيضاً احتمال أنْ يُقرر الطلاب الراديكاليين في جامعة فيينا أنْ يخرجوا في مظاهرات. وكان أعضاء اليسار الجديد يكرهون التحليل النفسي لأنه «مُغالٍ في الفردية». قالوا إنه لم يفعل أي شيء لدفع «الصراع العالمي نحو الشيوعية».

طلبت مني مجلة جديدة أنْ أرصد كل الأمور المسلية والألعاب التي تجري خلال المؤتمر عن قُرب وأنْ أكتب مقالة ساخرة حول ذلك. وباشرت بحثي بالاقتراب من الدكتور سموكر بالقرب من المعرض، حيث كانت إحدى الخادمات تُقدّم إليه القهوة. نظر إليّ وبدا كأنه لم يتعرّف عليّ.

سألته بصوتي الجدير بمُحاورة مرحة «ما شعورك حول عودة المُحللين النفسيين إلى فيينا؟». بوغتَ الدكتور سموكر بفعل النبرة الحميمة الصاعقة لصيغة السؤال. فنظر إليّ مطولاً مُستفسراً.

قلت: «أنا أكتب مقالة لصالح مجلة جديدة تُدعى «***Voyeur***»». تصوّرتُ أنه ربما سيرسم على الأقلّ ابتسامة خفيفة لدى ذكر الاسم.

قال سموكر ببلاهة «حسن، ما هو شعورك ***أنت*** حول ذلك؟»»، ثم تهادى متجهاً نحو زوجته القصيرة التي صبغت شعرها باللون الأشقر وترتدي ثوباً أزرق منسوجاً وفوق ثديها الأيمن (الأزرق) رُسِمَ تمساح صغير أخضر اللون.

كان ينبغي أنْ أعلم لماذا يعمد المحللون النفسيون دائماً إلى الإجابة

عن سؤال بسؤال؟ ولماذا يجب أنْ تكون هذه الليلة مختلفة عن أية ليلة أخرى - على الرغم من أنّنا نطير على متن طائرة ٧٤٧ ونأكل طعاماً غير حلال[٤]؟

إنه «العلم اليهودي»، كما يُلقّبه المعادون للسامية. يقلبون كل سؤال رأساً على عقب ويُقحمونه في طيز السائل. إنَّ المحللين النفسيين كلهم يبدون تلموديين فرّوا من المعهد اللاهوتي منذ العام الأول. وتذكّرت إحدى نكات جدّي المُفضّلة:

س: «لماذا دائماً يُجيب اليهودي عن السؤال بسؤال آخر؟».

ج: «ولماذا **لا** ينبغي على اليهودي أنْ يُجيب عن سؤال بسؤال؟».

ومع ذلك في المُطلق، كان افتقار المحلليين النفسيين للمخيّلة هو ما صعقني. حسن، لقد قدَّمَ لي أولهم الكثير من العون - الألماني الذي كان يعمل على إعداد أطروحة في فيينا - لكنه كان نوعاً نادراً: ذكياً، يسخر من نفسه، غير مُدّعٍ. لم يكن يتّصف بشيء من العقلية الواقعية الحرفيّة المُطلقة التي تَجعل حتى أشدّ المُحللين النفسيين عبقرية يبدو مُدّعياً نفّاجاً. أما الآخرون الذين تردّدتُ عليهم - فكانوا ذوي عقلية واقعية بصورة مدهشة. إنَّ الحصان الذي تحلمين به هو والدك. ومدفأة المطبخ التي تحلمين بها هي أمك. وركام الروث الذي تحلمين به هو، على أرض الواقع، مُحللك النفسي. هذا ما يُسمّى بـ«*التحوّل*». أليس كذلك؟».

تحلمين بأنك كسرتِ ساقكِ على منحدر للتزلّج. في الواقع، أنتِ كسرت ساقك فعلاً على منحدر التزلّج وتكذبين وأنت متمددة على الأريكة وتضعين قالباً من الجص زنته عشرة أرطال ألزمك بالمكوث في المنزل أسابيع عديدة، لكنه منحك أيضاً مظهراً جميلاً جديداً

٤ - غير حلال بالمعنى اليهودي للكلمة. - المترجم

لأصابع قدميك والحقوق المدنية لإصابتك بالكُساحة[٥]. لكنَّ الساق المكسورة في الحلم تمثّل «عضوك التناسلي المبتور». ولطالما أردت أنْ يكون لك قضيب ذكري والآن يتنابك إحساس بالذنب لأنكِ كسرت ساقك عمداً لكي تستطيعين أنْ تحظي بمتعة الذكور، أليس كذلك؟

كلا!

حسن، فلندعْ جانباً مسألة «العضو التناسلي المبتور». على أية حال هو حصان ميّت. وانسي أمر أمك التي تمثّل الفرن ومُحللك النفسي الذي هو كتلة الخراء. فماذا يتبقّى لدينا غير الرائحة؟ أنا لا أتكلّم عن سنوات التحليل النفسي الأولى عندما كنت تبذلين أقصى جهدك لتكتشفي أمر جنونك وتُنجزي بعض العمل بدل أنْ تُكرّسي حياتك كلها للاهتمام باضطرابك العصبي. إنني أتكلّم عنك وعن زوجك عندما كنتما تخضعان للتحليل النفسي حسب ما تذكرين ووصل الأمر إلى نقطة لم يعُد عندها ممكناً اتخاذ أي قرار مهما كان صغيراً من دون استشارة المُحلّلين النفسيين المُجتمعَين في خيالكما على متن غيمة فوق رأسيكما. إنكما تشعران كأنكما من مُحاربي طروادة في كتاب «*الإلياذة*» وزيوس وهيرا يتقاتلان فوقهم. إنني أتحدث عن الفترة التي أصبح فيها زواجكما *ménage a quatre* (علاقة بين أربعة أشخاص). أنت، هو، مُحللك النفسي، ومُحلله هو. أربعة أشخاص في سرير واحد. إنْ هذه الصورة حتماً من النوع المحظور.

بقينا في هذه الحالة على الأقل طوال العام الفائت. كل قرار كان ينبغي إحالته إلى الطبيب النفسي أو إخضاعه للتحليل النفسي. هل ننتقل إلى شقّة أرحب؟، «يُستحسن أنْ نرى أولاً ما الذي يجري» (وهي

٥ - الكساحة: شلل يُصيب النصف السفلي من الجسم.

التعبير المُلطّف لعبارة بينيت: عودا إلى أريكة التحليل) هل نُنجب طفلاً؟، «يُستحسن حل الأمور أولاً». هل ننضم إلى نادٍ جديد للعبة كرة المضرب؟، «يُستحسن أنْ نرى أولاً ما الذي يجري». هل نلجأ إلى الطلاق؟، «يُستحسن أنْ نسبر أولاً أعماق *المعنى الكامن* للطلاق».

ذلك أننا كنا في الحقيقة قد وصلنا إلى تلك الفترة الحرجة من الزواج (مرت خمس سنوات والأغطية التي حصلت عليها كهدية زواج توشك أنْ تتهرّأ) التي يحين فيها الوقت لتقرير إنْ كان ينبغي أن نشتري أغطية جديدة، وربما أنْ نُنجب طفلاً، ونعيش في جنوننا المشترك في ثبات ونبات - أو أنْ نتخلّى عن الزواج كله (ونرمي الأغطية) ونبدأ من جديد بممارسة علاقاتنا المتعددة.

طبعاً، كان القرار أشد تعقيداً من ذلك حسب التحليل النفسي - الافتراض الأساسي للتحليل النفسي كان (ولا عليك من كل الأدلة على العكس) إنكما تتحسنان باطّراد. كانت اللازمة كما يلي:

«أوه، عندما تزوجتك يا حبيبي كنتُ أدمّر نفسي، لكنّني أفضل حالاً بكثير الآن...».

(والمعنى هو أنّه يمكنك أنْ تختار شخصاً أفضل، ألطف، وأكثر وسامة، وذكاء، وربما حتى أوفر حظاً في سوق البورصة).

وعلى هذا قد يُجيب:

«عندما وقعت في شباك حبك يا حبيبتي كرهت النساء جميعاً، لكنني الآن أفضل حالاً بَكثير...».

(والمعنى هو أنَّ في وسعه أنْ يجد امرأة أخرى، أكثر عذوبة، وجمالاً، وذكاءً، وطبّاخة أفضل، وربما من المتوقع أنْ ترث تركة ضخمة من والدها)

وأقول - (كلما شككتُ في أنَّ مثل هذه الأفكار تراوده)، «اعلم،

يا عزيزي بينيت، أنكَ ربما تتزوج امرأة أشد شبقاً وإيذاءً ونرجسيّة مني». (إنَّ أول تقنية تكتسبها زوجة طبيب نفسي هي أنْ تعرف كيف تردّ عليه بمثل رطانته، في لحظات مُنتقاة بعناية).

لكنَّ تلك الأفكار كانت تراودني أنا نفسي، وإذا كان بينيت قد علمَ فحواها فهو لم يفشِ ذلك. لقد بدا أنَّ زواجنا يُعاني من خطبٍ ما. وسارت حياة كلٍ منا بخطّين متوازيين كسكتي حديد. كان بينيت يقضي النهار كله في مكتبه، ومستشفاه، ومع طبيبه النفسي، ومن ثم يعود في أوقات المساء إلى مكتبه من جديد، حتى الساعة التاسعة أو العاشرة عادة. كنتُ أمارس التدريس يومين في الأسبوع وأكتب في باقي الوقت. كان برنامج تدريسي خفيفاً، والكتابة مُرهقة، وفي الوقت الذي يعود فيه بينيت إلى المنزل أكون قد أصبحت مستعدة للخروج والانطلاق. كنتُ غارقة في العزلة؛ أمضي ساعات طوالاً وحدي مع آلتي الكاتبة ومع خيالاتي؛ أقابل رجالاً في كل مكان. وكأنَّ العالم مزدحم برجال جاهزين، وجذّابين، بطريقة لم أعهدها قبل أنْ أتزوج.

على أية حال ما المميَّز في الزواج؟ حتى وإنْ أحببت زوجك، سوف يحين ذلك الوقت المحتوم الذي يصبح فيه نكاحه مُشبعاً، حتى الامتلاء، ولكن بلا إثارة ولا ذائقة، بلا طرف من مذاق لاذع، بلا خطر. وتشتاقين إلى جبن الكاميمبير التامّ النضج، وهو جبن ماعز نادر: مُترَف المذاق، قشديّ، شيطانيّ.

لم أكن ضد الزواج. بل لقد آمنتُ به. من الضروري أنْ يحصل المرء على صديق صدوق واحد في عالمٍ عدائيّ، شخص تُخلص له مهما يحدث، شخص واحد يُخلص دائماً لَك. ولكن ماذا عن تلك الأشواق الأخرى كلها التي يعجز الزواج بعد فترة من الوقت عن إشباعها؟ القلق، الجوع، ألم البطن، وألم الفرج، الاشتياق إلى الشبع، إلى أنْ تُنكحي من كل ثقبٍ فيك، التوق إلى الشمبانيا الجافة وإلى

القبلات الرطبة، إلى رائحة أزهـار الفاوانيا في سقيفة في ليلة من شهر حزيران، إلى الضوء في نهاية رواية «**غاتسبي**»... لا أعني هذه الأشياء **حرفيًا** - لأنكَ تعلم أنَّ فاحشي الثراء أكثر إثارة للضجر منك ومني - بل **ماتُثيره** تلك الأشياء. المفردات الساخرة، اللاذعة لأغاني كول بورتر[٦] العاطفية، وكلمات أغاني روجرز وهارت[٧] العاطفية الحزينة، وكل الهراء الرومانسي الذي تتوق إليه بنصف قلبك وتسخر منه بمرارة بالنصف الآخر.

يا له من عبء أنْ يولد المرء أنثى في أميركا! إنكِ تولدين وأذناك مملوءتان بإعلانات مساحيق التجميل، والأغاني العاطفية، وأعمدة النصائح الصحفية، وطالع النجوم الداعرة، وإشاعات هوليوود، والمـآزق الأخلاقية على مستوى المسلسلات التلفزيونية. ويا للابتهالات التي يُرتّلها على مسمعك المُعلنون عن الحياة الممتعة! ويا للتعاليم الغريبة!

«كوني رقيقة مع مؤخرتك»، «دعي الحمرة تعلو وجهك وكأنكِ تخجلين حقاً»، «أحبّي شعرك»، «أتريدين جسداً أفضل؟ سوف نُعيد ترتيب ما لديك»، «ذلك الإشراق على وجهك يجب أنْ يأتي من رجلك، وليس من بشرتك»، «لقد قطعت شوطاً طويلاً، يا عزيزتي»، «كيف تنجحين في كل علاقاتك مع الرجال»، «النجوم وجانبك

---

٦ - كول بورتر (١٨٩٣ - ١٩٦٤): مؤلف موسيقي ومؤلف أغاني للمسرحيات الموسيقية الكوميدية. من أشهر أغانيه «**Night and Day**» و«**Let's Do it**». - المترجم

٧ - ريتشارد روجرز (١٩٠٢ - ١٩٨٠): مؤلف موسيقي اميركي. ألَفَ موسيقى مسرحيات موسيقية ناجحة مع لورينز هارت الذي كان يؤلف كلمات الأغاني. ثم تعاون مع أوسكار هامرستاين في تأليف الكلمات. من أشهر أعمالهم، «**أوكلاهوما**»، و«**جنوب المحيط الهادئ**» و«**بال جوي**». - المترجم

الحسّي»، «للرجل يقولون يا ذا القميص القصير»، «الأحجار الكريمة تبقى إلى الأبد»، «إنْ كنت مهتمة بالاغتسال...»، «الطول والأناقة يتماشيان»، «كيف أحلّ مشكلة الرائحة الحميمة الكريهة»، «أيتها السيدة كوني أنيقة»، «كل امرأة على قيد الحياة تحب عطر شانيل رقم ٥»، «ما الذي يجعل الفتاة الخجول متآلفة؟»، «لقد أسميناه فام (امرأة) على اسمك».

إنّ ما تلمّح إليه الإعلانات التجارية كلها وما تقوله النجوم الداعرة هو أنّك إذا كنت نرجسية بقدر كاف، إذا اعتنيت بشكل ملائم بروائحك، وشعرك، وثدييك، ورموش عينيك، وتحت إبطيك، ومُلتقى فخذيك، ونجومك، وندوبك وانتقائك لنوع الويسكي في الحانات - فسوف تقابلين رجلاً ثرياً، جميلاً، قوياً، فحلاً، يُشبع لديك كل شوق، ويملأ كل ثقب، ويجعل قلبكِ يفقد شيئاً من نبضه (أو يتوقف تماماً عن الخفقان)، يجعلك غامضة، ويطير بكِ إلى القمر (على متن مخاط الشيطان[٨] الممتع)، وهناك تعيشين حياة هانئة إلى الأبد.

والجزء الذي يبعث على الجنون من الأمر هو أنه حتى إنْ كنتِ حاذقة بالقدر الكافي، وحتى لو أمضيتِ فترة مراهقتكِ وأنتِ تقرئين أشعار دون دَنْ ومسرحيات شو، حتى إنْ درستِ التاريخ أو علم الحيوان أو الفيزياء أو أملتِ في قضاء حياتك في مسيرة مهنية صعبة ومُتحدية - يبقى ذهنك مملوءاً بكل تلك الأشواق العاطفية التافهة التي تغرق فيها كل تلميذة في مدرسة. في الحقيقة، لا يهم، سواء أكان مستوى ذكائك ١٧٠ أو ٧٠، كنتِ تتعرّضين مع ذلك لغسيل دماغ. فقط الزخارف السطحية تختلف. وحده *الحديث* كان أكثر رقياً بقليل. وتحت ذلك كله كنتِ تشتاقين إلى أنْ يفنيك الحب، أنْ يُطيح بكِ،

٨ - مخاط الشيطان: نوع من نسيج العنكبوت يطفو في الهواء. - المترجم

أنْ يملأك قضيب ضخم يقذف منيه، ورغوة صابون، وحرير وساتان، وطبعاً، نقود. لا أحد كان يزعج نفسه ويُخبرك عن حقائق الزواج. لا أحد يزودك، كما يحصل مع الفتيات الأوروبيات، بفلسفة السخرية وبالروح العملية. كان يُتوقَّع منك ألا تشتهي أي رجل آخر بعد الزواج. وتتوقعين من زوجك ألا يشتهي أية امرأة أخرى. ثم تراودك الشهوات وتدخلين في دوامة رعب كراهية الذات. كم أنا امرأة شريرة! كيف تجرّأتُ على الافتتان برجال غرباء؟ كيف جروْتُ على تفحُّص الانتفاخ في بنطلوناتهم هكذا؟ كيف جلستُ في الاجتماع وأنا أتخيَّل كيف يُضاجع كل رجل موجود في الغرفة؟ كيف جروْتُ وأنا جالسة في القطار أنْ أضاجع رجالاً غرباء تماماً عني بعينيّ. كيف استطعتُ أنْ أؤذي زوجي هكذا؟ هل أخبركِ أحدٌ أنَّ هذا لا صلة له على الإطلاق بزوجك؟

وماذا عن تلك الأشواق الأخرى التي يخنقها الزواج؟ تلك الأشواق إلى الانطلاق بين حين وآخر، إلى اكتشاف إنْ كنت لا تزالين تعيشين وحدك داخل رأسك، إنْ كنت لا تزالين تستطيعين أنْ تعيشي في كوخ في الغابة من دون أنْ تُصابي بالجنون؛ باختصار، إلى اكتشاف إنْ كنتِ لا تزالين كلاً متكاملاً بعد مرور سنين عديدة من كونكِ نصف شيء ما (كأنْ تكوني قائمتين خلفيتين لزيّ حصان على خشبة مسرح عروض هزليّة).

إنَّ خمس سنوات من الزواج جعلتني أتلهّف إلى هذه الأشياء: أتلهّف إلى الرجال، وأتلهَّف إلى العزلة. أتلهّف إلى الجنس وأتلهّف إلى حياة التنسُّك. كنتُ أعلم أنَّ لهفي متناقض - وهذا جعل الأمور أسوأ. كنتُ أعلم أنْ لهفي سِمة غير أميركية - وهذا زاد الأمور سوءاً على سوء. فمن قبيل البدعة في أميركا تبنّي اي أسلوب في الحياة غير أنْ تكوني نصف زوج. والعزلة هي سِمة غير أميركية. قد تُغتَفَر عند

الرجل - خاصة إذا كان «أعزب شهيراً»، «يُصاحب نجمات سينما ناشئات» خلال فترات ما بين الزيجات القصيرة. لكنَّ المرأة يُفترَض دائماً أنها وحيدة نتيجة هجرها، لا باختيارها. وهي تُعامل على هذا الأساس: كمنبوذة. ببساطة لا توجد طريقة محترمة بالنسبة إلى المرأة لكي تعيش بها وحدها. أوه، هي تستطيع أنْ تتدبّر أمرها مالياً ربما (وإنْ كان ليس بالضبط كالرجل)، أما عاطفياً فهي لا تُترك وشأنها أبداً. أصدقاؤها، وأهلها وزملاؤها في العمل لا يدعونها تنسى أبداً أنها بلا زوج، بلا أطفال - باختصار، إنَّ *أنانيتها* - هي إهانة للأسلوب الأميركي في الحياة.

زِدْ على ذلك: لا تستطيع المرأة (على الرغم من معرفتها تعاسة صديقاتها المتزوجات) أنْ تترك *نفسها* وشأنها. إنها تعيش وكأنها على الدوام على شفا تحقيق إنجاز عظيم؛ كأنها في انتظار فارس الأحلام لكي يأخذها «بعيداً عن هذا كله». كل مـاذا؟ عزلة العيش داخل روحها؟ يقينها من أنها هي نفسها وليست نصف شيء آخر؟

إنَّ جوابي عن هذا كله لم يكن (ولا هو حتى الآن) إقامة علاقة ولا (حتى الآن) الانطلاق في العالم، بل تطوير فكرتي الخيالية عن النكاح للنكاح. النكاح للنكاح كان أكثر من نكاح عادي. إنها مَثَل أعلى أفلاطونيّ. إنه بلا سحّاب[٩] لأنه عندما تجتمعان ينفتح السحّاب كتويجات الوردة، ويطير السروال الداخلي بنفخة واحدة كزغب الهندباء البرية. وينضفر اللسانان ويُصبحان رطبين. وتتدفق روحك كلها عبر لسانك إلى فم عشيقك.

من أجل إنجاز نكاح حقيقي، نكاح للنكاح من الدرجة الأولى،

---

٩ - التعبير بالإنكليزية هو zipless fuck ويعني حرفياً: نكاح بلا سحّاب، أو زمام. - المترجم

كان ضرورياً ألا تعرفي الرجل معرفة جيدة. لقد لاحظت، مثلاً، كيف أنَّ كل افتتاني بالرجال زال حالما عقدتُ صداقة حقيقية مع رجل، وتعاطفتُ مع مشاكله، وأصغيتُ إليه وهو يتذمّر من زوجته، أو زوجاته السابقات، وأمه، وأطفاله. بعد ذلك أصبح يُثير إعجابي، وربما أحبه – ولكن من دون شغف. لقد كنتُ أريد الشغف. وتعلّمتُ أيضاً أنَّ السبيل الأمثل للتخلّص من الافتتان هو أنْ أكتب عن شخص ما، أنْ أراقب أقل حركة تصدر عنه، أنْ أحلّل شخصيته كنموذج. وبعد ذلك أصبح كحشرة على طرف دبوس، كقُصاصة من صحيفة مُغلّفة بالبلاستيك. قد أستمتع بصحبته، بل وأُعجَب به في لحظات معيَّنة، لكنه لا يعود يمتلك القدرة على جعلي أستيقظ وأنا أرتعش في منتصف الليل. لا أعود أحلم به. لقد كان له وجه.

شرطٌ آخر من أجل تحقّق النكاح للنكاح هو الشجاعة. إنَّ جهل الشخصية يجعل الأمر أفضل.

في أثناء فترة تواجدي في هايدلبرغ كنتُ أتردّد على فرانكفورت أربع مرات في الأسبوع لأزور مُحللاً نفسياً. كانت المسافة تستغرق ساعة وأصبح ركوب القطارات جزءاً من حياتي الخيالية. رحت أقابل رجالاً وسيمين على متن القطار، رجالاً لا يتكلمون الإنكليزية، أفكارهم المبتذلة وتفاهتهم مُستترة بجهلي بالفرنسية، أو الإيطالية، أو حتى الألمانية. إنني أكره أنْ أعترف بأنَّ هناك رجالاً على قدر كبير من الوسامة في ألمانيا.

سيناريو النكاح للنكاح أوحى به إليّ ربما أحد الأفلام الإيطالية شاهدته قبل سنين. ومع مرور الوقت زخرفته لكي يُناسب فِكري. كنتُ أستعرضه مراراً وتكراراً في أثناء قطع المسافة جيئة وذهاباً من هايدلبرغ إلى فرانكفورت، ومن فرانكفورت إلى هايدلبرغ:

«عربة في قطار أوروبي كئيب (في الدرجة الثانية). المقاعد مكسوّة بالجلد وقاسية. هناك باب منزلق يؤدي إلى الرواق الخارجي. أشجار الزيتون تندفع مارة خارج النافذة. فلاحتان من صقلية تجلسان على أحد الجانبين وبينهما طفلة. يبدو أنهما الأم والجدّة. المرأتان تتنافسان على حشو فم الطفلة بالطعام. على الطرف المقابل (على مقعد النافذة) جلست أرملة جميلة تضع خماراً أسود سميكاً وترتدي ثوباً أسود مُحكماً يكشف عن تفاصيل قوامها الشهواني. العرق يتصبب منها بغزارة وعيناها منتفختان. المقعد الأوسط خال. ومقعد الرواق تشغله امرأة ضخمة الجثة لها شارب. عجزاها الضخمان يجعلانها تحتل نصف مركز المقعد الخالي. إنها تقرأ قصة رومانسية رائجة رُسمتْ شخصياتها على طراز عارضات الأزياء ويبدو الحوار أشبه بنفخات صغيرة من الدخان تحوم فوق رؤوسها.

هذه المجموعة الخماسية تقفز معاً بعض الوقت. والنافذة والمرأة البدينة يرين عليهما الصمت، والأم والجدّة تتكلمان مع الطفلة ومع بعضهما عن الطعام. ومن ثم يُصدر القطار صريراً ويتوقف في بلدة اسمها (ربما) كورليون. يلج العربة جندي يبدو واهناً، طويل اللحية، ولكنّ شعره الأشعث جميل، وذقنه ذات انبعاج، ويبدو شريراً قليلاً، وعينيه ناعستين، يتلفّت حوله بغطرسة، فيرى المقعد الخالي بين المرأة البدينة والنافذة، ويجلس، مع عدد من الاعتذارات الجذابة. إنه كتلة من اللحم، ولكنْ تفوح منه قليلاً رائحة كريهة بسبب الحرّ. وصرّ القطار استعداداً لمغادرة المحطة.

ثم لا نسمع إلا صوت حركة القطار القافزة وإيقاع حركة فخذيّ الجندي المنتظم وهما ترتطمان بالأرملة. طبعاً، هو أيضاً يرتطم بكفليّ المرأة البدينة - وهي تحاول أنْ تبتعد عنه - وهذا تصرف لا ضرورة له لأنه غير واعٍ لكفليها. إنه يراقب الصليب الذهبي الكبير الذي يتدلى بين ثديي الأرملة ويتأرجح جيئة وذهاباً داخل الفجوة العميقة. يضرب. يتوقف. يضرب. يضرب أحد الثديين الرطبين ومن ثم الآخر. ويبدو أنه يتردّد في أثناء ذلك وكأنه يُشلّ بين

مغناطيسيين نابذَين. الفجوة والبندول. يشعر أنه مُنوّم مغناطيسياً. إنها تحدق إلى خارج النافذة، تنظر إلى كل شجرة زيتون وكأنها لم تر شجرة زيتون في حياتها. ينهض بحركة خرقاء، وينحني نصف انحناء للسيدتين، ويكافح ليفتح النافذة. عندما يجلس من جديد تحفّ ذراعه مُصادفة ببطن الأرملة. تبدو أنها لا تلاحظ. يُريح يده اليسرى على المقعد بين فخذه وفخذها ويبدأ يمد أصابعه المرنة حول وتحت اللحم البض لفخذها. تستمر في التحديق إلى كل شجرة زيتون وكأنها الله الذي خلقها تواً ويتساءل ماذا يُسمّيها.

في تلك الأثناء السيدة الضخمة البدينة تعيد روايتها الرومانسية إلى داخل حقيبة من خيط البلاستيك بلون أخضر متقزّح مملوءة بجبن قويّ الرائحة وبموز مسودّ. الجدّة تلفّ أطرف سجق السلامي بورق صحف لزج. الأم تُلبِس الطفلة سترة وتمسح لها وجهها بمنديل، مُبلل بحب بلعاب الأم. ويصرّ القطار لكي يتوقف في بلدة اسمها (ربما) بريتزي، والسيدة البدينة، والأم، والجدّة، والطفلة يغادرن العربة. ثم يباشر القطار بالتحرّك من جديد. يبدأ الصليب الذهبي بالضرب، والتوقف، والضرب بين ثديي الأرملة الرطّبين، وتبدأ الأصابع بالانحناء تحت فخذَي الأرملة، وتستمر الأرملة بالتحديق إلى أشجار الزيتون. ثم تنزلق الأصابع بين فخذيها وتباعد بينهما، وتتحرك عالياً إلى الفجوة الوافرة اللحم بين الجوربين الأسودين الحالكين ورباطيهما، وتنزلق عالياً تحت الرباطين إلى الموقع العاري والرطب بين الساقين.

يدخل القطار **a galleria**، أو نفقاً، ووسط العتمة، تكتمل الرمزية.

هناك حذاء جندي عالي الرقبة مرتفع في الهواء وجدران النفق المُظلمة واهتزاز القطار الذي يُسبب النعاس والصفير العالي والطويل لدى خروجه منه أخيراً.

بلا أية كلمة، تترجل في بلدة اسمها، ربما، بيفونا. تجتاز الخطوط الحديدية، وهي تخطو بحذر عليها بحذائها الأسود الضيّق وجوربها الأسود

القائم. يُتابعها بتحديقه وكأنه آدم يتساءل ماذا يُسمّيها. ثم يقفز واقفاً ويندفع خارجاً من القطار ليلحق بها. في تلك اللحظة يمر قطار شحن على السكّة الموازية ويحجب عنه الرؤية. وبعد مرور خمس وعشرين عربة، تكون قد اختفت إلى الأبد».

هذا أحد سيناريوهات النكاح للنكاح.

إنه نكاح بلا سحّاب، في الواقع، *ليس* لأنَّ لدى الرجال الأوروبيين فتحات بنطلونات بأزرار وليس بسحّاب، وليس لأنَّ المُشاركين جذّابون بصورة مُدمّرة، بل لأنَّ الحادث يتصف بانضغاط وسرعة حلم ويبدو أنه متحرر من أي إحساس بالندم وبالذنب؛ لأنَّه ليس هناك أي حديث عن زوجها السابق أو خطيبها؛ لأنه بعيد عن العقلانية؛ لأنَّ الحديث يغيب تماماً. إنَّ النكاح للنكاح صِرف. إنه متحرر من الدوافع الخفيّة. ليست هناك لعبة استعراض القوة. الرجل لا «يأخذ» والمرأة لا «تعطي». لا أحد يُحاول أنْ يُديِّث زوجاً أو يذل زوجة. لا أحد يُحاول أنْ يُثبت أي شيء أو يحصل على أي شيء من أحد. النكاح للنكاح هو الأنقى. وهو أشد نُدرة من الحصان أحادي القرن[١٠]. وأنا لم أحظ بواحد. فكلما أقتربُ من ذلك، أكتشفُ أنه حصان ذو قرن من ورق معجّن، أو أنهما مهرّجان يرتديان زي أحادي قرن. صديقي الفلورنسي، أليساندرو، اقترب منه. لكنه كان مهرّجاً بزيّ أحادي قرن.

فتأمّل في هذا النسيج المُنمّق، حياتي.

---

١٠ - الحصان أحادي القرن: حيوان خرافي له جسم فرس وذيل أسد وقرن وحيد في جبينه. - المترجم

(٢)

«كل امرأة تعشق فاشياً».

كل امرأة تعشق فاشياً
الحذاء الطويل في الوجه
وقلب متوحش لمتوحش مثلك

• سيلفيا بلاث

عند الساعة السادسة حطّت طائرتنا في مطار فرانكفورت وولجنا غرفة استراحة ذات أرضية من المطاط، وعلى الرغم من أنّ كل شيء جديد ولامع، جعلني أفكر في معسكرات الموت وفي الترحيل. انتظرنا هناك مدة ساعة ريثما تتزود طائرة ٧٤٧ بالوقود. جلس المحللون النفسيون كلهم بجمود على كراسٍ حديثة من الزجاج المغزول صُفّتْ بصفوف صارمة: رمادية، صفراء، رمادية، صفراء، رمادية، صفراء... ونظام الألوان كان كئيباً ولا تُعادله إلا كآبة وجوههم.

كان معظمهم يحمل آلات تصوير غالية الثمن، وعلى الرغم من شعورهم الطويلة، ولحاهم النامية، ونظاراتهم ذات الحواف السلكيّة (وزوجات يرتدين ملابس الطبقة الوسطى شبه بوهيمية مقبولة: صندلاً من جلد البقر، ووشاحاً مكسيكياً، وحلياً فضيّة قروية)، كانوا يوحون بالاحترام. يمثّلون جوهر الإتقان الكئيب. وعندما أفكر في الأمر، أرى أنّ هذا هو مأخذي على غالبية المُحللين النفسيين. كانوا يتقبّلون

النظام الاجتماعي دون استفسار. آراؤهم السياسية اليسارية باعتدال، وتوقيعهم على عرائض السلام وتزيين مكاتبهم بنسخ مطبوعة من لوحة *غرنيكا*»[1] كانت مجرد تمويه. وعندما يتعلّق الأمر بالقضايا *الحاسمة*: العائلة، وضع المرأة، تدفُّق النقود من المريض إلى الطبيب، كانوا رجعيين. يخدمون أنفسهم بأنفسهم بصرامة كما كان الداروينيون الاجتماعيون يفعلون في العصر الفيكتوري.

آخر مُحلل نفسي لجأتُ إليه كان قد قال عندما حاولتُ أنْ أشرح مدى شعوري بأني مُضلِّلة لأنني دائماً أستخدم الغواية لأحصل على ما أريد من الرجال، «لكنَّ النساء هنَّ *دائماً* السلطة المستترة خلف العرش». وقُبيل قيامنا بالرحلة إلى فيينا ببضعة أسابيع فقط حصل الانفجار الأخير. على أية حال لم أكن أضع ثقتي الكاملة في كولنر، لكنني بقيتُ أتردد عليه مُفترِضةً أنَّ تلك هي مشكلتي *أنا*.

هتفتُ من مجلسي على الأريكة «ولكن ألا ترى أنَّ هذه هي *المشكلة!* إنَّ النساء يستخدمن الشهوة الجنسية للتلاعب بالرجال ويكظمن حنقهنّ ولا ينفتحن أبداً أو يكنّ صادقات –».

لكنَّ الدكتور كولنر لم يرَ فيما يُقال بغموض عن تحرير المرأة إلا مشكلة عصبية. وأيّ احتجاج ضد سلوك المرأة التقليدي يجب أنْ يكون ذا صلة «باشتهاء القضيب» و«عدوانياً». لقد ناقشنا هذه القضايا بخشونة ولفترة طويلة، لكنَّ نبرة عبارته حول «السلطة المستترة خلف العرش» هي التي بيَّنتْ لي أخيراً كم كنتُ مفتونة.

صرختُ «أنا لا *أؤمن* بما تؤمن، ولا *أحترم* معتقداتك ولا أحترمك *أنتَ* لأنك تعتنقها. إنْ كان باستطاعتك أنْ تُدلي بصدق بمثل هذا

---

١ – «غرنيكا»: لوحة بابلو بيكاسو الشهيرة التي تصور فظاعة الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦. – المترجم

التصريح عن السلطة المُستترة خلف العرش، فكيف يمكنكَ أنْ تفهم أي شيء عني أو عن الأشياء التي أكافحها؟ أنا لا *أريد* أنْ أعيش بالأشياء التي تعيشِ أنتَ بها. لا *أريد* ذلك النوع من الحياة ولا أفهم لماذا يجب أنْ يُحكم عليّ بمعاييرها. ولا أعتقد أيضاً أنكَ تفهم أي شيء عن المرأة».

أجاب «ربما *أنتِ* التي لا تفهمين معنى أنْ تكوني امرأة».

«أوه، يا إلهي. ها أنتَ الآن تلجأ إلى الخدعة الختاميّة. ألا ترى أنَّ الرجل لطالما عرَّفَ الأنوثة بأنها وسيلة لإبقاء المرأة مُنضبطة؟ ما الذي يدعوني إلى الإصغاء إليك *أنتَ* حول معنى أنْ أكون امرأة؟ هل أنت امرأة؟ لماذا لا أُصغي إلى *نفسي* ولو مرة واحدة؟ وإلى نساء أخريات؟ إنني أتحدث معهم. إنهن يحكين لي عن أنفسهم - وعدد كبير منهن يشعرن بالضبط كما أشعر - حتى وإنْ لم يكن مختوماً بختم ربة المنزل الصالحة حسب التحليل النفسي الأميركي».

خضنا في الموضوع مطولاً، وكلانا كان يصرخ. كرِهتُ نفسي لأنني بدوتُ أقرب شبهاً بنوع من الدعاية السياسية ولأنني أقحمتُ إلى مواقع مُستقطبة بسذاجة. علمتُ أنني أتجاهل الأشياء الدقيقة. علمتُ أنَّ هناك مُحللين نفسيين آخرين - طبيبي الألماني، على سبيل المثال - لا ينطوون على الكراهية المعتادة للنساء. لكني كنتُ أكره كولنر بسبب ضيق تفكيره ولأنه بدَّد وقتي ونقودي بكلامه التافه المبتذل عن مكانة المرأة. مَنْ يحتاج إلى هذا؟ يمكن الحصول عليه من أوراق الحظ في قطع الحلوى. ولا يُكلِّف أيضاً أربعين دولاراً مقابل خمسين دقيقة.

«إنْ كانت هذه حقيقة شعورك نحوي، فلم لا تتخلين عن العلاج الآن»، وبصق كولنر، «لماذا تبقين وتتلقّين هذا الهراء مني؟»».

هكذا كان كولنر بالضبط. عندما كان يشعر بالهجوم عليه، يُصبح سيئ الخلق ويرمي كلاماً بذيئاً ليبرهن على أنه يتبع الموضة.

غمغمتُ «هذه عقدة الرجل الصغير النموذجية».

«ماذا قلت؟».

«أوه لا شيء».

«هيا، أريد أنْ أسمع. أستطيع أنْ أتقبّله». يا له من محلل نفسي كبير وشجاع. «كنتُ فقط أفكر، يا دكتور كولنر، في أنك تمتلك ما يُعرَف في أدبيات التحليل النفسي بـ «عقدة الرجل الصغير». إنك تغدو مرحاً وتنطق كلمات بذيئة عندما يُشير أحدهم إلى أنكَ لست العليّ القدير. أعلم أنه صعب عليك أنْ تكون قصير القامة - ولكن لنفرض أنكَ خضعتَ للتحليل النفسي وأنَّ ذلك هوَّن عليك الأمر».

زمجر كولنر «إنَّ العصي والحجارة سوف تكسر عظامي لكنَّ الكلمات لن تؤلمني». كان قد تراجع إلى المرتبة الثانية. واعتقدَ أنه يُصبح شديد الذكاء.

«اسمع - لماذا في استطاعتك *أنتَ* أنْ ترميني بكلامك المبتذل التافه - ويُفترَض فيّ أنْ أكون *ممتنّة* لبصيرتك المتفوقة بل وأنْ *أدفع* نقوداً مقابل ذلك - ولكن لو أنني *أنا* التي فعلت ذلك لك - وهذا حقي طبعاً، بعد أنْ أعطيتك الكثير من المعلومات - لغضبتَ وبدأتَ تتكلّم كصبي حاقد في السابعة من عمره».

«أنا فقط قلت إنَّ عليكِ أن توقفي العلاج إنْ كان هذا هو شعورك نحوي. غادري. اخرجي. اصفقي الباب. قولي لي أنْ أذهب إلى الجحيم».

«وأعترفُ بأنَّ العامين الفائتين وآلاف الدولارات التي دفعتُها لك كانت نتيجتها الفشل التامّ؟ أعني يمكنكَ أنْ تدوّن هذا بسهولة - أما أنا فأتعرَّض لخطر أكبر بتضليل نفسي باعتقادي أنَّ هناك شيئاً إيجابياً يجري هنا».

قال كولنر: «يمكنكِ أنْ تفهمي كل شيء مع مُحللك النفسي التالي. يمكنك أنْ تدركي الخطأ المُرتكب من وجهة نظرك...».

«وجهة نظري! ألا تفهم السبب الذي يجعل العديد من الناس يسأمون اللجوء إلى المحللين النفسيين؟ إنه خطؤكم أنتم أيها المُحللون الأغبياء. إنكم تديرون العملية وكأنها مأزق لا مخرج منه. إنَّ المريض يتردد عليكم ويتردَّد ويتردد ويدفع لكم النقود وعندما تعجزون عن فهم ما يجري أو عندما تدركون أنكم عاجزون عن مساعدة المريض، تقومون ببساطة بزيادة عدد سني المعالجة أو تطلبون منهم أنْ يلجؤوا إلى طبيب *آخر* ليفهم الخطأ الذي ارتكبه المُحلل *الأول*. ألا يُفاجئك أنت نفسك عبث الأمر؟».

«إنَّ عبث جلوسي هنا وإصغائي إلى هذا التقريع المُطوَّل يُفاجئني حتماً. لذلك إنَّ كل ما باستطاعتي أنْ أفعل هو أنْ أكرِّر إلى ما لا نهاية ما قلته من قبل. فإذا لم يعجبك، فلماذا لا تغادرين هذا المكان؟».

نهضتُ عن الأريكة وكأنني في حلم (لم أكنْ أصدِّق أنَّ باستطاعتي أنْ أفعل ذلك - تُرى كم عام مضى وأنا أستلقي عليها؟)، والتقطتُ كتابي الجيب، ومشيت (كلا، لا أستطيع أن أقول بالضبط إني «متهادية» - وإنْ كنتُ أتمنى أنْ أفعل) وخرجت من الباب. أغلقته برفق. لم أقُمْ بصفقه كما فعلت نورا بحركتها التقليدية[٢] لكي أختصر التأثير. وداعاً كولنر. في المصعد كدت لبرهة أبكي.

بعد أنْ مشيت مسافة قصيرة في جادة ماديسون شعرت بالحبور. لا مزيد من جلسات الساعة الثامنة! لا مزيد من التساؤل إنْ كانت

٢ - الإشارة هنا إلى شخصية نورا في مسرحية «بيت الدمية» لهنريك إبسن، في المشهد الأخير عندما تخرج نورا من منزل زوجها إلى الأبد وتصفق الباب خلفها لتواجه حريتها المُطلقة. - المترجم

تفيد وأنا أُحرّر الشيك الضخم في كل شهر! لا مزيد من الجِدال مع كولنر كقائد حركة! لقد تحررت! وتخيّلي كل تلك النقود التي لم أعد بحاجة إلى إنفاقها! وولجت أحد محال بيع الأحذية وأنفقت على الفور ٤٠ دولاراً على صندل أبيض اللون ذي سلسلة ذهبية. لقد منحني إحساساً طيباً كأي خمسين دقيقة أمضيتها مع كولنر. إذن، لم أكن قد تحرّرتُ حقاً (كان لا يزال أمامي أنْ أريح نفسي بالتسوّق)، ولكن على الأقلّ تحررتُ من كولنر. كانت بداية على الأقلّ.

كنتُ أنتعل الصندل في أثناء رحلة الطيران إلى فيينا، ونظرت نحو الأسفل إليه وشعرت كأنني عدتُ على الفور إلى الطائرة. هل ما حمى الطائرة من التحطّم هو اتّخاذي الخطوة الأولى بالقدم اليمنى أم باليُسرى؟ كيف أمكنني أنْ أحمي الطائرة من التحطّم إنْ كنتُ لا أتذكّر؟ تمتمتُ «أمي». دائماً أتمتم باسم أمي عندما ينتابني الخوف. الأمر الغريب هو أنني لا أخاطب أمي بكلمة «أمي»، ولم أفعل ذلك أبداً. لقد أسمتني إيزادورا زلدا، لكنني حاولتُ ألا أستخدم اسم زلدا أبداً. (أعتقد أنها فكرتْ أيضاً في اسم أولمبيا، على اسم الإلهة اليونانية، وجوستين، تيمناً بساد[٣]). ومقابل هذا الدّين الذي حملته طوال حياتي، أسميتها جود. اسمها الحقيقي هو جوديث. لا أحد غير أختي الأصغر سناً كان يُخاطبها بكلمة أمي.

فيينا. الاسم بحدّ ذاته يُشبه رقصة فالس. لكنني لم أُحبّ المكان أبداً. لقد بدا لي ميتاً. مُحنّطاً.

وصلنا عند الساعة التاسعة صباحاً – بالضبط في وقت فتح المطار أبوابه. كان مكتوباً عليه WILKOMMEN IN WIEN (أهلاً بكم

٣ – المركيز دو ساد الروائي الفرنسي لديه رواية عنوانها «**جوستين**». – المترجم

في فيينا). اندفعنا خلال مكتب الجمارك ونحن نجر أمتعتنا ونشعر بالخَدَر بسبب قلّة النوم.

بدا المطار نظيفاً ولامعاً. تذكّرت مستوى الفوضى، والقذارة، والفوضى العارمة التي تعوَّد عليها أهالي نيويورك. لطالما كانت العودة إلى أوروبا بمثابة الصدمة. بدت الشوارع نظيفة بصورة خارقة؛ والمتنزهات ممتلئة بصورة استثنائية بالمقاعد غير المُخرَّبة، والنوافير، وشجيرات الورد. ومساكب الأزهار العامة بدت مُتسّقة بطريقة غير طبيعية. حتى الهواتف العامة تعمل.

ألقى موظفو الجمارك نظرة سريعة على حقائبنا، وفي أقلّ من عشرين دقيقة كنا نستقلّ حافلة خصّصتها لنا أكاديمية فيينا للتحليل النفسي. ركبنا الحافلة يحدونا أمل ساذج في الوصول إلى الفندق في غضون بضع دقائق لكي ننام. لم نكن نعلم أنَّ الحافلة سوف تتلوى في أرجاء شوارع فيينا وتوقفتْ عند سبعة فنادق قبل أنْ نصل إلى فندقنا بعد ذلك بحوالي ثلاث ساعات.

كان الوصول إلى الفندق أشبه بأحد تلك الأحلام التي عليك أنْ تصل خلالها إلى مكان ما قبل أنْ يحدث أمر فظيع لكنَّ سيارتك، لسبب غير مفهوم، تتعطّل أو تسير نحو الخلف. على اي حال كنت أشعر بدوار وكنت حانقة وبدا أنَّ كل شيء يُثير غضبي في ذلك الصباح.

كان ذلك يشبه الخوف الذي طالما انتابني لدى عودتي إلى ألمانيا. لقد عشت في هايدلبرغ أكثر من أيّة مدينة أخرى ما عدا نيويورك، لذلك كانت ألمانيا (والنمسا، أيضاً) أشبه بوطن آخر بالنسبة إليّ. كنتُ أتكلّم اللغة بكل ارتياح - بارتياح أكبر مما أتكلّم أية لغة درستها في المدرسة - وكنتُ على اطّلاع على أنواع الطعام، والنبيذ، وأسماء الماركات، وأوقات إغلاق المحال التجارية، والملابس، والموسيقى

الشعبية، والتعبيرات العامية، وأساليب السلوك... كل ذلك وكانني أمضيت فترة طفولتي في ألمانيا، أو كأنَّ أبويّ كانا ألمانيين. لكنني وُلدتُ في عام ١٩٤٢ ولو أنَّ أبواي كانا من أصل يهودي ألماني - وليس أميركي - لولدتُ (وربما مُتُّ) في معسكر اعتقال - على الرغم من شعري الأشقر، وعيني الزرقاوين، والأنف القروي البولندي. لم أستطع أنْ أنسى هذا أيضاً. كانت ألمانيا أشبه بزوجة أب: مألوفة بصورة مُطلقة، مكروهة بصورة مُطلقة. بل مكروهة، في الواقع، أكثر كونها مألوفة كثيراً.

أطللتُ من نافذة الحافلة ونظرت إلى السيدات العجائز المتوردات الوجوه بأحذيتهن «الضخمة» ذات لون البيج والقبعات القروية الخرقاء. نظرتُ إلى سيقانهن الضخمة ومؤخراتهن الضخمة. كرهتهنّ. نظرتُ إلى مُلصق إعلان تجاري يقول:

SEI GUT ZU DEINEM MAGEN

(ترفّق بمعدتك)

وكرهت الألمان لأنهم دائماً يفكرون في معدهم اللعينة، وفي *Gesundheit* (صحتهم) - وكأنهم هم الذين اخترعوا الصحة، والأساليب الصحيّة، ووسواس المرض. كرهت هوسهم المتعصب بوهم النظافة. إنه وهْمٌ، بالمناسبة، لأنَّ الألمان في الحقيقة ليسوا نظيفين. الستائر البيضاء التي تعجّ بالقمل، واللُحف المُدلّاة من النوافذ في الهواء، وربات المنازل اللائي يكشطن الأرصفة المُحيطة بواجهات منازلهن، وأصحاب الدكاكين الذين يُنظفون واجهات محلاتهم، كل هذا يُشكل جزءاً من واجهة مُعدّة بعناية لإرهاب الأجانب بطابع ألمانيا الصحّي العدائيّ. ولكن حالما تلج أي مرحاض ألمانيّ تجد شيئاً مُثبّتاً في الجدار لا يُشبه أي مرحاض آخر في العالم: له منصّة صغيرة

ظريفة من الخزف لكي يسقط الخراء بحيث تتمكّن من تفحّصه قبل أنْ ينجرف داخل دوامة الماء، وفي الواقع، لا يوجد هناك ماء إلا بعد أنْ تجعله يتدفّق. ونتيجة لذلك تفوح من الخراء الألماني رائحة هي الأقوى من أي شيء يفوح من مراحيض العالم كله. (إنني أقول هذا لأنني أجوب العالم موسمياً) ثم هناك الخرقة القذرة التي هي المنشفة العامة، تتدلّى على مغسلة صغيرة لا تتألّف إلا من صنبور للمياه الباردة (لكي تحصل على قطرات من المياه الباردة على يدك اليُمنى - أو كائناً ما كانت اليد التي تصادف أنكَ استعملت).

عندما أسافر إلى أوروبا أفكّر كثيراً في المراحيض. (إلى هذه الدرجة شوّش الألمان المجانين تفكيري) بل إنني في إحدى المرات حاولتُ أنْ أصنّف الناس على أساس مراحيضهم.

«تاريخ العالم من خلال المراحيض» (هذا ما كتبتُ بتفاؤل في أعلى صفحة فارغة في دفتري) «قصيدة ملحمية؟؟؟».

البريطاني:

فوطة مرحاض ورقيّة بريطانية. هي أسلوب في الحياة. ملبّسة. ترفض أنْ تمتص، ناعمة، أو ملتوية (متماسكة). غالباً من ممتلكات الحكومة. في دولة الرفاهية المُطلقة حتى الأحرف الأولى تُكتب مع دعاية.

المرحاض البريطاني بوصفه الملاذ الأخير للنظام الاستعماريّ. الماء ينهمر من فوق الرؤوس كشلالات بحيرة فيكتوريا، وأنت مُستكشِف. الرذاذ على وجهك. للحظة وجيزة (وأنت تدفق الماء) تهيمن بريطانيا على الأمواج من جديد.

سلسلة دفق الماء أنيقة. كحبل الجرس في منزل فخم (مفتوح للجمهور، مقابل قروش، في أيام الآحاد).

الألماني:

المراحيض الألمانية تُحافظ على التمييز الطبقي. في عربات الدرجة الثالثة: أوراق بُنيّة وخشنة. في الدرجة الأولى: ورق أبيض. يُسمّى *Spezial Krepp* «خراء خاص» (لا تحتاج إلى ترجمة). لكنّ المرحاض الألماني فريد بسبب وجود ما يشبه خشبة مسرح صغيرة (ما الدنيا إلا..) يسقط عليها الخراء. وهذا يُتيحُ لكَ أنْ تُلقي نظرة طويلة، أنْ تنتقي من بين المرشحين السياسيين، وتفكر في الأشياء التي ستقولها لطبيبك النفسي. أيضاً هو جيد لعمال مناجم الألماس وهم يُحاولون تهريب بعض الدُّرر داخل منشفة. المراحيض الألمانية هي حقاً المفتاح إلى ممارسات الرايخ الثالث المرعبة. إنَّ الذين يستطيعون أنْ يبنوا مراحيض كتلك قادرون على فعل أي شيء.

الإيطالي:

أحياناً تستطيع أنْ تقرأ شذرات من صحيفة *Corriere della Sera* قبل أنْ تمسح طيزك بالأخبار. ولكن في العموم المراحيض تتدفق بسرعة هنا ويختفي الخراء قبل أنْ تقفز واقفاً لتستدير وتُبدي إعجابك به بوقتٍ طويل. من هنا جاء الفن الإيطالي. الألمان يُبدون إعجابهم بخرائهم الخاص. أما الإيطاليون، بما أنهم لا يستطيعون أنْ يفعلوا هذا، يُبدعون تماثيل ولوحات.

الفرنسي:

الفنادق القديمة في باريس مزوَّدة بموطئ للقدمَين ضخمين من الحديد على جانبيّ حفرة قذرة. تُزرَع أشجار البرتقال في فيرساي لكي تُغطي على رائحة القذارة. Il est defendu de faire pipi dans la chamber du Roi (ممنوع التبوّل في غرفة الملك). وأضواء مراحيض باريس لا تُنير إلا بعد أنْ تُغلق الباب.

إنني لا أفهم بالضبط الفلسفة والأدب الفرنسيين إزاء المدخل الفرنسي لكلمة merde (خراء). إنَّ تفكير الفرنسيين مُجرد جداً - ولكن باستطاعتهم أيضاً أنْ يُنتجوا شاعراً استثنائياً كبونج[٤] Ponge، الذي يكتب قصيدة ملحمية على قطعة صابون[٥]. فما صِلة هذا بالمراحيض الفرنسية؟

الياباني:

وضعية القرفصاء حقيقةٌ أساسيّة في الحياة في الشرق. حوض المرحاض عميق في الأرض. وأزهار مُنسّقة في الخلف. إنَّ لهذا صِلة بفلسفة زِنْ. (قارن هذا بسوزوكي).

عندما وصلنا أخيراً إلى الفندق كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ووجدنا أنه قد خُصِّصَتْ لنا غرفة صغيرة تقع في أعلى المبنى. أردتُ أنْ أُبدي اعتراضي، لكنَّ بينيت كان أشدّ اهتماماً بأخذ قسط من الراحة. وهكذا أرخينا الستائر في وجه شمس الظهيرة، ونزعنا ملابسنا وارتمينا على سريرينا حتى من دون أنْ نفتح حقائبنا. وعلى رُغم غرابة المكان، استغرق بينيت في الحال في النوم، ورحتُ أتقلّب في السرير وأتصارع مع لحاف الريش إلى أنْ أخذتُ أغفو على فترات وسط أحلام بالنازيين وبطائرات تتحطّم. بقيتُ يقظة وقلبي يخفق بقوة وأسناني تصطك. كان الخوف المعتاد الذي ينتابني في اليوم الأول

٤ - فرانسيس جان غاستون ألفريد بونج (١٨٩٩ - ١٩٨٨): كاتب مقالات وشاعر فرنسي. تأثّر بالسُريالية وطوّر شكلاً من الشِعر النثري يصف فيه الأشياء اليومية. - المترجم

٥ - يقول في هذه القصيدة: «... والآن، عزيزي القارئ، نقدّم من أجل مرحاضك المثقّف، قطعة صابون صغيرة. حسنة الصُنع، ونضمن لك أنها ستكون كافية، دعنا نحمل هذا الحجر المسحور...»، وجدير بالذكر أنَّ الصابون يحتل مكانة مركزية في أشعار بونج. - المترجم

الذي أقضيه خارج الوطن، لكنه كان أسوأ بسبب عودتنا إلى ألمانيا. وكنتُ قد بدأتُ تواً أتمنى لو أني لم أعُدْ.

عند حوالي الساعة الثالثة والنصف نهضنا ومارسنا الجنس بفتور على أحد السريرَين. لكني بقيت أشعر كأنني أحلم وبقيت أتظاهر بأنَّ بينيت هو رجلٌ آخر. ولكن مَنْ؟ لم أتمكن من رسم صورة واضحة له. لم أتمكن قط. مَنْ كان ذلك الشبح الذي لازمَ حياتي؟ أهو والدي؟ أم طبيبي النفسي الألماني؟ أم النكاح الصِّرف؟ لماذا يرفض وجهه دائماً أنْ يتَّضح؟

بحلول الساعة الرابعة، كنا على متن *Strassenbahn* (الحافلة) متوجهين إلى جامعة فيينا لكي نسجّل للاشتراك في المؤتمر. كان النهار صافياً والسماء زرقاء مع بعض السُّحب البيضاء الرقيقة جداً. كنتُ أسير في الشوارع بصندلي ذي الكعب العالي، أضمر كُراهيتي للألمان، ولبينيت لأنه ليس شخصاً غريباً على متن قطار، ولأنه لا يبتسم، ولأنه بارع جداً في المُضاجعة لكنه لا يُقبّلني أبداً، ولأنه يُحدد لي مواعيد لزيارة الطبيب النفسي ويُحضر لي المواد والأدوات الإلكترونية، لكنه أبداً لم يشترِ لي أزهاراً؛ ولا يتحدث معي؛ ولم يعُد يعصر مؤخرتي؛ ولم يعد يباشرني جنسياً، أبداً. على أية حال ماذا نتوقع بعد مرور خمس سنوات من الزواج؟ قهقهة مكبوتة في الظلام؟ عصر المؤخِرة؟ لعق الفرج؟ حسن على الأقلّ أحياناً. ماذا تردن أيتها النساء؟ لقد فكر فرويد في هذا عميقاً ولم يخرج بالكثير. كيف تردن أيتها النساء أنْ تُضاجعن؟ هل ترغبن في أنْ يُباشركن الرجل في أثناء الدورة الشهرية؟ أم في رجل يُقبّلكنّ قبل أنْ تنظفن أسنانكنّ في الصباح ولا يقول **تفووه**؟ أم في الرجل الذي يضحك معكنّ بعد أنْ ينطفئ الضوء؟

قال فرويد «إنـه القضيب المُنتصب»، مُفترِضاً أنَّ **هوسهم** هو **هوسكنّ**.

قال أحدهم عن فرويد ذات مرة «إنه مهووس بالقضيب». كان يعتقد أنَّ الشمس تدور حول القضيب. وحول الابنة، أيضاً.

ومن يستطع أنْ يحتجّ؟ قبل أنْ تبدأ النساء بتأليف الكتب لم يكن هناك إلا جانب واحد للقصة. وعلى امتداد التاريخ كله، كانت الكتب تُكتَب بالسائل المنوي، وليس بدم الحيض. وقبل أنْ أبلغ الواحد والعشرين من العمر، كنتُ أقيس عدد رعشاتي الجنسية بعدد رعشات الليدي تشاترلي وتساءلتُ عن موطن الخطأ فيّ. هل خطر في بالي ولو مرة أنَّ الليدي تشاترلي إنما كانت في الحقيقة رجلاً؟ إنها في الحقيقة هي د.هـ. لورنس نفسه؟

الهوس بالقضيب. إنَّها مشكلة الرجال وأيضاً النساء. وقد وجدتْ صديقة لي مؤخراً في ورقة الحظ التي تلفّ قطعة الحلوى القول:

إنَّ مشكلة الرجال هي الرجال،

ومشكلة النساء، هي الرجال.

ذات مرة أخبرتُ بينيت، فقط لكي أُثير إعجابه، عن مراسم الانتساب إلى فرقة ملائكة الجحيم[٦]. عن الجزء الذي يتوجب فيه على المنتسب أنْ يُباشر زوجته جنسياً في أثناء مرورها بدورتها الشهرية وتحت سمع وبصر باقي المنتسبين.

لم يفُه بينيت بأية كلمة.

قلت له مُستفزّة «حسن، أليس هذا مُثيراً للاهتمام؟ أليس شيئاً مُسلياً؟».

٦ - «ملائكة الجحيم»: عصابة من راكبي الدراجات النارية كالتي ظهرت في حقبة خمسينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة وتعتنق أفكاراً نازية. كانت معروفة بشعائر الانتساب إليها الخاصة، والسلوك المتمرّد، وما إلى ذلك. - المترجم

ظل يلزم الصمت.

وواصلت الاستفزاز.

أخيراً قال «لِمَ لا تشترين كلباً صغيراً، وتدربينه».

قلت: «يجبَ أنْ أبلِّغ عنك الطبيب النفسي في نيويورك».

المبنى الطبي في جامعة فيينا مُدجَّج بالأعمدة، بارد، أشبه بالكهف. شققنا طريقنا مرتقين دَرَجاً طويلاً. في الطوابق العليا كان هناك عدد كبير من الأطباء النفسيين يدورون حول طاولة التسجيل.

كانت هناك موظفة نمساوية تضع نظارات مُضحكة وترتدي ثوب درندل[٧] أحمر اللونِ تُسبب الإزعاج للجميع بسبب تسجيل أوراق الاعتماد. كانت تتكلَّم بإنكليزية مدرسية مُتعبة. كنتُ متأكّدة من أنها زوجة أحد المُرشحين النمساويين. لم يكُن سنها يتجاوز الخامسة والعشرين لكنها تبتسم بكل ما تتصف به Frau Doktor (طبيب أنثى) من اعتداد بالنفس.

عرضتُ عليها رسالة مجلة *«فويور»*، لكنها رفضت أنْ تسجلني.

«لماذا؟».

قالت ساخرة: «لأننا لسنا مُخوّلين بالسماح للصحافة بالدخول. أنا *شديدة* الأسف».

«سأراهن على هذا».

شعرت بالغضب يستجمع زخمه داخل رأسي كبخار داخل طنجرة الضغط. قلت في نفسي، عاهرة نازيّة، ألمانيّة ملعونة.

رماني بينيت بنظرة مفادها: *اهدئي*. كان يكره أنْ يراني أُبدي غضبي من الناس علناً. ولكن محاولته لردعي زادت من حنقي.

٧ - ثوب درندل: ثوب نسائي ذو تنورة لها طيات والجزء العلويّ يثبّت تثبيتاً. ترتديه القرويات في النمسا. - المترجم

«اسمعي - إذا لم تسمحي لي بالدخول فسوف أكتب عن هذا، ايضاً». كنتُ أعلم أنه حالما تبدأ الاجتماعات فسوف يُصبح بإمكاني أنْ أدخل من دون بطاقة تعريف - لذلك لم يكن الأمر هاماً. ثم إنني لم أكن مهتمة حقاً بكتابة تلك المقالة. لقد كنت جاسوسة من العالم الخارجي. جاسوسة في مركز التحليل النفسي.

«أنا واثقة من أنكِ لا تريدين مني أنْ أكتب عن خشية المُحللين النفسيين من أنْ يُسمَح للكتّاب بحضور اجتماعاتهم، أليس كذلك؟».

راحت العاهرة النمساوية تكرر قائلة «أنا شديدة الأسف. ولكنني حقاً غير مُخوّلة بالسماح لكِ بالدخول...».

«أعتقد أنكِ فقط تطيعين الأوامر».

قالت: «لدي تعليمات عليّ تطبيقها».

«أنتِ وأيخمَنْ».

«عفواً؟»، لم تسمعني.

لكنّ شخصاً آخر سمِع. التفتُّ فرأيتُ ذلك الإنكليزي الأشقر، ذا الشعر الأشعث ويبرز غليون من وجهه.

قال: «لو أنكِ تكفّين عن الإحساس بجنون الاضطهاد للحظة وتستخدمين فتنتكِ بدل ذلك كقوة رئيسة، فأنا واثق من أنه لن يتمكن أحد من مقاومة سحرك». كان يبتسم لي كما يبتسم رجلٌ يعتليكِ بعد الانتهاء من مُضاجعة جيدة استثنائية.

قلت: «لابد أنك طبيب نفسي. لا أحد غير الطبيب النفسي يستخدم عبارة جنون الاضطهاد بطلاقة كما فعلت».

رسم تكشيراً.

كان يرتدي كورتا[٨] هندية من القطن الأبيض الرقيق جداً حتى

---

٨ - كورتا: قميص طويل فضفاض وبلا ياقة يرتديه الهنود عادة. - المترجم

إني تمكنتُ من رؤية شعر صدره المُجعّد الأشقر المائل إلى الحُمرة من تحته.

قال: «عاهرة وقحة»، وقبض بملء قبضة يده على مؤخرتي وعصرها مطوّلاً عابثاً.

قال: «لديك مؤخرة لذيذة. تعاليّ، سأعمل على أنْ تحضري المؤتمر».

طبعاً اتّضح أنه لا يمتلك أية صلاحية على الإطلاق، لكنني لم أعرف ذلك إلا لاحقاً. كان يتحرك في المكان بنشاط وبأسلوب رسمي حتى إنَّ المرء يظن أنه القيّم على المؤتمر كله. وقد كان فعلاً رئيس مجلس أحد المؤتمرات التمهيدية – ولكن لم يكن لديه أي شيء يقوله عن الصحافة. ومَنْ يأبه بالصحافة، أصلاً؟ إنَّ كل ما أردتُ منه هو أنْ يضغط[9] مؤخرتي مرة أخرى. كنتُ مستعدة للحاق به إلى أي مكان. إلى داشاو، أو أوشفيتز[10] أو إلى أي مكان. نظرت باتّجاه طاولة التسجيل فرأيتُ بينيت يتحدث بجديّة مع مُحلل نفسي آخر من نيويورك.

كان الإنكليزي قد شقّ طريقه بين الحشد وأخذ يستجوب الفتاة بقسوة لصالحي. ثم عاد أدراجه إليّ.

«اسمعي – إنها تقول إنَّ عليكِ أنْ تنتظري وتتحدثي مع رودني ليمان. إنه صديق لي من لندن ويجب أنْ يحضر في أية لحظة فلماذا لا نتمشّى إلى المقهى ونشرب البيرة ونبحث عنه؟».

---

٩ – المؤلفة تتلاعب بكلمة Press التي لها أكثر من معنى، من بين معانيها «صحافة»، وأيضاً صيغة الفعل «يضغط». – المترجم

١٠ – داشاو وأوشفيتز: هما من المعتقلات النازية أيام الحرب العالمية الثانية وقد ارتكبت فيها مجازر بحق اليهود. – المترجم

قلت: «فقط دعني أُخبر زوجي». هذه العبارة أصبحت كاللازمة خلال اليومين التاليين.

بدا سعيداً لأنه علِم أنَّ لدي زوجاً. على الأقلّ لم يبدُ آسفاً على ذلك.

طلبتُ من بينيت أنْ يجتاز الشارع وينضم إلينا في المقهى (آملة، طبعاً، ألا يُسرِع في المجيء) فلوَّح لي بيده رافضاً. كان منهمكاً في الحديث عن التحول المُضاد.

تبعتُ الدخان المنبعث من غليون الإنكليزي إلى أسفل الدَّرَج وعبر الشارع. كان يستمر في نفث الدخان كأنه قطار، وقد بدا أنَّ الغليون يحثّه على التقدُّم. وأسعدني أنْ أكون تابعته.

جلسنا في المقهى، مع ربع لتر من النبيذ الأبيض لأجلي وبيرة لأجله. كان ينتعل صندلاً هندياً تظهر منه أظافر قدمَين قذرة. لم يبدُ أبداً أنه طبيب نفسي.

«من أين أنتِ؟».

«من نيويورك».

«أعني أصولك».

«لماذا تريد أنْ تعرف؟».

«لماذا تراوغين بدل أن تجيبي عن سؤالي؟».

«لستُ مُضطرة إلى الإجابة عن سؤالك».

«أعلم». وطفق ينفث دخان غليونه ويُرسل نظره بعيداً في المدى. تغضّنت زاويتا عينيه إلى مائة خط رفيع وتلوّى فمه نحو الأعلى فيما يُشبه الابتسام حتى وهو لا يبتسم. كنتُ أعلم أني سأوافق على أي شيء يطلبه. قلقي الوحيد كان ألا يُسرع في ذلك الطلب.

«إنني من أصل يهودي بولوني من جهة، وروسي من جهة أخرى...».

«هذا ما ظننت. إنكِ *تبدين* يهودية».

«وأنتَ تبدو كإنكليزي مُعادٍ للساميّة».

«أوه لا تبالغي - أنا *أحب* اليهود...».

«إنَّ بعضاً من أصدقائك الحميمين...».

«كل ما في الأمر أنَّ النساء اليهوديات بارعات جداً في السرير».

لم يخطر على بالي أيُّ ردّ حاذق أُدلي به. قلت في نفسي، يا إلهي، ها هو ذا. الـ ن. ص. النكاح الصرف بامتياز. فماذا ننتظر بحق الله؟ حتماً ليس رودني ليمان.

قال: «وأحب أيضاً الصينيين، ولديك زوج يبدو ظريفاً».

«ربما يجب أنْ أجمعكَ به. فقبل أي شيء، أنتما الاثنان طبيبان نفسيان. سوف تجمع بينكما قواسم مُشتركة كثيرة. يمكنكما أنْ تمارسا اللواط تحت صورة فرويد».

قال: «قحبة. في الواقع، تُعجبني أكثر الفتيات الصينيات - ولكن فتيات نيويورك اليهوديات اللواتي يبرعن في الشجار أجدهن أيضاً جذّابات جداً. إنَّ أية امرأة تستطيع أنْ تثور كما فعلتِ عند طاولة التسجيل تبدو واعدة جداً».

«شكراً لك». على الأقلّ أستطيع أنْ أُميِّز مديحاً عندما أحصل على واحد. كان سروالي التحتي قد أضحى رطباً إلى درجة أنْ يمسح شوارع فيينا كلها.

قلتُ، مُحاولة أنْ أعيد دفّة الحديث إلى منطقة حياديّة أكثر، «أنتَ الشخص الوحيد الذي قابلته ورأى أني أبدو يهودية». (يكفي حديثاً

عن الجنس. فلنعُد إلى التعصُّب الأعمى). في الواقع لقد جعلني أشعر بالإثارة اعتقادُه أني أبدو يهودية. ويعلم الله وحده لماذا.

«اسمعي – لستُ أنا المُعادي للسامية، بل أنتِ. لماذا تعتقدين أنكِ لا تبدين يهوديّة؟».

«لأنَّ الناس دائماً يعتقدون أني ألمانيّة – وقد أمضيت نصف حياتي أصغي إلى قصص مُعادية للسامية حكاها أناسٌ افترضوا أني لستُ –».

قال: «هذا ما أكره في اليهود. إنهم الوحيدون المسموح لهم بإلقاء نكات عن مُعاداة الساميّة. وهذا شيء غير مُنصِف على الإطلاق. لماذا أحرَم من متعة الفكاهة اليهودية الماسوشية لمجرّد أنني لستُ يهودياً (a goy?)».

بدا غير يهودي بصورة مُطلقة وهو يقول إنه ليس يهودياً (a goy).

«أنتَ لا تنطقها بصورة صحيحة».

«أيُّها؟ كلمة goy؟».

«أوه، ليست هذه، بل كلمة *مازوشية*»، (كان قد نطق المقطع الأول بحرف السين، كما يفعل الإنكليز). قلت: «عليك أنْ تنتبه إلى لفظ الكلمات ذات الأصل اليبدي[١١] ككلمة *مازوشي*. نحن معشر اليهود حسّاسون جداً».

طلبنا جولة أخرى من المشروبات. ظلّ يتلفّت حوله متظاهراً بأنه يبحث عن رودني ليمان وخرجت بـ ***spiel*** (خدعة) بارعة جداً حول المقال الذي أنوي أنْ أكتب. وكدتُ أقتنع من جديد. وهذه إحدى مشاكلي الكبرى. وعندما أباشر بإقناع الآخرين، فإني لا أقنعهم دائماً لكنني أقنع نفسي على الدوام. إنني فاشلة تماماً في التملّق.

١١ – اليديّة: إحدى اللهجات الألمانية التي تكثر فيها الكلمات العبرية.

قال، وهو يبتسم كأنه أنجز للتو مُضاجعة، «إنَّ لك لكنة أميركية واضحة».

«ليست لدي لكنة – *أنت* الذي –».

قال يُحاكيني ساخراً «لَكْ – نة».

«إيري فيك».

«فكرة لا بأس بها».

«ماذا قلتَ اسمك؟» (وهذه، كما ربما تتذكَّر، عبارة ترد في ذروة مسرحية *«مس جوليا»* لسترينذبر غ).

قال «أدريان غودلَفْ». وهنا استدار فجأة فوقع كأس البيرة ولوّثني تماماً.

وراح يُردِّد: «أنا شديد الأسف» ويمسح الطاولة بمنديله القذر، وبيده، وأخيراً بقميصه الهندي – الذي خلعه، وكوّمه وأعطانيه لأمسح به ثوبي. يا للشهامة! لكنني بقيتُ جالسة أنظر إلى الشعر الأشقر المُجعّد الذي يُغطي صدره وأشعر بالبيرة تدغدغ ما بين ساقيّ.

قلت «لا بأس حقاً». وهذا غير صحيح. لأني أحببتُ ذلك.

حب جيد، كل شيء جيد، بار جيد، جسم جيد، طفل جيد، أمسية جيدة، شخص جيد، فورد جيد، لحم جيد، لعبة جيدة، غزال جيد، ألوان جيدة، فعل الخير، جيد صغير، ابن جيد، حالة جيدة، سرعة جيدة، شجرة جيدة، نبيذ جيد[١٢].

لا يمكن أنْ يكون اسمك إيزادورا وايت وينغ (اسمي الأصلي

---

١٢ – في الحقيقة إنَّ هذه الفقرة ينبغي ألا تُترجَم، لأنها هذر وتداعيات لا واعية من الكاتبة بكلمات أساسها كلمة good، أي جيد أو طيب أو صالح... لكي تعبّر عما يعتريها من نشوة حسّية. ولهذا فإنَّ معاني هذه الكلمات غير هام، لأن الأساس هو تكرار كلمة good. – المترجم

فايس - لكنَّ أبي بيَّضه وجعله «وايت» (أبيض) بُعَيد مولدي) من دون أنْ تقضي جزءاً كبيراً من حياتك وأنتِ تفكرين في الأسماء.

أدريان غودْلَفْ. كانت والدته قد أسمته هادريان[١٣] ومن ثم أجبرها والده على تغييره إلى أدريان لأنه يبدو «إنكليزياً أكثر». وكان والده بارعاً في الظهور بمظهر الإنكليز.

قال أدريـان عن أمه وأبيه «إنهما ينتميان إلى الطبقة الإنكليزية الوسطى بكل معنى الكلمة. جدير بكِ أنْ تكرهيهما. لقد أمضيا حياتهما يُحاولان معاً أنْ يُبقيا أحشاءهما مفتوحة باسم الملكة. وكانا فاشلين أيضاً. وكان ثقباهما دائماً مسدودين.

كان يضرط بانتظام وبضجيج عالٍ. كشَّر. رميته بنظرة ذهول تام.

قلت ساخرة: «أنتَ حقاً رجل بدائي، وطبيعي».

لكنَّ أدريان بقيَ مُكشِّراً. كان كلانا يعلم أنني أخيراً قابلت مَنْ يقوم بنكاحٍ صرف حقيقي.

أوكيه. إذن أعترفُ بأنَّ ذوقي في الرجال موضع شك. وسوف يظهر دليل آخر على هذا لاحقاً. ولكن مَنْ يستطيع أنْ يُناقش مسألة الذوق على أية حال؟ ومَنْ يستطيع أنْ يُعبِّر عن الافتتان؟ وكأنكِ تحاولين أنْ تصفي مذاق حلوى الشوكولا، أو مشهد غروب الشمس، أو سبب جلوسك على مدى ساعات وأنت ترسمين تعبيرات مضحكة على وجهك لتسلّي طفلك... مَنْ ذا الَذي يجمع هذا كله على الورق؟ إننا نتقبَّل روميو بالإيمان، وأيضاً جوليان سوريل[١٤] والكونت فرونسكي[١٥]، وحتى ميلور حارس الطرائد. الابتسامة، الشعر الأشعث، رائحة تبغ

---

١٣ - على اسم الإمبراطور الروماني (٧٦ - ١٣٨ م)

١٤ - جوليان سوريل: بطل رواية **«الأحمر والأسود»** لستندال. - المترجم

١٥ - الكونت فرونسكي: بطل رواية **«آنا كارنينا»** لليو تولستوي. - المترجم

الغليون والعَرَق، والضراط العلني الضخم... كان لزوجي رأس جميل يُتوّجه شعر أسود وأصابع نحيلة. في الأمسية الأولى التي قابلته فيها، هو أيضاً قبض على مؤخرتي (في أثناء نقاشنا الاتجاهات الجديدة في المعالجة النفسية). في العموم، يبدو أني أُعجَب بالرجال القادرين على الانتقال السريع من الروح إلى المادة. ما الداعي إلى تبديد الوقت ما دام الانجذاب متوفراً؟ ولكن إنْ قام رجل لا يُعجبني بفعل ذلك، فقد أغضب بل قد أشعر بالاشمئزاز. ومن يستطيع أنْ يشرح السبب الذي يجعل تصرفاً واحداً يُثير فيك الاشمئزاز في حالة ويبعثُ فيك الإثارة في أخرى؟ ومَنْ يستطيع أنْ يشرح قاعدة الانتقاء؟ إنَّ مجانين علم الفلك يُحاولون فعل ذلك. وكذلك أطباء التحليل النفسي. لكنَّ شروحهم دائماً تبدو أنها تفتقر إلى شيء ما. وكأنَّ الجوهر الأساس للأمر قد أُسقط.

بعد انتهاء الافتتان، تُصبحين عاقلة. وفي إحدى المرات فُتنتُ بقائد أوركسترا لا يستحم أبداً، وشعره قذر، وكان فاشلاً تماماً في مسح طيزه. كان دائماً يترك أثر براز على أغطية السرير. وفي الحالة العادية لا أحتمل هذا – ولكن معه كان مقبولاً – ولا أزال لا أعرف السبب. لقد وقعت في حب بينيت من ناحية لأنَّ لديه أنظف خصيتين تذوّقتهما في حياتي. إنه خالٍ من الشعر ولا يعرَق أبداً. يمكنك أنْ تلعقي (إذا شئتِ) ثقب شرجه (وكأنه أرضيّة مطبخ جدّتي). إذن أنا متنوعة المزاج فيما يخص عشاقي. وهذا، بصورة ما، يجعل أسباب افتتاني أشدّ غموضاً.

لكنَّ بينيت كان يرى أنماطاً في كل شيء.

قال، عندما عدنا إلى غرفتنا في الفندق: «ذلك الإنكليزي الذي كنتِ تتحدثين معه، لقد كان مولعاً بك حقاً –».

«ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟».

رماني بنظرة ساخرة.

«لقد كان يُغدقك بكلامه المعسول».

«لقد وجدتُه ابن حرام من أشدّ مَنْ رأيتُ عدوانيّة»، وكان هذا صحيحاً جزئياً.

«هذا صحيح – لكنكِ دائماً تنجذبين إلى الرجال العدوانيين».

«تعني، مثلك؟».

كان يجرني نحوه ويُباشر بخلع ملابسي عني. وأدركتُ أنَّ طريقة أدريان في ملاحقتني أثارته جنسياً. وكذلك حصل لي. لقد قمنا معاً بمضاجعة روح أدريان. محظوظ أدريان. نكحتُ نفسي من الأمام، ونكحني بينيت من الخلف.

تاريخ العالم عبر النكاح. المضاجعة. الرقصة القديمة. سوف يكون تاريخاً أفضل من تاريخ العالم عبر المراحيض. سوف يُصنّف كل شيء. وما الذي لا ينتهي إلى النكاح في نهاية المطاف؟

لم نكن أنا وبينيت نضاجع دائماً أشباحاً. في إحدى المرات ضاجع كلٌ منا الآخر.

عندما قابلته كنتُ في الثالثة والعشرين ومُطلّقة حديثاً. وكان هو في الحادية والثلاثين ولم يتزوج أبداً. كان أشدّ مَنْ قابلتُ من الرجال صمتاً. وألطفهم. أو على الأقلّ هذا ما ظننت. على أية حال ماذا أعرف عن الرجال الصامتين؟ لقد خرجتُ من عائلة يمكن لأقلّ قدر من رنين العدّ على مائدة العشاء أنْ يُصيب بصمم دائمٌ. ولعله فعل.

التقيت بينيت في حفلٍ في منطقة فيليج ولم يكن أي منا يعرف المُضيفة. كان كلانا تلقى دعوة من أناس آخرين. كان الجو تسوده أناقة منتصف الستينيات. كانت المُضيفة سوداء (حينئذ كنا لا نزال نقول «زنجية») وتعمل في مجال رائج تنفد بضاعته كلها كالدعاية.

كانت أعمالها تزدهر في مجال تصميم الأزياء وظلال العينين الذهبيّ اللون. كان المكان يعجّ بالأطباء النفسيين والعاملين في مجال الدعاية التجارية والعمل الاجتماعي وبروفسورات جامعة نيويورك الذين بدوا أشبه بأطباء نفسيين. إنه عام ١٩٦٥: قبل فترة الهيبيز وقبل الصراع العرقي. كان المحللون النفسيون واختصاصيو الإعلان والبروفسورات لا يزالون يقصون شعورهم قصيرة ويضعون نظارات على شكل قوقعة السلحفاة. كانوا لا يزالون يحلقون ذقونهم. وكان السود لا يزالون يكوون شعورهم. (آه ما أحلى ذكريات الماضي!).

كنتُ موجودة هناك عبر صديق وكذلك حال بينيت. وبما أنَّ زوجي الأول كان مُصاباً بالذهان، بدا طبيعياً تماماً أنْ أرغب في الزواج من طبيب نفسي للمرة الثانية. فلنقل، بمثابة ترياق. لم أكن أنوي أنْ أدع الأمر نفسه يحدث لي من جديد. هذه المرة سأجد شخصاً لديه المفتاح المؤدي إلى اللاوعي. لهذا كنتُ أخرج مع أطباء النفس. كانوا يفتنونني لأنني افترضتُ أنهم يعرفون كل ما يستحق المعرفة. وأنا فتنتهم لأنهم افترضوا أنني «شخص مُبدع» (كما تبدّى من ظهوري على القناة ١٣ وأنا أقرأ أشعاري - إلى أيِ دليل آخر على الإبداع يحتاج الطبيب النفسي؟).

عندما ألقي نظرة على حياتي الماضية التي لم تكن قد بلغتْ بعد ثلاثين عاماً، يتراءى لي عشاقي كلهم جالسين بالتناوب ظهراً إلى ظهر كما في لعبة الكراسي الموسيقية. كل منهم ترياق لسابقه. كل واحد يمثّل ردّة فعل، تغييراً شاملاً، صدى.

براين شتولرمن (عشيقي الأول وزوجي الأول) كان شديد قِصَر القامة، يميل إلى البدانة، وكثيف الشعر وأسمر. كان أشبه بقذيفة بشرية ولا يكفّ عن الكلام؛ دائم الحركة، ودائماً يستخدم كلمات من خمسة مقاطع لفظية. كان متخصصاً في العصور الوسطى وقبل

أنْ تقول «الحملة الألبيّة»[١٦] يحكي لك قصة حياته – بتفاصيل مغرقة في المبالغة. كان براين يُعطي الانطباع بأنه لا يسكت أبداً. لكنَّ هذا غير صحيح، لأنه يسكت في أثناء النوم. ولكن عندما يبدأ أخيراً بلفظ جواهره (كما نقول بأدب في عائلتي الحالية) أو يُبدي أعراض انفصام الشخصية (حسب تعبير العديد من أطباء النفس) أو يستيقظ على المعنى الحقيقي لحياته (حسب تعبيره) أو يُصاب بانهيار عصبيّ (حسب تعبير مستشار أطروحته لنيل درجة الدكتوراه) أو يُصاب بالإرهاق جرّاء زواجه من أميرة يهودية من نيويورك (حسب تعبير والديه) – حينئذ لا يتوقف عن الكلام حتى وهو نائم. في الواقع، إنه يتوقف عن النوم، وكان يُقينني يقظة طوال الليل ليحكي لي عن المجيء الثاني للمسيح وكيف أنَّ يسوع في هذه المرة قد يعود كاختصاصي يهودي في العصر الوسيط يعيش في ريفرسايد درايف.

طبعاً كنا نقيم في ريفرسايد درايف، وكان براين متكلّماً يسحر الألباب. ومع ذلك، كانت أوهامه تكتنفني كيفما اتجهت، وكنتُ طرفاً راغباً في *folie a deux* (جنون ثنائي[١٧]) بحيث استغرق مني أسبوعاً كاملاً من السهر كل ليلة والإصغاء إليه قبل أنْ أدرك أنَّ براين **نفسه** هو المقصود بالعودة الثانية. ولم يُصغ إلى إشارتي إلى أنَّ هذا يمكن أنْ يكون ضلالاً؛ وكاد يقتلني خنقاً بسبب مساهمتي في النقاش. وبعد أنْ التقطتُ أنفاسي (جعلتُ ذلك أشدّ بساطة مما هو لكي يواصل رواية القصة)، جرب أموراً متنوعة كالطيران والخروج من النوافذ والسير

---

١٦ – الحملة الألبيّة (١٢٠٩ – ١٢٢٩): الحملة التي قام بها البابا إنوسنت الثالث على جنوب فرنسا للقضاء على الحركة الكاثارية التي تعتبر العالم المادي شريراً والعالم الروحي هو الخير. – المترجم

١٧ – الجنون الثنائي: جنون تُصيب أعراضه شخصين تربط بينهما علاقة حميمة. – المترجم

على سطح الماء في بحيرة سنترال بارك، وأخيراً أخذوه عنوة إلى جناح المرضى النفسيين وخدّروه بالثورازين، والكومبازين، والستيلازين، وبكل ما يخطر في البال من عقاقير مُهدّئة، عندئذ كنتُ قد انهرت من فرط الإرهاق، وأخذتُ قسطاً من الراحة في شقة والديّ (كانا قد أصبحا سليميّ العقل بصورة غريبة مقابل إصابة براين بالجنون الفاضح)، وأخذتُ أبكي طوال شهر كامل. إلى أنْ كان يوم استيقظتُ مع إحساس بالارتياح في شقتنا الهادئة والمُقفرة في ريفرسايد درايف، وأدركتُ أنني لم أصغِ إلى أفكاري منذ أربعة أعوام. عندئذ أدركتُ أنني لن أعود أبداً للعيش مع براين – سواء أكفّ عن الاعتقاد بأنه يسوع المسيح أم لا.

وخرج الزوج *numero uno* (رقم واحد) من حياتي. ودخل موكب غريب من الأرقام المُضادة. لكنني كنتُ أعلم على الأقل عمّا أبحث في الـ *numero due* (رقم اثنين): عن شخصية متكاملة تمثّل الوالد، عن طبيب نفسي يمثّل ترياقاً للمجنون، عن مضاجعة جيدة علمانيّة كترياق لحماس براين الديني الذي بدا أنه يُعيق النكاح، عن رجل صامت كترياق لآخر ثرثار، عن رجل غير يهودي سليم العقل كترياق ليهودي مجنون.

ظهر بينيت وينغ كأنما في حلم. يمكن القول، على متن جناح (وينغ)[١٨]. شرقيّ بصورة مبهمة، طويل القامة ووسيم. بأصابع نحيلة، وخصيتين بلا شعر، ويُصبح ردفاه مستديرين عند المضاجعة – التي يبدو أنه لا يتعب على الإطلاق من ممارستها. لكنه كان أيضاً أخرس وعند هذه النقطة يُصبح صمته موسيقى في أذنيّ. ما أدراني أنني بعد ذلك ببضعة أعوام سأشعر كأنني أُضاجع هيلين كيللر[١٩]؟

---

١٨ – سوف تتلاعب المؤلفة في هذه الفقرة بكلمة وينغ، التي تعني «جناح». – المترجم

١٩ – هيلين كيللر (١٨٨٠ – ١٩٦٨): مُحاضرة ومؤلفة أميركية. عمياء وصمّاء منذ الولادة. تعلّمت الكلام والقراءة والكتابة. أصبحت ظاهرة مُعجزة من أجل إنجازها بالنسبة إلى امرأة ذات احتياجات خاصة. – المترجم

وينغ. أحببتُ اسم بينيت. وكان متقلب المزاج، أيضاً. لم تكن هناك أجنحة على قدميه بل على قضيبه. كان يُحلق وينزلق عندما يُضاجع. كان يقول بحركات غوص رائعة ويدور كأنه يفتح سدادة زجاجة. ويبقى منتصباً دائماً، وكان الرجل الوحيد ممَّن قابلتهم الذي ليس عنيناً - ولا حتى وهو مكتئب أو غاضب. ولكن لماذا لم يكن يُقبّل أبداً؟ ولمَ لا يتكلّم؟ كنتُ أقذف وأقذف وأقذف وكل رعشة كانت باردة كالثلج.

هل كان الأمر مختلفاً في البداية؟ أعتقد ذلك. لقد بهرني صمته حينئذ تماماً كما كان فيض كلام براين المدهش قد غمرني. وقبل بينيت مباشرة، كان هناك ذلك القائد للأوركسترا الذي أحبُّ عصاه (لكنه لم يمسح مؤخرته أبداً)، وعاشقٌ فلورنسيّ (أليساندرو الخشن)، وصهر عربي يسفح القربى (لاحقاً، لاحقاً)، وبروفسور في الفلسفة (من جامعة كاليفورنيا)، وعدد كبير من المضاجعات المتفرقة ليلاً. كنتُ أتبع قائد الأوركسترا عبر أوروبا وأراقبه يقوم بعمله حاملاً مقطوعاته الموسيقية، وأخيراً رحل وهجرني من أجل صديقة قديمة في باريس. وهكذا جرحتني الموسيقى، والجنون، والعلاقاتُ المتعددة. وكان بينيت الصامت هو الشافي. كان طبيباً لعقلي ومُحللاً نفسياً لفرجي. كان ينكح وينكح في صمت يمزّق طبلة الأذن. كان يُصغي. كان مُحللاً نفسياً جيداً. عرفَ أعراض مرض براين حتى قبل أنْ أخبره بها. عرفَ ما أعاني. وأشد ما أدهشني - ظلّ راغباً في الزواج مني حتى بعد أنْ أخبرته عن نفسي.

قلت «يُستحسن أنْ تبحث لنفسك عن فتاة صينية لطيفة». لم أكن عنصرية، لكنني كنتُ جفولاً من الزواج. كان دوامه يُرعبني. حتى في المرة الأولى، مع براين، شعرت بالرعب، وكنتُ قد تزوجت على الرغم من عدم رغبتي في ذلك.

قال بينيت «لا أريد فتاة صينية لطيفة: أريدك أنت».

(واتَّضحَ أنَّ بينيت لم يكن قد خرج مع أية فتاة صينية في حياته كلها - ولا نكح واحدة. كان مُدلهاً باليهوديات. يبدو أنَّ قَدَري هو أنَّ أرتبط بمثل هؤلاء الرجال).

قلت: «يسرني أنْك تريدني»، شعرتُ بالامتنان. بامتنان حقيقي.

متى بدأتُ أتظاهر بأنَّ بينيت هو شخص آخر؟ كان ذلك تقريباً مع نهاية العام الثالث من زواجنا. ولماذا؟ لم يتمكن أحد من إعطائي جواباً على ذلك.

س: «عزيزي الدكتور روبن: لماذا يتحول النكاح دائماً إلى ما يُشبه الجبن الصناعي؟».

ج: «يبدو أنَّ لديكِ ولعاً بالأكل، أو ما يُسمّى بلغة التحليل النفسي بوَله الفم. هل فكرتِ مرة في الحصول على مساعدة محترفة».

أغمضتُ عينيّ بإحكام وتظاهرتُ بأنَّ بينيت هو أدريان. حوّلتُ حرف الباء إلى ألف. قذفنا معاً - أولاً أنا، ثم بينيت - واسترخينا هناك ونحن نتصبب عرقاً على سرير الفندق الشنيع. ابتسم بينيت. كنتُ في حالة مزرية. كم كنتُ مُخادعة! لم يكن هناك ما هو أسوأ من أعمال الخداع الليلية تلك. أنْ أنكح رجلاً وأفكر في آخر وإبقاء الخداع سراً - كان ذلك أسوأ كثيراً، كثيراً، من مضاجعة رجل آخر أمام نظر زوجك. كان شيئاً سيئاً كأي خيانة أعرفها. كان جديراً ببينيت أنْ يقول «إنه مجرد خيال. والخيال هو مجرد خيال، وكل إنسان لديه تخيلاته. في الحقيقة وحدهم المُضطربون عقلياً يتصرفون اعتماداً على تخيلاتهم؛ الطبيعيون لا يفعلون ذلك».

لكنَّ احترامي للخيال يزيد عن ذلك. فشخصيتك تتكوَّن من

أحلامك؛ من أحلام يقظتك. إنَّ جداول تقنية ماسترز وجونسون[20] وأرقامها وأضواءها الوامضة والقضبان الذكرية البلاستيكية تُخبرنا كل شيء، ولا شيء، عن الجنس. ذلك أنَّ الجنس كله موجود في الرأس. ولا صلة لنسب النبض والإفراز بالأمر. ولذلك فإنَّ كل كتيبات الجنس الرائجة ليست إلا خداعاً. إنها تعلِّم الناس كيف ينكحون بأحواضهم، وليس بأذهانهم.

ما أهمية أنْ أكون تقنياً «مخلصة» لبينيت؟ ما أهمية ألا أكون قد نكحتُ رجلاً آخر منذ أنْ قابلته؟ لقد كنتُ أخونه على الأقلّ عشر مرات في الأسبوع في أفكاري - وفي خمسٍ على الأقلّ من تلك المرات كنتُ أخونه ونحن نتناكح.

لعلّ بينيت كان يتظاهر، أيضاً، بأنني امرأة أخرى. ولكن ما أهمية ذلك؟ تلك مشكلته هو. ولا شك في أنْ ٩٩ في المائة من الناس في العالم ينكحون أطيافاً. لعلهم يفعلون ذلك. إنَّ هذا لا يُعزيني أبداً. لقد كرهتُ خداعي الخاص وكرهت نفسي. لقد أصبحتُ زانية، وكنتُ فقط أصدُّ الاكتمال الفعلي لذلك بدافع الجُبن. وذلك جعل مني زانية *وأيضاً* شخصاً جباناً (هل أقول جبانة؟). على الأقلّ إذا نكحتُ أدريان ساكون فقط زانية (هل أقول شخصاً جباناً؟).

٢٠ - ماسترز وجونسون: تقنية لمعالجة الاضطرابات في الاستجابة الجنسية ابتكرها الباحثان وليم هـ. ماسترز (مولود عام ١٩١٥) وزوجته فيرجينيا جونسون (مولودة عام ١٩٢٥). - المترجم

(٣)

دق، دق

كما قلت، يمكن اختصار الجنس بثلاث نقاط: التناسُل، المتعة، والافتخار. ومن وجهة النظر بعيدة المدى، التي ينبغي أنْ نضعها دائماً في الحسبان، التناسُل هو أشدّها أهمية، بما أنه من دون التناسُل لن يستمر وجود الجنس البشري... إذن الرعشة الجنسية عند الأنثى هي ببساطة ذروة عصبية للعلاقات الجنسية... وهي أيضاً رفاهية نسبيّة من وجهة نظر الطبيعة. ويمكن اعتبارها نوعاً من جائزة ومتعة كالجائزة التي توجد في علبة الحبوب. ومن الجيد وجود تلك الجائزة هناك، لكنّ الحبوب تبقى ذات قيمة ومُغذّية من دونها.

• مادلين غراي من كتاب «المرأة الطبيعية» (كلدا)، ١٩٦٧

في أحلامي رأيتُ أدريان وبينيت يرتفعان وينخفضان وكأنهما يمتطيان نوّاسة في أرض ملعب متنزه سنترال بارك حيث كنتُ أتردَّد وأنا طفلة.

قال بينيت عندما أصبح الطرف الذي يجلس عليه من النوّاسة عالياً، «ربما عليها أنْ تخضع للتحليل النفسي في إنكلترا. سوف أُغير وجهة جواز سفرها وأُرسل لك نسخة منه».

كان أدريان يضع قدميه على الأرض وبدأ يهزّ النوّاسة كطفل كبير يعبث في ملعب مُخصص للأطفال الصغار.

زعقت «كفى! إنكَ تؤلمه!». لكنَّ أدريان ظل يرسم ابتسامة عريضة ويهزّ النوّاسة. حاولت أنْ أصرخ قائلة «ألا ترى أنكَ تؤلمه! كفى!»، لكنَّ كلماتي خانتني، كما يحدث دائماً في الأحلام. أصابني الرعب من أنْ يرمي أدريان بينيت إلى الأرض ويتسبَّب في كسر ظهره. ناشدته «أرجوك، أرجوك توقف!».

غمغم بينيت قائلاً «ما الأمر؟». كنتُ قد أيقظته. كنتُ دائماً أتكلَّم في أثناء نومي، وكان دائماً يُجيبني.

«ماذا حدث؟».

«رأيتكَ تركب نوّاسة مع شخص آخر. لقد أصابني الرعب».

تقلَّبَ. «أوه».

في المعتاد يُحيطني بينيت بذراعيه، لكننا كنا ننام على سريرين ضيّقين على الطرفين المتقابلين من الغرفة وبدل أنْ يفعل ذلك عاد إلى النوم.

أصبحت يقظة تماماً وسمعتُ جلبة العصافير في الحديقة الكائنة خلف الفندق. في أول الأمر هدهدتني جلبتها. ثم تذكرتُ أنها عصافير ألمانيّة فانتابتني الكآبة. في سري، كنتُ أكره السفر. إنني أشعر بالقلق وأنا في الوطن، ولكن حالما أرحل عنه أشعر بالموت يُهددني ويُخيّم على أقلّ عمل أقوم به. لماذا عدتُ إلى أوروبا أصلاً؟ لقد كانت حياتي مُهشّمة. طوال عامين وأنا أنام على السرير مع بينيت وأفكر في رجل آخر. على مدى عامين وأنا أفكر هل أحبل أم أستقلّ بحياتي وأجوب المزيد من بقاع العالم قبل أنْ أستقر وألتزم بأية حياة دائمة. تساءلت، كيف يُقرر الناس أنْ يحبلوا. كان قراراً خطيراً. بل كان بصورة ما قراراً

مضطرساً. إنّه مسؤولية حياة جديدة وأنت لا تعلمين كيف ستكون. لقد افترضتُ أنَّ معظم النساء يحبلن من التفكير في الأمر لأنهن إذا فكرن ولو مرة واحدة في فحوى ذلك، فسوف يقضّ الشك مضاجعهن حتماً. لم أكن أتحلّى بمثل ذلك الإيمان الأعمى بالمُصادفة الذي بدا أنْ باقي النساء يتحلين به. لطالما أردتُ أنْ أُمسك بزمام قَدَري. لقد بدا أنَّ الحبل أشبه بقرار شديد الخطورة بإفلات ذلك الزمام. إنه شيء ينمو داخلك ثم يستولي في نهاية المطاف على حياتك. لقد كنتُ أستخدمُ رُغماً عني غشاءً مانعاً منذ مدة طويلة بحيث ما كان يمكن للحبل أنْ يقع معي أبداً مُصادفةً. وحتى السنتين اللتين كنتُ أتناول خلالهما حبوب منع الحمل، لم أُخطئ مرة واحدة في فعل ذلك. وعلى الرغم من كوني خرقاء في عمل أي شيء آخر، لم أُخطئ أبداً في هذا المجال. في الحقيقة كنتُ الوحيدة من بين صديقاتي التي لم تُجرِ عملية إجهاض. فممَّ كنتُ أشكو؟ هل كنتُ غير طبيعية؟ كل ما في الأمر أني لم أكن أشعر أني مُضطرة إلى الحمل كأي أنثى طبيعية. كل ما كنتُ أفكر فيه هو نفسي وقلقي، واشتياقي إلى النكاح الصرف وفي رجال غرباء على متن القطار - في كوني مُكبّلة بطفل سيولد. كيف أرغب في *ذلك* وأنا حبلى؟

كانت أمي ذات الشعر الأحمر الغاضبة تقول: «لولاك لأصبحتُ فنانة عظيمة». كانت قد درست الفن في باريس، درست علم التشريح، ورسم القوالب، والألوان المائية والفنون التخطيطية، وحتى كيف تطحن أصبغتها. وكانت قد قابلت فنانين مشهورين وكُتّاباً مشهورين وموسيقيين مشهورين وطفيليين مشهورين (كما قالت). رقصت عارية في غابة بولونيا (كما قالت)، وجلستْ في ليه دو ماغو مرتدية عباءة من المخمل الأسود (كما قالت)، وجابت شوارع باريس وهي جالسة على رفرف سيارات بوغاتي (كما قالت)، وزارت الجزر اليونانية قبل

جاكلين كينيدي أوناسيس بثلاثة عقود ونصف (كما قالت)، ومن ثم عادت إلى أرض الوطن، وتزوجت ممثلاً هزلياً من جبال كاتسكيل أوشك على تحقيق نجاح باهر في مجال إنتاج الـ *tzatzka*، وكانت لديه أربع بنات كلهن يحملن أسماء شاعرية: غوندرا ميراندا، إيزادورا زيلدا، لالا جوستين، وكلوي كاميل.

أكان أيّ من هذا خطئي؟

لقد أمضيتُ حياتي كلها أشعر بأنَّ الأمر كذلك. ولعلي كنتُ مسؤولة عنه، بصورة ما. إنَّ الآباء والأطفال مرتبطون بالحبل السرّي وليس فقط بالرحم. ثمة قوى غامضة تربطهم معاً. إنْ كان أبناء جيلي سيقضون وقتهم في شجب الآباء، فربما علينا أنْ نمنح آباءنا وقتاً معادلاً.

قالت أمي «كنتُ سأصبح فنانة مشهورة لولاكم أنتم الأبناء». وبقيتُ ردحاً طويلاً من الزمن أصدّق هذا.

طبعاً، كانت هناك دائماً مشكلة والدها: فنان أيضاً وغيور حتى التعصُّب من موهبتها. كانت قد ذهبت إلى باريس هرباً منه، فلماذا عادت إلى نيويورك، وأقامت في منزله، وعاشت معه إلى أنْ بلغت الأربعين من العمر؟ تقاسما غرفة صغيرة، وكان بين حين وآخر يرسم على لوحات الكنفا الخاصة بها (فقط، طبعاً، عندما لا تتوفر لديه لوحات نظيفة). كانت قد أصبحت فنانة تكعيبية في باريس وفي سبيل أنْ تطوّر أسلوباً خاصاً بها باتجاه معاصر، لكنَّ البابا، الذي يعتبر أنَّ الرسم يبدأ وينتهي مع رامبرانت، سخر منها إلى أنْ كفّت عن المحاولة؛ وظلت تحبل باستمرار.

قال البابا «اللعنة على الخربشة الحديثة، إنها هراء زائف».

لمَ لم تنتقل؟ أقول هذا بكل ما ينطوي عليه من تناقُض، لعلمي أنني ما كنتُ سأولد.

لقد نشأنا في شقّة واسعة تتألّف من أربع عشرة غرفة في سنترال بارك ويست. كان السقف يرشح (كنا نقيم في الطابق الأعلى)، وحالما تضغط زر المحمصة تحترق الصمامات الكهربائية كلها، وكانت أحواض الاستحمام مخدوشة بأظافر الأقدام وأنابيب مياه صدئة، والمدفأة في المطبخ تبدو أشبه بشيء مأخوذ من إعلان تجاري تلفزيوني عن معلبات جدتي أو أمي، وكانت أُطُر النوافذ عتيقة جداً وعفنة حتى إنّ الريح كانت تصفّر متسرّبة من خلالها. لكنه كان «بناء ستانفورد الأبيض»، وهناك «محترفان يدخلهما الضوء من الشمال»، والمكتبة لها «جدران من ألواح الخشب» و«نوافذ مُثبّتة بالرصاص» و«السقف الذي مساحته أربعون قدماً» في غرفة الجلوس كان مكسواً «بأوراق من الذهب الخالص». وتذكّرتُ هذه العبارات المفصّلة عن العقار يتردّد صداها في أرجاء طفولتي.. أوراق الذهب. تخيّلتُ ورقة من شجر القبقب مصنوعة من الذهب. ولكن كيف ألصقوا الأوراق على السقف؟ ولماذا لا تبدو كأوراق الشجر؟ لعلهم سحقوها وصنعوا منها دهاناً؟ وتساءلتُ، أين يمكن العثور على «ورقة من الذهب الخالص»؟ هل تنمو على أشجار من الذهب الخالص؟ أم على أغصان من الذهب الخالص؟ (كنتُ طفلة تعرف معنى كلمات مثل «غصن»).

في الحقيقة، كان هناك كتاب سميك، قاتم اللون في مكتبة والديّ عنوانه ***«الغصن الذهبي»***. كنتُ أبحثُ عبثاً بين صفحاته عن أي ذكر لـ «ورقة من الذهب الخالص». ولكنه كان يحتوي العديد من الأشياء المثيرة جنسياً. (في تلك الأيام كنتُ أخبّئ كتاب ***«الحب من دون خوف»*** في درج خزانة ملابسي – تحت قمصاني الداخلية)

وهكذا مكثنا مع الماما والبابا إكراماً «للضوء الشمالي الجميل» و«ورق الذهب الخالص» – أو على الأقلّ هذا ما قالت أمي. وفي تلك الأثناء كان والدي يسافر حول العالم للترويج لـ ***tzatzka*** وتلازم

أمي المنزل وتُنجب أطفالاً وتصرخ في وجه أمها وأبيها. وكان والدي يُصمم دلاءً للثلج بدت أشبه بأباريق البيرة ويصنع أباريق للبيرة تُشبه دلاء الثلج. كان يُصمِّم مجموعات من حيوانات الخزف مربوطة معاً بسلاسل دقيقة من الذهب. وكان يجمع ثروة لا بأس بها من عمله - كافية بصورة مذهلة. وكان في إمكاننا بسهولة أنْ ننتقل إلى مكان آخر، ولكن كان من الواضح أنَّ أمي لم ترغب في ذلك أو لم تستطع أنْ تُقدم عليه. كانت أمي مُرتبطة بأمها بسلاسل دقيقة من الذهب، وكنتُ أنا مرتبطة بأمي. كانت تعاستنا كلها مترابطة معاً بسلسلة الذهب نفسها (وكانت تصدأ بسرعة).

كانت أمي طبعاً تتعامل مع ذلك كله بعقلانيّة - عقلانيّة أبويّة، عقلانية عهد الشيخوخة لنساء يصطخبن بالموهبة والطموح ولا يتوقفن عن الحبل.

قالت: «لا يمكن للمرأة أنْ تقوم بالأمرين معاً، عليك أنْ تختاري. إما أنْ تصبحي فنانة أو أنْ تنجبي أطفالاً».

كان جلياً ما يُفترَض بي أنْ أنتقي، وأنا أحمل اسم إيزادورا زيلدا: كل ما تمتّعت به أمي ورفضته.

كيف استطعت أنْ أنزع الغشاء المانع وأحبل؟ إنَّ ما كانت تفعله باقي النساء دون تفكير كان بالنسبة إليّ عملاً جللاً وخطيراً. كان بمثابة إنكار لاسمي، وقَدَري، وأمي.

كانت أخواتي مختلفات. غوندرا ميراندا أطلقت على نفسها اسم «راندي» وتزوجت وهي في الثامنة عشرة. تزوجت من عالم فيزياء لبناني في بركلي، وأنجبت أربعة أبناء في كاليفورنيا، ومن ثم انتقلت مع عائلتها إلى بيروت وهناك استمرت في الإنجاب حتى أصبحن خمس بنات. وعلى الرغم من التمرُّد الظاهري الذي اتصفتْ به كفتاة يهودية

لطيفة من سنترال بارك ويست تتزوج من عربي، عاشت حياة عائلية عادية جداً في بيروت. كانت تقريباً تحمل حماساً دينياً للـ *Kinder, Kuche, and Kirche* (للأطفال، والمطبخ والكنيسة) - خاصة الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت تتردد عليها لكي تترك انطباعاً لدى العرب بأنها ليست يهودية. وهذا، طبعاً، لم يكن يعني أنهم يحبون الكاثوليكية كثيراً، لكنه كان أفضل من الخيار الآخر. وكانت هي وصهري بيير يؤمنان بروبرت أردري[1]، وكونراد لورينتز[2]، وليونل تايغر[3] وكأنهم يسوع، وبوذا، ومحمد. كانوا ينخرون قائلين «إنها الغريزة! الغريزة الحيوانية الصرف!». كانوا يكرهون وجوديّ بركلي أيام الجامعة وأنْ يبشروا بالإقليمية، وبفسوق منع الحمل والإجهاض، وبعالميّة الحرب. أحياناً كان يبدو بكل صدق أنهم يؤمنون بسلسلة الوجود العظمى وبالحق الإلهي للملوك. وفي تلك الأثناء، كانوا يستمرون في التناسل.

(«لماذا ينبغي على الذين يحملون جينات ***متفوّقة*** أنْ يلجؤوا إلى منع الحمل في حين أنَّ ***غير المرغوب فيهم*** يزيدون نسل العالم حتى الفناء؟» - إنها اللازمة القديمة كلما أعلنت راندي عن حمل جديد).

لالا (الابنة التالية الوسطى بعدي) كانت أصغر بأربع سنوات وتزوجت من رجل أسود. ولكن كما في حالة راندي، كان الاختيار غير التقليدي مُضللاً. لالا انتسبت إلى جامعة أوبرلين حيث قابلت

---

١ - روبرت اردري (١٩٠٨ - ١٩٨٠): عالم انثروبولوجيا وكاتب مسرحي وسينمائي. - المترجم

٢ - كونراد لورينتز (١٩٠٣ - ١٩٨٩): نمساوي. عالم في علم الحيوان، وسلوكه، وعلم الطيور. حائز على جائزة نوبل عام ١٩٧٣. - المترجم

٣ - ليونل تايغر (مولود في عام ١٩٣٧): عالم اميركي من اصل كندي في علم الانثروبولوجي. - المترجم

روبرت غودارد، ويمكن القول بسهولة إنه أشدّ الزنوج البيض بياضاً في تاريخ هذه العبارة. صهري بوب لونه في الواقع بلون الكاكاو البُني، لكنَّ عقله أبيض كعضو ذكريّ لعضوٍ في جماعة كلان. أنا لا أعرف شيئاً عن قضيبه. ويُربكني التفكير في الوسيلة التي توصل بها إلى الانتساب إلى جامعة مثل جامعة أوبرلين، كما ربما أربكه هو أيضاً. بعد التخرج التحق بالجامعة الطبيّة في هارفارد وسرعان ما قرّر أنْ يتوجه إلى حيث يكمن المال: إلى فرع جراحة التجبير. هناك أصبح يقضي أربعة أيام في الأسبوع يُصلح السيقان ويُثبّت الأوراك (ويتلقى أجوراً ضخمة من شركات التأمين). الأيام الثلاثة الأخرى كان يقضيها في ركوب الخيول في نادٍ فاخر في ضاحية بوسطن الراقية ولكن المتعددة الأعراق حيث عاش هو ولالا.

وكم كانت حياتهما مُرفّهة! كانا مُحاطين بأوسع تشكيلة من الأجهزة الإلكترونية خارج مخازن هاماشر شليمر[٤]: آلة إلكترونية لسحق الثلج، مُبرِّد للنبيذ، آلات توضع بجوار السرير تُصدر هدير بحر مُصطنعاً، آلات لقطع قمّة البيض آلياً، آلات مُرطِّبة، آلات لهزّ مشروب الكوكتيل آلياً، أدوات لقصّ العشب تُدار عن بُعد، آلات لجزّ سياج الشجيرات مُبرمجة لتشكل تصاميم فنيّة، دوامات مائية تدوّر مياه حوض الاستحمام، مراحيض للنساء تُدوِّر مياه الشطف، مرايا حلاقة مؤطّرة من أشد النقوش الفوتوغرافية الحديثة ابتذالاً، ونضد بار يبرز فجأة من الجدار في البهو عندما يرن جرس الباب. وبالمناسبة، جرس الباب يُرسل النغمات الأولى من أغنية «عندما تدخل الملائكة صفاً واحداً» - وهي اعتراف بوب الوحيد بكونه زنجياً.

---

٤ - هاماشر - شليمر: سلسلة مخازن شهيرة في أميركا، متخصصة في بيع التجزئة والشراء عبر البريد. - المترجم

مع هذه البِدع كلها بالإضافة إلى الخيول وثلاث سيارات (واحدة لكل منهما، وواحدة لمدبّرة منزلهما الأميركية الجنوبية البيضاء)، تظاهرنا جميعاً بأنه ليس لديهما وقت حتى *للتفكير* في إنجاب أطفال - وأعتقد أنَّ والديّ ارتاحا لذلك. وكون الأحفاد من العرب هو أحد الأسباب، ولكن على الأقلّ كان لهم شعور ملساء.

على أية حال كنا على خطأ. في الواقع، لقد كانت لالا تتناول حبوب زيادة الخصوبة منذ عامين (كما أبلغتنا وأبلغت الصحف جميعاً بذلك لاحقاً)، وفي العام الفائت أنجبت خمسة توائم. أما الباقي (كما قالا) فأصبح من الماضي. ولعلك قرأتَ مقالاً في مجلة *تايم* عن «توائم آل غودارد الخمسة» الذي وصفهم بأنهم «ظرفاء، بلون القهوة، ويمكن حملهم على ذراع واحد»

«واو!»، هكذا كانت ردّة فعل الأم لالا جوستين غودارد (المولودة باسم وايت)، البالغة الرابعة والعشرين من العمر، عندما سمعت أنها أنجبت خمسة توائم.

والآن أصبحت أذرع لالا وبوب مُمتلئة بالعظام المكسورة، والبِدع، والخيول، والارتقاء الاجتماعي، وبالتوائم الخمسة (الذين، بالمناسبة، كانت أسماؤهم هي: تيمي، سوزي، آنْ، جيني، وجوني). وأصبح الدكتور بوب يدخّل من النقود أكثر من أي وقت مضى، بما أنه يبدو أنّ انجاب خمسة توائم خلاسيين هو أعظم طريقة للتقدُّم في مهنة الطب بعد جرعات فيتامين بي. أما لالا، فإنها تكتب لي رسالة مرة في العام لتسألني لماذا لا أكفّ عن «تأليف الشِعر التافه» و«أقوم بعمل له معنى» كإنجاب خمسة توائم.

بعد زوج راندي العربي وزوج لالا الزنجي واعتقاد زوجي الأول بأنه يسوع المسيح، ارتاح والديّ كثيراً عندما تزوجت بينيت. لم

يكن لديهما أي اعتراض على عرقه، لكنهما كرها إلى أقصى درجة مهنته: التحليل النفسي. لقد عانيا من انطباعهما الخاطئ بأنَّ في مقدرة بينيت أنْ يقرأ ما يدور في ذهنيهما. في الحقيقة، عِندما يُسدد نظرة ثاقبة، مُنذرة بالشؤم، ومتفحّصة، كان في المعتاد يفكر في تغيير زيت السيارة، أو في تناول حساء الدجاج على الغداء، أو في التبرُّز. ولكنْ لم أتمكن من إقناعهما بذلك. كانا يُصرّان على الاعتقاد بأنه ينظر عميقاً في روحيهما ويرى أسرارهما البشعة كلها التي يرغبان في نسيانها.

لم يبقَ هناك غير كلوي كاميل، المولودة في عام ١٩٤٨ وتصغرني بست سنوات. طفلة العائلة المُدلّلة. كلوي بذكائها الحادّ، ولسانها الحادّ، وكسلها التامّ الذي يحول دون استخدامهما في أي عمل. كلوي ممتلئة الجسم، الجميلة، بشعرها البُنّي وعينيها الزرقاوّين وبشرتها المثالية. الوحيدة صاحبة ثديين ضخمين رائعين حقاً في عائلة مشهورة بصدورها المُسطّحة تماماً. كلوي، طبعاً، تزوجت من يهوديّ. ليس يهودياً محلياً، بل مستورداً (لم يكن أحد في العائلة ليتنازل ويتزوج من فتى الجيران). زوج كلوي، قابيل، إسرائيليّ من أصل ألماني - يهوديّ. (ذات يوم كان أفراد عائلته يمتلكون كازينو للقمار في بادن - بادن). وطبعاً، انضمّ قابيل إلى أبي في مجال الـ *tzatzka*. لقد جلب إلى هذا العمل الذي هيمن عليه ممثلون هزليون سابقون في كاتسكيل ماونتن، دروساً تعلّمها في مدرسة وارتن. في أول الأمر تمرّد والديّ ومن ثم تبنّياه بما أنَّ الجميع ازدادوا ثراءً. أنجب قابيل وكلوي ولداً، اسمه آدم، كان أشقر وصاحب عينين زرقاوين وأصبح طبعاً الحفيد المُفضّل. في أثناء التئام الشمل في عيد الميلاد، عندما تعود العائلة كلها إلى الاجتماع في شقّة والديّ، كان آدم يبدو كأنه الآريّ الوحيد في ملعب لأطفال الصف الثالث.

إذن كنتُ الأخت الوحيدة *ohne kinder* (بلا أطفال)، ولم

يكن يُسمح لي بنسيان ذلك. وتزامنت الزيارة الأخيرة لبيير وراندي لنيويورك مع نسلهما مع نشر كتابي الثالث. وفي خضم إحدى مشاجراتنا المعتادة الصاخبة (حول شيء أبله بلاهة لا تستحق الذكر)، وصفَت راندي شِعري بأنه «احتلاميّ واستعراضيّ» وأنّبتني على «عقمي».

زعقت «إنكِ تتصرفين وكأنَّ الكتابة هي أهمّ شيء في العالم!».

حاولتُ أنْ أكون عقلانيّة وهادئة وأُحسن تحليل عائلتي في ذلك الأسبوع وهكذا بذلتُ جهداً مؤلماً لمنع الانفجار الذي شعرت أنه يوشك أنْ يحدث.

ناشدتها «راندي، يجب أنْ أعتقد أنَّ الكتابة هي أهمّ شيء في العالم لكي أستمر في ممارستها، ولكنْ لا شيء يُجبرك *أنتِ* على أنْ تشاركيني اهتمامي، فلماذا ينبغي أنْ أشاركك *اهتمامك*؟».

«حسن لا أريد منك أنْ تذكريني أو تذكري زوجي وأولادي في كتاباتك القذرة - أتسمعين؟ سأقتلك إذا أتيت على ذكري بأي شكلٍ من الأشكال. وإذا لم أقتلك بنفسي، فسوف يفعل بيير ذلك. اتفهمين؟».

تلا ذلك نقاشٌ طويل يثقب الآذان حول السيرة الذاتية مقابل السرد الروائي، ذكرتُ فيه هيمنغواي، وفيتزجيرالد، وبوزيل، وبروست، وجيمس جويس - كل ذلك ذهب سُدى.

صرختْ راندي «يمكنكِ أنْ تنشري كتبكِ اللعينة بعد الموت، إنْ كانت تحتوي كلمة *واحدة* عن أية شخصية تشبهني ولو *عن بُعد!*».

«وأعتقد أنكِ ستقتلينني لكي لا يتأجّل النشر».

«أعني بعد أنْ نموت *نحن*، وليس بعد موتك».

«هل أفهم أنَّ هذه دعوة إلى قطع رأسي؟».

«احتفظي بتلميحاتك الأدبية لنفسك. أتعتقدين أنكِ بارعة لعينة؟ فقط لأنك مُكافحة نشطة وبرزتِ في المدرسة. فقط لأنك طموح وتتعاملين مع مُثقفين وزائفين يُثيرون الاشمئزاز. إنني لا أقلّ عنكِ موهبة في الكتابة وأنت تعلمين هذا، كل ما في الأمر أني لا أنحني وأستعرض عُريي على الملأ كما تفعلين. لا يمكن أنْ أرغب في كشف تخيلاتي السرية للناس. أنا لست *فضائحيّة* عفنة مثلك، هذا كل ما في الأمر... والآن اخرجي من هنا إلى الأبد! اخرجي! أتسمعين؟».

«لكنَّ هذا منزل جود وأبي - وليس منزلك».

«اخرجي! لقد سبّبتِ لي صداعاً مهلكاً!»، وهرعت راندي إلى غرفة الحمّام وهي تضغط صدغيها.

كانت تلك هي الخدعة الجسدية الجانبية النفسية القديمة. وكل فرد من أفراد عائلتي يمارسها في كل مناسبة. لقد سبَّبتَ لي صداعاً مُهلكاً! لقد سبّبتَ لي عسر هضم! لقد سبّبت عفناً في فرجي! لقد سبّبت لي طنيناً في أذني! لقد سبّبت لي نوبة قلبيّة! لقد أصبتني بالسرطان!

خرجتْ راندي من الحمّام وعلى وجهها تعبير الألم. كانت قد تماسكت. والآن هي تحاول أنْ تكون متسامحة.

قالت «لا أريد أنْ أتقاتل معك».

«هاه».

«لا أريد، حقاً. كل ما في الأمر أنكِ لا زلت أختي الصغيرة وأنا أعتقد حقاً أنكِ خرجت عن الصراط المستقيم! أعني أنَّ عليك حقاً أنْ تكفّي عن الكتابة وتنجبي طفلاً. سوف تجدين ذلك أكثر جدوى بكثير من الكتابة...».

«لعلّ هذا ما أخشاه».

«ماذا تعنين؟».

«اسمعي، يا راندي، قد يبدو الأمر سخيفاً بالنسبة إلى مَنْ لديها تسعة أطفال، لكنني لا *أشتاق* حقاً إلى إنجاب أطفال. أعني أنني أحبّ أطفالك وأطفال كلوي ولالا، ولكن أنا سعيدة حقاً بعملي في الوقت الراهن ولا *أريد* أنْ أحقق أي إنجاز آخر الآن. لقد استغرقَ مني سنين كي أتعلّم الجلوس إلى طاولة الكتابة أكثر من دقيقتين متواصلتين، كي أتعوّد على العزلة وعلى رعب الفشل، وعلى الصمت الرهيب وعلى الصفحة البيضاء. والآن بعد أنْ تعوّدت... الآن بعد أنْ أصبح في إمكاني أخيراً أنْ أقوم بعملي... صرتُ أتحمّس حقاً للاستمرار. الآن لم أعد *أريد* لأي شيء أنْ يتدخّل في عملي. يا يسوع المسيح! لقد استغرق مني بلوغ *هذه* النقطة وقتاً طويلاً لأصل...».

«أهكذا تتوقعين حقاً أنْ تقضي ما تبقى من حياتك؟ تجلسين في غرفة وتكتبين الشعر؟».

«حسن، ولِمَ لا؟ وهل هناك ما هو أسوأ من أنجاب تسعة أطفال؟».

رمتني بنظرة امتعاض. «أنتِ لا تعرفين أيّ شيء عن إنجاب الأطفال».

«وأنتِ لا تعرفين أي شيء عن الكتابة». شعرت باشمئزاز شديد حقاً من نفسي لأنني بدوت صبيانية إلى تلك الدرجة. لطالما جعلتني راندي أشعر كأنني أعود إلى سن الخامسة من جديد.

قالت محتجّة: «لكنكِ ستحبين إنجاب الأطفال، ستحبينه فعلاً».

«إكراماً لله، قد تكونين على حق! ولكن يكفي أنتِ شبيهة بإيثل كينيدي[٥] في عائلة واحدة - ما الحاجة إلى *أخرى*؟ ولماذا أفعل ذلك

---

٥ - إيثل كينيدي (ولدت عام ١٩٢٨): الزوجة السابقة للنائب العام الأميركي روبرت كينيدي، شقيق الرئيس الأميركي الأسبق جون ف. كينيدي. أنجبت له ١١ طفلاً، وبعد مقتله في عام ١٩٦٨، تولت هي منصب النائب العام، وهي معروفة بنشاطاتها الاجتماعية والسياسية الواسعة. - المترجم

ما دامت لديّ شكوك حول الأمر؟ ولماذا أُجبر نفسي على فعله؟ لمصلحة مَنْ؟ لمصلحتك؟ لمصلحتي؟ لمصلحة الأطفال الذين لا وجود لهم. لن ينقرض الجنس البشري إذا لم أنجب أطفالاً!».

«ولكن ألا ينتابك الفضول لخوض التجربة؟».

«أعتقد ذلك... لكنّ فضولي ليس قوياً إلى هذه الدرجة. ثم، لا زال أمامي وقت...».

«إنكِ في الثلاثين تقريباً. وليس لديك متسع من الوقت كما تظنين».

قلت: «أوه، يا إلهي، أنتِ فعلاً لا تطيقين أي شخص لا يفعل بالضبط كما تفعلين. ما الذي يدفعني إلى أنْ أعيشَ نسخة من حياتك وأرتكب أخطاءك؟ ألا أستطيع أنْ أرتكب أخطائي اللعينة *الخاصة*؟».

«أية أخطاء؟».

«كأنْ تربّي أطفالك على اعتقاد أنهم كاثوليك، وكأنْ تكذبي بشأن ديانتك، وكأنْ تُنكري أنكِ...».

زعقتْ راندي، وهي تندفع نحوي مرفوعة الذراعَين، «سأقتلك!». هرعتُ لأختبئ في خزانة الردهة كما سبق أنْ فعلت مرات عديدة في عهد الطفولة. وقد مرت علينا أيامٌ كانت فيها راندي تضربني بانتظام. (على الأقلّ إذا أنجبتُ أطفالاً فلن أرتكب أبداً خطأ إنجاب أكثر من واحد. فإنجاب طفل واحد يُفتَرَض أنْ يُسبب ما يكفي من المشقّة النفسية، ولكنه الشيء الوحيد الذي رغبتُ فيه وأنا طفلة).

سمعتُ راندي تهتف من خارج الباب «بيير!». أغلقت الباب وأدرتُ مفتاح النور. ثم ارتديت معطف أمي الفرو (الذي يفوح برائحة مرح قديم و*Diorissimo* «أثر عطر» بائت) وجلست تحته أضع ساقاً فوق ساق بين الأحذية الطويلة السيقان. كان يطل عليّ من فوق المزيد من مناصب المعاطف ترتفع عالياً نحو السقف.

معاطف فرو قديمة، معاطف إنكليزية للأطفال مع أغطية للسيقان، وسترات رياضية مُخصصة للتزلج على الجليد، وأغطية رأس واقية من المطر، ومعاطف واقية من المطر، ومشمّعات عليها تواقيع من أيام المخيمات، وسترات مدرسية فضفاضة مع أشرطة تحمل أسماء عند الياقات ومفاتيح مزلجات في الجيوب، ومعاطف مسائية من المخمل، ومعاطف مُطرّزة، ومعاطف من وبر الجمال، ومعاطف من فرو المنك... خمسة وثلاثون عاماً من الأزياء المتغيِّرة وأربع بنات بالغات... خمسة وثلاثون عاماً من الشراء والإنفاق وتنشئة الأطفال والصراخ... وماذا كان على أمي أنْ تُظهِر مقابل ذلك؟ معاطفها المتنوعة، وامتعاضها؟

«إيزادورا!» هذه المرة كان بيير. قرعَ الباب.

جلستُ على الأرض ورحت أهزّ رُكبتيّ. لم تكن لدي نيّة للنهوض. ما أجمل رائحة كرات مكافحة العث *والفرح*.

«إيزادورا!».

قلت في نفسي، أحياناً أودّ حقاً أنْ أنجبَ طفلاً. طفلة صغيرة على قدر كبير من الذكاء والحكمة، تكبر لتصبح المرأة التي لم أتمكن من أنْ أكون. فتاة صغيرة شديدة الاستقلال بنفسها خالية من الندوب العقلية والنفسية. خالية من الخنوع المتملّق والغواية المُداهنة. فتاة صغيرة تقول ما تعني وتعني ما تقول. فتاة صغيرة لا هي سليطة اللسان ولا متملِّقة لأنها لا تكره أمها أو نفسها.

«إيزادورا!».

ما أردته فعلاً هو أنْ أنجبَ *نفسي* - الفتاة الصغيرة التي كان يمكن أنْ أكون في كنف عائلة مختلفة، وعالم مختلف. عانقتُ رُكبتيّ. شعرتُ بأمان غريب وأنا هناك، تحت معطف أمي الفرو.

«إيزادورا!».

لماذا لا يكفّون عن استعجالي ويحاولون أنْ يُقحموني داخل القوالب نفسها التي جعلت منهم شديدي التعاسة؟ أودّ أنْ أنجب طفلة عندما أصبح جاهزة. أو إنْ لم أصبح جاهزة أبداً، فلن أفعل. هل إنجاب طفل هو ضمانة ضد الوحدة أو الألم؟ أو أي شيء؟ إنْ كانوا شديدي التعاسة في حياتهم، فلماذا يهدون الآخرين طوال الوقت؟ لماذا يصرّون على أنَّ يفعل كل إنسان ما فعلوا؟ لماذا يقومون بأدوار المبشّرين الملاعين؟

«إيزادورا!».

لماذا تبدو أخواتي وأمي جميعاً كأنهن يحكن مؤامرة للسخرية من إنجازاتي ويجعلنني أشعر بأنهن يُشكلن عوائق؟ كنتُ قد نشرت كتاباً حتى أنا لا أزال قادرة على تحمُّل قراءته. ست سنوات من الكتابة والنبذ، الكتابة والتغيُّر، ومحاولة النفاذ أعمق وأعمق داخل نفسي. وأرسل القرّاء إليّ رسائل واتّصلوا بي هاتفياً في منتصف الليل لكي يُخبروني بأنَّ الكتاب هامّ، وأنّه ينطوي على شجاعة وصدق، وأنني شجاعة وصادقة. شجاعة! وها أنا ذي داخل الخزانة أعانق رُكبتيّ! أما بالنسبة إلى عائلتي فأنا فاشلة لأنه ليس لديّ أطفال. كان أمراً سخيفاً. كنتُ أعلم أنه سخيف. ولكن في داخلي شيء يُكرر الدرس. شيء ما داخلي يعتذر لكل مَنْ مدح أشعاري: شيء داخلي قال: ***«أوه ولكن تذكّري، ليس لديّ أطفال»***.

«إيزادورا!».

أكاد أبلغ الثلاثين. أحياناً يظن الغرباء أنني لا أتجاوز الخامسة والعشرين، ولكن في إمكاني أنْ أرى البوادر المتهورة للتقدُّم في السن، بدايات الموت، والاستعداد التدريجي لعدم الوجود. لقد بدأت أخاديد

خفيفة تظهر على جبيني. أستطيع أنْ أزيلها بأصابعي، لكنها تعود فوراً لتتغضن. وتحت العينين هناك شبكة من الخطوط بدأتْ تظهر: قنوات دقيقة، علامات ترسم قمراً مُنمنماً. على زاويتيّ العينين يظهر واحد، اثنان، ثلاثة خطوط دقيقة، كأنما رسمها قلم فنان باستخدام حبر خفيّ. تكاد لا تُلاحَظ – إلا لعين الفنان نفسه. والفم ثابت في مكانه أكثر من المعتاد. والابتسامة تستغرق وقتاً أطول لتتلاشى. وكأنَّ التقدُّم في السن هو، قبل كلِ شيء، الجمود. والوجه موضوع ضمن أنماط مُعدّة مُسبقاً؛ يُنذر قليلاً بالجمود الذي يحلّ بعد الموت. آه الذقن لا زالت متماسكة جيداً... ولكن أليس هناك ما يُشبه السلسلة دقيقة، تكاد لا تظهر، تحيط بمنتصف الرقبة؟ والثديان لا يزالان مرتفعين، ولكن إلى متى؟ والكسّ؟ هذا سيكون آخر مَنْ يزول. سيبقى يعمل بقوة عندما لا يعود أحد يجد في باقي جسدي ما يُغري.

غريبٌ كيف أنني على الرغم من ترددي في الحمل، أبدو أنني أعيش داخل كسّي. إنني أبدو منهمكة بكل التغيرات التي تطرأ على جسدي. إنها لا تمرّ دون أنْ ألاحظها. كأنني أعرف بالضبط متى أطرح بيضي. ففي الأسبوع الثاني من الدورة، أشعر بوخز بسيط ومن ثم ما يُشبه الألم الواخز في أسفل بطني. وبعد ذلك ببضعة أيام غالباً ما أجد بقعة صغيرة من الدم في القلنسوة المطاطية للغشاء؛ لطخة حمراء برّاقة، هي الأثر المرئي الوحيد للبيضة التي كان يمكن أنْ تتحول إلى طفل. عندئذ أشعر بموجة من الحزن تجتاحني تكاد تعصى على الوصف. حزن وارتياح. أليس من الأفضل حقاً ألا يولَد المرء أبداً؟

لقد أصبح الغشاء بالنسبة إليّ أشبه بالهوس. إنه شيء مقدس، حاجز يفصل الرجل عن المرأة. وبصورة ما إنَّ فكرة أنْ أحمل طفله **هو** تُثير غضبي. فليحمل هو طفله! إذا حملتُ طفلاً أريده أنْ يكون كله **ملكي**. امرأة مثلي، ولكن أفضل مني. امرأةٌ تكون أيضاً قادرة على إنجاب

أطفالها الخاصين بها. وليس إنجاب الأطفال بحد ذاته ما يبدو غير مُنصف، بل إنجاب الأطفال من الرجال. أطفال يحملون أسماء أولئك الرجَال. أطفال يحتجزونكِ بوساطة حب رجلٍ عليكِ أنْ ترضيه وتخدميه خشية أنْ يتخلّى عنك. والحب، قبل كُل شيء، هو القيد الأقوى؛ يتحمّل أكثر ويدوم أطول. ومن ثم أقع في الفخ إلى الأبد؛ أصبح رهينة مشاعري أنا وطفلي أنا.

«إيزادورا!».

ولكنْ لعلّي رهينة منذ الآن. رهينة أوهامي. رهينة مخاوفي. رهينة تعريفاتي الزائفة. ما معنى أنْ أكون امرأة، على أية حال؟ إنْ كان يعني أنْ أصبح مثل راندي أو مثل أمي، فلا أريده. وإنْ كان يعني تهدئة الازدراء وإلقاء محاضرات في مباهج الحمل، فلا أريده. الأفضل بما لا يُقارَن أنْ أكون راهبة مثقّفة على أنْ أكون **ذلك**.

لكنَّ الراهبة المثقّفة أيضاً ليست شخصية ممتعة. إنها جافة. فما هي البدائل؟ نظرتُ عالياً وحففتُ ذقني برفق على حاشية معطف أمي من فرو السمّور.

«إيزادورا!».

«حسن. أنا قادمة».

خرجت من الخزانة وواجهت بيير.

طلبَ: «اعتذري لراندي!».

«علام؟».

زعقت راندي: «على كل الأشياء القذرة المثيرة للاشمئزاز التي قلتها عني! اعتذري!».

«إنَّ كل ما قلت هو أنكِ تُنكرين ما أنتِ عليه وإنني لا أريد أنْ أكون مثلك. فلِمَ يتطلّب هذا اعتذاراً؟».

صرخت «اعتذري!».

«لِمَ؟».

«منذ متى تهتمين إلى هذه الدرجة بكونك يهودية؟ منذ متى أصبحت شديدة الورع لعينة؟».

قلت: «أنا لستُ شديدة الورع».

«إذن لماذا تُثيرين مثل هذا الموضوع؟»، هنا كان بيير يستخدم نبرته الفرنسية الشرق - أوسطية العذبة.

«لستُ أنا أبداً مَنْ أثار هذه الحملة المقدّسة لكي أُضاعف عدد المؤمنين الحقيقيين - بل *أنت*. أنا لا أحاول أنْ أهديك إلى أي شيء. إنني فقط أحاول أنْ أعيش حَياتي اللعينة إنْ استطعتُ أنْ *أعثر* عليها وسط هذه الفوضى العارمة كلها».

تابع بيير قائلاً: «ولكن يا إيزادورا، هذا هو لب الموضوع - إننا نحاول أنْ *نساعدك*».

(٤)

بالقرب من الغابة السوداء

كان الأطفال الصغار دائماً يُقتلون لأنه لم يكن في وسعهم أنْ يعملوا بسبب صِغر سنهم... وغالباً ما كانت النسوة تخفي أطفالها تحت ملابسها، وطبعاً عندما نعثر عليهم كنا نسلّم الأطفال لكي يُعدَموا. وكان يُطلب منا أنْ نقوم بعملية الإعدام سراً، لكنْ الرائحة الكريهة والمُنفِّرة المنبعثة من حرق الجثث المستمر كانت تصل إلى المنطقة كلها ويعلم سكان الأحياء المجاورة أنْ عمليات الإعدام تجري في أوشفيتز.

• من خطاب القائد الأعلى لقوات SS، رودولف هوس، في ٥ نيسان، ١٩٤٦، نورنبرغ.

قطار الساعة ٨،٢٩ إلى فرانكفورت

أوروبا رفاهية مغبرّة
عربات الدرجة الأولى
يعلوها غبار الدرجة الأولى.
وقاطع التذاكر
يُشبه خنزيراً

من السُكّر ورديّ اللون
وخطوة الإوزة
على طول الرواق.
يا آنسة!
يُنادي بأربعة مقاطع
وبحزام الصندوق الجلدي المدبوغ
يسوط الهواء
كحزام من المطاط يفرقع.
وقلنسوته ترتفع وترتفع
كتاج بابويّ
تصل عنانَ السماء لتُعلن
السلطة المُطلقة،
الحق الإلهي
لقاطعي تذاكر اتحاد سكك الحديد
يا آنسة!
E pericoloso sporgersi
Nicht hinauslehnen
Il est dangereux ...
(الخروج خطر)
الدواليب تتكرر.
لكنني لست صمّاء.
أعلم أين تنتهي السكة
ويستمر القطار بالانطلاق
داخل الصمت.
أعلم أنّ المحطة

لن تكون مُعلِّمة.
شعري آريّ
كأي شيء آخر.
اسمي خلنج.
جواز سفري، نعم
أشدّ زُرقة من سماء بافاريا.
لكنه يستطيع أنْ يرى
نجمة داود
في سرّتي.
اضرب. اسحق.
أضعُها من أجل
آخر عرض عريّ.
يا آنسة!
أحدهم يهزّني لأستيقظ.
يدي الجبانة
تكاد تُحيّي
الرجل ذا الزي الرسمي
الصغير والخشن.
يقول
Schones Wetter heute
(الطقس جميل اليوم)
ويومئ برأسه
نحو المزارع الضبابية
البعيدة من النافذة.
يقتطع تذكرتي بحركة

رشيقة، ثم
يبتسم لي وجهه البدين
تحت أُشعة الشمس التي
تصبح فجأة معتدلة
كحساء الدجاج.

قبل أنْ أُقيم في هايدلبرغ، لم أكنْ أخجل كثيراً من كوني يهودية. ولديّ بعض الذكريات حول هذا: أذكر جدّتي وهي تنظفُ يديّ بالصابون بين يديها وتقول إنها تُزيل «الألمان» Germans (كمرادف لفظي مُشابه لكلمة جراثيم germs). واذكر أختي تمارس لعبة اسمها «الهروب من الألمان» وفيها نرتدي أثقل ملابسنا، وندثّر أختنا الطفلة الوليدة كلوي ونضعها داخل عربة دمية، ونصنع شطائر التفاح المعلّب، ونجلس لنأكلها في أعماق خزانة البياضات التي تفوح بالرائحة الذكية، آملين أنْ تدوم مؤونتنا حتى انتهاء الحرب ومجيء الحلفاء. ولديّ أيضاً ذكرى شاردة عن صديقتي الحميمة البروتستانتية، غيليان باتْكوك (في سن الخامسة)، تقول لي إنها لا تستطيع أنْ تستحم معي لأنني يهودية واليهود «دائماً يتبولون في ماء الاستحمام». ولكن في العموم، قضيتُ طفولة عالمية. كان أصدقاء أهلي يأتوننا من كل الألوان، والأديان، والأجناس، وكذلك الأمر أصدقائي. ولا بد أني تعلّمت عبارة «عائلة الإنسان» قبل أن تجف ملابس تدرّبي. وعلى الرغم من أننا كنا نتكلم اليديّة في المنزل، إلا أنها كانت تُستخدَم فقط كنوع من اللغة الرمزية من أجل إخفاء بعض الأشياء عن الخادمة. أحياناً كنا نتحدث بها لخداع الأطفال، لكننا، بقراءاتنا الممتازة في عهد الطفولة، كنا دائماً نفهم الفحوى حتى وإنْ فاتنا فهم الكلمات. وكانت النتيجة أننا لم نتعلّم أية

كلمة من اليدية. اضطررتُ إلى قراءة «الوداع، يا كولومبوس»[1] لكي أتعلّم كلمة «shtarke» (قويّ)، و«البرميل المسحور»[2] لكي أسمع عن صحيفة اسمها «إلى الأمام». لم أحضر أي حفل بلوغ قبل أنْ أصل سن الرابعة عشرة (كان حفل بلوغ قريبة لي في سبرينغ فالي، نيويورك) ولزمت أمي المنزل بسبب الصداع. كان جدّي ماركسياً سابقاً يؤمن بأنَّ الدين أفيون الجماهير، وحرَّمَ على جدّتي ممارسة أي «هراء ديني»، ومن ثم اتّهمني (بمزاج سن الثمانين الصهيوني العاطفي) بأنني «مُعادية لعينة للسامية». طبعاً لم أكن مُعادية للسامية. كل ما في الأمر أنني لم أكن أشعر بأنني يهودية كثيراً ولم أفهم لماذا بدأ هو، دون الناس جميعاً، يتكلّم فجأة بنبرة تشيم وايزمن[3]. فترة مراهقتي (في مخيم بريك نيك وورك، ومدرسة الموسيقى والفنون الثانوية، وكمستشارة تحت التمرين في صندوق هيرالد تريبيون فريش إير) أمضيتُها في الأيام المزدهرة عندما كان يُنتخب شخص أسود دائماً رئيساً لصف الراشدين، وكان من قبيل الدلالة الساطعة على الوضع الاجتماعي الراقي أنْ يكون لك أصدقاء وعشاق من أعراق أخرى. وهذا لا يعني أنني لم أُدرك، حتى في ذلك الوقت، النفاق الذي ينطوي عليه ذلك التمييز العنصري المُعاكس - ولكن مع ذلك، نلت نصيبي من الاندماج الصادق. لقد

---

١ - «وداعاً، كولومبوس!»: رواية قصيرة للكاتب الأميركي فيليب روث، وحوّلتْ إلى فيلم سينمائي بالعنوان نفسه عام ١٩٦٩. - المترجم

٢ - «البرميل المسحور»: مجموعة قصصية من تأليف الكاتب الأميركي اليهودي برنارد مالامود (١٩١٤ - ١٩٨٦). - المترجم

٣ - تشيم وايزمن (١٨٧٤ - ١٩٥٢): رجل دولة إسرائيلي. ولد في روسيا. بوصفه صهيونياً بارزاً، كان مسؤولاً إلى حد بعيد عن ضمان إعلان بلفور (وعد بلفور) عام ١٩١٧: كان أول رئيس لدولة إسرائيل من عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٢. - المترجم

اعتبرت نفسي مُناصرة للعالمية، واشتراكيةً فابيّة[٤]، وصديقة للبشر جميعاً (في تلك الأيام لا أحد كان يذكر النساء كمجموعة مستقلة)، وذات نزعة إنسانيّة. كنتُ أتذلّل عندما أسمع شوفينيون[٥] يهود جهلة يتحدثون عن كيف أنَّ ماركس وفرويد وأينشتاين كانوا كلهم يهود، وكيف أنَّ اليهود يحملون جينات وأدمغة متفوقة. كان جليّاً بالنسبة إليَّ أنَّ اعتبار المرء نفسه متفوقاً هي دلالة أكيدة على أنه وضيع وأنَّ اعتبار نفسه استثنائياً هي دلالة أكيدة على أنه عادي.

منذ أنْ كنتُ في الثانية من العمر ونحن نُحضر شجرة الميلاد في عيد الميلاد. لكننا لم نكن نحتفل بميلاد المسيح؛ كنا نحتفل (كما قالت أمي) بـ «الانقلاب الشتوي». وكانت غيليان، التي تضع صورة مريم العذراء والسيد المسيح في المزود تحت شجرة الميلاد الخاصة بها وتعلوها نجمة بيت لحم، تتشاجر معي بحميّة حول هذا. وكنتُ أردد بتصميم ما تقوله أمي: «إنَّ الانقلاب الشتوي يحلّ قبل مولد المسيح». وكانت والدة غيليان الرقيقة تصرّ على قصة الطفل يسوع وإنجاب العذراء.

في عيد الفصح، كنا نبحث عن البيض الملوَّن، لكننا لم نحتفل بقيامة المسيح؛ كنا نحتفل بـ «الاعتدال الربيعي»، المولد الجديد للحياة، طقوس الربيع. ولو أصغيت إلى أمي، لاعتقدتَ أننا من قبائل بدائية.

سألتها «ماذا يحصل للناس بعد أنْ يموتوا؟».

قالت «إنهم لا يموتون حقاً. إنهم يعودون إلى بطن الأرض، وبعد

---

٤ - الاشتراكية الفابيّة: جمعية تشكلت أواخر القرن التاسع عشر وكان هدفها نشر المبادئ والأفكار الاشتراكية بالطرق السلميّة. - المترجم

٥ - الشوفينيّ: الشخص المُغالي في وطنيّته إلى درجة التعصُّب. - المترجم

فترة يولدون من جديد، كما ينبت العشب أو تنمو البندورة». وكان هذا الكلام يزعجني بصورة غريبة. ربما كان يواسيني أنْ أسمعها تقول «إنهم لا يموتون»، ولكنْ مَنْ يُريد أنْ يتحول إلى قرص *بندورة*؟ أكان ذلك قَدَري؟ أنْ أصبح قرص بندورة بكل ما يحتوي من بذور رخوة؟».

ولكن أعجبك أم لم يُعجبك، تلك كانت ديانتي الوحيدة. نحن لم نكن من اليهود حقاً؛ كنا وثنيين وموحدين. آمنًا بالتقمُّص وبأرواح البندورة، وحتى (في حقبة الأربعينيات) بعلم البيئة. ولكن مع هذا كله، حالما وطأتُ أرض ألمانيا بدأتُ أشعر بقوة بأنني يهودية وبأنني مُصابة بجنون الاضطهاد (أليسا شيئاً واحداً؟).

فجأةً يتوجه الناس الذين يستقلون الحافلات إلى منازلهم التي يكتزون فيها مجموعاتهم الصغيرة البارعة من الأسنان الذهبية وخواتيم الزواج.... كانت مظلات المصابيح في فندق يوروبا مُجزّعة بطريقة ممتازة ومريبة... وقطعة الصابون في غرفة حمّام سيلبرنر هيرش رائحتها غريبة... والقطارات شديدة النظافة تجعلك تشعر برهاب الأماكن الضيقة وعربات الماشية التي تفوح بالروائح الكريهة... وقاطع التذاكر، بوجهه الوردي الذي يُشبه قطعة حلوى على صورة خنزير، لم يكن ينوي أنْ يدعني أترجّل... ورئيس المحطة، بقبعته النازية العالية القمة، كان ينوي أنْ يتحقق من أوراقي بذريعة ما ويُسلّمني إلى أحد رجال الشرطة المكسو باللون الأخضر وينتعل حذاءً عالي الرقبة من الجلد الأسود ويمسك بسوط يتناسب معه... وحارس الجمارك عند نقطة اجتياز الحدود كان حتماً ينوي أنْ يستوقفني، ويكتشف الكمية الصغيرة من المُهدئات من مستوصف الجيش المجاني - وهي في المعتاد مؤونتي من الطيّبات عندما أذهب إلى إيطاليا - ويأخذني بعيداً إلى كهف سري تحت جبال الألب حيث سأُعذّب بأساليب بسيطة ومتوحشة إلى أنْ أعترف بأنّني تحت غطاء الوثنية، والتوحيدية

والمعرفة المتحذلقة بالشعر الإنكليزي، لم أكنْ أقلّ يهودية من آن فرانك[٦].

من منظور التاريخ، من الواضح أنَّ بينيت وأنا كنا ندين بوجودنا في هايدلبرغ (وبزواجنا في الواقع) إلى خداع الحكومة للجمهور الأميركي، الذي كُشفَ عنه النقاب لاحقاً في أوراق البنتاغون. وبعبارة أخرى، تزوجنا كنتيجة مباشرة لاستدعاء بينيت لأداء الخدمة العسكرية - واستُدعي للخدمة العسكرية كنتيجة مباشرة لبناء القوة العسكرية المتوجهة إلى فييتنام بين عاميّ ١٩٦٥ - ٦٦، والتي بدورها كانت نتيجة مباشرة لخداع الحكومة للجمهور الأميركي. ولكن مَنْ كان يعلم هذا في ذلك الوقت؟ نحن خمّناه، ولكن من دون برهان. كان لدينا عناوين كبرى مُثيرة للسخرية تعدُ بأنَّ إعداد الجيش هو«لإنهاء الحرب وإحلال السلام الدائم». كان لدينا عناوين قصيرة لذيذة مثل: «كان ضرورياً تدمير القرية لكي ننقذها...». كان لدينا ناشطون مفوّهون كالذين جاؤوا لاحقاً. ولكن لم يكن لدينا أي دليل واضح وصريح على الصفحة الأولى من *«التايمز»*.

وهكذا استُدعي بينيت، طبيب نفس الأطفال الذي أتمَّ نصف مدة تدربه على التحليل، للخدمة العسكرية وهو في سن الواحد وثلاثين عاماً. كنا قد تعارفنا قبل ذلك بثلاثة أشهر. كان كل منا قد خرج من علاقة حب فاشلة - وفي حالتي كان زواجاً أولاً كارثياً. كنا قد سئمنا حياة العزوبية، وأصبحنا نشعر بالرعب من وحدتنا، وكنا سعداء في

---

٦ - آن فرانك (١٩٢٩ - ١٩٤٥): ألمانية يهودية. لديها **«مذكرات»** (عام ١٩٤٧) ذائعة الصيت في أوروبا وتستدر العطف الشديد على اليهود بسببها، وتسجل فيها تجربتها وعائلتها في أثناء الاختباء في أمستردام من النازيين (من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤)، ومن ثم انكشف أمرهم وماتت في معسكر الاعتقال. - المترجم

حياتنا الجنسية، ونخشى المستقبل، وتزوجنا قبل أنْ يتوجه بينيت إلى فورت سام هيوستن بيوم واحد.

منذ البداية كان الزواج من النوع الغريب. كلانا كنا ننتظر الإنقاذ. وإذا بنا نتشبث كلٌ منا بالآخر ونغرق معاً. وفي غضون أيام سادت العدائية بيننا. وسرعان ما انتقلنا من تبادل الإهانات اللفظية إلى الصمت المُطبق، تقطعه فترات من المضاجعات التي بقيتْ جيدة بصورة مذهلة. ولم يعلم أيٌّ منا ما الذي تورطنا فيه، ولماذا.

قبل أنْ نأتي إلى هايدلبرغ، كان الاستعداد لمرور شهرين على زواجنا لا يقلّ غرابة عن سبب استعدادنا للزواج. كنا اثنين من مانهاتن، مرعوبَين، ومُهاجرَين، مستقرين في سان أنطونيو، تكساس. وحلقَ بينيت شعره، وارتدى ملابس الجيش الخضراء، وأُجبِرَ على الجلوس طوال ساعات والإصغاء إلى الدعاوى العسكرية حول كيف تصبح طبيباً في الجيش - وكره ذلك بكل جوارحه.

ولزمت أنا «المنزل» في فندق عام مُعقَّم يقع خارج سان أنطونيو، أشاهد التلفاز، وأعمل بلا طائل على قصائدي، شاعرة بالغضب وبالعجز. وكغالبية بنات نيويورك الأصليين، لم أتعلَّم قيادة السيارة. كنتُ في الرابعة والعشرين متروكة في فندق على الطريق أواجه شريطاً تسفعه الشمس من الشارع العام الواصل بين سان أنطونيو وأوستن. نمت حتى الساعة العاشرة والنصف، واستيقظت لأتفرّج على التلفاز وأنا أضع المساحيق على وجهي بعناية (لـمَنْ؟)، ثم هبطت إلى الطابق السفلي والتهمتُ وجبة خفيفة من الكَعك الرقيق، والسجق، والبرغل، وارتديت ثوب الاستحمام (الذي كان يزداد ضيقاً باطّراد)، وتشمّستُ على مدى ساعتين أو نحوهما. ثم سبحتُ في البركة خمس دقائق وعدتُ إلى الطابق العلوي لأواجه «عملي». ولكن وجدتُ أنْ من المستحيل أنْ أعمل. كانت الوحشة الناتجة عن الكتابة ترعبني.

ورحت أبحث عن أي عذر لأتهرَّب. لم يكن لديّ أدنى إحساس بأنني كاتبة أو بإيمان في مقدرتي على الكتابة. لم أر حينئذ أنني كنتُ أكتبُ حياتي كلها. كُنتُ قد بدأتُ أكتب وأزيِّن بالصور قصصاً قصيرة وأنا في الثامنة من العمر. واحتفظتُ بيوميات منذ سن العاشرة. وكنتُ كاتبة رسائل نهمة وساخرة منذ سن الثالثة عشرة، وكنتُ أُقلِّد عن عمد رسائل كيتس وجورج برنارد شو طوال فترة مراهقتي. وفي سن السابعة عشرة، عندما ذهبت إلى اليابان مع والديّ وأخواتي، أخذتُ معي آلتي الكاتبة المحمولة وصرتُ أقضي كل مساء أعيد تلخيص ملاحظات النهار في دفترٍ أوراقه رخوة. وبدأتُ أنشر قصائدي في مجلات أدبية صغيرة خلالَ عامي الأخير في الجامعة (حيث فزتُ بغالبية جوائز الشعر وحررتُ المجلة الأدبية). ومع ذلك وعلى الرغم من الحقيقة السافرة بأني ممسوسة بالكتابة، وعلى الرغم من منشوراتي والرسائل التي تلقّيت من وكلاء في مجال الأدب يسألونني فيها إنْ كنتُ «أعمل على تأليف رواية»، لم أؤمن حقاً بجديّة التزامي على الإطلاق.

بدل ذلك، سمحتُ لنفسي بالانتقال إلى كلية التعليم العالي. وكان من المفترَض أنْ تكون هذه الكلية آمنة. كان من المفترَض أنْ أحمل هذه الكلية «تحت حزامي» (كطفل؟) قبل أنْ أستقرّ وأباشر التأليف. كم يبدو هذا الآن خِداعاً! لكنه في ذلك الوقت بدا تصرّفاً متعقّلاً، وحكيماً، ومسؤولاً. لقد كنتُ فتاة صالحة بالإكراه دائماً يُغريني أساتذتي بالمنح الدراسية. وتمنيت أنْ أخذلهم ولكنني لم أتحل بالشجاعة الكافية لفعل ذلك - لذلك بدَّدتُ عامين ونصف على شهادة ماجستير في الفنون وجزءاً من شهادة دكتوراه قبل أنْ يتَّضح لي أنَّ كلية الدراسات العليا تتداخل بخطورة مع ثقافتي.

الزواج من بينيت انتزعني من دراستي، واستأذنت بالغياب لألحق به في الجيش. ماذا كان في وسعي أنْ أفعل غير ذلك؟ وهذا لا يعني

انني كنتُ راغبة في التخلّي عن منحتي الدراسية - لكنه كان يعني أنَّ التاريخ سدّد لي رفسة. والزواج من بينيت أبعدني أيضاً عن نيويورك وعن أمي وعن قسم دراسة اللغة الإنكليزية في جامعة كولومبيا وعن زوجي السابق وعن عشاقي السابقين - وجميعهم كانوا متشابهين بالنسبة إليّ. لقد أردتُ أنْ أخرج؛ أنْ أهرب. وكان بينيت مطيّتي لأفعل ذلك. وبدأ زواجنا تحت هذا العبء الثقيل. واستمراره كان أشبه بالمعجزة.

في هايدلبرغ، بنينا منزلاً في مخيم اعتقال أميركي شاسع في القسم الذي أنشئ بعد الحرب من المدينة (وهو أبعد ما يكون عن القسم القديم الجميل بالقرب من «القلعة»، الذي يزوره السياح). كان جيراننا في معظمهم قادة عسكريين و«تابعيهم». وفيما عدا بعض الاستثناءات الملحوظة كانوا أناساً مُراعين لمشاعر الغير لم أعرف مثيلاً لهم من قبل. فالزوجات يُرحّبن بك بالقهوة عندما تنتقل للعيش بينهم. والأطفال ودودون ومهذبون بصورة تثير الجنون. والأزواج يهبّون بشهامة لتقديم المساعدة لإخراج سيارتك من الثلوج أو في حمل صناديق ثقيلة إلى الطابق العلوي. وما أدهشنا أكثر حينئذ هو عندما أعلنوا أمامك أنَّ الحياة رخيصة في آسيا، وأنَّ على الولايات المتحدة أنْ تقصف الفياتكونغ حتى تبيدهم، وأخيراً، أنَّ الجنود موجودون هناك فقط من أجل أداء واجبهم وليس ليكوّنوا آراءً سياسية. واعتبروا أنني وبينيت من مخلوقات الفضاء الخارجي، وهكذا شعرنا حقاً.

على الجانب المقابل من الطريق كان يسكن جيراننا، الألمان. وفي عام ١٩٤٥، عندما كانوا لا يزالون مُشبّعين بروح الحرب، كرهوا الأميركيين لأنهم كسبوا الحرب. والآن، في عام ١٩٦٦، أصبح الألمان دُعاة للسلام (على الأقلّ عندما يتعلق الأمر بدول أخرى) وكرهوا الأميركيين لوجودهم في فييتنام. وتضاعفت المفارقة

بسرعة كبيرة بحيث لم يعُد بالإمكان تحمّلهم. وإنْ كانت سان أطونيو مكاناً غريباً، فإنّ هايدلبرغ كانت ألف مرة أشد غربة. لقد عشنا بين مجموعتين من الأعداء وكنا معاً من التعاسة إلى درجة أننا أصبحنا عدوّين كلّ منا للآخر أيضاً.

لا زال في استطاعتي أنْ أُغمض عينيّ وأتذكّر ساعة وجبة العشاء في قرية مارك توين، في هايدلبرغ. رائحة وجبات العشاء الفخمة في الأروقة. وشبكة إذاعة القوات المسلحة تعلن نتيجة مباريات كرة القدم وعدد الفياتكونغ (المتضخّم) الذين قُتلوا في الجانب الآخر من العالم. والأطفال يصرخون. وقيّمات في الخامسة والعشرين من أعمارهن بوجوه يكسوها النمش من كنساس يتجولن بمعاطف المنزل ولفافات الشعر، دائماً ينتظرن ليلة سندريلا التي تستحق أنْ يمشطن تجعدات شعورهن لأجلها. ولا تأتي أبداً. وبدلاً عنها يأتي الباعة الجوالون ويتمشون في الأروقة، يرنّون أجراس الأبواب، يبيعون كل شيء من الودائع المشتركة إلى الموسوعات المصوّرة (بمفردات مُبسّطة) إلى السجاد الشرقي. وبالإضافة إلى الأميركيين المتسكعين والبريطانيين المتشردين والطلاب الباكستانيين الذين يبيعون «كعمل إضافي»، هناك مجموعات متنوعة من ألمان أقزام، يبيعون كلٍ شيء من لوحات زيتية «مرسومة باليد» لجبال الألب المكسوة بالسُكر تحت مشاهد غروب من العسل، إلى أباريق البيرة التي تعزف لحن «فليحفظ الله أميركا» إلى ساعات حائط مع صياح ديك على هيئة الغابة السوداء تدق على الدوام. والجنود يشترون ويشترون ويشترون. والزوجات يشترين لكي يملأن حياتهن الفارغة، ويخلقن وهم الوطن في مساكنهن المزرية، ويُبعثرن شحم المال الأميركي في المكان. والأطفال يشترون دمى خوذات الحرب وبزّات سُخرة بمقاس للأطفال لكي يمارسون ألعابهم المُفضّلة لمعارك الفياتكونغ ضد ذوي القبعات الخضراء ويستعدون

لمستقبلهم. الأزواج يشترون أدوات تعمل بالطاقة الكهربائية تعادل إحساسهم بأهميتهم. كلهم يشترون ساعات حائط كرمز للطريقة التي يُبدد بها الجنود حياتهم.

كانت هناك شائعة تسري في قرية مارك توين تقول إنَّ الساعات الألمانية تجلب الثراء في «أرض التعاونيات العسكرية الكبرى»، لذلك يحرص كل قائد أو رقيب أو ملازم أول على أنْ يجلب إلى المنزل على الأقلّ ثلاثين منها. بقيتْ مُثبّتة على جدران بيته طوال سنتين، تدق وتصيح على فترات غريبة، وتجرف أولاده وزوجته إلى حافة الجنون تماماً كما كان الجيش يفعل به. وبما أنَّ الجدران في تلك المباني رقيقة كالورق، فإنَّ ساكنين لا يصدر عنهم أي ضجيج (مثلنا) كانوا يسمعون صياح ديك ثابت طوال النهار. فإذا لم يصدر صياح ديك من عند الجيران، نسمع ضجيج طفل مزعج يعزف لحن «راية مُرصّعة بالنجوم» الذي لا يمكن عزفه على أرغن هاموند (دُفعَ ثمنه بالتقسيط الشهري المُريح - أما *الصعب* فكان الإصغاء إليه) أو ضابط صف أول يعوي عبر الساحة المُربّعة منادياً على طفليه (التوأم وين ودواين - ويُخاطبهما بـ «المؤذيين»). وفي حين أنَّ صوته كان يُثير حنقي، فإنَّ رمزية الساعات كانت تسليني. كان الجميع في الجيش يعدّون الأيام والدقائق دائماً: بعد ثمانية أشهر سوف تأتي مناوبتكم، وبعد ثلاثة أشهر أخرى سيذهب زوجك إلى فيتنام، وبعد سنتين أخريين سيأتي دورك في الترقية، وبعد ثلاثة أشهر أخرى ستتمكن من استدعاء زوجتك وطفلك... كان صياح الديك مُسجّلاً في كل دقيقة من كل ساعة على امتداد تلك المسيرة الطويلة نحو النسيان.

فيما عدا أنه لم تكن لدينا ساعات جدران، فإنَّ شقتنا لم تختلف كثيراً عن شقة أي ضابط شاب آخر في المُجمّع السكني. كان الأثاث تشكيلة ألمانية شنيعة مُغالى في تنجيدها صُنِعَتْ بعد الحرب

مباشرة وأُعطيَتْ للأميركيين كجزء من عملية الإصلاح. ولا شك في أنها جُعلَتْ أشدّ قُبحاً كنوع من الانتقام. فأولاً كانت بلون البيع السقيم، أماَ الآن، وبعد مرور عشرين عاماً من العمل الشاقّ، أضحت طرية، مُبقّعة، ومُلطّخة بلون أصفر البول يحمل علامات العديد من الحيوانات المنزلية والأطفال وسُكر الصباح الباكر. وبذلنا أقصى جهدنا لتغطية تلك الأرائك الضخمة والكراسي العملاقة بأوشحة برّاقة ووسائد ومنسوجات مُزركشة. وكنا قد كسونا الجدران بمُلصقات وملأنا عتبات النوافذ بالمزروعات. وغطينا الأرفف بغالبية ما لدينا من كتب (شُحنَتْ، بتكاليف عالية، بوساطة الحكومة). ومع ذلك، بقيَ المكان يُثير الانقباض في النفس. هايدلبرغ نفسها كانت كئيبة. إنها بلدة جميلة يهطل فيها المطر عشرة أشهر في العام. وتُكافح الشمس طوال أيام لتشرق، ثم تظهر مدة ساعة أو نحوها، ومن ثم تتراجع من جديد. وكنا نعيش في سجن زريّ. في حي للأقليات الروحية والمثقفة لم نتمكن من مغادرته بالمعنى الحرفي دون أنْ يُزج بنا في السجن.

غرق بينيت في الجيش وفي اكتئابه. لم يكن في وسعه أنْ يُساعدني. ولم يكن في وسعي أنْ أساعده. كنتُ أسير في شوارع البلدة القديمة وحدي تحت المطر. أمضيت ساعات أتنقّل بين المتاجر الجماعية أقلّب بضائع أعلم أني لن أشتريها أبداً، أحلم وسط الحشود، تتناهى إلى سمعي أحاديث طويلة لم أفهم منها في أول الأمر إلا نُتفاً، أصغي إلى جمهرة الباعة المتجولين وهم يصيحون مُعددين مزايا الشعر المستعار المرن، والأظافر الصناعية، وأطقم أدوات النحت، ومطاحن اللحم، وألواح التهريم... ويبدؤون بالقول «*Meine Damen und Heren ...*» (سيداتي سادتي...)، وكل جُملة طويلة كانت توشّى بهذه العبارة. ويبقى رنينها في أذنيّ بعد أنْ تنتهي بقليل.

كانت السيدات الشبيهات بحبّات البطاطا يكتنفنني، مُشكّلات

جداراً رمادياً من الملابس الثقيلة. إنَّ ألمانيا تعجّ بجيوش من السيدات المتدثرات بالملابس الرمادية ويعتمرن قبعات قروية وينتعلن أحذية ضخمة ولديهن لغد تتفجّر بالأوعية الشعرية وردية اللون. وعن قُرب، تبدو وجناتهن مزركشة بألعاب نارية دقيقة ثبِّتت، كما في صورة فوتوغرافية، في لحظة تفجّرها. تلك الأرامل البدينات كنّ في كل مكان: حاملات حقائب خيطيّة يبرز منها الموز، يمتطين بمؤخراتهن العريضة مقاعد دراجات هوائية ضيّقة، ويستقللن قطارات مُجللة بخيوط المطر من منشن إلى هامبورغ، ومن نورنبرغ إلى فرايبرغ. إنه عالم من الأرامل. وآخر حلّ وعد به الحلم النازي: عالم خال من اليهود ومن الرجال.

أحياناً، في أثناء تجوالي بلا هدى، وركوب الحافلة، وشرب البيرة مع البسكويت في المقهى، أو شرب القهوة مع الكعك في محل بيع المعجنات، كنتُ أتخيَّل أنني وُلدتُ حاملة شبح يهودي قتل في معسكر اعتقال. مَنْ كان سيُخبرني أنني لستُ كذلك؟ كنتُ أخترع حبكات معقّدة أتظاهر أمام نفسي بأنها حكايات سريالية أنوي أنْ أكتبها. لكنها كانت أكثر من حكايات ولم أكن أكتب. وأحياناً كنتُ أعتقد أنني أُصاب بالجنون.

للمرة الأولى في حياتي أصبحت مُهتمة بقوة بتاريخ اليهود وتاريخ الرايخ الثالث. فتوجهت إلى مكتبة الخدمات الخاصة وباشرت الحفر في الكتب التي تعطي تفاصيل عن الأعمال المرعبة وعمليات التهجير ومعسكرات الموت. قرأتُ عن فرق الموت وتخيلتني أحفر قبري بيدي وأقفُ على حافة حفرة كبيرة متشبثة بطفلتي بينما الضباط النازيون يُهيئون بنادقهم الرشاشة. تخيّلت صراخ الرعب وأصوات سقوط الأجساد. تخيّلت أنني جريحة وأتدحرج إلى داخل الحفرة مع الأجساد المرتعشة والتُراب يُرمى فوقي. كيف يمكنني أنْ أحتجّ

وأقول إنني لستُ يهودية بل مؤمنة بوحدة الوجود؟ كيف لي أنْ أدّعي عبادة الانقلاب الشتوي وطقوس الربيع؟ لقد كنتُ يهودية كغيري، بما يخدم أهداف النازيين. هل سأعود إلى التراب وأتحول إلى زهرة أو إلى ثمرة؟ أهذا ما حدث لأرواح كل اليهود الذين قُتلوا في يوم مولدي؟

في الأيام المُشمسة النادرة كنت أتردد على الأسواق. كانت أسواق الفاكهة في ألمانيا تفتنني بجمالها الشيطانيّ. وكان هناك سوق يوم السبت الذي يقع خلف كنيسة الروح القدس القديمة في ساحة البلدة التي يعود تأسيسها إلى القرن السابع عشر. كانت تزخر بالمظلات ذات الخطوط البيضاء والحمراء وأكوام الفاكهة تنزف كأنها دماء بشرية. توت العليق، والفريز، والخوخ القرمزي، والعنبية. وأكداس من الورد والفوانيا. كل شيء بلون الدم وكل شيء ينزف داخل الصناديق الخشبية ويسيل على الأسقف الخشبية للأكشاك. ألِإلى هذا ذهبت أرواح الحرب اليهودية؟ ألهذا يزعجني ولع الألمان بالاهتمام بالحدائق؟ وكل ذلك الاستحسان غير المُستحق لقدسية الحياة؟ وكل ذلك الحب الموجّه نحو رعاية الثمار والأزهار والحيوانات؟ *لكننا لم نكن نعلم ما الذي يحدث لليهود*، هذا ما لا ينون يُرددونه مراراً وتكراراً. *لم يكن يُذكر في الصحف. حدث ذلك قبل فقط اثني عشر عاماً*. وقد صدّقتهم، على أية حال. وبصورة ما، تفهّمتهم. ووددتُ لو أراهم جميعاً يموتون ميتات بطيئة ومرعبة. إنّ الجمال الدموي للأسواق - كل تلك الحيزبونات العجائز وهنّ يُقيّمن الفاكهة النازفة، والآنسات الشقراوات المتينات وهنّ يعددن الورود - لم يفشل قط في إثارة أشدّ المشاعر عنفاً ضد ألمانيا.

لاحقاً، تمكنت من الكتابة حول هذه الأشياء وتخلّصتُ جزئياً من الشياطين. ولاحقاً، تمكنتُ من عقد صداقات مع ألمان ومن إيجاد بعض الأشياء التي أحبها في اللغة والشِعر. ولكن في ذلك العام الأول

الموحش، لم أستطع أن أكتب وكان أصدقائي قليلين. عشتُ كشخص منعزل، أقرأ، وأتمشّى، وأتخيّل أنّ روحي تتسرب من جسمي وأني ممسوسة بروح شخص مات في منزلي.

قمت باستكشاف هايدلبرغ كأنني جاسوسة، بحثاً عن أبرز علامات الرايخ الثالث التي لم تُذكر عن عمد في المقررات المدرسية. عثرت على المكان الذي كان يوجد فيه الكنيس الذي أُحرقَ. وبعد أنْ تعلّمت قيادة السيارة، أصبح في استطاعتي أنْ أذهب إلى أماكن أبعد وأعثر على أطلال سكك حديد مهجورة وعربة شحن قديمة مكتوب على جانبها «خط الحديد الملكي». (كل القطارات الجديدة اللامعة كان مكتوباً عليها «خط الحديد الفدرالي») شعرتُ كأنني إحدى أولئك الإسرائيليين المتعصبين الذين لاحقوا النازيين في الأرجنتين. أما أنا فكنتُ ألاحق ماضيّ الخاص، يهوديّتي التي لم أتمكن من الإيمان بها من قبل.

أعتقد أنّ أشدّ ما أثار حنقي كان الطريقة التي غيّر بها الألمان تلوّنهم الواقي، الطريقة التي يتكلمون بها عن السلام وحب الخير، الطريقة التي يدّعون بها أنهم قاتلوا على الجبهة الروسية. لقد مقتُّ نفاقهم. على الأقلّ لو أنهم قالوا صراحة: «*لقد أحببنا هتلر*»، لوازنت إنسانيتهم بمقدار صدقهم وربما سامحتهم. وخلال السنوات الثلاث التي أمضيتها في ألمانيا لم أقابل إلا رجلاً واحداً اعترفَ بذلك. كان نازياً سابقاً وأصبح صديقاً لي.

كان هورست هومل يعمل في مجال الطباعة في مكتب صغير في البلدة القديمة. كانت طاولته مترعة بالكتب والأوراق، وبأنواع سقط المتاع كافة، وكان دائماً يتحدث عبر الهاتف أو يُصدر أوامره صارخاً لثلاثة من معاونيه المرتعدين. كان يبلغ حوالي خمسة أقدام طولاً، بكرش كبير، ويضع نظارات سميكة ذات لون كهرماني خفيف تُبرز

الحلقات المتشكلة تحت عينيه. وبعد لقائه به في المرة الأولى، أصبح بينيت دائماً يُشير إليه بالقزم. في معظم الوقت، كان الهر هومل (كما أسميته في البداية) يتكلّم الإنكليزية بطلاقة، لكنه كان أحياناً يُصدر نباحاً يُشوّه فصاحته السابقة كلها. وذات يوم، عندما أخبرته بأنني يجب أنْ أعود إلى المنزل لأُعدّ العشاء لبينيت، قال: «إنْ كان رجلكِ جائعاً، فعليكِ أنْ تذهبي إلى المنزل وتطبخيه».

كان هومل يطبع كل شيء بدءاً بلوائح الطعام وانتهاءً بالمنشورات الدعائية ونشرة *«نادي زوجات ضباط هايلدلبرغ»* - وهي مجلة من أربع صفحات أنيقة مُرصّعة بالأخطاء المطبعية، تسخر بصورة رديئة من بلوى زوجة الجندي، وتصور زوجات الجنود مزينات بقبعات من الأزهار، ومُحزَّمات بمشدّات بلون أرجواني، ويضعن نظارات مهرجين لامعة. ودائماً يقبلن جوائز من بعضهن البعض مقابل خدمات عامة متنوعة.

ومن باب التسلية، كان هومل ينشر كتيّباً أسبوعياً يسمّى *«هايدلبرغ قديماً وحديثاً»*. كان يتألّف في معظمه من إعلانات عن مطاعم وفنادق، ولوائح مواعيد انطلاق القطارات، وعروض دور السينما، وما شابهها. لكنَّ هومل كان أحياناً (وقد عمل مراسلاً حربياً في زمن معركة أنتزيو[٧]) يكتب مقالة افتتاحية حول قضية اجتماعية ما، وبين حين وآخر كان يُجري لقاءً صحفياً مع شخصية من البلدة أو زائر على سبيل التسلية.

بعد أنْ أمضيتُ عاماً من تصيُّد النازيين في هايدلبرغ (وتولي سلسلة من الأعمال الغريبة المتنوعة، وكلها لم تعمل إلا على زيادة كآبتي) قابلت

٧ - أنتزيو: موقع في غرب إيطاليا، وهو المكان الذي نزلت فيه قوات التحالف في إيطاليا زمن الحرب العالمية الثانية. - المترجم

هومل مُصادفة وطلب مني أنْ أكون «مُحررته الأميركية» وأساعده في جلب المزيد من القراء باللغة الإنكليزية إلى ***«هايدلبرغ قديماً وحديثاً»***. وكانت الخطة تقضي بأنْ أغريهم بكتابة عمود بغرض جذب السياح وبيعهم منشوراته الدعائية: أدوات الصيني روزنثال، وتماثيل صغيرة صناعة هومل (لا صلة للاسم به)، وأدوات منزلية، وأنواع محلية من البيرة والنبيذ. وكان عليّ أنْ أكتب عموداً أسبوعياً أتلقى مقابله ٢٥ ماركاً ألمانياً (أو ٧ $) ويُزودني هومل بالصور الفوتوغرافية ويترجم النص إلى الألمانية على صفحة مقابلة. وكان في وسعي أنْ أكتب في أي موضوع يُثير اهتمامي. أي شيء على الإطلاق. وطبعاً قبلت العمل.

في أول الأمر كتبتُ في مواضيع «آمنة» - قلاع مُدمَّرة، احتفالات النبيذ، مطاعم تاريخية، غرائب وعجائب في تاريخ هايدلبرغ وأسفار أبوكريفا[٨]. وقد استغللت العمود لأتعلَّم أشياء. استخدمته كوسيلة للتطفُّل على أماكن ما كنت لأراها في حالة أخرى. أحياناً أكتب بسخرية، لأتهكَّم على أحداث كأسبوع الصداقة الأميركية - الألمانية أو احتفالات تُقام في قاعة البلدة. وأحياناً أكتب تعليقات على عروض فنية وأوبرات، ونقاشات في الهندسة المعمارية والموسيقى، وسرداً لوقائع زيارات تاريخية لهايدلبرغ كزيارة غوته ومارك توين. وتعلَّمت أشياء ممتعة شتى عن المدينة، والكثير من الأحاديث بالألمانية المحكية، وأصبحت شخصية على قدر قليل من الشهرة في المدينة وفي مركز الجيش، وتلقيت دعوات من مطاعم في هايدلبرغ أرادت مني أنْ أكتب عنها وقدَّمت لي الكثير من الطعام والشراب. ولكن كان هناك تباينٌ جليّ بين كتاباتي الرشيقة، الذكية، حول مسرات هايدلبرغ

٨ - أسفار أبوكريفا: أربعة عشر سفراً تُلحَق بالعهد القديم من الكتاب المقدس، لكنَّ البروتستانت لا يعترفون بصحتها. وهذا التعبير يُشار به عموماً إلى أية كتابات مشكوك في صحتها. - المترجم

وبين شعوري الحقيقي اتجاه ألمانيا. وبالتدريج أصبحت أكثر جرأة وقدرة على وضع مشاعري في كتابتي فيما يُشبه الانحياز المضطرب. وما تعلمت من تلك الأعمدة الصحفية غطّتْ على ما تعلمت لاحقاً في «كتابتي الحقيقية». لقد بدأتُ بارعة وسطحية وكاذبة. وشيئاً فشيئاً أصبحت أكثر شجاعة. وشيئاً فشيئاً كففتُ عن محاولة الاختباء. ورحت أنزع الأقنعة واحداً بعد آخر: قناع السخرية، قناع التعالي، قناع ادّعاء الرقيّ، وقناع اللامبالاة.

في أثناء تجوالي في المدينة بحثاً عن أشباح، اكتشفت أشد الأشباح صلابة قاطبة - مُدرّجاً نازياً هاجعاً بين التلال المُشرفة على هايدلبرغ. وأصبح الذهاب إلى هناك هوساً بالنسبة إليّ. وبدا أنَّ لا أحد في هايدلبرغ يعلم بوجود ذلك المكان وهذا الإنكار أضفى على المُدرَّج جاذبية إضافية. ولعله لم يكن له وجود إلا في مخيلتي. ورحت أتردد عليه مراراً وتكراراً.

كان قد بُنيَ في عام ١٩٣٤ أو ٣٥ على أيدي أفراد رابطة الشبيبة العاملة (وكان في استطاعتي أنْ أتخيّلهم: شقر، بلا قمصان، ينشدون *«ألمانيا فوق الجميع»*، يرفعون الحجارة الصخرية البنيّة من وادي نيكار بينما حسناوات الراين متوردات الخدود يجلبن لهم أباريق بيرة بلون البول)، وكان هاجعاً بين أعطاف جبل هايلينغنبرغ، أو الجبل المقدّس، حيث يُقال إنَّ ضريح أودين[٩] كان يقوم ذات يوم. كنتُ أصل إلى المُدرّج بقيادة السيارة عبر النهر من البلدة القديمة، إلى شارع عريض يؤدي إلى الضواحي، ثم صعوداً إلى الجبل المقدّس، أستدل بالإشارات إلى أطلال بازيليكا القديس مايكل. وموقع المُدرَّج نفسه لم يكن مُعلّماً، بصورة مشؤومة.

٩ - أودين: في الأساطير الجرمانية؛ هو رب الأرباب. - المترجم

كان الدرب يصعد ملتوياً خلال الغابات، والضوء يتسرّب من بين أشجار الصنوبر الخضراء القاتمة، وكنتُ أشبه بغريتل على متن سيارة فولكسفاغن تلهث وتنفث، ولكن لا أحد كان ينثر قطعاً من الخبز خلفي[١٠].

في أثناء صعودي الملتوي إلى أعلى التل، أفكّر في كل الحكايات الخرافية الألمانية القاسية التي تتضمن فتيات صغيرات خائفات وغابات مظلمة، كانت السيارة تتوقف على السرعة الثالثة. وخشية أنْ أندحرج متراجعة إلى أسفل التل، أنتقل إلى الثاني ومن جديد أتوقف. وأخيراً، أضطر إلى الصعود بالسرعة الأولى.

عند قمة الجبل المقدّس كان هناك برج قصير مبني بالحجارة الرملية الحمراء، وعليه دَرَج متهدّم، يكسوه الطحلب، يلتوي صاعداً إلى المشهد العام من الأعلى. وأرتقي الدَرَج الزلق لأشاهد المدينة – فأرى النهر من هناك، براقاً، والغابات الرقطاء، وكتلة القلعة الضخمة المائل لونها إلى الوردي. لماذا يذكر تاريخ الرايخ الثالث كل شيء عن ألمانيا ما عدا أنها جميلة؟ أكان ذلك مفرط الإبهام بالمعنى الأخلاقي؟ جمال الريف وقُبح الناس. هل عجزنا عن تحمُّل مثل هذه المفارقة؟

بعد هبوط البرج، كنتُ أمشي عميقاً داخل الغابة مروراً بمطعم صغير يُدعى «حانة الغابة» يرتاده مواطنون عريضو المؤخرات يشربون البيرة في الخارج في فصل الصيف، والنبيذ المتبّل في الداخل في

١٠ – الإشارة هنا إلى قصة للأطفال التي تحكي عن الطفلين هانسل وغريتل اللذين يتركهما أبواهما في الغابة بسبب فقرهما، لكنْ هانزل ينثر قطع الخبز لكي يستدل بوساطتها على طريق العودة إلى المنزل، لكنّ طيور الغابة تأكل الخبز، ويقع الطفلان بين يديّ ساحرة شريرة تستدرجهما إلى كوخها بإغرائهما بالحلوى... – المترجم

الشتاء. هناك اضطُررت إلى ترك السيارة وتابعت الارتقاء خلال الغابة (الأوراق تُسحق تحت الأقدام، وأشجار الصنوبر تسقط أوراقها فوق الرؤوس، وتشابك الأغصان يحجب أشعة الشمس). وبما أنَّ صفوف المقاعد كانت تمتد على عرض جانب التل، كان مدخل المُدرّج من الأعلى. وفجأةً إذا بالمسرح يظهر تحتك - صفاً بعد صف من المقاعد التي ينمو عليها العشب، وينتثر عليها زجاج القناني، وواقيات ذكرية، وأوراق لفّ الحلوى. وعند القاعدة كان الجزء الأمامي من المسرح وعلى جانبيه سواري لأعلام تحمل النجمة النازية أو النسر الألماني. وعلى كلا الجانبين مدخلان من أجل ظهور المتكلمين مُحاطين بحرّاس شخصيين يرتدون القمصان.

لكنَّ الجزء الأكثر إدهاشاً كان الموقع: مُدرَّج هائل الحجم تحفّ به أشجار الصنوبر يقبع وسط الهدوء السماوي لتلك الغابات الأسطورية. لقد كانت الأرض مقدّسة. عُبِدَ فيها أودين، ثم المسيح، ثم هتلر. وأندفعُ هابطة التل عبر صفوف المقاعد وأقفُ في مركز المسرح أُلقي شِعري الخاص على مسامع جمهور من الأصداء.

وذات يوم أخبرت هورست أني أريد أنْ أكتب عن المُدرَّج.

سأل «لماذا؟».

«لأنَّ الجميع يتظاهرون بأنه ليس موجوداً».

«أتعتقدين أنَّ هذا سبب كاف؟».

«نعم».

ذهبتُ إلى مكتبة هايدلبرغ العامة وبدأتُ أبحث بين كتب الدلائل التي كان معظمها روتينياً، مزوّدة بصور أنيقة للقلعة وبحفريات قديمة لأمراء رومان وأفراد من البلاط بوجوه شاحبة. وأخيراً صادفت أحدها خاصاً بالمكتبة، صفحاته مكتوبة بالإنكليزية والألمانية بالتبادُل، أوراقه

رخيصة، مُصفرّة، ومزوداً بصور فوتوغرافية بالأبيض والأسود وأحرف طباعة غوطيّة. كان تاريخ طباعته عام ١٩٣٧، وبعد كل عشر صفحات أو نحوها كانت تغطّى فقرة أو صورة أو مقدار صغير من المادة المطبوعة بمربّع من الشعار المزخرف. وتلك المربعات الصغيرة كانت تُلصَق بثبات بحيث يتعذّر رفع الزوايا، ولكنْ حالما رأيتها أدركتُ أني لن أرتاح إلا بعد أنْ أزيل الغراء عنها جميعاً وأكتشف ما يوجد تحتها.

أخذتُ الكتاب (بالإضافة إلى الكتب الأربعة الأخرى لكي لا أثير ريبة القيّم على المكتبة) وهرعت إلى المنزل حيث رحتُ أبخّر بعناية الصفحات الآثمة فوق بخار منبعث من إبريق شاي.

كان من المثير أنْ أرى ماذا اعتقد المراقب أنه يُراقب:

«صورة فوتوغرافية للمُدرَّج بكل عظمته: رايات ترفرف في وجه الريح، وأياد ترتفعُ عالياً بالتحية النازية، ومئات من النقاط الصغيرة المُضيئة – تمثّل الرؤوس الآريّة – أو ربما، الأدمغة الآريّة.

فقرة تصفُ المدرَّج بأنه «أحد أبنية الرايخ الثالث العملاقة، مُدرَّج عملاق (كذا) مفتوح يهدف إلى توحيد آلاف الرفاق الألمان في احتفال وتمضية ساعات رصينة في تجربة مشتركة في الولاء لأرض الآباء واستلهام الطبيعة».

فقرة تصف طريق هايدلبرغ – فرانكفورت السريع (الذي أضحى الآن مملوءاً بالأخاديد والحُفَر) بأنه إبداع «عملاق» (كذا) وهائل في العصر الحديث الواعد جداً».

فقرة تصف ألمانيا بأنها «هذه الأمة المُفضّلة لدى الآلهة وتُصنّف في المرتبة الأولى بين الأمم العظمى والقوية...»».

صورة فوتوغرافيّة لقاعة الاجتماعات الرئيسة في الجامعة والنجوم النازية تتدلى من كل قوس غوطي...

صورة فوتوغرافية لمنظمة «منسا»[١١] وعلامة النجمة النازية تتدلى من كل قوس روماني...».

إلى آخره إلى آخره على امتداد الكتاب.

أُصبت بهستريا من الغضب والنقمة الأخلاقية. جلستُ على طاولة مكتبي وكتبتُ على عجل عموداً يتسم بالحنق عن الشرف، والخيانة، وعن التاريخ العليّ القدير. لقد طلبتُ الحقيقة قبل الجمال، والتاريخ قبل الجمال، والشرف قبل كل شيء. ورحت أرغي وأزبد وأنفث. أشرتُ إلى الرُقع المُلصقة المُهينة في الدليل كأمثلة على كل ما هو كريه في الحياة وفي الفن. لقد كانت كأوراق التين في الفن الفيكتوري المُلصقة على التماثيل الإغريقية، كملابس القرن التاسع عشر مرسومة على جدارية إباحية من حقبة الـ ***quattrocento*** (عصر نهضة الفن والأدب في القرن الخامس عشر)[١٢]. وأشرتُ إلى الطريقة التي أحرقَ بها رسكن لوحات ترنر التي تمثّل مواخير البندقية، وكيف حاولَ أحفاد أحفاد بوزويل أنْ يحذفوا الأجزاء الفاسقة من يومياته، وقارنتُ هذه بالطريقة التي حاول بها الألمان أنْ يُنكروا تاريخهم. إنها آثام الحذف! وكلها بلا معنى! لا شيء إنسانياً يستحق النكران. حتى وإنْ كان قبيحاً بصورة تعصى على الوصف، فباستطاعتنا أنْ نتعلّم منها، ألا نستطيع؟ أم إننا لا نستطيع؟ إنني لم أشكّ في هذا أبداً. كنتُ واثقة من أنَّ الحقيقة جديرة بأنْ تُحررنا.

في صباح اليوم التالي ضربَتْ المقالة على الآلة الكاتبة بإصبعَين

---

١١ – منظمة «منسا»: منظمة عالمية تضم أذكى الأشخاص في العالم أجمع بغض النظر عن قوميتهم، أو لونهم أو ديانتهم أو منشئهم. الشرط الوحيد أنْ تكون نسبة ذكائهم لا تقل عن ٩٨٪. تأسست في إنكلترا عام ١٩٤٦. – المترجم

١٢ – ما بين القوسين من شرح المترجم.

حانقين وهرعت إلى البلدة لأعطيها لهورست. وتركتها عنده بسرعة وغادرت. وبعد ذلك بثلاث ساعات اتصل بي هاتفياً.

سأل «أحقاً تريدين مني أنْ أترجم هذه؟».

«نعم»، ورحت أُذكِّره بثورة من الغضب كيف وعدني بألا يمارس عليّ الرقابة.

قال: «وسوف أفي بوعدي، لكنك لا زلت شابة ولا تفهمين الألمان جيداً».

«ماذا تعني بأنني لا أفهمهم؟».

قال بهدوء «إنَّ الألمان يحبون هتلر. فإنْ أرادوا أنْ يكونوا صادقين، لن يُعجبك ما ستسمعين. لكنهم ليسوا صادقين. منذ خمسة وعشرين عاماً وهم غير صادقين. إنهم لم يبكوا أبداً على موتاهم في الحرب ولم يبكوا على هتلر. أخفوا كل شيء داخلهم. حتى **هم** لا يعرفون مشاعرهم الحقيقية. ولو كانوا صادقين، لكرهتِ ذلك فيهم أكثر من كرهك لنفاقهم».

ثم بدأ يخبرني عمّا يعني أنْ يكون المرء مراسلاً حربياً تحت حكم هتلر. لقد كان وضعاً شبه عسكري والأخبار كلها كانت تخضع للرقابة من الجهات العليا. كان العاملون في الصحافة يعرفون أشياء كثيرة تُحجَب عن الرأي العام وكانوا يُخفونها عن عمد. كانوا يعرفون بأمر معسكرات الموت وعمليات التهجير. كانوا يعرفون وظلوا يُنتجون الدعاية السياسية.

صرخت «ولكن كيف استطعتَ أنْ *تفعل* ذلك؟».

«بل كيف كان يمكنني *ألا أفعل*؟».

«كان بوسعك أنْ تغادر ألمانيا، أو أنْ تنضم إلى المقاومة، أو أنْ تفعل *شيئاً!* ».

«لكنني لم أكنْ بطلاً، ولم أرغب في أنْ أصبح لاجئاً. لقد كانت الصحافة هي مهنتي».

«وماذا في هذا!».

«إنَّ كل ما أقول هو أنَّ غالبية الناس ليسوا أبطالاً وغالبية الناس ليسوا صادقين. أنا لا أقول إنني صالح أو أثير الإعجاب. كل ما أقول هو أنني أشبه غالبية الناس».

قلت وأنا أئنّ «ولكن *لماذا*؟».

قال «لأن هذا هو أنا. وليس من سبب آخر».

لم يكن لديّ جواب على ذلك وكان هورست يعلم هذا. عندئذ أخذتُ أتساءل إنْ كنتُ أنا أيضاً أشبه غالبية الناس. هل كنتُ سأصبح أكثر بطولةً منه لو أنني في مكانه؟ وفكّرت في كم من الوقت استغرق مني لأكفّ عن كتابة مقالات بارعة عن أطلال القلاع، وقصائد صغيرة أنيقة عن غروب الشمس والطيور والينابيع. لقد كنتُ غير صادقة حتى من دون فاشيّة. كنتُ أمارس الرقابة على نفسي من دون فاشيّة. لقد منعتُ نفسي عن كتابة ما يُحرّكني حقاً: عن مشاعري العنيفة حول ألمانيا، وتعاسة زواجي، وتخيلاتي الجنسية، وطفولتي، ومشاعري السلبية اتجاه والديّ. حتى من دون فاشية، كان النطق بالصدق أمراً صعباً جداً. حتى من دون فاشية، وضعتُ رُقعاً متخيّلة على مناطق معيَّنة من حياتي ورفضتُ على الدوام أنْ أنظر إليها. وقررتُ عندئذ أني لن أصبح أخلاقيّة مع هورست إلا بعد أنْ أتعلّم كيف أكون صادقةً مع نفسي. لعلّ آثام الحذف التي مارسنا ليست متعادلة، لكنّ الدافع في كلا الحالتين هو نفسه. فإلى أنْ أتمكن من إعطاء برهان على صدقي في الكتابة، أي حق لي في أنْ أغضب على عدم صدقه؟

نُشِرَتْ المقالة كما كتبتها. وترجمها هورست بأمانة. حسبتُ أنْ

بلدة هايدلبرغ سوف تشتعل، لكنَّ الكتّاب يُغالون كثيراً في أهمية أعمالهم. إذ لم يحدث أي شيء. أطلقَ بعض معارفي ملاحظات ساخرة حول مدى *تورطي* عميقاً في الأشياء. وهذا كل شيء. وتساءلتُ إنْ كان أحدٌ قد قرأ *«هايدلبرغ قديماً وحديثاً»*. ربما لا. كانت أعمدتي الصحفية أشبه بإرسال رسائل في أثناء إضراب دائرة البريد أو بالاحتفاظ بيوميات سريّة. شعرتُ بأنني أنشر التاريخ على الملأ، ولكن لم يرفّ جفن أحد. كل ذلك الهرج والمرج انتهى بصمت مُطبق. كان الأمر أقرب شبهاً بنشر شِعر.

(٥)

تقرير من مؤتمر الأحلام أو المضاجعة

«أنا إيزادورا طز بي».
• الخطوط الجوية الوطنية.

الدكتور غودلف يرأس الاجتماع. في قبو الجامعة الرطب، في مُدرَّج تحتي خالٍ من النوافذ بمقاعد خشبية مُقعقعة، كان أدريان قد تلبَّسَ هيئته الإنكليزية الرسمية (مرتدياً قميصه القديم نفسه المملوء بالثقوب) ينطق المقاطع اللفظية (بالإنكليزية) أمام المُرشَّحين (المتعددي اللغات) الموزَّعين بين صفوف المقاعد.

بدا أقرب شَبهاً بالمسيح في العشاء الأخير. إلى يمينه ويساره جلس مُحللون بملابس رصينة بأربطة عنق وسترات. وهو يميل بوقار نحو مكبر الصوت، يمص غليونه، ويُلخِّص الجزء الأول من اللقاء - الذي فاتنا. إحدى قدميه حافية تتأرجح جيئة وذهاباً نحو الحضور بينما صندلها البالي يستقر تحت الطاولة.

أشرت لبينيت بأنني أريد أنْ أجلس في الصف الأخير، بالقرب من الباب - وأبعد ما يمكن عن الحرارة التي يبثّها أدريان. فيرميني بينيت بنظرة غاضبة فحواها أنَّ هذا لا يناسبه ويمشي إلى أمام الغرفة ويغوص بجوار مُرشَّح من الأرجنتين شعره كشعر الضبع.

أجلسُ في الصف الأخير أحدّقُ إلى أدريان. ويبادلني أدريان التحديق. ويتابع مصّ غليونه وكأنه يمصّني. شعره ينهمر على عينيه. إنه يُعيده إلى الخلف. وشعري ينهمر على عينيّ. أعيده إلى الخلف. ويمص الدخان من غليونه. وأمص قضيبه الوهمي. ويبدو كأنَّ أشعة صغيرة تمتد بين عيوننا - كما تفعل رسوم متحركة كونية؛ وكأنَّ أمواجاً صغيرة من الحرارة تصل بين حوضينا كما في رسوم متحركة إباحية.

أم إنه لم يكن ينظر إليّ أصلاً؟

«.... طبعاً لا تزال هناك مشكلةُ اعتمادِ المُرشَّح الكامل على المُحلِّل»، هكذا يقول المُحلل الواقف إلى يسار أدريان.

يبتسم لي أدريان ابتسامة عريضة.

«..... والاعتماد الكامل لا يُخفف منه إلا اختبار المُرشَّح للواقع الذي، إذا أخذنا بعين الاعتبار الجو كافكاويّ[1] الذي يعمّ المؤسسة، قد يكون، حقاً، سقيماً جداً...».

«كافكاويّ؟ لطالما حسبت أنَّ الكلمة هي كافكائيّ».

لابد أنني الحالة الأولى التي تبلغ سن اليأس وهي في التاسعة والعشرين. إنني أقذف دفقاً حاراً. وأشعر كأنَّ لون وجهي تحولَ إلى الورديّ الساطع، ووجيب قلبي يُسرع كمُحرِّك سيارة سباق، وكأنَّ وجنتيّ تخزهما إبرٌ صغيرة كما في المعالجة بوخز الإبر. كان النصف السفلي من جسدي كله قد تميّع وأخذ يقطر ببطء ويسيل على الأرض. لم يعُد الأمر يتعلّق بالقذف داخل سروالي - إنني أذوب.

أمدّ يدي إلى دفتري وأبدأ بالكتابة.

---

١ - نسبة إلى روايات فرانتز كافكا السوداوي والغامض.

أكتب «اسمي إيزادورا زيلدا وايت شتولرمن وينغ، وأتمنى لو أنَّ غوْلَفْ يُضاجعني»

أشطب الجملة الأخيرة.

ثم أكتب:

أدريان غوْدْلَفْ

الدكتور أدريان غودلَفْ

السيدة أدريان غوْدْلَفْ

إزادورا وينغ – غودلَفْ

إيزادورا وايت – غودلف

إيزادورا غوْدْلَف

أ. غودلف

السيدة أ. غودلف

السيدة المحترمة إيزادورا غودلف

إيزادورا وينغ – غودلف، M.B.E.

السير أدريان غودلف

إيزادورا وأدريان غودلف

يتمنيان لكم

عيد ميلاد (مشطوبة)

عيد هانوخا[٢] (مشطوبة)

انقلاباً شتوياً

مجيداً

---

٢ - هانوخا: عيد الأنوار، أو عيد التكريس عند اليهود. - المترجم

إيزادورا وايت وينغ وأدريان غودلف

يفزعهما

أنْ يُعلنا

مولد

طفلتهما ابنة الحرام

سيغموندة كيتس

وايتوينغ - غودلف

إيزادورا وأدريان

يدعوانكم

إلى

حفل انتقالهما

إلى

منزلهما الجديد

٣٥ فلاسك ووك

هامستيد

لندن NW3

أحضروا معكم هلوساتكم

وأشطبُ على هذا كله على عجل وأقلب الصفحة. لم أنغمس في مثل هذا النوع من الهراء منذ أنْ أُصِبتُ بلوعة الحب وأنا في الخامسة عشرة.

بعد انتهاء الاجتماع كنتُ آمل أنْ أتحدث مع أدريان، لكنّ بينيت انتزعني بعيداً قبل أنْ يتخلّص أدريان من الحشد المتجمع حول خشبة المنصّة. كنا نحن الثلاثة منغمسين في علاقة ثلاثية على طريقة موسيقى

الباروك. أحسّ بينيت بمشاعري المتفجّرة وبذل أقصى جهده لإبعادي عن الجامعة بأسرع وقت ممكن. وأحسّ أدريان بمشاعري المتفجّرة وراح يراقب بينيت عن كثب ليستكشف ما يعرف. وكنتُ قد بدأتُ تواً أشعر بأنني ممزقة بينهما. وطبعاً لم يكن ذلك خطأهما. كانا فقط يمثّلان الصراع الدائر داخلهما. كان ثبات بينيت الحريص، المُكره والمُمل يمثّل خوفي من التغيير، خوفي من الوحدة، وحاجتي إلى الأمان. وسلوك أدريان العتيق وتحرشه الجنسي كانا ذلك الجزء مني الذي أراد الفيض والحيوية قبل كل شيء. ولم أتمكن أبداً من عقد السلام بين نصفيّ. كل ما نجحت في فعله هو أنْ أكبت أحدهما (فترة وجيزة) على حساب الآخر. فلم أكن أبداً سعيدة مع قيم الزواج البورجوازية، والثبات وتفضيل العمل على المتعة. كنتُ فضوليّة ومُحبّة للمغامرة إلى درجة عدم تحمّل تلك القيود. لكنني عانيتُ من نوبات الرعب من الوحدة في أثناء الليل. لذلك فإنّ الأمر ينتهي بي دائماً إلى العيش مع شخص ما أو إلى الزواج.

إلى جانب ذلك آمنت حقاً بالسعي إلى إقامة علاقة طويلة الأمد وعميقة مع شخص واحد. كان في استطاعتي أنْ أرى عقم الانتقال من سرير إلى سرير والانخراط في علاقات سطحية مع الكثير من الرجال السطحيين. كانت لدي تجربة موحشة بصورة لا تُحتمل في الاستيقاظ في سرير مع رجل لا أطيق التحدث معه - ولم يكن ذلك يدل حتماً على التحرُّر. ومع ذلك، بدا أنه لا توجد أية طريقة أخرى لإدخال الحيوية الفيّاضة والاستقرار إلى حياتي. وحقيقة أنّ أصحاب أدمغة أعظم من دماغي قد قلّبوا التفكير في مثل هذه القضايا ولم يخرجوا بأجوبة واضحة لم تواسني كثيراً. بل جعلتني فقط أشعر بأنّ اهتماماتي تافهة وعادية. وقلتُ في نفسي، لو أنني كنتُ حقاً إنساناً استثنائياً لما أمضيتُ ساعات في القلق حول الزواج والزنا؛ كنتُ خرجت وانتزعت

الحياة بكلتا يديّ دون أي إحساس بالندم أو بالذنب حيال أي شيء. إنَّ إحساسي بالذنب لم يكشف إلا عن مدى بورجوازيتي ووضاعتي. لم يكشف قلقي على تلك العظمة العجوز الحزينة إلا عن ابتذالي.

في مساء ذلك اليوم بدأت الاحتفالات بإقامة حفل للمُرشَّحين في مقهى في غرينتزينغ. كانت شيئاً أبعد ما يمكن عن الأناقة. كان الكثير من أنواع السجق القضيبي هو السِّمة الفرويدية السائدة. وعلى سبيل التسلية قام مرشحو التحليل من أهالي فيينا، الذين أقاموا الحفل، بالغناء جماعات «عندما جاء المحللون...» (على نغم أغنية «عندما دخل القديسون معاً...»). كانت كلمات الأغنية بالإنكليزية، غالباً - أو على الأقلّ بلغة ربما يعتبرها مُحللو فيينا إنكليزية.

ضحك الجميع وهللوا من قلوبهم بينما جلستُ أنا كغاليفر بين البهائم. عقدتُ بين حاجبيّ وفكرتُ في نهاية العالم. سوف نغوص جميعاً في جحيم نوويّ بينما هؤلاء المهرجون جالسون يُغنون عن مُحلليهم. كآبة. لم أرَ أدريان في أي مكان.

كان بينيت يُناقش مسألة التدريب مع مُرشَّح آخر من مؤسسة لندن وأخيراً فتحتُ موضوعاً مع الرجل الجالس قبالتي، وهو مُحلل نفسي من تشيلي يدرس في لندن. وكل ما خطر في بالي عندما قال إنه من تشيلي كان نيرودا. وهكذا تحدثنا عن نيرودا. واندفعت في حماس في الحديث وقلت له كم هو محظوظ لأنه من أميركا الجنوبية في وقت كل الكتّاب العظام الأحياء هم من أميركا الجنوبية. كنتُ أفكر كم أني مُخادعة، لكنه كان مسروراً. وكأنني كنتُ أمدحه هو حقاً. واستمر الحديث على هذا المسار الشوفيني - الأدبي السخيف. ناقشنا السرياليّة وعلاقتها بسياسة أميركا الجنوبية - وهو موضوع لا أعرف عنه أي شيء. لكنني كنتُ أعرف السرياليّة. يمكنك القول، إنَّ السرياليّة هي حياتي.

ربتَ أدريان على كتفي بينما كنتُ منهمكة في الكلام عن بورخيس ومتاهاته. وعن حيوان المينوطور. كان يقفُ خلفي مباشرة - على أهبة الاستعداد. وقفز قلبي بين أضلعي.

هل أرغب في الرقص. طبعاً أريد أنْ أرقص وكان هذا كل شيء.

قال: «كنتُ أبحث عنك طوال الوقت. أين كنتِ؟».

«مع زوجي».

«ألا ترين أنه يبدو بائساً قليلاً؟ ماذا استخدمتِ لجعله هكذا؟».

«أنت، في اعتقادي».

قال: «يستحسن أنْ تأخذي حذرك. لا تدعي الغيرة تطل برأسها القبيح».

«لقد فعلتُ ذلك تواً».

تكلّم وكأننا عاشقان، وقد كنا كذلك، بصورة ما. ولو أنَّ النيّة هي كل شيء، لقُضيَ علينا كما حدث لباولو وفرانشيسكا[٣]. ولكن لم يكن هناك مكان نلجأ إليه، وما من سبيل للتسلل من ذلك المكان والابتعاد عن الناس الذين يُراقبوننا، لذلك اكتفينا بالرقص.

٣ - فرانشيسكا دا ريميني أو فرانشيسكا دا بولينتا (١٢٥٥ - ١٢٨٥) ابنة غويدو دا بولينتا، سيد رافينا. كانت مُعاصرة تاريخياً لدانتي أليغييري وقد ذكرها في «الكوميديا الإلهية». زوّجها والدها لأسباب سياسية من جيوفاني مالاتيستا، ابن سيد ريميني، مالاتيستا دا فيروكيو. كان زوجها شجاعاً، لكنه مُعاق. في أثناء وجودها في ريميني وقعت فرانشيسكا في حب شقيق جيوفاني، باولو. وعلى الرغم من أنّ باولو أيضاً كان متزوجاً إلا أنهما ظلا على علاقة على مدى ما يُقارب عشرة أعوام، إلى أنْ فاجأهما جيوفاني في غرفة النوم بالجرم المشهود. وقتلهما معاً. وهناك روايات أخرى للقصة بتفاصيل مختلفة. وتحولت القصة أيضاً إلى فانتيزيا سيمفونية من وضع تشايكوفسكي، وحوّل موسيقيون آخرون القصة إلى أوبريت، منهم راحمانينوف. - المترجم

قال «إنني لا أُحسِن الرقص».

وكان ذلك صحيحاً، لم يكن يُحسنه. لكنه خُلق ليرقص بابتسامته الجديرة بإله المراعي. وراح يجر أظلافه المشقوقة الصغيرة. وضحكتُ وغاليتُ قليلاً في ذلك.

قال: «الرقص يُشبه النكاح؛ إذ لا يهم *الشكل* - التركيز يكون فقط على شعورك». ألم أكنْ أنا الوقحة؟ فما معنى تصرفي كامرأة عالمية؟ لقد كدتُ أُصاب بالجنون من فرط الخوف.

أغمضتُ عينيّ وانغمستُ بين أمواج الموسيقى. رحت أضرب بقدميّ وأجتهد وأتلوّى. وفي وقت ما من أيام رقصة التويست القديمة، تبدّى لي فجأةً أنه لا *أحد* يعرف كيف يؤدي تلك الرقصات - فلِمَ الخجل؟ في الرقص الاجتماعي، كما في الحياة الاجتماعية، الوقاحة هي كل شيء. منذ ذلك الحين أصبحتُ «راقصة بارعة»، أو على الأقلّ صرتُ أستمتع به. لقد كان *حقاً* يشبه النكاح - كله إيقاع وعرق.

رقصتُ مع أدريـان على مـدى الجولات الخمس أو الست المتتالية - حتى استُنزِفنا، ونُقعنا بالعرق، وبتنا على استعداد للعودة إلى المنزل معاً. ثم رقصت مع أحد المرشَّحين النمساويين من أجل الحِفاظ على المظاهر - التي بات من الصعب باطّراد المُحافظة عليها. ومن ثم رقصت مع بينيت البارع في الرقص.

كنتُ أستمتع بمراقبة أدريانيلي وأنا أرقص مع زوجي. على أية حال كان بينيت يرقص بصورة أشد براعة من أدريان، ويتّصف بالرشاقة التي افتقر إليها أدريان. كان أدريان يضرب الأرض كحصان يجر عربة. بينما كان بينيت سلساً وناعماً: أشبه بسيارة جاغوار XKE. وكان رقيقاً جداً. ومنذ أنْ ظهر أدريان، أصبح بينيت شديد التودُّد والأناقة. وعاد إلى مغازلتي كما في السابق. مما جعل الوضع أشدّ صعوبة. ليته

فقط كان ابن حرام! ليته كان كأولئك الأزواج الذين نقرأ عنهم في الروايات - قذرين، استبداديين، **يستحقون** أنْ يُصبحوا ديوثين. وبدل ذلك كان عذباً. وأسوأ ما في الأمر أنَّ عذوبته لم تُبدد أبداً شبقي إلى أدريان.

لعله لم يكن لشبقي أية صِلة ببينيت. لماذا كان ينبغي أنْ أختار بينهما؟ إنني ببساطة أردتهما معاً. إنَّ الاختيار هو الذي كان مستحيلاً.

أعادني أدريـان إلى الفندق. وفي أثناء هبوطنا التل ذي الطريق الملتوية من غرينتزينغ، تحدث عن طفليه، اللذين يحملان الاسمين الشاعريين أنابيس ونيكولاي، ويعيشان معه. كانا في العاشرة والثانية عشرة. ولم يأتِ على ذكر الفتاتين التوأم الأخريين، اللتين كانتا تعيشان مع أمهما في ليفربول.

قال: «من الصعب على الطفلَين ألا يكون لهما أم، لكنني أقوم مقام الأم الصالحة والطيبة بالنسبة إليهما. بل إنني أطبخ. إنني بارع في صنع الطعام الغني بالبهار».

فتنني افتخاره بكونه ربّة بيت وسرّني. كنتُ جالسة في المقعد الأمامي في سيارة ترايامف بجوار أدريان. وجلس بينيت على المقعد الصغير في الخلف. ليته فقط يختفي - يطير في الفضاء الواسع ويتلاشى في الغابات. وكنتُ طبعاً أكره نفسي أيضاً لأمنيتي هذه. لماذا يبدو الأمر معقّداً هكذا؟ لماذا لا نستطيع أنْ نكون أصدقاء ومنفتحين. «بعد إذنك، يا حبيبي، أنا ذاهبة لأنكح هذا الرجل الغريب والجميل». لماذا لا يكون الأمر بسيطاً هكذا وصادقاً ومرحاً؟ لماذا يجب أنْ تُخاطر بحياتك كلها لكي تقوم بنكاح عفوي واحد تافه؟

وصلنا بالسيارة إلى الفندق وودّعني. ما أشدّ نفاق الصعود إلى الطابق العلوي مع رجل لا ترغبين في نكاحه، وتتركين ذاك الذي

ترغبين في نكاحه جالساً هناك وحده، ومن ثم، في فورة من الإثارة العُظمى، تنكحين الذي لا ترغبين في نكاحه وتتظاهرين بأنك ترغبين فيه. هذا ما يُسمّى بالإخلاص. هذا ما يسمّى بالحضارة والمُستائين منها.

الليلة التالية كانت ليلة الافتتاح الرسمي للمؤتمر، تبعتها مائدة متنوعة في الغسق في فناء هوفبرغ - وهو أحد قصور فيينا الذي يعود إنشاؤه إلى القرن الثامن عشر. وكان المبنى من الداخل قد جُدِّدَ بحيث نضحت الغرف العامة بالسحر المؤسساتي لغرف طعام فنادق الطرق العامة الأميركية، لكنّ الفناء كان لا يزال مغموراً بضباب القرن الثامن عشر.

وصلنا عند تلك الساعة القرمزية - الساعة الثامنة من أمسية في أواخر شهر تموز. اصطفتِ الموائد على حواف الفناء. والنُّدُل يتنقّلون بين الحشد حاملين كؤوس الشمبانيا (للأسف، اتّضح أنها نبيذ ألماني حلو). حتى المُحللين كانوا متلألئين في الغسق البنفسجي الباهت. ارتدتْ روز شوام - ليبكن سترة هونغ كونغ مزينة بخرز وردي، وتنورة من الساتان الأحمر، وانتعلتْ صندلاً أنيقاً لتقويم الأقدام. ومرّت جودي روز مرتدية ثوباً فضياً لمّاعاً بلا حمالتي صدر. حتى الدكتور شريفت كان يرتدي سترة عشاء من المخمل بلون الخوخ ويضع ربطة عنق على هيئة فراشة كبيرة من الساتان الوردي. والدكتور فرومر ارتدى سترة مشقوقة الذيل واعتمر قبعة عالية.

تنقّلتُ مع بينيت بين الحشد بحثاً عن أشخاص نعرفهم. تجولنا بلا هدى إلى أنْ تلطّفَ نادل يوزع الشمبانيا وقرّب صينيته منا وأتاح لنا أنْ نفعل شيئاً. شربت بسرعة، آملة أنْ أسكر على الفور - ولا مجال للمزاح معي في هذا المجال. وفي غضون عشر دقائق كنتُ أتجول في الضباب الذي ازداد لونه القرمزي أرى فقاقيع الشمبانيا في زاويتيّ عينيّ. كان من المفترض أني أبحث عن مرحاض السيدات (ولكنْ

في حقيقة الأمر، طبعاً، كنت أبحث عن أدريان). وجدتُ آلاف منه منتشرين حتى الأبدية في رواق طويل باروكي جدرانه من المرايا خارج مرحاض السيدات.

خَفَقَتْ صورته في المرايا. عدد لامتناه من أدريان مرتدياً بنطلون قطني بلون رمادي فاتح وكنزة عالية الياقة بلون الخوخ وسترة بنيّة سويدية. عدد لامتناه من أظافر أصابع الأقـدام القذرة داخل عدد لامتناه من الصنادل الهندية. وعدد لامتناه من غلايين المرشوم بين شفتيه الملتويتين الجميلتين. وماذا عن مضاجعتي العفوية؟ إنَّ رجلي تحت أغطية السرير! مُضاعف كالعشاق في رواية **«العام الفائت في مارينباد»**[٤]. مُضاعف كلوحات أندي وارهـول الذاتية. مُضاعف كألف بوذا وبوذا في معبد كيوتو (ولكل بوذا ستة أذرع، ولكل ذراع عين زائدة... كم قضيباً لدى ملايين أدريان هؤلاء؟ وكل قضيب يمثّل الحِكمة اللامتناهية والرحمة اللامتناهية لله؟)

يقول، ملتفتاً إليّ: «مرحبا، دكتورة».

٤ - **«العام الفائت في مارينباد»**: عنوان لرواية للكاتب الفرنسي آلان روب غرييه. حُوِّلتْ إلى فيلم سينمائي فرنسي في عام ١٩٦١ يحمل الاسم نفسه. أثار حيرة وإعجاب الجمهور والنقاد. البعض وجدوه رائعاً، والبعض الآخر وجدوه مبهماً وغير مفهوم. فيه مزج بارع بين الحقيقة والخيال. ويحكي عن رجل يُقابل امرأة في مناسبة عامة فيقترب منها ويدَّعي أنه قابلها في العام السابق في مارينباد، وأنه متيقّن من أنها موجودة هناك في انتظاره، فتصر على أنَّ ذلك غير صحيح. ثم يظهر رجل آخر، لعله زوجها، ويُحاول أنْ يفرض وجوده بطرق شتى، من بينها التغلّب على الرجل في لعبة معقّدة. ومن خلال استعادة لأحداث سابقة ولقطات يتبدّل فيها الزمان والمكان، يحكي الفيلم عن العلاقات بين الشخصيات. وتتكرّر الأحاديث والأحداث في أماكن ومواقع مختلفة من مكان الاجتماع (قلعة قديمة) الذي يعجّ بالأروقة المتاهيّة. الشخصيات في الفيلم بلا أسماء، وفي السيناريو يُشار إلى المرأة بحرف A والرجل الأول بـ X والزوج بحرف M. - المترجم

أقول، وأنا أناوله دفتر المسودة الذي كنتُ أحمله معي طوال النهار: «أحضرتُ شيئاً لك». كانت حواف الصفحات قد بدأتْ تبلى بفعل عرق راحتيّ كفيّ.

أخذ الدفتر. «أنت رائعة!». تشابكَ ذراعانا وبدأنا نمشي على طول الرواق ذي المرايا. ويقول صديقي القديم نقلاً عن دانتي « *Galeotto fu il libro e chi lo scrisse*» (غاليتو كان الكتاب والكاتب). القصائد تقدِّم الفحش على أنه حب، ومؤلفها فعل الشيء نفسه. لقد كان كتاب جسدي مفتوحاً والطبقة الثانية في الجحيم لم تكن بعيدة جداً.

أقول «في الواقع، لعلّنا لن نتقابل بعد الآن».

يقول: «ربما لهذا السبب نفعل هذا».

شققنا طريقنا إلى خارج القصر ومنه إلى فناء آخر أصبح يُستخدَم بشكل رئيس كموقف للسيارات. وسط أشباح سيارات أوبل وفولكسفاغن وبيجو تعانقنا. فماً لفم وبطناً لبطن. لا بد أنَّ لأدريان أشد قُبل العالم رطوبة. فلسانه يجول في كل مكان، كالمُحيط. ونحن نُبحر بعيداً. وقضيبه (المنتفخ من تحت بنطلونه) هو أطول مدخنة حمراء لعابرة مُحيطات. وأنا أتأوّه مُحيطة به كرياح المُحيط. وأقول أشدّ ما يمكن للمرأة أنْ تقول من كلمات سخيفة ونحن متشابكان في موقف السيارات، أحاول أنْ أعبّر عن اشتياق لا يمكن التعبير عنه - اللهم إلا بالشعر. وقد خرج كله هزيلاً. أحبّ فمك. أحب شَعرك. أحبّ أذنيك. أريدك. أريدك. أريدك. أقول أي شيء لأتجنّب قول: أحبّك. لأنَّ هذا جيد بصورة تفوق الحب. إنه لذيذ وممتع إلى درجة أنه لا يمكن أنْ يكون شيئاً جاداً ورصيناً كالحب. إنَّ الفم كله يتحول إلى سائل. ومذاق لسانه ألذّ من مذاق حَلَمَة الثدي في فم طفل وليد.

(وإياك أنْ ترميني بأية تأويلات من التحليل النفسي، يا بينيت، لأنني سأرميها إليك من جديد. إنه تصرّف صبياني. حركة ارتداد. في أساسه سفاح قُربى. بلا شك. لكنني كنت على استعداد لوهب حياتي مقابل أنْ أستمر في تقبيله هكذا وكيف ستُحلّل ذلك؟) وفي تلك الأثناء، قبض على طيزي وأمسكها بكلتا يديه. كان قد وضع دفتري على رفرف سيارة فولكسفاغن وقبض بدل ذلك على طيزي. أليس هذا هو سبب لجوني إلى الكتابة؟ عن الحب؟ لا أعرف المزيد. إنني لا أعرف حتى اسمي.

يقول: «لم أقابل طيزاً تجاري طيزك». وتلك الملاحظة تسعدني أكثر مما لو أنني فزت بجائزة الكتاب الوطني. إنها جائزة الطيز الوطنية - هذا ما أريد. جائزة طيز عبر الأطلسي لعام ١٩٧١.

أقول: «أشعر كأنني ملكة جمال أميركا في مؤتمر الأحلام».

يقول: «أنت فعلاً ملكة جمال أميركا في مؤتمر الأحلام، وأريد أنْ أمنحك أقوى حب يمكنني أنْ أمنح ومن ثم أتركك».

من المُفترَض أنَّ الحذر من الخطر هو استعداد. ولكن مَنْ كان يُصغي؟ كل ما استطعت سماعه هو خفق قلبي المدوّي.

باقي الأمسية كان حلماً من الأفكار وكؤوس الشمبانيا وثرثرة محللين نفسيين سكارى. عدنا أدراجنا خلال الرواق ذي المرايا. كنا من فرط السعادة بحيث لم نأبه بوضع أية خطط للقائنا التالي.

كان بينيت مبتسماً ومرشّحُ الأرجنتين ذو الشعر الأحمر يقفُ إلى جواره. شربتُ كأساً أخرى من الشمبانيا وتجولتُ مع أدريان. كان يُعرِّفني إلى مُحللي لندن كلهم ويُثرثر حول مقالتي التي لم أكتب. هل سيوافقون على إجراء لقاء صحفي؟ هل يستطيع أنْ يُثير اهتمامهم بجهدي الصحفي؟ وطوال الوقت كان يُحيط خصري بذراعه وأحيان

كان يضع يده على طيزي. كنا أبعد ما يمكن عن الحذر. الجميع شاهدوا ذلك. مُحلله النفسي. مُحللي النفسي السابق. ابنه المُحلل النفسي. وابنته المُحللة النفسية. والمُحلل السابق لزوجي. وزوجي.

سأل أحد مُحللي لندن العجائز «أهذه هي المدام؟».

قال أدريان «كلا، ولكن أتمنى لو أنها كذلك. وإنْ حالفني حظ خارق، قد تصبح كذلك».

كنتُ أحلِّق. كان رأسي ممتلئاً بتأثير الشمبانيا وبالحديث عن الزواج. كان رأسي ممتلئاً بمغادرة نيويورك المملة القديمة إلى لندن الأنيقة المتلألئة. كنتُ فاقدة صوابي. وكدتُ أسمع صديقاتي في نيويورك يقلن بحسد: «لقد هربت مع صديق إنكليزي». كنَّ جميعاً مثقلات بأطفال وبجليسات أطفال، بدورات تخرُّج ووظائف تدريس ومُحللين نفسيين ومرضى. وها أنا ذي أُحلِّق في سماوات فيينا القرمزية على متن مكنستي المُستعارة. كنتُ التي يُعتَمَد عليها لتدوِّن خيالاتهم. كنتُ التي يُعتَمَد عليها لتحكي قصصاً مُضحكة عن عشاقها السابقين. كنتُ التي يحسدونها علناً ويضحكون منها سراً. كان في استطاعتي أنْ أتخيَّل التقارير التي تُكتَب عن هذه الأحداث في «*أخبار الصف*»:

«إيزادورا وايت وينغ وهوايتها الجديدة الدكتور أدريان غودلَفْ يُقيمان في لندن بالقرب من هامبستيد هيث – ولا تخلطوا بينه وبين هيثكليف[٥]، لصالحكم أيها المتخصصون في مادة الرياضيات. إنَّ إيزادورا تَوَدّ أنْ تصلها أخبار من صديقاتها في الخارج. إنها منهمكة تماماً في تأليف رواية وإصدار ديوان جديد من القصائد، وفي وقت فراغها تحضر مؤتمر التحليل النفسي العالمي، حيث تجتمع...».

---

٥ – هيثكليف: بطل رواية «**مرتفعات ويذرينغ**» لاميلي برونتي. – المترجم

إنَّ تخيلاتي كلها تتضمن الزواج. فما إنْ أتخيل نفسي أهرب من رجل حتى أتخيّلني أرتبط بآخر. كنتُ أشبه بقارب مُضطر دائماً إلى اللجوء إلى مرفأ للتزود بالمؤن. ببساطة لم أستطع أنْ أتخيّل نفسي من دون رجل. فمن دونه، كنتُ أشعر بالضياع ككلبٍ تاه عن سيده؛ بلا جذور، بلا وجه، بلا هوية.

ولكن ما الشيء العظيم في الزواج؟ لقد تزوجت مراراً. وقد كانت له مزاياه، ولكن له أيضاً مثالبه. كانت فضائل الزواج في معظمها سالبة. فالبقاء بلا زواج في عالم يخصّ الرجال كان مشاحنة حول وجوب أنْ يكون كل شيء أفضل. الزواج كان أفضل. ولكن ليس كثيراً. كنتُ أقول لنفسي، ما أشد براعة الرجال، لقد جعلوا الحياة لا تُطاق بالنسبة إلى النساء الوحيدات بحيثَ إنَّ معظمهن يسعدهن بدل ذلك بأنْ يقبلن بأي زواج. كل شيء تقريباً ينبغي أنْ يكون تطويراً للسعي الحثيث من أجل الحفاظ على عمل متدني الأجر وإبعاد الرجال غير الجذابين في أوقات فراغك وفي الوقت نفسه تحاولين يائسة أنْ تعثري على الجذّابين منهم. وعلى الرغم من أنني لا أشكّ في أنَّ البقاء بلا زواج أمرٌ موحشٌ بالقدر نفسه للرجل، إلا أنه لا يتّسم بالخطر الصريح، ولا يتضمَّن آلياً الفقر والنبذ الاجتماعي الحتمي.

هل ستتزوج معظم النساء إذا علمن فحواه؟ إنني أتخيل نساء شابات يتابعن أزواجهن أينما قادتهم أعمالهم. أتخيلهن فجأة وقد وجدن أنفسهن على بُعد أميال من أصدقائهن وعائلاتهن. أتخيّلهن يُقمن في أماكن لا يستطعن فيها أنْ يعملن، ولا يتحدثن بلغاتهن. أتخيّلهن يُنجبن أطفالاً بدافع الشعور بالوحشة والوحدة دون أن يعلمن السبب. أتخيّل أزواجهن دائماً على عجلة من أمرهم ومُرهقين بسبب استمرار تحقيق ذواتهم. أتخيّلهم يرى كلّ منهم الآخر أقل قيمة بعد الزواج مما كان قبله. أتخيّلهم يسقطون على السرير عاجزين عن

النكاح من فرط الارهاق. أتخيّلهم متباعدين في أثناء العام الأول من الزواج أكثر مما تخيّلوا أنّه يمكن لزوجين أنْ يكونا وهما يتبادلان الغزل. ومن ثم فكرت في بداية التخيلات. هو يتلصّص على ابنة الرابعة عشرة قبل أنْ تكتمل أنوثتها وترتدي البكيني. وهي تشتهي عامل تصليح التلفاز. ويمرض الطفل فتضاجع طبيب الأطفال. وهو ينكح سكرتيرته الصغيرة المازوشية التي تقرأ «*الكوزموبوليتان*» وتعتقد أنها على الموضة. ليست المسألة: متى بدأت الأمور تسوء؟ بل: متى كانت على ما يرام؟

صورة قاتمة. ليس كل الزيجات هكذا. لديك مثلاً الزواج الذي حلمت به في فترة مراهقتي المثالية (عندما فكرتُ في أنّ بياتريس وسيدني ويب[٦]، وفرجينيا وليونارد وولف[٧] كانوا أزواجاً مثاليين) ماذا كنتُ أعرف؟ لقد أردتُ «المشاركة التامة»، «الرفقة»، «المساواة». هل كنتُ أعرف كيف يجلس الرجال مُثبتين أنظارهم على الصحيفة بينما أنت تنظفين المائدة؟ وكيف يتظاهرون بأنهم مشغولون عندما تطلبين منهم مزج عصير البرتقال المُجمّد؟ وكيف يجلبون أصدقاءهم إلى المنزل ويتوقعون منك أنْ تخدميهم ومع ذلك يشعرون بأنهم مخوّلون أنْ يتجهموا ويلجؤوا إلى غرفة أخرى إذا

٦ - سيدني ويب (١٨٥٩ - ١٩٤٧) وزوجته بياتريس ويب (١٨٥٨ - ١٩٤٣): تعاونا معاً في تحقيق إنجازات اجتماعية واقتصادية، ولهما كتب مشتركة في هذا المجال. - المترجم

٧ - فرجينيا وولف (١٨٨٢ - ١٩٤١) الكاتبة المعروفة، وزوجها ليونارد وولف (١٨٨٠ - ١٩٦٩): كاتب وسياسي وناشر. تعاون مع زوجته في إدارة دار بلومسبيري التي قدّمت الكثير من الكتّاب الشبّان في النصف الأول من القرن العشرين، إنكلترا. الجدير بالذكر أنّ العلاقة الجنسية بين هذا الزوج والزوجة الوارد ذكرهما في المادة السابقة كانت شبه معدومة واستُبدلت بالنشاط الفكري والاجتماعي. - المترجم

أحضرت صديقاتك إلى المنزل؟ إنَّ أية مراهقة مثالية تستطيع أنْ تتخيّل ذلك كله في أثناء قراءتها مؤلفات شو وفرجينيا وولف والثنائي ويب؟

أنا أعرف بعض الزيجات الجيدة. هي في الغالب زيجات ثانية. زيجات تجاوز فيها الطرفان هراء أنا طرزان وأنتِ جين ويُحاولان فقط أنْ يُمضيا أيامهما في التعاون فيما بينهما، ومعاملة كل منهما الآخر بالحُسنى، وأداء الأعمال المنزلية في أثناء ذلك دون أنْ يقلقا حول توزيعها فيما بينهما. وبعض الرجال يبلغون تلك الحالة المريحة بصورة مُبهجة في سن الأربعين أو بعد حادثتيَ طلاق. لعلّ الزواج هو أفضل حل في منتصف العمر، عندما يتلاشى كل الهراء وتُدركين أنّه يجب أنْ يحب أحدكما الآخر لأنكما ستموتان على أية حال.

كنا كلنا سكارى (لكنني كنتُ أشدّهم سُكراً) عندما حُشرنا داخل سيارة أدريان الترايامف الخضراء وانطلقنا إلى الديسكوتك. كنا ثلاثة محشورين داخل تلك السيارة الصغيرة: بينيت، وماري وينكلمن (رفيقة دراسة كبيرة الصدر يمكن القول إنَّ بينيت انتقاها من الحفل - كانت مُحللة نفسية)؛ وأدريان (السائق، حسب الموضة)؛ وأنا (مائلة برأسي نحو الخلف، كإيزادورا الأولى، قبل الاختناق[٨])؛ وروبن فيلبس - سميث (المُرشّح البريطاني الهادئ ذو الشعر المجعّد

٨ - إيزادورا الأولى هي إيزادورا دنكن (١٨٧٨ - ١٩٢٧): راقصة ومُصممة رقص أميركية. عاشت حياة حافلة بالشهرة والإبداع، ومرّت بمحن وأحزان؛ مات طفلاها مع مربيتهما غرقاً في حادث انقلاب سيارة في نهر السين، ثم انتحر أحد أزواجها، الشاعر الروسي ألكسندروفيتش يسينين. تركت أثراً واضحاً على رقص الباليه. وفي عام ١٩٢٧ بينما كانت تقود سيارتها في مدينة نيس في فرنسا وتحيط جيدها بوشاح طويل، تطاير وعلق طرفه بدولاب السيارة وماتت مختنقة. - المترجم

والنظارة الأحادية الألمانية الذي تكلّم طوال الوقت عن مدى امتعاضه من «روني» لينغ[٩] - وهذا الأمر قرّبه أكثر من قلب بينيت). من ناحية أخرى، كان أدريان أحد أتباع لينغ، ودرس معه، وكان مُقلّداً ممتازاً للّكنة السكوتلندية. على الأقل *أنا* وجدتها ممتازة - على أية حال أنا لا أعرف كيف يتكلّم لينغ.

اخترقنا شوارع فيينا الملتوية، بأرضيتها الحجرية وخطوط حافلات الترولّي، وعبرنا نهر الدانوب البُنّي الموحل.

أنا لا أعرف اسم الديسكوتك، أو اسم الشارع، أو أي شيء. إنني أنتقل بين الولايات لا ألاحظ إلا الذكور من السكان وأياً من أعضاء جسمي (القلب، المعدة، الحلمتان، الكسّ) يُثيرون. كان الديسكوتك فضيّ اللون. الجدران مكسوة بورق من الكروم. أضواء وامضة. مرايا في كل مكان. الطاولات الزجاجية مرفوعة على منصات من الكروم. المقاعد من الجلد الأبيض. وموسيقى صاخبة تمزق طبلات الآذان. سمِّ المكان ما شئت: الغرفة ذات المرايا، الدائرة السابعة، منجم الفضة، صالة الرقص الزجاجية. ما أعرفه، على الأقلّ، هو أنَّ الاسم كان بالإنكليزية. شديد الأناقة ويمكن نسيانه.

قال بينيت، وميري، وروبن إنهم سيجلسون ويطلبون مشروباً. رقصت مع أدريان، وتكررت حركاتنا السكرى حول أنفسنا مرات لا حصر لها في المرايا. وأخيراً بحثنا عن ركن منعزل بين مرآتين حيث يمكننا أنْ نتبادل القُبل، لا يراقبنا إلا انعكاس عدد لامتناه من صورتنا. كان ينتابني إحساس واضح بأنني أُقبّل فمي - كما حدث وأنا في

---

٩ - رونالد ديفيد لينغ: (١٩٢٧ - ١٩٨٩): طبيب نفسي اسكوتلندي. اهم كتبه «الذات المنقسمة» عام ١٩٦٠، و«سياسة التجربة وطائر الجنة» عام ١٩٦٧، و«عُقد» عام ١٩٧٠. - المترجم

التاسعة حين كنتُ أبلل جزءاً من وسادتي بلعابي ومن ثم أُقبّله لكي أتخيّل مذاق «التقبيل المشبوب».

عندما بدأنا نبحث عن طاولة مع بينيت والآخرين، وجدنا أنفسنا فجأةً تائهين في سلسلة من الغرف الصغيرة والأقسام بجدران زجاجية ينفتح كل منها إلى الآخر. وبقينا نمشي داخل أنفسنا. وكما يحدث في الأحلام، لم نتعرَّف إلى أي من أصحاب الوجوه الجالسين حول الطاولات. بحثنا جيداً مع إحساس متزايد بالرعب. شعرتُ كأنني انتقلت إلى عالم من المرايا أركض فيه، كالملكة الحمراء، وأركض لأجد أنني عدتُ من جديد إلى حيث كنت. لقد كان بينيت هو الضياع.

علِمتُ على الفور أنه غادر مع ميري ورافقها إلى منزلها وسريرها. ارتعبت. أخيراً استطعت أنْ أُثير مشاعره نحوها. إلى هنا وينتهي دوري. سوف أقضي ما بقي من حياتي الموحشة بلا زوج، وبلا طفل، ومنبوذة.

قال أدريان: «هيا بنا. إنهم ليسوا هنا. لقد رحلوا».

«لعلهم لم يتمكنوا من الحصول على طاولة وينتظرون في الخارج».

قال «يمكننا أنْ ننظر».

لكنني كنتُ أعرف الحقيقة. لقد نُبِذت. ورحل بينيت إلى الأبد. في هذه اللحظة بالذات هو يُداعب كس ميري الكبير الشاحب. إنه ينكح عقلها الفرويديّ.

في أثناء رحلتي الأولى إلى واشنطن وأنا في التاسعة من العمر، انفصلتُ عن عائلتي بينما كنتُ أدور حول مبنى المخابرات الفدرالية. وُضعتُ في مبنى المخابرات، من بين الأماكن كلها. في مكتب الأشخاص المفقودين. وأطلقوا الإنذار.

كانت حينئذ ذروة الحقبة المكارثية وكان أحد رجال المخابرات

الكتومين يشرح أموراً متنوعة حول إلقاء القبض على الشيوعيين. كنتُ أتسكع أمام صندوق زجاجي، أتأمّل حالمة بأنماط بصمات أصابع اليدين عندما انعطفت مجموعة السياح عند الزاوية واختفت. ورحت أتجول في المكان، أحدّق إلى انعكاس صورتي على زجاج صناديق العرض وأحاول أنْ أُخفف من إحساسي بالرعب. لن يعثروا عليّ. لقد كنتُ مُحيِّرة أكثر من بصمات أصابع يد مجرم يلبس قفازاً. سوف يستجوبني بصورة شيطانية فريق حليق الرؤوس إلى أنْ أعترف بأنَّ والديّ شيوعيان (في الحقيقة كانا كذلك ذات يوم) وسوف تنتهي حياتنا مثل آل روزنبرغ ونحن ننشد «بارك الله أميركا» في زنزاناتنا الرطبة ونتخيل شعورنا ونحن نُعدَم بالصدمة الكهربائية.

عندئذ بدأتُ أصرخ. صرخت إلى أنْ عادت المجموعة أدراجها وعثرتْ عليّ، هناك – في غرفة مملوءة بالأدلة.

أما الآن فليس في استطاعتي أنْ أصرخ. ثم إنَّ الموسيقى الصاخبة عالية إلى درجة أنه ما كان يمكن لأي شخص أنْ يسمعني. وفجأةً شعرتُ بأنني في حاجة إلى بينيت حاجة ماسّة بقدر احتياجي إلى أدريان قبل ذلك ببضع دقائق. وكان بينيت قد رحل. غادرنا الديسكوتك وتوجهنا إلى سيارة أدريان.

في الطريق إلى قصره وقع لنا أمر غريب. أو بالأحرى: عشرة أمور غريبة. لقد ضعنا عشر مرات. وكل واحدة من تلك المرات كانت فريدة من نوعها – وليس فقط الخطأ نفسه ارتكبناه مرة بعد أخرى. والآن بعد أنْ بتنا مرتبطين معاً إلى الأبد، لم يعُد أمراً هاماً جداً أن نتناكح فوراً.

قلت، وقد تزودتُ بالشجاعة: «لن أخبرك عن الرجال الآخرين كلهم الذين ضاجعتهم».

قال، وهو يعبث برُكبتي: «عظيم». وبدل ذلك، راح يحكي لي عن النساء الأخريات اللائي ضاجعهن. بعضهن رائعات.

أولاً كانت هناك ماي باي، الصينية التي ذكَره بينيت بها.

قلت: «قد تكون ملائمة أو غير ملائمة».

«لا تظني أنني لم أفكّر في هذا».

«أنا متأكدة من أنك فعلت. لكنّ السؤال الهام هو - هل كانت ملائمة؟».

«حسن، أنا كنتُ ملائماً. لقد ظلت تنكحني على مدى سنوات بعد ذلك».

«تعني، بعد أنْ كفت عن مقابلتك، ظلّت تنكحك. يا لها من خدعة. الشبح ينكح. يمكنك أنْ تسجل هذا الاختراع في الواقع. وسيلة لجعل أشخاص من الماضي ينكحون أناساً من الحاضر: نابوليون ينكح تشارلز الثاني، ولويس الرابع عشر.... وكأنَّ الدكتور فاوستوس ينكح هيلين الطروادية...». أحببت أنْ أكون سخيفة معه.

«اخرسي، يا شرموطة - ودعيني أُنهي كلامي عن ماي...»، ثم التفت إليّ وسط صرير المكابح، «يا إلهي - ما أجملك...».

قلت مبتهجة: «أبق عينيك اللعينتين على الطريق».

لطالما بدت أحاديثي مع أدريان أشبه بمقتطفات من قصة *«خلال المرآة»*[١٠]. مثل:

أنا: «يبدو أننا ندور في حلقات مُفرَغة».

أدريان «هذه هي النقطة الهامة».

١٠ - قصة للأطفال، من تأليف صاحب «أليس في بلاد العجائب»، لويس كارول. - المترجم

أو:

أنا: «هلّا حملتَ عني حقيبتي؟».

أدريان: «ما دمت توافقين على ألا تحملي أي شيء مني سريعاً».

أو:

أنا: «لقد طلّقتُ زوجي الأول في الأساس لأنه كان مجنوناً».

أدريان (وهو يُقطّب بين جبينه الشبيه بجبين لينغ): «يبدو لي هذا سبباً وجيهاً *للزواج* من شخص ما، لا للطلاق منه».

أنا: «لكنه يشاهد التلفاز في كل ليلة».

أدريان: «آه، *فهمتُ* إذن لماذا طلّقته».

لماذا أفسدتْ ماي باي حياة أدريان؟

«لقد تركَتني وأنا في وضع حرِج وعادتْ إلى سنغافورة. كان لديها طفل هناك يعيش مع والده وتعرّضَ الطفل لحادث اصطدام سيارة. وكان *يجب* أنْ تعود، ولكن كان في استطاعتها على الأقلّ أنْ تراسلني. وبقيت أشهراً طويلة مرتبكاً أشعر أنَّ العالم يتألّف من أُناسٍ آليين. لم أكنْ مرة شديد الكآبة كحالي حينئذ. وفي نهاية المطافِ تزوجت العاهرة من طبيب الأطفال الذي عالج طفلها - رجل أميركي».

«إذن لماذا لم تلحق بها ما دمت تحبها إلى هذه الدرجة؟».

نظر إليّ وكأنني مجنونة، وكأنَّ مثل هذه الفكرة لم تخطر على باله أبداً.

«ألحقُ بها؟ لِمَ؟» (احترق مطاط الدولاب وهو ينعطف منعطفاً خاطئاً آخر).

«لأنكَ تحبّها؟».

«أنا لم أستخدم هذه الكلمة أبداً».

«ولكن إنْ كنتَ قد شعرتَ بهذا، فلماذا لم تذهب؟».

قال: «إنَّ عملي أشبه برعاية الدجاج. ينبغي أنْ يكون هناك *أحد* ليزيل البراز وينثر الذرة».

قلت: «هذا روث ثيران. إنَّ الأطباء دائماً يتذرّعون بعملهم لكي لا يتصرّفوا بإنسانية. أنا أعرف هذا الروتين».

«إنه ليس روث ثيران، يا حبيبتي، بل بقايا دجاج».

قلت وأنا أضحك: «لستَ مُضحكاً كثيراً».

وبعد ماي باي كان هناك اجتماع عام للنساء في الأمم المتحدة من تايلاند، وإندونيسيا، ونيبال. وكانت هناك فتاة إفريقية من بوتسوانا وزوج من المُحللين النفسيين الفرنسيين، وممثلة فرنسية أمضت «وقتاً في الصندوق».

«في ماذا؟».

«في صندوق - كما تعلم، مثوى المجانين. أعني في مستشفى الأمراض العقلية».

عبُر أدريان عن الجنون بعبارات مثالية على طريقة لينغ. فكل الشعراء الحقيقيين يعانون من انفصام في الشخصية. وكل مجنون مهلوس هو ريلكه[11]. وأراد مني أنْ أشترك معه في تأليف الكتب. عن انفصام الشخصية.

قلت «كنتُ أعلم أنكَ تريد شيئاً مني».

«صحيح. أريد أنْ أستخدم سبّابتك وإبهامك الكريه جداً».

«لأقحمهما فيك».

تبادلنا السباب باستمرار كطفلين في العاشرة. كانت طريقتنا الوحيدة للتعبير عن حبنا.

كان تاريخ أدريان مع النساء يؤهّله عملياً ليكون عضواً في عائلتي.

١١ - الشاعر البوهيمي - النمساوي راينر ماريا ريلكه (١٨٧٥ - ١٩٢٦).

بدا أنَّ شعاره هو لا تنكح امرأة من أقربائك. وصديقته الحالية (كانت ترعى طَفليه حينئذ، كما علِمت) كانت أقرب إلى القريبة: يهودية من دبلن.

سألته «مولي بلوم[١٢]؟».

«مَنْ؟».

«ألا تعلم مَنْ هي مولي بلوم؟؟؟». لم أُصدِّق. على الرغم من كلِّ تلك المقاطع الإنكليزية المثقَّفة ومع ذلك لم يقرأ جويس. (أنا أيضاً أسقطتُ مقاطع طويلة من رواية «*يوليسيس*»، لكنني دائماً أُخبر الناس أنها روايتي المفضَّلة. وأيضاً رواية «*تريسترام شاندي*»[١٣]).

قال، ناطقاً المقطعين الأخيرَين وكأنَّ لهما إيقاعاً واحداً، «أنا إنسان جاهل». كان مسروراً جداً بنفسه. قلت في نفسي، طبيب أخرق آخر. وكغالبية الأميركيين، افترضتُ بسذاجة أنَّ اللكنة الإنكليزية تعني الثقافة.

آه، حسن، غالباً ما يتَّضح أنَّ الأدباء هم أولاد حرام. أو سفلة. لكنني أُصبتُ بخيبة أمل. كما حدث عندما وجدتُ أنَّ مُحللي النفسي لم يسمع باسم سيلفيا بلاث[١٤]. وعلى مدى أيام دار كلام حول انتحارها

١٢ - مولي بلوم: شخصية محورية في رواية «**يوليسيس**» لجيمس جويس. - المترجم

١٣ - «**تريسترام شاندي**»: رواية ساخرة عبثيّة للكاتب الأيرلندي لورنس ستيرن (١٧١٣ - ١٧٦٨) - المترجم

١٤ - سيلفيا بلاث (١٩٣٢ - ١٩٦٣): شاعرة وروائية ومؤلفة قصص قصيرة أميركية. تزوجت من الشاعر تِد هيوز. تخرجت من كلية سميث، جامعة كمبريدج. انتقلت إلى إنكلترا. لاحقاً عانت من الكآبة وانتحرت بوضع رأسها داخل فرن المنزل. لها ديوانان من الشِعر ورواية شبه سيرة ذاتية «**الناقوس**». - المترجم

وكيف أردتُ أنْ أكتب شِعراً عظِيماً ثم أنتحر بوضع رأسي داخل الفرن. لعلّه كان طوال الوقت يفكّر في كعكة القهوة المجمَّدة.

صدّق أو لا تصدّق أنَّ صديقة أدريان كانت إستر بلوم – وليس مولي بلوم. كانت سمراء ضخمة الصدر، وتعاني، كما قال، «من أسباب قلق اليهود كلها. ومفرطة الحسّية وعُصابيّة»، أشبه بأميرة يهودية من دبلن.

«وزوجتك – كيف كانت؟» (حينئذ كنا قد ضعنا بصورة ميؤوس منها فأوقفنا السيارة).

قال «كاثوليكية. بابوية من ليفربول».

«ماذا كانت تعمل؟».

«قابلة».

كانت تلك أغرب معلومة. لم أدرِ كيف أعبّر عن ردّة فعلي عليها.

تخيّلتُ نفسي أكتب «كان متزوجاً من قابلة كاثوليكية من ليفربول» (في الرواية، غيّرت اسم أدريان إلى آخر أكثر غرابة وجعلته أطول قامة بكثير).

«لماذا تزوجتها؟».

«لأنها جعلتني أشعر بالذنب».

«سبب عظيم».

«هو كذلك فعلاً. لقد كنتُ ابن حرام مُذنب يدرس الطب، مولعاً أبله بالأخلاق البروتستانتية. أعني، أذكر أنه كانت هناك ثلاث فتيات كان لهنّ أثر مريح عليّ – لكنَّ الإحساس المريح كان يُخيفني. إحداهنّ – كانت تستأجر تلك الحظيرة الضخمة وتدعو الجميع ليتناكحوا. هذه جعلتني أشعر بالارتياح – وعليه، طبعاً، لم أثق فيها. وزوجتي جعلتني أشعر بالذنب – وعليه، طبعاً، تزوجتها. كنتُ أشبهُك. لم أكن أثق

في المتعة أو في دوافعي. لقد أُصِبتُ بالرعب عندما أصبحتُ سعيداً. وعندما أصابني الرعب - تزوجت. مثلك تماماً، يا حبيبتي».

«ما الذي يجعلك تعتقد أنني تزوجت بدافع الخوف؟». شعرت بالسخط لأنه كان على صواب.

«أوه، ربما وجدتِ نفسك تضاجعين عدداً كبيراً من الرجال، ولا تعرفين كيف ترفضين، وقد تجدين نفسك أحياناً تلعقينه، ومن ثم تشعرين بالذنب لأنكِ استمتعت بوقتك. إننا مبرمجون لنعاني، وليس لنستمتع. إنَّ المازوشية تُزرَع فينا منذ الطفولة. وعليك أنْ تعملي وتعاني - والمشكلة هي: إنك تصدقين ذلك. في الواقع، هذا هراء. لقد استغرقَ مني ستة وثلاثين عاماً لأدرك كم هو هراء ولو أنَّ هناك شيئاً واحداً أودّ أنْ أفعل لأجلك فهو أنْ أعلّمك الدرس نفسه».

«إنَّ في حوزتك أنواعاً شتى من الخطط لأجلي؟ تريد أنْ تعطيني درساً في الحرية، والاستمتاع، تريد أنْ تؤلف كتباً معي، أنْ تهديني... لماذا يريد الرجال دائماً أنْ يُهدوني؟ لابد أني *أبدو* كأني قابلة لتلقّي الهدايا».

«إنك تبدين كأنك تنتظرين من أحد أنْ يُخلّصك، يا حبيبتي. أنتِ تطلبين ذلك. تنظرين إليّ بعينيك الكبيرتين الحسيرتين وكأنني كبير المُحللين النفسيين. إنكِ تسيرين في الحياة باحثة عن مدرّس وعندما تجدينه، تعتمدين عليه إلى درجة أنكِ تكرهينه. أو تنتظرين إلى أنْ تظهر نقطة ضعفه ومن ثم تشمئزين منه لأنه كائن بشري. تجلسين هناك طوال الوقت تتابعين بإمعان، تدونين ملاحظات فكرية، تتخيّلين الناس كأنهم كتبٌ أو مجموعة من السيَر - أنا أعرف هذه اللعبة. تقولين لنفسك إنكِ تدرسين الطبيعة الإنسانية. إنَّ الفن في كل الأزمان قبل الحياة. إنه نسخة أخرى من الهراء البيوريتاني. لكنكِ تُضيفين إليه

لمستك الخاصة. تعتقدين أنكِ تؤمنين بمبدأ المتعة لأنك تنطلقين وتتجولين معي. لكنها أخلاقيَّة العمل القديمة نفسها لأنكِ فقط تعتقدين أنكِ ستكتبين عني. إذن الأمر هو مجرد عمل، n'est – ce pas? (أليس كذلك؟). يمكنك أنْ تضاجعينني وتسمّين ذلك شعراً. شيء بارع جداً. إنكِ بهذه الطريقة تخدعين نفسك بصورة جميلة».

«إنكَ حقاً بارع في تقديم تحليلات من جزأين، أليس كذلك؟ إنك طبيب نفسي تصلح للظهور في التلفاز بجدارة».

ضحك أدريـان. «انظري، يا حبيبتي، أنـا أعرفكِ من *نفسي*. إنَّ المُحللين النفسيين يمارسون اللعبة نفسها. إنهم *يشبهون* تماماً الكتّاب. كل شيء شديد القُرب، سيرة حياة، دراسة. أيضاً، يرتعبون من الموت – كالشعراء. الأطباء يكرهون الموت: لهذا ينهمكون في إعداد الدواء. وعليهم أنْ يُثيروا القضايا طوال الوقت ويبقوا منهمكين فقط ليبرهنوا على أنهم ليسوا موتى. أنا أعرف لعبتك لأنني أمارسها بنفسي. إنها ليست غامضة كما تعتقدين. إنكِ شفّافة تماماً».

ما أثار غيظي أنه كان يراني بطريقة ساخرة أكثر مما رأيتُ نفسي. ولطالما اعتقدتُ أنني أحمي نفسي ضد رأي الآخرين فيّ باتّخاذ أشدّ المواقف تحاملاً ضد نفسي. وفجأةً أدركُ أنَّ هذا الرأي المتحامل هو مدح ذاتيّ. وعندما أُجرَح، ألجأ إلى فرنسيّة المرحلة الثانوية:

«Vous vous moquez de moi» (إنكَ تسخر مني).

«أنتِ على حق تماماً. اسمعي – إنكِ تجلسين معي الآن لأنَّ حياتكِ خدعة وزواجك إما ميت أو يحتضر أَو ملغزٌ بالأكاذيب. والأكاذيب هي من صُنعك. وأنتِ في حاجة ماسّة إلى إنقاذ نفسك. إنَّ ما تفسدينه هو حياتكِ أنتِ، لا حياتي».

«اعتقدت أنكِ قلت إنني أردتُ *منك* أنْ تنقذني».

«هذا صحيح. لكنني لن أقع في هذا الفخ. سوف أخذلكِ بصورة صاعقة وسوف تبدئين بكرهي أكثر مما تكرهين زوجك...».

«أنا *لا أكره* زوجي».

«صحيح. لكنه يُثير ضجرك - وهذا أسوأ، أليس كذلك؟».

لم أُجِب. عندئذ انتابتني كآبة حقيقية. كان تأثير الشمبانيا يتلاشى.

«لماذا عليكَ أنْ تبدأ بهدايتي حتى قبل أنْ تنكحني؟».

«لأنَّ هذا ما تريدين حقاً».

«هذا هراء، يا أدريان. إنَّ ما أريد حقاً هو أنْ أُنكَحْ. واترُكْ عقلي اللعين وشأنه». لكنني كنتُ أعلم أنني أكذب.

«يا مدام، إذا أردتِ أنْ تُنكحي، فسوف تحصلين على ما تريدين»، وشغَّل محرِّك السيارة. «إنني في الواقع أحب أنْ أخاطبك بمدام».

ولكن في الواقع لم يكن لديّ غشاء بكارة ولم يكن لديه انتصاب وفي الوقت الذي وصلنا إلى النزُل، كنا مُرهقَين تماماً من كثرة المرات التي ضعنا فيها.

استلقينا على السرير متعانقين. وأخذ كل منا يتفحّص عُري الآخر برقّة واستمتاع. إنَّ أفضل ما في مُضاجعة رجلٍ جديد بعد كل تلك السنين من الزواج هو اكتشاف جسد الرجل. إنَّ جسد زوجك يُصبح عملياً أشبه بجسدك. كل شيء فيه معروف لديك. كل روائحه ومذاقه، ومنحنياته، الشعر، والوحمات. لكنَّ أدريان كان أشبه ببلد جديد. قام لساني بسياحة بلا دليل فيه. بدأتُ بالفم وهبطتُ إلى أسفل. إلى عنقه العريض، الذي لوحته أشعته الشمس. إلى صدره، المكسو بشعر مجعد مائل لونه إلى الحُمرة. إلى بطنه، البارز قليلاً - خلاف بطن بينيت الأسمر الخالي من الدهن. إلى قضيبه الوردي ذي الطيّات الذي بقيَ عليه أثر من مذاق البول ورفض أنْ ينتصب وهو في فمي. إلى

خصيتيه المكسوتين بالشعر والورديتين جداً اللتين تناولت كل منهما في فمي. إلى فخذيهِ العضليين. إلى رُكبتيه الملوحتين بأشعة الشمس. إلى قدميه (اللتين لم أُقبّلهما). إلى أظافر قدميه القذرة. (إلى آخره). ثم بدأتُ من الأول من جديد. من فمه الرطب اللذيذ.

«من أين لك هذه الأسنان الصغيرة المُدبّبة؟».

«من بنت عرس التي كانت أمي».

«ماذا؟».

«بنت عرس».

«أوه». لم أكن أعلم معناها ولم آبه. كان كل منا يتذوّق الآخر، ونحن منقلبان رأساً على عقب ولسانه يعزف موسيقى داخل كسي.

قال «لديك كس لذيذ، وأجمل طيز رأيتها في حياتي. من المؤسف أنه ليست لديك حلمتان».

«شكراً».

تابعت المصّ ولكن حالما حصل لديه انتصاب، عاد وارتخى من جديد.

«لم أعد أرغب في نكاحك».

«لِمَ؟».

«لا أعلم - لم أعد أرغب فيه».

أراد أدريان أنْ يكون محبوباً لذاته وحدها، وليس لشعره الأصفر. (أو لأيره الوردي). كان شيئاً مُؤثراً. لم يكن يريد أنْ يكون آلة نكاح.

قال متحدياً: «أستطيع أنْ أنكح أفضلهن عندما أرغب في ذلك».

«طبعاً تستطيع».

قال: «ها أنتِ تسمعين صوت عاملك الاجتماعي اللعين».

كنتُ قد قمت بدور العاملة الاجتماعية في مناسبتين في السرير.

مرة مع براين، بعد أنْ أُطلقَ سراحه من القسم النفسي في المستشفى وكان مملوءاً بالأدوية المُهدِّئة (وبالفُصام) فلم يتمكن من نكاحي. وبقينا طوال شهر نستلقي في السرير يُمسك أحدنا بيدي الآخر. «كهانسل وغريتل»[١٥]، حسب قوله. وكان وضعاً رقيقاً. يشبه ما يمكن أنْ تتخيَّل أنَّ دودجسون يفعل مع أليس[١٦] في قارب في نهر التايمس. وكانت أيضاً فترة راحة بعد فترة جنون براين عندما اقترب قاب قوسين من خنقي. وحتى قبل أنْ ينهار، كان أداء براين الجنسي غريباً نوعاً ما. كان يُفضِّل غالباً المصّ على النكاح. وأحياناً، كنتُ غشيمة إلى درجة أني لم أكتشف أنَّ الرجال ليسوا جميعاً هكذا. كنتُ في الحادية والعشرين وكان براين في الخامسة والعشرين، وتذكرتُ ما سمعتُ عن أنَّ الرجال يصلون إلى ذروة المتعة الجنسية وهم في سن السابعة عشرة والنساء وهنّ في سن الثلاثين، فتخيّلتُ أنَّ اللوم يقع على سن براين، وأنه في حالة تدهور. وينهار، كما تخيّلت. ومع ذلك، أصبحتُ جيدة جداً في مجال المصّ.

وقمتُ أيضاً بدور العاملة في المجال الاجتماعي مع تشارلي فيلدينغ، قائد الأوركسترا الذي كانت عصاه تذوي باطّراد. كان ممتنا بصورة مُذهلة. في تلك الليلة الأولى ظلّ يُردِّد على مسمعي، «أنتِ لُقية حقيقية» (يعني أنه كان يتوقع مني أنْ أرمي به إلى الخارج في البرد ولم أفعل). وعوّضَ عن ذلك لاحقاً. كان يذوي فقط في ليالي الافتتاح.

أما أدريان؟ أدريان الشهيّ. كان من المفترَض أنْ يكون نكاحي المستمر. فماذا حدث؟ الأمر الغريب هو أنني في الحقيقة لم آبه. كان يستلقي على السرير بجماله الفائق وجسده يفوح برائحة ذكية

---

١٥ - اي كأخ وأخته.

١٦ - دودجسون: هو الاسم الحقيقي للكاتب الإنكليزي لويس كارول، تشارلز لودفيغ دودجسون، مؤلف الرواية الشهيرة «**أليس في بلاد العجائب**». - المترجم

جداً. فكّرتُ في كل تلك القرون التي تولّه خلالها الرجال بالنساء لأجسادهن بينما احتقرن عقولهن، وفي الأيام الخوالي التي كنتُ أعبد الثناني وولف والثناني ويب بدا لي ذلك شيئاً غير مفهوم، أما الآن فأتفهّمه. هكذا كان شعوري غالباً اتجاه الرجال. كانت عقولهم مشوّشة بصورة تامة، لكنّ أجسادهم كانت ممتعة. كانت أفكارهم لا تُحتَمل، لكنّ قضبانهم ناعمة كالحرير. ولطالما ناصرتُ المرأة طوال حياتي (وأحدد تاريخ «تطرّفي الفكري «بالليلة في عام ١٩٥٥ في نفق IRT عندما سألني الفتى الأحمق هوراس مان الذي كنتُ أواعده إنْ كنتُ أنوي أنْ أُصبح سكرتيرة)، لكنّ المشكلة الكبرى كانت كيف أوفّق بين مناصرتي لقضايا المرأة وشبقي النهم إلى الأجساد الذكرية. لم يكن أمراً سهلاً. ثم إنه كلما تقدمتْ المرأة في السن، يتّضح لها أكثر أنّ الرجال في الأساس يرتعبون من المرأة. بعضهم سراً، وبعضهم صراحة. أي شيء أكثر حدّة من مواجهة امرأة متحررة لقضيب عاجز؟ إنّ أكبر قضايا التاريخ تنكمش بالمقارنة مع هذين الشيئين الأساسيين: المرأة الأبدية والقضيب العاجز الأبدي.

سألتُ أدريان: «هل أُخيفك؟».

«أنت؟».

«بعض الرجال يدّعون أنهم يخافونني»:

ضحك أدريان. قال «أنت لذيذة، ظريفة - كما يقول الأميركيون. ولكن ليس هذا هو المهم».

«هل تعاني عادةً من هذه المشكلة؟».

«Nein (كلا)، ياسيدتي الدكتورة، ولا أرغب أيضاً في أنْ أستجوَب أكثر من هذا. هذا سُخف. أنا لا أعاني من مشكلة العنّة - كل ما في الأمر أنّ طيزك الضخمة *ترهبني ولا أرغب* في النكاح».

سكت المتعصّب المتطرف جنسياً: القضيب المتخاذل عن أداء واجبه. إنَّ السلاح المُطلق في الحرب القائمة بين الجنسين هو: القضيب العاجز. وراية مخيّم العدو هو: القضيب نصف المنتصب. ورمز القيامة: القضيب ذو الرأس النووي الذي يُدمّر نفسه بنفسه. ذلك كان الجور الأساسي الذي لا يمكن تصحيحه: ليس أنّ الذكر يتمتع بجاذبية إضافية رائعة تسمّى القضيب، بل إنّ الأنثى لها كس رائع يصلح لكل المواسم. لا العاصفة ولا المطر المتجمد ولا ظلمة الليل يمكن أنْ تزعجه. إنه موجود دائماً، مستعد دائماً. ومرعب جداً، عندما تفكر فيه. ولا عجب أنّ الرجال يكرهون النساء. لا عجب أنهم يخترعون أسطورة عدم كفاية الأنثى.

قال أدريان «أرفض أنْ أُثبِتُ إلى وتد»، غير مُدرك التورية التي تُثيرها في الذهن، «أرفض أنْ أُصنّف. وعندما تقررين أخيراً أنْ تجلسي وتكتبي عني، لن تعلمين إنْ كنتُ بطلاً أم لا بطل، ابن حرام أم قديساً. لن تتمكني من تصنيفي».

في تلك اللحظة، عشقتُه بجنون. ونفذ قضيبه الواهن إلى حيث يعجز القضيب المنتصب عن الوصول.

(٦)

نوبات من العاطفة المشبوبة
أو الرجل الكامن تحت السرير

من بين أشكال الشجاعة التافهة كلها، شجاعة الفتيات هي الأبرز.
وإلا لما كانت هناك إلا زيجات قليلة وأقلّ منها المغامرات الجامحة التي تعلو فوق كل شيء، حتى الزواج...

• كوليت

ذلك الوقوع بجنون في شباك الحب لم يكن غريباً عليّ على الإطلاق. وعلى امتداد عام كامل وقعت في حب كل رجل. وقعت في حب شاعر أيرلندي كان يحتفظ بخنازير في مزرعته في أيوا. ووقعت في حب روائي طوله ستة أقدام بدا أشبه براعي بقر ولم يكن يؤلف إلا قصصاً رمزية عن تأثير الإشعاع. ووقعت في حب مُراجع كتب أزرق العينين افتتن بديواني الشِّعري الأول. ووقعت في حب رسّام متجهِّم (زوجاته الثلاث السابقات انتحرن كلهن). ووقعت في حب بروفسور في فلسفة النهضة الإيطالية شديد التودُّد ومدمن على شم بخار الغراء ويُضاجع فتيات السنة الأولى. ووقعت في حب مترجم فوري في الأمم المتحدة (للعبرية، والعربية، واليونانية) كان لديه خمسة أطفال، وأم

مريضة، وسبع روايات غير منشورة في شقته الشاسعة في مورننغسايد درايف. ووقعت في حب أحد العاملين في مجال الكيمياء الحيوية شاحب الوجه أخذني لتناول العشاء في نادي هارفارد وكان قد تزوج اثنتين من الكاتبات - كلتاهما شبقتان جنسياً.

ولكن دون أية نتيجة. أوه كان هناك عناق في المقاعد الخلفية للسيارات. وقبلات سكرى طويلة في مطابخ نيويورك التي تعجّ بالصراصير مع شرب المارتيني الدافئ؛ وغزل مع وجبات غداء مغذية على حساب المحل؛ وقَرصْ بين أرفف مكتبة بتلر المُكدّسة بالكتب؛ وتبادل العناق بعد قراءات الشِّعر؛ وعصر الأيدي في مناسبات افتتاح المعارض؛ وأحاديث هاتفية طويلة ذات دلالة ورسائل مُثقلة بالمعاني؛ بل وعروض صريحة ومنفتحة (عادة من رجال لا يجذبونني أبداً). ولكن دون أية نتيجة. كنت بدل ذلك أذهب إلى المنزل، وأكتب قصائد للرجل الذي أحبّه حقاً (كائناً مَنْ كان). فقبل كل شيء، لقد ضاجعت من الرجال ما يكفي لأعلم أنَّ القضبان كلها متشابهة. فما الذي أبحث عنه إذن؟ ولماذا أنا قلقة هكذا؟ لعلي قاومتُ اكتمال أيّ من المغازلات لأنني أعلم أنَّ الرجل الذي أردتُ فعلاً سوف يستمر في تجنّبي وسوف ينتهي بي الأمر إلى خيبة الأمل. ولكن مَنْ كان الرجل الذي أردتُ فعلاً؟ كل ما عرفت هو أنني كنتُ أبحث عنه بيأس منذ أنْ كنتُ في السادسة عشرة.

عندما كنتُ في السادسة عشرة واعتبرتُ نفسي اشتراكيّة فابيّة، عندما كنتُ في السادسة عشرة ورفضتُ أنْ أُصادق فتية يُحبون آيك[1]، عندما كنتُ في السادسة عشرة وبكيت وأنا أقرأ «**رباعيات**

---

١ - آيك ترنر المطرب والمؤلف الموسيقي شكّل مع زوجته تينا ثنائياً مشهوراً في الستينيات في تقديم أغاني السول والروك والبوب. - المترجم

الخيام»، وعندما كنتُ في السادسة عشرة وبكيت وأنا أقرأ سوناتات إدنا سينت فنسنت ميلاي[٢] - كنتُ أحلم عادة برجلٍ مثاليّ يمكن نكاح عقله وجسده على قدم المساواة، له وجه بول نيومن[٣] وصوت ديلان توماس[٤]؛ ويمتلك جسد تمثال «داود» لمايكل أنجلو («مع تلك العضلات الصغيرة الرخاميّة المتموّجة»، كما كنتُ أقول لصديقتي المفضّلة، بيا ويتكين، التي كان تمثالها الذكري المفضّل هو «***ديسكوبولوس***»[٥]؛ كنا نحن الاثنتان تلميذتين نهمتين لقراءة تاريخ الفن). كان يتمتع بعقل جورج برنارد شو (أو، على الأقل، ما *تخيّل* عقل سن السادسة أنه عقل جورج برنارد شو). كان يحب الكونشرتو الثالث على آلة البيانو لرحمانينوف وأغنية فرانك سيناترا «في الساعات الأولى من الصباح» أكثر من الموسيقى الدنيوية الأخرى كلها. كان يُشاركني ولعي بمطرزات حيوان وحيد القرن، وبفيلم «***اهزم الشيطان***»، وبمتحف الكلويسترز، وبرواية سيمون دو بوفوار «***الجنس الثاني***»، وبالسحر، وبحلوى الشيكولاتة. كان يُشاركني احتقاري للسيناتور جو مكارثي، وإلفيس بريسلي، ووالديّ المُحافظين. أنا لم أقابله أبداً. في سن السادسة عشرة، بدا أنّ عدم مقابلته أمرٌ لا يُحتَمَل. ولاحقاً تعلّمتُ أنْ آخذ ما يتوفّر لي وأترك الباقي وشأنه، وألا أُصغي إلى هدير قرع الطبول المتناهي من مسافة بعيدة. وكان الفرق بين خيالاتي (بول نيومن، ولورنس أوليفييه، وهمفري

---

٢ - إدنا سينت فينسنت ميلاي (١٨٩٢ - ١٩٥٠): شاعرة أميركية، معروفة بسوناتاتها. من دواوينها «**الظبي وسط الثلوج**» و«**المقابلة القاتلة**». - المترجم

٣ - بول نيومَنْ: الممثل الأميركي.

٤ - ديلان توماس (١٩١٤ - ١٩٥٣): شاعر وكاتب مقالات من ويلز. من أعماله رواية «**صورة الفنان كلباً**»، وديوان «**ميتات ومخارج**». - المترجم

٥ - ديسكوبولوس؛ أو رامي القرص: تمثال شهير يستخدَم عادة كرمز للألعاب الرياضية. - المترجم

بوغارت، وتمثال «داود» لمايكل أنجلو) وبين الفتية المراهقين ذوي الوجوه المكتنزة يُثير الضحك. واكتفيت بالبكاء. وكذا فعلت بيا. كنا نرثي لحالنا في شقة والديها الكئيبة في ريفرسايد درايف.

«إنني أتخيله - كما تعلمين - وسطاً بين لورنس أوليفييه في مسرحية *«هاملت»* وهمفري بوغارت في فيلم *«اهزم الشيطان»* - وأسنانه بيضاء بصورة وحشية، وصاحب جسد رائع جداً - أشبه بتمثال *«رامي القرص»*». وأشارت إلى بطنها المشدود.

سألتُها «ماذا ترتدين؟».

«أرى أنه أشبه - كما تعلمين - بحفل زفاف من القرون الوسطى. إنني أعتمر تلك القبعة البيضاء المُدببة مع خمار من الشيفون ينهمر منها - وأرتدي ثوباً من المخمل الأحمر - وربما بلون النبيذ - وأنتعل حذاءً مُدبباً». وقامت برسم الحذاء لأجلي بقلم التخطيط الخاص بها ذي الحبر الأسود. ثم رسمت الثوب بأكمله - ثوب بخصر فخم وياقة منخفضة جداً وكُمّين طويلَين وضيّقَين. صمّمه مخلوق رائع تبرز منه فلذة ألماس رائعة. (في ذلك الوقت، كانت بيا قد أضحتْ بدينة ولكن بلا صدر).

تابعتْ: «أرى كل شيء يحدث في قلعة كلويسترز. وأنا واثقة من أنه بالإمكان استئجار الكلويسترز إنْ كنتِ على معرفة بالأشخاص المناسبين».

«وأين ستعيشين؟».

«حسن، لقد شاهدتُ ذلك المنزل القديم والغريب فعلاً في فرمونت - هو دير أو كنيسة مهجورة أو ما شابه...» (لم تشك أيٌ منا في وجود أديرة أو كنائس مهجورة في فرمونت)، «... بأرضيات خشبية بسيطة إلى أقصى مدى ومنور من السقف. سوف يكون أشبه

بغرفة واحدة تُستخدَم كمُحترَف وكغرفة نوم ذات سرير مستدير كبير تحت المنور - وأغطية من الساتان الأسود. وسوف يكون لدينا الكثير من القطط السيامية - نُطلق عليها أسماء مثل جون دون ومود غون وديلان - كما تعلمين».

كنتُ أعلم، أو على الأقلّ حسبتُ أنني أعلم.

تابعتْ «على أية حال... أراني وسطاً بين جينا لولوبريجيدا وصوفيا لورين...»، (كان لبيا شعر أسود)، «ما رأيك؟» رفعتْ شعرها الدهني البُنيّ فوق رأسها وأبقته هناك وهي تمتص خدّيها إلى الداخل وتوسّع عينيها الزرقاوين في وجهي.

قلت: «أعتقد أنكِ أقرب شبهاً بآنّا مانياني[٦]، عمليّة وفظّة، لكنها حسّية إلى أقصى مدىً».

قالت وهي تتأمّل: «ربما...». كانت تتخذ وِقفةً أمام المرآة.

بعد قليل قالت: «أوه، شيء *مُقرف*. إننا لم نقابل أي رجل ***يستحقنا*** ولو قليلاً»، ورسمت تعبيراً شنيعاً على وجهها.

خلال سنة التخرّج في قسم الموسيقى والفنون، فتحت مع بيا أقلّيتنا العدائية المؤلفة من اثنتين المجال أمام انضمام بضع فتيات منبوذات أخريات. وكان ذلك أكثر ما استطعنا فعله. وتضمّنت المجموعة فتاة

٦ - آنّا مانياني (١٩٠٨ - ١٩٧٣): ممثلة مسرحية وسينمائية إيطالية. برزت خاصة خلال أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي. كانت تُكنّى بـ «البوءة» السينما الإيطالية بسبب شراستها وعصبيتها. ابدعت تحت إشراف مخرجين من أمثال روسيني الذي قال عنها إنها أعظم ممثلة في زمنها منذ الممثلة إليانور ديوز. وأعجب بها الكاتب تنيسي وليامز ومثّلت من تأليفه مسرحية **«وشم الوردة»** ونالت عليه جائزة الأوسكار. من أشهر أعمالها **«روما مدينة مفتوحة»** و**«ماما روما»** للمخرج باولو بازوليني و**«آنّا كريستي»**. قيل عنها إنها أعظم ممثلة منذ غريتا غاربو، وإنها النسخة الإيطالية من إديث بياف.... - المترجم

ناهد الصدر اسمها نينا نونوف تتميّز بولعها بشبح ديلان توماس. ومعرفتها المُفترَضة بأشياء مدنسة صينية ويابانية، و«صِلتها» بيالي[٧] حقيقي (روى عن مباريات عطلة الأسبوع لنا جميعاً - ولكن للأسف اتّضح أنَّ «الصلة» كانت صديقاً لصديق أحد معارف أمها). والدة بيا أيضاً كان لديها تشكيلة ضخمة من «كتب الجنس» تتضمّن كتاب *«بلوغ سن الرشد في ساموا»* و*«الجنس والمزاج»*؛ وكنت تجد كل كتاب يتضمن عبارة سن البلوغ. وأخيراً لم تبقَ إلا فئة والد نينا التي شكّلت سلسلة الدبور الأزرق للإذاعة في أربعينيات القرن الماضي. ومن ناحية أخرى، كانت جيل سيغل عضواً في مجموعة ليست من أجل المدرسة بقدر ما كانت بدافع الإحسان. لم يكن لديها ما تُساهم به على سبيل حب الظهور، بل خُلقت لهذا بسبب ولائها الأعمى لنا وأسلوب التملّق الذي تُقلّد به أشد تصرفاتنا المتكلّفة تنميقاً. وإحدى العضوات غير المواظبات كانت غريس باراتو - تدرس الموسيقى لم نحترم عقلها لكننا كنا نحكي قصصاً وهمية عن مآثرها الجنسية. وعلى الرغم من أنها أنكرتها، إلا أننا كنا نحكي سراً فيما بيننا أنه لعلها «ذهبت إلى أبعد مدى». قالت بيا «على الأقل هي *demi - vierge* (نصف عذراء)». وأومأتُ برأسي دلالة معرفتي العبارة. لاحقاً بحثت عن معناها في القاموس.

لم يُسمح إلا لصبيّين اثنين بالانضمام إلى مجموعتنا، وعاملناهما باحتقار حرصاً منا على أنْ يفهما أنَّ وجودهما بيننا هو فقط من أجل المعاناة. ولما كانا من رفاقنا في الصف وليسا «زملاء رجال»، أردنا أنْ نبيّن بوضوح أننا لن نعتبرهما إلا صديقَين «أفلاطونيين». جون ستوك كان ابن أحد أصدقاء والديَّ القدامى. كان بديناً وأشقر ويؤلف قصصاً

---

٧ - يالي: أي أحد المنتسبين إلى جامعة ييل. - المترجم

قصيرة. عبارته المفضّلة كانت «نوبات من الوله». كان يظهر فجأة على الأقلّ مرة كلما كتب قصة. وورون بركوف (الذي كنا نُطلق عليه، طبعاً، اسم جركوف[٨]) كان يعشقني. كان طويل القامة، نحيلاً، ذا أنف ضخم ومعقوف ومجموعة لا تُصدَّق حقاً من الرؤوس السوداء والبثور (التي كنتُ أتوق إلى عصرها)، وكان مُحباً للإنكليز، ويشترك في مجلة «*بنش*» وفي طبعة البريد الجوي من «*مانشستر غارديان*»، ويحمل مظلة مربوطة معاً بإحكام (في أحوال الطقس كافة)، ويلفظ كلمة «مبتذل» (وهي إحدى الكلمات المُفضّلة) بلكنة في المقطع الثاني، وكان يُتبّل كلامه بعبارات مثل «قذر لعين» و«يعبث».

بعد انتهاء معاناة طعام الكلية وانتظار رسائل القبول، رحنا نعبث نحن الستة في الغالب في بيتنا لنبدّد عطلة الربيع الكسول الطويلة في انتظار التخرُّج بنزَق، فنجلس على أرضيّة غرفة الجلوس، ونستهلك كميات كبيرة من الفاكهة، والجبن، وشطائر زبدة الفول السوداني والكعك المُحلّى، ونصغي إلى ألبومات فرانك سيناترا، ونؤلف قصائد ملحمية جماعية نحاول أنْ نجعلها إباحيّة قدر ما تسمح لنا به تجربتنا المحدودة في هذا المجال؛ ندوّنها على آلتي الكاتبة المحمولة التي كنا نتناقلها فيما بيننا. وعندما يكون جون حاضراً، يُصبح نظام النهار نوبات من الولَه.

لم ينج أيّ من تلك الإبداعات المشتركة، ولكنْ مؤخراً عثرتُ مُصادفة على مقطع ينقل بصورة أو بأخرى روح كل تلك التُّحف الفنية الضائعة الأخرى. وكنا متعودين على الانهماك في العمل بأقلّ ما يمكن من الخطوات التمهيدية، بحيث يبقى نسيج السرد دائماً متقطّعاً. وإحدى القواعد المُتّبعة كانت أنْ يُسمَح لكل مؤلف بثلاث دقائق

٨ - هنا تلمّح الكاتبة وتتلاعب بكلمة Jerk وتعني أحمق. - المترجم

قبل أنْ يُسلِّم الآلة الكاتبة إلى التالي، وزاد هذا طبيعياً السِّمة التشنجية للنثر. ولما كانت بيا هي التي تبدأ عادةً، كانت صاحبة الامتياز في رسم الخطوط الرئيسة للشخصية التي يتوجب علينا جميعاً أنْ نتحمّلها:

«كان دوريان فيرتشستر فادنغتون الرابع متشاعراً غير متميِّز أعلنَ حتى أقرب أصدقائه أنه « يتحول من سيئ إلى أسوأ». وعلى الرغم من أنه كان من الناحية الجنسية شبقاً وأحياناً يُفضِّل الجمال، كغالبية الأطباء، فإنَّه في الحالة العادية كان يميل إلى النساء. وكانت هرميون فينغرفورث امرأة - أو هكذا تحب أنْ تفترض - وكلما قابلت دوريان مُصادفة سرعان ما تتخذ شفاهها سلسلة من الأوضاع المُثيرة للاهتمام.

ذات مرة قالت له بنبرة عادية، وهما يتشمّسان معاً عاريين على مصطبة فوق سطح المبنى في فلاتبوش، «إنَّ الجلد هو أكبر أعضاء الجسم».

أعلنَ، وهو يعتليها في إحدى نوبات الشبَق، «حدّثيني عن نفسك».

صرخت، وهي تدفعه بعيداً عنها وتحمي عُذريتها المُشتهاة بعاكس لأشعة الشمس من رقائق الفضّة، اخرج، اخرج من كسّي اللعين!».

قال ساخراً: «حسبتُ أنكِ تريدين مني أنْ أفكّر فيما أفعل».

قالت بنزَق: «يا يسوع المسيح! إنَّ الرجال لا يهتمون إلا بالنساء الشبقات».

في ذلك الوقت، رأينا جميعاً أنها أظرف مقطوعة نثرية أُلِّفَتْ قاطبة. وكانت هناك تتمّة لذلك الحوار، أيضاً - شيء يدور حول طائرة مروحية لمراقبة حركة المرور مزوّدة بمُكبرين للصوت يظهران على السقف وتحول المشهد كله إلى مرح جماعيّ - لكنّ ذلك لم ينجُ. لكنَّ المقطع نقل ما يُشبه المزاج العام لتلك الفترة من حياتنا. وتحت النقد البارع والتكلّف الزائف كان هناك أشدّ أنواع الرومانسية

عاطفيّة منذ أنْ تمثّل إدوارد فيتزجيرالد[٩] شخصية عمر الخيام. كنت أنا وبيا نريد شخصاً نغني معه في البريّة، وكنا نعلم أنَّ جون ستوك ورون بركوف لا يتطابقان مع الصورة التي نحملها في مخيلتنا.

كنا نحن الاثنتان مولعتين بالقراءة، وعندما كانت الحياة تُحبطنا كنا نتحول إلى الأدب - أو على الأقلّ إلى النسخة السينمائية منه. كنا نرى نفسينا بطلتَين ولم نفهم ماذا حدث لكل أولئك الأبطال. لقد كانوا في الكتب. كانوا في الأفلام السينمائية. وكانوا غائبين بصورة جليّة عن حياتنا.

التاريخ والأدب كما يُنظَر إليهما ذاتياً في سن السادسة عشرة

-١-

كان لدوريان غراي[١٠] خصلات شعر من ذهب.
ريت بتلر[١١] كان متهوراً ووسيماً ووقحاً...
جوليان سوريل[١٢] كان يعرف كل شيء عن الوَله.
الكونت فرونسكي[١٣] كان فاتناً على الطريقة الروسية.
أنا أقول إنَّ هناك حفنة من الرجال أنا على استعداد لأرتمي بين أحضانهم -
وكل واحد منهم منهمك حتى أُذنيه في علاقة في رواية.

٩ - إدوارد فيتزجيرالد (١٨٠٩ - ١٨٨٣): شاعر وكاتب إنكليزي. أشهر إنجازاته على الإطلاق، ترجمته لرباعيات الخيام إلى الإنكليزية. - المترجم
١٠ - دوريان غراي: اسم الرواية وبطل هذه الرواية للكاتب الأيرلندي أوسكار وايلد (١٨٥٤ - ١٩٠٠). - المترجم
١١ - ريت بتلر: بطل رواية «ذهب مع الريح» لمارغريت ميتشل. - المترجم
١٢ - جوليان سوريل: بطل رواية «الأحمر والأسود» لستندال. - المترجم
١٣ - الكونت فرونسكي: بطل رواية «آنّا كارنينا» لليو تولستوي. - المترجم

قبل أنْ تبلغ جولييت السادسة عشرة، كانت قد تسبَّبت في صُلح عائلتين متعاديتين.

ونانا[١٤] كانت قد ارتـادت حانات باريس كلها مع السكارى والعاهرات والمتسكعين.

ووجه هيلين، كما يُقال، أطلق العديد من السفن في البحر.

وكان يكفي سالومي[١٥] أنْ تخلع أسمال ثوبها السبعة.

وجمال إستر[١٦] أنقذ شعبها.

وإنجاز مريم الفذّ يُمدح في الكنائس كلها.

وزوجة لويس الريفية تسببت في ثورة أمّة.

ولكن ها أنا ذي، تجاوزت السادسة عشرة، والعالم من حولي هادئ تماماً.

كان الوزن متعثراً، لكنَّ الرسالة واضحة. كنا مستعدات للتذلُّل إذا عثرنا على الرجلين اللذين يستحقان التذلُّل لهما.

كان الشبان الذين نقابلهم في المدرسة أسوأ، بصورة ما. على الأقل جون ورون كانا تافهَين طيبيّ القلب يعبداننا. لا يحملان أفكار جورج برنارد شو أو جسدَين شبيهين بجسد تمثال «داود» مايكل أنجلو، لكنهما كانا مُخلصَين لنا، واعتبرانا مخلوقتين تتمتعان بذكاء لامع وبأسلوب راق. لكنَّ الحرب بين الجنسين بدأتْ في المدرسة بجديّة وتباعدت عقولنا عن أجسادنا أكثر فأكثر.

---

١٤ – نانا: اسم البطلة والرواية التي تحمل اسمها لبلزاك. – المترجم

١٥ – سالومي: التي طلبت رأس يوحنا المعمدان ثمناً لرقصتها المتهتكة. – المترجم

١٦ – إستر: في العهد القديم، هي الأميرة اليهودية الجميلة التي أصبحت ملكة بلاد فارس لتنقذ شعبها من المذبحة. – المترجم

عثرتُ على زوجي الأول في سنتي الدراسية الجامعية الأولى وتزوجته بعد ذلك بأربع سنوات بعد التخرُّج وخلال تلك الفترة قمت بجولات جانبية وبتجارب. ومع بلوغي عامي الثاني والعشرين كنتُ قد أصبحت شخصاً محنكاً بعلاقة زواج واحدة انفصمت تحت ضغط أشد الظروف إيلاماً. وعثرت بيا على سلسلة من أبناء الحرام الذين نكحوها وخيَّبوا أملها. ومن المدرسة كانت تكتب لي ملاحم على هيئة رسائل بخط يدها الدقيق المُزخرف تصفُ في كل منها ابنَ حرام بالتفصيل، ولكنْ لسببٍ ما لم أتمكّن من التمييز بينهم. لقد بدا أنهم جميعاً يتصفون بوجنات مجوفة وبالشُعر الأشقر الخفيف. كانت مولعة برجال الغرب الأوسط من غير اليهود بقدر ما يتولّه بعض الشبان اليهود بالفتيات من غير اليهود. وكأنهم جميعاً شخص واحد. كأنهم هكلبري فين بلا طوف. شُقر الشعور، يرتدون بناطيل زرق، وينتعلون أحذية رعاة البقر. وينتهي بهم الأمر إلى ازدرائها.

كانت خيبة أملنا تزداد باطّراد، وطبعاً كان لا مناص من ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار التخيلات السخيفة التي بدأنا بها، ولكن لا أعتقد أننا كنا نختلف كثيراً عن باقي المراهقات (على الرغم من أننا كنا على اطلاع أكثر على الأدب وحتماً أكثر ادّعاءً). كل ما أردنا كان رجالاً نستطيع أنْ نتقاسم معهم كل شيء. لماذا كان طلبنا هذا مستحيلاً؟ لماذا كان الرجال والنساء في الأساس متنافرين؟ أم إنَّ الأمر كله هو أننا لم نعثر بعد على الأمثلة الصحيحة؟

بحلول صيف عام ١٩٦٥ كنا معاً قد بلغنا سن الثالثة والعشرين وجبنا أوروبا معاً، وتحررنا من الوهم إلى درجة أننا بتنا نضاجع الرجال في الأساس لنتباهى كل منا أمام الأخرى بحصيلتها.

في فلورنسا، أعادتْ بيا صياغة شعر روبرت براوننغ فقالت:

افتح كسّي وسوف ترى
أنه قد حُفرَت عليه كلمة: إيطاليا.

ضاجعنا شباناً يبيعون محافظ نقود خارج صالة عرض أوفيتزي[١٧]، ومع موسيقيّين أسودين كانا يُقيمان في نُزُل يطل على الساحة العامة، ومع قاطعَيّ تذاكر في شركة أليطاليا للطيران، ومع موظفيّ بريد من الأميركان إكسبريس. وأقمتُ علاقة دامت أسبوعاً مع ذلك الإيطاليّ المتزوج الذي اسمه أليساندرو الذي كان يُحب أنْ أهمس له كلاماً بذيئاً في أذنه في أثناء النكاح. في المعتاد كان هذا يُثير لديّ ضحكاً هستيرياً بحيث أفقد اهتمامي بالنكاح. ثم هناك علاقة أخرى دامت أسبوعاً أقمتها مع بروفسور أميركي في تاريخ الأدب في منتصف العمر اسمه مايكل كارلينسكي وكان يوقّع على رسائل الحب باسم «مايكل أنجلو». كانت زوجته أميركية مدمنة كحول في فيزول، وله رأس أصلع برّاق، ولحية دقيقة الطرف، وولعٌ بـ *Granita di Caffee* (مثلجات القهوة). أراد أنْ يأكل فلقات البرتقال من كسّي لأنه كان قد قرأ عن ذلك في كتاب «الروض العاطر»[١٨]. ثم كان هناك طالب غناء صوت التينور الإيطالي الذي أخبرني في موعدنا الثاني أنَّ كتابه المُفضّل هو كتاب ساد «*جوستين*»، وسألني إنْ كنتُ أرغب في تطبيق بعض المشاهد منه. كنتُ وبيا نؤمن بالتجربة للتجربة ذاتها – لكنني لم أقابله بعد ذلك أبداً.

بدا أنَّ أفضل جزء من تلك المغامرات هو الطريقة الهستيرية التي

---

١٧ – أوفيتزي: صالة عرض للفنون في فلورنسا. بُنيت في القرن السادس عشر، وتحتوي في الأساس لوحات من عصر النهضة. – المترجم

١٨ – «**الروض العاطر في نزهة الخاطر**»: كتاب من تأليف محمد أبي عبد الله بن محمد النفراوي في الثقافة الجنسية، ويتضمن نصائح وإرشادات ووصايا بخصوص الجماع. – المترجم

كانت تسردها بها كل منا للأخرى. ولولا ذلك، لبقيتْ في مُعظمها خالية من المتعة. صحيح أننا كنا ننجذب إلى الرجال، ولكن عندما يتعلّق الأمر بالفهم والحديث الجيد، كنا نحتاج كل منا للأخرى. وشيئاً فشيئاً، اختُزِل الرجال إلى مجرد أدوات لممارسة الجنس.

ثمة حزن شديد يكتنف هذا كله. وفي نهاية المطاف توصّلنا إلى قبول الكذب والتمثيل والتنازلات بأكملها إلى درجة أنها أضحت خفيّة - حتى بالنسبة إلينا. وبدأنا تلقائياً نُخفي أشياء عن رجالنا. إذ ما كان يمكن أنْ ندعهم يعرفون، مثلاً، أننا نتحدث معاً عنهم، وأننا نناقش أسلوبهم في النكاح، وأننا نحاكي طريقتهم في المشي وفي الكلام.

لطالما كره الرجال ثرثرة النساء لأنهن يُخمّن الحقيقة: يتناولون معاييرهن ويقومون بالمقارنة بينها. وفي أشدّ المجتمعات اتّساماً بعقدة الاضطهاد (العرب، واليهود الأصوليون) تُغلّف النساء تماماً بالثياب (أو بالشعر المُستعار) ويُفصَلنَ عن العالم قدر الإمكان. ولكنهن يُثرثرن في الأحوال كلها: إنها الطريقة الأصلية لنشر الوعي. يمكن للرجال أنْ يسخروا من هذا، لكنهم لا يستطيعون أنْ يمنعوه. إنّ الثرثرة هي أفيون المُضطَهَدين.

ولكن مَن هو المُضطهَد؟ لقد كنتُ وبيا «امرأتين حرّتين» (هذه العبارة لا تعني أيّ شيء من دون مقتطفات). كانت بيا رسّامة. وكنتُ كاتبة. وكانت حياتنا تحتوي أكثر من مجرد الرجال فقط؛ كان لدينا عملنا، والسفر، والأصدقاء. فلماذا إذن يبدو أنّ حياتنا تُختزَل إلى سلسلة من الأغاني الحزينة موضوعها الرجال؟ لماذا يبدو أنّ حياتنا تُختزَل إلى مُطاردات مُنظّمة؟ أين هنّ النساء الحرّات حقاً، اللواتي لا يقضين حياتهن يقفزن من رجلٍ إلى رجل، اللواتي يشعرن بالاكتمال برجل أو من دون رجل؟ كنا نتوقّع العون من بطلاتنا المشكوك فيهنّ، وانظر ماذا كانت النتيجة - إنّ سيمون دو بوفوار لا تُحرّك ساكناً من

دون أنْ تتساءل *ماذا يمكن أنْ يكون رأي سارتر*؟ وليليان هلمان[19] تريد أنْ تكون رجلاً مثل داشيل هامت[20] لكي يُحبها كما يحبُ نفسه. وبطلة دوريس ليسنغ آنّا ولف لا تقذف إلا إذا كانت عاشقة، وهذا نادراً ما يحدث. والباقيات - الكاتبات، والرسّامات - معظمهنّ خجولات، منكمشات، ويُعانين الانفصام. رعديدات في حياتهن ولا يُظهرن الشجاعة إلا في فنّهن. إميلي ديكنسون، والأخوات برونتي، وفرجينيا وولف، وكارسون ماكلر... فلانري أوكونر تربي طواويس وتعيش مع أمها. سيلفيا بلاث تُقحِم رأسها داخل فرن الأساطير. وجورجيا أوكيف[21] وحيدة في الصحراء، ويبدو أنها لا زالت على قيد الحياة. يا لها من تشكيلة! متجهمات، يملن إلى الانتحار، ويشعرن بالغربة. أين النسخة الأنثوية من تشوسر؟ سيدة شهوانية تتمتع بالحيوية والفرح والحب والموهبة أيضاً؟ أين نعثر على المرشد؟ أهي كوليت، الخاضعة لأصلها الإفريقي الغاليّ. أم سابو، التي نكاد لا نعرف عنها أي شيء؟ تقول بترجمتي السريعة «أنا جائعة / وأنا نهمة». وهكذا كنا نحن أيضاً! النساء اللواتي أثرنَ إعجابنا كلهن تقريباً كنّ عوانس أو انتحرن. أإلى هذا يقود هذا كله؟

وهكذا استمرّ البحث عن الرجل المستحيل.

بيا لم تتزوج أبداً. أنا تزوجتُ مرّتين - ومع ذلك استمرّ البحث. إنَّ

---

١٩ - ليليان هلمان (١٩٠٥ - ١٩٨٤): كاتبة مسرحية اميركية. من كتبها «ذئاب صغيرة» ١٩٣٩، و«الرياح الباحثة» ١٩٤٤ و«ساعة الأطفال». - المترجم

٢٠ - داشيل هامت (١٨٩٤ - ١٩٦١): كاتب قصص بوليسية. له «المفتاح الزجاجي» و«الرجل النحيل». - المترجم

٢١ - جورجيا أوكيف (١٨٨٧ - ١٩٨٦): رسّامة أميركية. تُعتَبر ام حركة الحداثة الأميركية في الرسم. نفّذت جداريات ضخمة في مدينة نيويورك. في عام ١٩٤٩ انتقلت لتعيش في منزل معزول في نيو مكسيكو. - المترجم

أياً من الأطباء النفسيين العديدين الذين لجأت إليهم يمكنه أنْ يُخبرك أنني كنتُ أبحث عن أبي. أليس هذا حال الجميع؟ التفسير لم يُرضني كثيراً. ليس لأنه خطأ؛ كل ما في الأمر أنه بدا مفرط البساطة. لعل البحث كان في حقيقته نوعاً من الطقس تُعتَبَر العملية بحد ذاتها فيه أهمّ من النتيجة. لعله كان نوعاً من التحقيق. لعلّ الأمر لم يكن يتضمن رجلاً أصلاً، بل مجرد سراب استحضره توقنا وفراغنا. فعندما تنام وأنت جائع، تحلم بالأكل. وعندما تنام بمثانة ممتلئة، تحلم بالنهوض والتبوُّل. وعندما تنام وأنت مُثار جنسياً، تحلم بالمضاجعة. لعلَّ الرجل المستحيل لم يكن إلا شبحاً مصنوعاً من توقنا. لعله أشبه بدخيل مقدام، بشبح المغتصب الذي تتوقع النساء أنْ تجده قابعاً تحت أسرّتهن أو في خزاناتهن. أو لعلّه في الواقع يمثّل الموت، العاشق الأخير. في إحدى القصائد، تخيّلته الرجل القابع تحت السرير.

الرجل القابع تحت السرير

الرجل القابع هناك منذ سنين ينتظر

الرجل الذي ينتظر تدلّي قدمي الحافية

الرجل الصامت ككتل الغبار ممتطياً الظلام

الرجل الذي أنفاسه أنفاس فراشات صغيرة بيضاء

الرجل الذي أسمع تنفّسه عندما أرفع سمّاعة التليفون

الرجل في المرآة الذي تسوّد أنفاسه الفضّة

الهيكل العظمي في الخزانات الذي يُقعقع كرات العثّ

الرجل الذي في آخر آخر الخط

قابلته هذه الليلة ودائماً أقابله

إنه يقفُ في جو الحانة الكهرماني

عندما يتلوى القريدس كأصابع تومئ

ويمتطي الهواء على متن شعيرات فرشاة الأسنان

عندما يتكسّر الجليد وأوشكُ أنْ أقع تحته

يرسم تعبير وجهه حول فجواته

يحدّقُ إليّ بعينين جامدتيّ البؤبؤين

منذ سنوات وهو ينتظر كي يجرّني إلى أسفل

والآن يقول لي

إنه انتظر فقط ليأخذني إلى المنزل

نرقص الفالس في أنحاء الشوارع كالموت

والعذراء

نحلّق عبر جدار جدار غرفتي

إنْ كان هو حلمي فسوف يتراجع إلى داخل جسمي

أنفاسه تكتب رسائل من ضباب على زجاج

وجنتيّ

أدثّره بنفسي كالظلام

أتنفّس في فمه

وأجعله حقيقياً.

(٧)

سُعال متوتّر

إنّ ما نتذكّره يفتقر إلى خشونة الواقع
ونختلق أوهاماً صغيرة تساعدنا في
المُضيّ قُدُماً، هي سيناريوهات شديدة الرهافة
والذاتيّة توضّحُ تجربتنا وتشكّلها. إنّ الحدث
الذي نتذكّر يُصبح وهماً، بناءً شُيّد ليتلاءم
مع مشاعر معيّنة. إنّ هذا جليّ بالنسبة إليّ.
ولولا تلك الأبنية، لأصبح الفن مُغرقاً في
الذاتيّة بحيث يعجز الفنان عن إبداعه، ويعجز
الجمهور عن استيعابه. حتى الأفلام، أشدّ
الفنون حَرفيّة، تُحرِّر.

• جرزي كوزينسكي

بنيت نائم. وجهه يتجه نحو الأعلى. ميري وينكلمان ليست معه. تسللتُ إلى سريري بينما الضوء الأزرق يتسلل من النافذة. إنني من فرط السعادة بحيث أعجز عن النوم. ولكن ماذا سأخبر بنيت في الصباح؟ أستلقي في السرير وأفكر في أدريان (الذي انطلقَ بسيارته توا ولا بد أنه الآن قد ضاع من جديد دون أمل). إنني أعبده. كلما ضاع أكثر، بدا مثالياً أكثر في نظري.

أستيقظُ في الساعة السابعة وأبقى مُستلقية في السرير ساعتين

أخريين في انتظار استيقاظ بينيت. يئن، ويضرط ثم ينهض. يباشر بارتداء ملابسه في صمت، ويتمشى في أنحاء الغرفة. وأنا أغني وأتردد جيئة وذهاباً على الحمّام.

أقول بمرح «أين اختفيت ليلة أمس؟ لقد بحثنا عنك في كل مكان».

«تسألينني *أنا* أين اختفيتُ؟».

«في ذلك الديسكوتيك - لقد غادرتَ فجأة. بحثنا أنا وأدريان غودلف عنك في *كل* مكان...».

«*أنتِ* التي بحثت عني في كل مكان؟». كان يتكلّم بمرارة شديدة وبسخرية. قال «أنتِ *وغرامياتك الخطرة Liaisons Dangereuses*». نطقها خطأً. وتملكني إحساس بالشفقة عليه. «سوف تُضطرين إلى اختلاق قصة أفضل من هذه».

قلت في نفسي، إنَّ أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم الجيد. ونصيحة زوجة باث[1] للزوجات الفاسقات هي: كوني السبّاقة دائماً باتّهام زوجك.

«أين اختفيتَ بحق الله أنت وميري وينكلمان؟».

رماني بنظرة حاقد، «كنا في الغرفة المجاورة نراقبكما وأنتما تتناكحان عملياً على حلبة الرقص. ثم غادرتما...».

«كنتما *هناك*؟».

«خلف الحاجز، نجلس على طاولة».

«أنا لم أرَ أي حاجز».

قال «أنتِ لم تري *أي* شيء».

«حسبتُ أنكما غادرتما. لقد جلنا بالسيارة على مدى ساعات بحثاً عنكما. ثم عدنا. وأضعنا الطريق مراراً».

---

١ - زوجة باث: مذكورة في «حكايات كانتربري» لتشوسر. - المترجم

«لا شك في ذلك». تنحنح بطريقته العصبية. أصدر صوتاً أشبه بحشرجة موت بطيء. لكنه مكبوت. كنتُ أكرهه أشدّ من كراهيتي لأي شيء في زواجنا. كانت لازمة مجموع أسوأ لحظاتنا معاً.

تناولنا طعام الإفطار دون أنْ نتفوه بكلمة. انتظرتُ، شبه منكمشة، أنْ ينهال عليّ الضرب، لكنَّ بينيت لم يوجّه إليّ أيّ اتّهام آخر. قعقعت البيضة المسلوقة في الكأس. وقرقعت الملعقة وهي تحرّك القهوة. ووسط صمت الموتى الذي ران بيننا، بدا كل صوت وكل حركة مُضخَّمة وكأنما في لقطة مُكبَّرة في فيلم سينمائيّ. كان جديراً بقطع أعلى بيضته أنْ تكون ملحمة من تنفيذ أنديّ وارهول[٢]. اسمها «*بيضة*». ست ساعات من يد رجل تبتر أعلى رأس بيضة. بالحركة البطيئة.

قلت في نفسي، لقد أصبح صمته شديد الغرابة الآن، لأنه أحياناً ينفجر في وجهي بسبب بعض حوادث الفشل الصغيرة: كفشلي في صنع قهوة له في الوقت المناسب من الصباح، أو في أداء مهمة ما، أو في تمييز إشارة مرور عندما نضيع في مدينة أجنبية. أما الآن: لا شيء.

إنه فقط يتنحنح بعصبيّة ويُنعم النظر في رأس بيضته المفتوح. كان سُعاله هو وسيلته الوحيدة للاحتجاج.

ذلك السعال أعادني إلى ذكرى أحد أسوأ أوقاتنا معاً. في أول عيد ميلاد مرّ علينا ونحن متزوجان. كنا في باريس. وكان بينيت في حالة فظيعة من الاكتئاب منذ الأسبوع الأول لزواجنا. لقد كره الجيش. وكره ألمانيا. وكره باريس. وكرهني، كما بدا، وكأنني المسؤولة عن تلك الأشياء وغيرها. كانت جلاميد من الحزن امتدت أعمق فأعمق تحت سطح البحر.

---

٢ - أندي وارهول (١٩٢٦؟ - ١٩٨٧): فنان وصانع أفلام اميركي. أحد رواد فن البوب. - المترجم

على امتداد مسافة قيادة السيارة من هايدلبرغ وحتى باريس، لم يتبادل بينيت معي كلمة واحدة. إنَّ الصمت هو أشد الأدوات كلالة، كأنه يضربك داخل الأرض. إنه يغوص بك أعمق فأعمق داخل إحساسك بالذنب، ويجعل الأصوات داخل رأسك تتّهمكَ بضراوة أكثر مما تفعل أية أصوات خارجية.

أكاد أرى الحادث بأكمله في ذاكرتي وكأنه فيلم سينمائي بالأبيض والأسود صُوِّرَ بهشاشة شديدة. ربما من إخراج برغمان. ونحن نقوم بأدوار أنفسنا في نسخة الفيلم. ليت في استطاعتنا أنْ نهرب من اضطرارنا دائماً إلى أداء أدوار أنفسنا!

ليلة عيد الميلاد في باريس. النهار غائم ويسوده البياض. سارا في فرساي في صباح هذا اليوم وهما يرثيان لحال التماثيل العارية. التماثيل بيضاء ناصعة؛ وظلالها رمادية بلون الألواح؛ والأسيجة المُشذَّبة باهتة كظلالها. الريح حادة وباردة؛ وأقدامهما خدِرَة. بدا وقع أقدامهما اجوف كقلبيهما. إنهما متزوجان، لكنهما ليسا صديقَين.

الوقت الآن ليل. بالقرب من أوديون. بالقرب من سان سولبيس. ارتقيا دَرَج المترو. هناك ترجيع صدى وقع أقدام متجمّدة.

كانا أميركيين كلاهما. هو طويل القامة ونحيل وذو راس صغير؛ شرقيّ الملامح بشَعر أسود أشعث. وهي شقراء وضئيلة الحجم وتعسة. غالباً ما تتعثّر. أما هو فلا يتعثَّر أبداً. هو يكرهها لأنها تتعثّر في مشيها. ها نحن قد أخبرناك كل شيء. ما عدا القصة.

نطل إلى أسفل من أعلى مطلع الدرج اللولبي في فندق بانك ليفت عليهما وهما يرتقيان إلى الطابق الخامس. نتبعه في الارتقاء اللولبي. نراقبُ أعلى رأسيهما وهما يتقدمان نحو الأعلى. ثم نرى وجهيهما. تعبير وجهها نكد وحزين. فكاه ينمّان عن عناد. يواصل التنحنح بعصبية.

يصلان إلى الطابق الخامس ويجدان غرفة. هو يفتح الباب دون عناء. الغرفة مألوفة كأي غرفة في فندق رث في باريس. كل شيء فيها بال. ألوان أغطية السرير باهتة. والسجاد خيوطه منسولة عند الزوايا. وخلف حاجز من الورق المقوّى توجد المغسلة ومرحاض السيدات. لعل النوافذ تطل على أعالي الأسقف، لكنَّ ستائرها سميكة من المخمل البُنّي. والمطر بدأ يهطل من جديد ويمكن سماع وقع هطوله كرموز مورس على المصطبة خارج النوافذ.

تقول لنفسها مُعلّقة إنَّ فنادق العشرين فرنكاً في باريس مزيّنة بالزخرفة الخيالية نفسها. لا تستطيع أنْ تقول هذا له. سوف يعتقد أنها مُدلّلة. لكنها تقوله لنفسها. إنها تكره السرير المزدوج الضيِّق المُقعّر في المنتصف. وتكره المسند كبديل للوسادة. وتكره الغبار الذي يهبّ في وجهها عندما ترفع غطاء السرير. إنها تكره باريس.

ينزع ملابسه، ويرتجف. سوف تلاحظين كم جسمه جميل، وخالٍ تماماً من الشَعر، وأنَّ ظهره مستقيماً، وأنَّ ربلتيّ ساقيه مؤلّفة من عضلات طويلة وسمراء، وأنَّ أصابع يديه نحيلة. لكنَّ جسده ليس لها. ويرتدي منامته مؤنباً. وتقف ولا زالت ترتدي جوربها.

«لماذا تفعل هذا دائماً معي؟ إنكِ تجعلني أشعر بأنني وحيدة جداً».

«أنتِ السبب».

«ماذا تعني بأنني السبب؟ في هذه الليلة أردتُ أنْ أكون سعيدة. إنها ليلة الميلاد. لماذا عكّرتَ عليّ صفوها؟ ماذا فعلتُ لك؟».

صمت.

«ماذا فعلت؟».

ينظر إليها وكأنَّ جهلها جرحٌ آخر.

«اسمع، فلننم الآن. ولننسَ الأمر».

«ننسى ماذا؟».

لم ينطق.

«أنسى أنكَ انقلبتَ عليّ؟ أنسى أنكَ تعاقبني بلا أي سبب؟ أنسى أنني أشعر بالوحدة وبالبرد، وأنَّ هذه ليلة الميلاد وأنكَ من جديد أفسدتها عليّ؟ أهذا ما تريد مني أنْ أنسى؟».

«لن أناقش الأمر».

«تناقش ماذا؟ ما *الذي* لا تريد مناقشته؟».

«اخرسي! لن أقبل صراخكِ ونحن في الفندق».

«لا يهمني ما لا تقبل مني. أريد أنْ أُعامَل معاملة حضارية. أريد منكَ على الأقلّ أنْ تتفضّل وتخبرني لماذا أنتَ خائف هكذا. ولا تنظر إليّ هكذا...».

«ماذا تعنين بكلمة هكذا؟».

«كما لو أنَّ عجزي عن قراءة ما يجول في ذهنك هو أعظم الذنوب. إنني *غير قادرة* على قراءة ما يجول في ذهنك. *ولا أعلم* لماذا أنتَ غاضب. لا أستطيع أنْ أُخمِّن رغباتك كلها. إنْ كان هذا ما تريد من الزوجة فلن تجده عندي».

«حتماً لن أجده».

«إذن ما الأمر؟ أخبرني أرجوك».

«لستُ مُضطراً إلى ذلك».

«يا ربي! هل تقصد أنْ تخبرني أنه يُتوقَّع مني أن أكون قارئة لِما يدور في الأذهان؟ أهذه هي الرعاية التي تريد؟».

«إنْ كنتِ تضمرين أية عاطفة نحوي...».

«وهذا ما *أفعل*. يا الله، كل ما في الأمر أنكَ لا تتيح لي الفرصة».

«إنكِ ترفضين الإصغاء. إنكِ لا تسمعين».

«إنه شيء موجود في الفيلم السينمائي، أليس كذلك؟».

«ما هو الشيء الذي في الفيلم؟».

«ها قد عدتَ إلى الرد بسؤال. هل يجب أنْ تستجوبني كما لو أنني مجرمة. هل يجب أنْ *تستجوبني*؟... إنه مشهد الجنازة... الصبي الصغير الذي ينظر إلى أمه الميتة. هناك شيء مؤثّر فيه. حينئذ شعرتَ بالكآبة».

صمت.

«حسن، أليس *كذلك*؟».

صمت.

«أوه هيا، بينيت، أنت تُثير حنقي. أجبني أرجوك. أرجوك».

(أخذ ينطق الكلمات كأنها هدايا صغيرة منفصلة. كأنها كتل صغيرة من الروث) «تسألين ما الذي في ذلك المشهد أثّر فيّ؟».

«لا تُجبني بسؤال. أخبرني!» (عانقته. تراجع. وقعت على الأرض وتمسّكت بساق منامته. كان أقرب إلى مشهد إنقاذ منه إلى عناق. هي تغوص، وهو يسمح لها على مضض أنْ تتعلّق بساقه للنجاة).

«انهضي!».

قالت (وهي تبكي): «ليس قبل أنْ تخبرني».

(ينفضها بعيداً عنه) «سآوي إلى النوم».

(تضع وجهها على الأرضيّة الباردة). «بينيت، *أرجوك* لا تفعل هذا، أرجوك كلّمني».

«إنّ غضبي لا يسمح لي».

«أرجوك».

«لا أستطيع».

«أرجوك».

«كلما توسلتِ، بردَت مشاعري أكثر».

«أرجوك».

يستلقيان على السرير ويفكران. وسادة الاتّكاء التي على جانبها رطبة. إنها ترتعش وتجهش بالبكاء. يبدو أنه لا يسمعها. كلما تقلّبا باتجاه الجزء المتقعِّر من وسط السرير، يكون هو الأول في الابتعاد عنه. حدث ذلك مراراً. إنَّ السرير مُقعَّر كأنه قارب محفور داخل جذ ع شجرة.

إنها تحب دفء ظهره وصلابته. تودّ لو تُحيطه بذراعيها. تودّ لو تنسى المشهد كله، وتتظاهر بأنه لم يقع أصلاً. عندما يمارسان الجنس، يكونان معاً بعض الوقت. لكنه يرفض. ينز ع يدها بعنف عن فتحة بنطلون منامته. ويدفعها بعيداً عنه. تتراجع. ويتحرّك نحو الحافة الخارجية من ناحيته.

يقول «هذا ليس حلاً».

يُصغيان إلى هطول المطر. هناك في الشار ع تُسمع صرخات متقطعة صادرة عن طلاب عائدين إلى المنزل سكارى. حجارة الرصف رطبة. يمكن لباريس أنْ تصبح رطبة جداً. بعد انتهاء الفيلم هذه الليلة ذهبا إلى نوتردام. كانوا محشورَين داخل معاطف من الصوف الرطب ومعاطف الفرو الرطبة. قدّاس منتصف الليل. أطراف المظلات المُدببة تقطر داخل أحذيتهم. لم يتمكنوا من التحرُّك إلى الأمام أو إلى الخلف. ثمة حشد من الناس عالق هناك، ويملؤون الممرات بين المقاعد. صاح صوت عالٍ، مُضخَّم آلياً، ***Paix dans le monde*** (على الأرض السلام). لا شيء أسوأ من رائحة فرو رطب.

إنه في منزله في واشنطن هايتس. لقد توفي والده، ولا يشعر بأي شيء. غريبٌ أنه لا يشعر بأي شيء. عندما يموت الناس ليس من المفترَض بالمرء أنْ يشعر بأي شيء.

لقد قلت لك إنني لم أشعر بأي شيء، فلماذا تلحين بالسؤال؟ لأنني يجب أنْ أعرفكَ. أنت لم تفقدي أحداً من قبل. لم يمُتْ لك أحد. ألهذا السبب تكرهينني؟ لقد كنا نتلقى إعانة. كنا في سنترال بارك ويست عندما كنا نتلقى إعانة. أهذا خطئي؟ أتعلمين أنَّ دار الجنازات الصينية تقع في شارع بل؟ عندما يموت الناس يعودون إلى موطنهم. إنهم عنصريون في الموت. إنه لم يؤمن أبداً بالله. ولم يرتد مرة كنيسة. إنهم يتلون الصلوات بالصينية. وقلت في نفسي: يا إلهي، إنني لا أفهم كلمة واحدة. كان التابوت مفتوحاً. وهذا أمر هامّ. وإلا فأنت لا تريد أنْ تؤمن بالموت. حقيقة صلبة من الناحية النفسية. لكنها تبدو شنيعة. ثم جاء الأقارب واستولوا على آخر ما تبقّى لدينا من نقود. قالوا، إنَّ التجارة ستعيلنا، لكنَّ التجارة انهارت. كنتُ طالباً مستجداً في المرحلة الثانوية. قالت السيدة في الخدمة الاجتماعية يمكنك أنْ تعمل بعد أنْ تتخرج. لكنني قلت في نفسي: إذن سينتهي بي الأمر إلى أنْ أعمل نادلاً. ولا أستطيع أنْ أعمل حتى نادلاً في مطعم صينيّ لأنني لا أحسن الصينية. قلت في نفسي، سوف أصبح أداة، أخرق مسكيناً. يجب أنْ ألتحق بالجامعة. وفي تلك الأثناء كنت أنت في سنترال بارك ويست. وكنتِ تدرسين للالتحاق بجامعة كمبريدج في عطلة نهاية الأسبوع. وفي كلية الطب كنتُ أُطعم حيوانات المختبر. ليلة الميلاد. الجميع خرجوا. وبقيتُ أنا في المختبر أُطعم الجرذان اللعينة.

إنها مستلقية بجواره بسكون تام. تلمُسُ جسدها لكي تُثبت أنها ليست ميتة؛ تفكّر في الأسبوعَين الأوّلين بعد أنْ كسرت ساقها. كانت تستمني باستمرار في تلك الفترة لكي تُقنع نفسها بأنَّ في استطاعتها أنْ تشعر بشيء آخر إلى جانب الألم. كان الألم حينئذ رائجاً. التزاماً تاماً.

مرّرت يدها إلى أسفل بطنها. لمس إبهام يدها اليُمنى البظر بينما غاص إبهام اليد اليُسرى عميقاً داخلها، مؤدياً دور القضيب. بمَ يشعر

القضيب، وهو مُحاط بالتجويف الناعم المُنهار للّحم؟ إنَّ إصبعها قصير جداً. فأدخلت كلتا إصبعيها وباعدتْ ما بينهما. لكنَّ أظافرها مفرطة الطول، وتخرّش.

ماذا لو أنه أفاق؟

لعلّها تريده أنْ يستيقظ ويرى كم هي وحيدة.

وحيدة، وحيدة، وحيدة. وتحرّك يدها على إيقاع هذه الكلمة، شاعرةً بإصبعيها يُصبحان لزجين داخلها وبالبظر يُصبح قاسياً وأحمر اللون. هل يمكن الشعور باللون عبر أطراف الأصابع؟ هذا هو الشعور باللون الأحمر. التجويف الأعمق يوحي باللون القرمزي. القرمزي الملكي. وكأنّ الدم هناك أزرق اللون.

سأل طبيبها النفسي الألماني: «بمَنْ تفكرين وأنت تستمنين؟». *«بمَن تغوصين[٣]؟» أنا أغوص إذن أنا موجود*. في الحقيقة هي لا تفكر في أحد، وفي كل شخصٍ. في طبيبها النفسي وفي والدها. كلا، ليس والدها. لا يمكن أنْ تفكر في والدها. في رجلٍ في قطار. في رجلٍ يقبع تحت سريرها. في رجل بلا وجه. وجهه بلا تقاسيم. لقضيبه عين واحدة. قضيب يبكي.

تشعر بتشنجات الرعشة الجنسية تمصّ إصبعيها بعنف. ترتخي يدها إلى جانبها ومن ثم تستغرق في نوم عميق.

تحلم بأنها عادت إلى الشقة التي نشأت فيها، ولكن هذه المرة كانت مُصمَّمة حسب مُخطط وَضعَه مهندس الحلم المعماري.

الأروقة المؤدية إلى غرف النوم ذات الجدران الثلاثة ملتوية كأحواض أنهار قديمة وغرفة مؤونة المطبخ أشبه بنفق مُعلّق تهب في

---

٣ - بما أنّ الطبيب ألمانيّ فإنه أخطأ في لفظ كلمة Think ونطقها sink (يغرق، أو يغوص). - المترجم

جنباته الرياح يضم خزانات عالية إلى درجة يصعب بلوغها. والمواسير تضطرب كرجال عجائز يُصدرون غرغرة؛ وألواح الأرضية تتنفّس. في غرفة نومها، زجاج الباب المكسو بالثلج مملوء بوجوه تبكي من فرط حزنها في وجه القمر وبأفواه فاغرة. مقطع طويل من ضوء القمر ينزلق نحو الأمام يلوّن الأرضية باللون الفضي، ثم يُتهشّم مُصدراً صوتاً يُشبه تكسُّر الزجاج. الوجوه على الباب تشبه وجوه الذئاب. ثمة دماء متيبّسة في زوايا أفواهها.

حمّام الخادمة فيه مغطس عليه آثار مخالب ذئب يمكن لطفلة أنْ تتخيّل نفسها تغرق فيه. هناك أربعة مصابيح نحاسية تتدلّى من سقف غرفة الجلوس. إنه شديد العلوّ ومكسو بأوراق ذهب فقدت بريقها. وفوق غرفة الجلوس شُرفة مُزوّدة بأعمدة درابزين ملتوية تكفي وحدها طفلة لترتاح فيها وتبدأ بالتحليق في عالم الخيال. تحلّق مرة واحدة وتجد نفسها في المحترف الذي تفوح منه رائحة تربنتاين. السقف يعلو مُدبباً كقبعة ساحرة. وثمة ثريا من الحديد الشائك تتدلى من نقطة ميتة بسلسلة سوداء. إنها تتأرجح قليلاً في وجه الريح التي تهسّ بين النافذة الشمالية ذات شكل المنحرف والنافذة الجنوبية ذات شكل المنحرف.

قِناع وجه بيتهوفن الميت من الجصّ مُعلّق على الجدار. جفنا عينيه المُحدّبان مُغمضان. ترتقي كرسياً وتُمرّر أصابع يدها عليهما. عليهما آثار من السخام الأسود. الآن تركتْ آثار بصمات أصابعها على عينيّ بيتهوفن. وسوف يقع حدث فظيع حتماً.

على الطاولة جمجمة. إلى جوارها شمعة. هذه طبيعة ساكنة أعدّها جدُها. هل هناك وجود لأشياء مثل حياة ساكنة؟

على حامل اللوحات لوحة غير مكتملة لجمجمة وشمعة. أيهما

أشدّ سكوناً؟ الجمجمة؟ أم الحياة الساكنة للجمجمة؟ أيّ السكونَين سيدوم أطول؟

في زاوية الغرفة ثمة خزانة. سترة زوجها العسكرية الخضراء مُعلّقة هنا، فارغة. الكُمّان يرفرفان في وجه الريح. أهو ميت؟ يتنابها خوف شديد. تركض مارة من خلال الباب الخفيّ للمُحترَف وتهبط الدرج. فجأة تسقط، وتعلم أنها ستموت عندما تصل إلى أسفل. تكافح لكي تصرخ وفي أثناء ذلك تستيقظ. تُفاجأ إذ تجد نفسها في باريس وليس في منزل والديها. إنه لا زال مستلقياً بجوارها كأنه ميت. تنظر إلى وجهه النائم، إلى الفم الطويل بزاويتيه المائلتين إلى أعلى، والحاجبين الهزيلين كالخط الصيني، وتعتقد أنهما في العام القادم في مثل هذا الوقت لن يكونا معاً أو أنهما سيُنجبان طفلاً لا يُشبهها.

يقول، وهو يفتح عينيه، «عيد ميلاد سعيد».

ويمارسان الجنس بهذه المناسبة.

الجو مُصقع والمطر الذي هطل ليلة أمس جعل الشوارع صقيلة. يرتديان ملابسهما ويخرجان في نزهة. يضمّها إليه بشدّة، ولكنها تظل تنزلق منه. إنه يحثّها على «اتّخاذ خطوات صغيرة».

تقول: «أشعر كأنّ قدميّ مغلولتان».

لا يضحك.

يتابعان السير على طول إيل سان لوي ويستمتعان بمشاهدة الفن المعماري. يُشيران إلى رسوم طريفة محفورة على الحجر في الطابق الثانة من أبنية المدينة. توقفا ليراقبا ثلاثة رجال عجائز يُحاولان الإمساك بسمك صغير يتلوّى في مياه نهر السين الرمادية المرتفعة. أكلا كمية كبيرة من الأصداف في المطعم الألزاسي ومن ثم تناولا كعكة البصل وسكِرا بشرب النبيذ. وعادا إلى السير على الشوارع

المصقولة من جديد، يتعلّق كل منهما بالآخر كتمسّكه بالحياة العزيزة. وتتساءل إلى أين ستذهب إذا تركته. إنَّ المنزل الذي حلمت به في الليلة الفائتة يعود إليها على هيئة لقطات. إنها تعلم أنه لا يمكنها أنْ تذهب إلى هناك. ليس لديها مكان تلجأ إليه. أي مكان. تتمسّك به بشدّة. تقول «أحبك».

عندما يزداد الظلام حلكة يتوقفان لتناول buche *de Noel* (كعكة الميلاد - حرفياً تعني حَطَبَة الميلاد، لأنَّ الكعكة تُصنع على شكل حَطَبة) وشرب القهوة في مطعم صغير يواجه نوتردام والضفة اليُسرى. هل يفكر في تركها؟ إنها لا تعرف أبداً بِمَ يفكّر. إنهما يتظاهران بأنهما يقضيان يوماً سعيداً، خال من الهم. إنه لا ينسى أبداً أنْ يتمسّك بها من الخصر وهما يجتازان الشوارع التي يكسوها الثلج معاً.

إنه لا يني يقول: «امشي بخطوات قصيرة. سوف تكسرين عنقك وتأخذيني معك».

تقول «وما أفعل من دونك؟».

تنحنح بعصبية، لكنه لم يقُل شيئاً.

وينتهي الفيلم عند هذا الحد، ربما على نغمة سُعاله. لكنني أتذكّر الأحداث التي تلتْ: تعطُّل السيارة، واضطرارنا إلى استقلال القطار للعودة إلى هايدلبرغ؛ الجنود الفرنسيون الأربعة الذين شاركونا عربتنا المُخصصة للنوم في الدرجة الثانية وكانوا طوال الطريق إلى ألمانيا يتجشؤون ويضرطون، وكأنهم يُزودون القطار بالطاقة؛ والهبوط المتهور من السرير العلوي (الذي كنتُ أشغله) إلى الأرض. وجعلتني نوبة مفاجئة من الإسهال إلى تكرار هذا الهبوط ليس أقلّ من ست مرات في تلك الليلة (وفي إحدى المرات وطأتُ مباشرة عورة الجندي الفرنسي في السرير السفلي، الذي كان شديد التهذيب، بالنظر إلى الوضع).

ومن ثم العودة إلى هايدلبرغ بعد انتهاء أعياد الميلاد ومواجهة العودة إلى الجيش من جديد. (في أيام العطل حاولنا أنْ نتظاهر بأننا مجرد زوج من الأميركيين يعيشان في أوروبا بدون أي سبب).

ومن ثم في عيد رأس السنة، وصلت البرقية - مُشوّشة كما هو شأن مثل تلك الرسائل عادة، وصلتْ بعد ظهيرة يوم سبت رمادي كئيب عندما احتشد كامل سكان Klein Amerika (أميركا الصغرى) من الذكور وانهمكوا في تلميع سيارة العائلة وكان كامل السكان من النساء يتجولن وهن يضعن لفّافات شعر والألمان على الجانب المقابل من شارع غوته يكسرون أول زجاجة من الشنابس استعداداً لاستقبال العام الجديد...

الجد توفي في الساعة السادسة والربع من يوم الثلاثاء نقطة

استعاد الحياة بالتدليك نقطة هبوط في القلب نقطة

نزيف في المعي المستقيم نقطة لا يمكن فعل أي شيء

نقطة الجنازة في الرابع من كانون ثاني نقطة

مع حبي أمّك.

قرأتُ البرقية أولاً، ثم أعطيتها لبينيت. انتابني ذلك الشعور بالإشمئزاز الذي ينتابني دائماً عندما أعلم أنَّ أمراً فظيعاً سيقع وأني سأُلامُ عليه. كنت أعلم أنَّ بينيت سوف يجد بصورة ما طريقة لوضع اللوم عليّ على وفاة جدّه. كان والدا أمي لا زالا على قيد الحياة.

أحطتُ بينيت بذراعيّ فابتعد. أتذكّر أني لم أشعر بحزن شديد على وفاة جدّه، ولكن أيضاً أني سأُضطر إلى أنْ أموت أكثر قليلاً تكفيراً عن ذلك. جلس بينيت على أريكة غرفة الجلوس وهو يحمل البرقية بيديه. جلستُ بجواره وأعدتُ قراءتها من فوق كتفيه. قلت في نفسي: «الإصبع المتحرّك يكتب ويُخطئ في هجاء الكلمات». لم أكن قد

عرفت جَدّ بينيت (إنه صينيّ طاعن في السن يبلغ من العمر ٩٩ عاماً أو ١٠٠، يبدو أشبه بتمثال مُصفرّ من العاج، ويكاد لا يعرف أية كلمة إنكليزية). تظاهرتُ بأنَّ الذي مات هو جدّي أنل وطفقتُ أبكي. في الحقيقة كنتُ أبكي على نفسي، لأنني أحتضر ببطء وأنا في سن الخامسة والعشرين.

كان بينيت موسوماً بالموت؛ غائصاً حتى أُذنيه فيه، ويحمل حزنه على كتفيه كأنه حقيبة ظهر خفيّة. ولو أنه التفتَ نحوي، لو أنه سمح لي أنْ أواسيه، لحملته عنه. لكنه لامني عليه. ولومه أبعدني عنه. لكنني خفتُ أنْ ابتعد. فبقيت ورحت أزداد انطواءً، وانكفأتُ أكثر وأكثر على تخيلاتي وعلى كتابتي. وهكذا بدأتُ أكتشف نفسي. وانطوى هو على حزنه، وتحصّن داخله، وانطويتُ أنا داخل غرفتي على كتابتي. أمضى ذلك الشتاء كله ينعى وفاة جدّه، ووالده، وأخته التي توفيت وهي في السادسة عشرة، وأخاه الذي وُلِدَ متخلفاً ومات في الثامنة عشرة، وصديقه الذي توفي متأثراً بشلل الأطفال في عمر الرابعة عشرة، وفقره، وصمته. نعى الجيش، والحياة التي خلّفها وراءه في نيويورك. نعى الموتى وانهماكه بالموت. نعى نعيه. والتعبير الصارم الذي ارتسم على وجهه كان أشبه بقناع الموت. الكثير جداً من الأشخاص الذين أحبّ (ولكن أيضاً كرههم) ماتوا، ولبس هذا القناع من باب التكفير. لماذا يبقى هو على قيد الحياة بعد أنْ ماتوا؟ لذلك جعل حياته أقرب شبهاً بالموت. وكان موته هو موتي أيضاً. وتعلّمت أنْ أتمسّك بالحياة بالكتابة.

في شتاء ذلك العام باشرتُ الكتابة بجديّة. باشرت الكتابة وكأنها أملي الوحيد في البقاء على قيد الحياة، في الفرار. ولطالما كتبتُ، مقتدية بالموضة. لطالما أُلهت الكتّاب. كنتُ أقبّل صورهم الموضوعة على الأغلفة الخلفية للكتب بعد الانتهاء من قراءتها. اعتبرت كل ما

هو مطبوع كاثر مقدَّس واعتبرتُ الكتّاب مخلوقات ذوي معرفة خارقة وحصافة. بيرل بك، تولستوي، أو كارولين كين، مؤلّفة قصة *«نانسي درو»*. ولم أفهم أيَّ شيء من التقسيمات الحقيرة التي يتعلّمها المرء لاحقاً. كان في استطاعتي أنْ أنتقل بكل سرور من قصة *«من خلال المرآة»* إلى قصة كاريكاتورية مرعبة، ومن رواية *«آمال عريضة»* أو *«الحديقة السرّية»* إلى مجلة *«ماد»*.

في أثناء ترعرعي في منزلي الذي تعمّه الفوضى، سرعان ما تعلّمتُ أنَّ كتاباً موضوعاً بعناية أمام وجهك هو ترس مُضاد للرصاص، هو جدار عازل، رداء خفيّ. تعلّمتُ أنْ أحتمي بالكتب، أنْ أصبح، كما كان والدي ووالدتي يُسميانني، «البروفسور الشارد». كانا يصرخان في وجهي، لكنني لم أسمع. كنتُ أقرأ. كنتُ أكتب. كنتُ آمنة.

إنَّ جدّ بينيت - ذلك العجوز الشجاع الذي جاء من الصين وهو في سن العشرين، واهتدى إلى المسيحية على يد مُبشّر وعد بتعليمه الإنكليزية (ولم يفعل أبداً)، الذي بشّر بمزمور الكادحين الصينيين في مخيمات المناجم في شمال غرب البلاد، الذي ختم أيامه في نهاية المطاف بإدارة محل لبيع الهدايا في شارل بل - ولم يتمكن أبداً خلال سنوات عمره الـ ٩٩ أو المائة من تعلّم أكثر من بضع كلمات من الإنكليزية المفهومة، وأقلّ منها الكتابة - هو الذي دفعني إلى امتهان الكتابة كعمل بموته. أحياناً يكون الموت هو بداية الأشياء.

بينما بينيت يمضي الشتاء الطويل في حداد صامت، كنت أنا أكتب. رميت بقصائد عهد الدراسة كلها، حتى تلك التي نشرتها. رميت بداياتي الزائفة كلها من قصص وروايات. أردتُ أنْ أصنع نفسي من جديد، أنْ أصنع حياة جديدة بالكتابة.

انغمستُ في أعمال الكُتّاب الآخرين. كنتُ أرسل في طلب كتب

من مكتبة فويل في لندن أو أطلب من أصدقائي أو من والديّ أنْ يرسلوها إليّ من نيويورك. كنتُ أقوم بدراسة شاعر مُعاصر أو روائي في وقت، أقرأ وأعيد قراءة كتبه، دارسة مراحل تطوره من كتاب إلى كتاب، ومُقلّدة أسلوب كاتب آخر بعد كل بضعة أشهر. وطوال الوقت أشعر بالرعب وأعتبر نفسي فاشلة. وذات مرة، وكنت في الثامنة عشرة أو نحوها وأعتبر أنَّ سن الثلاثين هو سن العجز، عاهدتُ نفسي على أنْ أنتحر إذا لم أنشر كتابي الأول بحلول عامي الخامس والعشرين. وها أنا ذي في الخامسة والعشرين. ولا أزال في البداية.

كان من المستحيل أنْ أرسل أعمالي إلى المجلات. وعلى الرغم من أنني كنتُ شاعرة الصف في المدرسة وفزتُ بالجوائز المعتادة، إلا أني بتُّ مقتنعة الآن بأنَّ لا شيء مما كتبت كان جيداً بالقدر الكافي بحيث يستحق أنْ يُرسَل إلى أية جهة. كنتُ أرى مُحرري المجلات الفصلية كأنصاف آلهة لن يتنازلوا ويتعطفوا ويقرؤوا أياً من مقطوعاتي القصيرة. وقد آمنتُ بهذا على الرغم من أنني كنتُ مشتركة في تلك الفصليات وأقرأ بتفان الأعمال الواردة فيها. في الغالب لم تكن الأعمال جيدة، يجب أنْ أعترف، ومع ذلك، كنتُ متيقّنة من أنَّ أعمالي أسوأ بكثير.

لقد عشت في عالم تسكنه الأشباح. كنتُ أتخيلني أُقيم علاقات حب مع شعراء أقرأ أعمالهم المنشورة في الفصليات بصورة منتظمة. بعض الأسماء كانت تبقى حيّة في ذهني. كنتُ أقرأ مقتطفات من سير الكتّاب وأشعر كأنني أعرفهم. غريبٌ كم يمكن أنْ تُقيم علاقة حميمة مع شخص لم تقابله من قبل - وكم تكون انطباعاتك خاطئة. ولاحقاً، عندما رجعتُ إلى نيويورك وبدأتُ أنشر قصائدي، قابلتُ بعض أصحاب تلك الأسماء السحرية. كانوا في المعتاد مختلفين الاختلاف كله عمّا تخيّلت. فذو الحصافة في مؤلفاته قد يتضح أنه شبه أبله في الواقع. ومؤلفو القصائد الكئيبة عن الموت قد يتضح أنهم

ودودون ومسلّون. والكتّاب الساحرون قد يتّضح أنهم أبعد ما يمكن عن السحر. والكتّاب الكرماء، العطوفون، الإيثاريون قد يتّضح أنهم بخلاء، قُساة وغيورون... وهذا لا يعني أنَّ هناك قواعد مُطلقة في هذا المجال، ولكنْ في المعتاد هناك بعض المفاجآت المُسترة. كان الحكم على شخصية كاتب من خلال كتاباته أمراً غاية في الخطورة. لكنَّ هذه الحقيقة جاءت لاحقاً. وخلال أيامي في هايدلبرغ انغمست في عالم أدبيّ وهميّ كان بعيداً بصورة ممتعة عن الواقع الوضيع. أحد جوانب هذا الأمر كان علاقتي الغريبة بصحيفة «*النيويوركر*».

في الفترة الزمنية التي أتحدث عنها، كانت مجلة «*نيويوركر*» (وكل مواد الدرجة الثالثة الأخرى) تعبر الأطلسي. وربما لهذا السبب كانت ثلاثة أعداد أو أربعة من «*النيويوركر*» (صدرت قبل لا أقلّ من ثلاثة أسابيع) دائماً تصل معاً بكميات هائلة. كنتُ أمزّق اللفافة وأنا فيما يُشبه النشوة. وكان لديّ طقس في الهجوم على هذه المجلة الطقسيّة. لم تكن تحتوي لائحة بالمحتويات حينئذ – فقط تلك العناوين الفرعية الصغيرة المتواضعة التي تسبقها شحطات مختلفة – وأنهمك بدءاً من الخلف، مُستعرضة أولاً الأسماء الموضوعة في آخر المقالات الطويلة، مُدقّقة في قوائم القصص القصيرة، ومُستعرضة بلهفة القصائد.

كنتُ أفعل ذلك كله وأنا أنضح عَرَقاً بارداً على وقع وجيب قلبي المُصاحب. وما أثار فزعي هو إمكانية أنْ أعثر على قصيدة أو قصة أو مقالة بقلم شخص أعرفه. شخص كان أبله في المدرسة، أو فضولياً شهيراً، أو كان (بارتباطه بواحد من تلك الأشياء أو أكثر) أصغر سناً مني. ولو بشهر أو شهرين.

وأنا لم أكن فقط أقرأ «*النيويوركر*»؛ كنتُ أعيشها على طريقتي الخاصة. ابتكرتُ لنفسي عالماً من «*النيويوركر*» (يقع في مكان ما من

شرق ويستبورت وغرب كوتسوولدز) حيث يحمل بيتر دو فريس[٤] إلى الأبد (مع تورية لطيفة) كأساً من نبيذ بيسبورتر، ويغازل نيكولو تونشي[٥] (مرتدياً سترة عشاء من المخمل الأرجواني الداكن) ميورييل سبارك[٦] بالإيطالية، ويرشف نابوكوف البورت الأسمر المصفرّ من قدح برّاق (بينما خاتم أحمر رائع يجثم على خنصره)، ويدوس جون أبدايك على حذاء السيد السويسري، ويعتذر بطريقة فاتنة (مُكرراً طوال الوقت أنّ نابوكوف كان أفضل كاتب بالإنكليزية ويحمل حالياً الجنسية الأميركية). في تلك الأثناء، تجمهر الكتّاب الهنود في إحدى الزوايا يتحادثون بلغة البنجاب بلكنات الباعة الجوالين (ويفوحون برائحة الكري القوية) وكان المُستظهرون الأيرلنديون (بسترات الصيادين وأنفاس تفوح برائحة الويسكي) منهمكين بازدراء المُستظهرين الإنكليز الذين يرتدون ملابس الجوخ النيّقة.

آه، كم من مجلات أخرى وفصليات أدبية فُتنتُ بها، أيضاً، لكنّ «النيويوركر» بقيت هي الملكة منذ طفولتي. (مجلة «الكومنتاري»، على سبيل المثال، كانت تعقد جلسات وضيعة يعمد فيها أشخاص أشبه بسامين يبدو عليهم التشاؤم - كلهم أسماؤهم إيرفنغ - يتقاتلون حتى الموت حول كون المرء يهودياً، أو أسود، وحول الوعي، وينهمكون في التهام الكبد المقطّع وأطباق نوفا سكوتيا). تلك الأمسيات كانت تسليني، أما رهبتي فكنتُ أوفّرها لـ«النيويوركر». ولم أجرؤ أبداً على إرسال أعمالي التافهة إلى هناك، لذلك كان يُغيظني ويُذهلني أنْ أجد أحدهم اعرفه يظهر إنتاجه باستمرار على صفحاتها.

٤ - بيتر دو فريس (١٩١٠ - ١٩٩٣): ناشر وروائي ساخر أميركي. - المترجم
٥ - نيكولو تونشي (١٩٠٨ - ١٩٩٩): روائي وكاتب قصص قصيرة بكتب بالإنكليزية وبالإيطالية. - المترجم
٦ - ميورييل سبارك (١٩١٨ - ٢٠٠٦): روائية اسكتلندية. - المترجم

على أية حال، أصبحتْ لديّ فكرة قوية حول معنى أنْ يكون المرء *مؤلفاً*. تخيّلتهم جمعية غامضة من البشر يتنقّلون برشاقة وخِفّة أكثر من باقي البشر - كأنَّ على أكتافهم أجنحة خفيّة. كانوا يتسمون بسخرية. ويتعرّف بعضهم على البعض الآخر بوساطة شيء معيَّن - ربما شيء يُشبه الرادار الذي يُقال إنَّ الوطاويط تملكه. وطبعاً لا شيء أشدّ بساطة من المُصافحة السريّة.

كان بينيت متورطاً أيضاً بصورة غير مباشرة بما أكتب، على الرغم من أنه كان نادراً ما يقرأ أية كلمة أكتبها. في الحقيقة لم أكنْ في حاجة إلى منْ يقرأ أعمالي في ذلك الوقت (لأنَّ أي عمل في الغالب هو إعدادٌ للعمل التالي) لكنني كنت في حاجة ماسّة إلى مَنْ يستحسن *عمل* الكتابة. هو استحِسنه. وأحياناً لم يكن واضحاً إنْ كان يستحسن كتابتي لمجرّد ألا أعكّر عليه كآبته أم كان يستمتع بأداء دور هنري هيغنز أمام عزيزتي إليزا دوليتل. لكنَّ الحقيقة هي أنه آمن بي قبل أنْ أؤمن بنفسي بوقت طويل. وكأننا خلال تلك الفترة السيئة الطويلة من زواجنا تقاربنا بصورة غير مباشرة من خلال كتاباتي. وعلى الرغم من أننا لم نكن نقرأها معاً، إلا أنها وحدّتنا بانسحابي من العالم.

كنا معاً نتعلّم كيف نتصيَّد اللاوعي، كان بينيت يجلس تقريباً بلا حِراك في غرفة الجلوس يتأمّل في موت والده، وموت جدّه، وفي كل الميتات التي يحملها على كاهله في حين أنه كان في عمر لا يؤهّله حمل أكثر من حياته هو. وكنتُ أجلس في غرفة المكتب؛ أتعلّم كيف أغوص عميقاً داخل نفسي وأنقذ نُتفاً وقُطعاً من الماضي؛ وكيف أتسلل إلى اللاوعي وألتقط أفكاري وتخيلاتي التي تبدو عشوائية. وبإخراجي من عالمه، فتح بينيت عوالم شتى في رأسي. وبدأتُ تدريجياً أدركُ أنَّ أياً من المواضيع التي تطرّقتُ إليها من خلال قصائدي لم يتضمّن أعمق مشاعري، وأنَّ هناك بوناً شاسعاً بين

ما يهمّني وما كتبتُ عنه. لماذا؟ ممَّ كنتُ أخاف؟ يبدو أنه من نفسي، قبل أيّ شيء.

باشرت في تأليف روايتين في هايدلبرغ. الراوي في كليهما ذكَر. لقد افترضتُ أنَّ لا أحد سيهتم بوجهة نظر تُبديها امرأة. ثم إنني لم ارغب في أنْ أغامر وأُعرِّض نفسي للتسميات التي توصَف به الكاتبات (حتى الجيدات منهنّ) مثل: «حاذقة، ذكية، لامعة، موثّرة، لكنها تفتقرُ إلى سعة الرؤية». أردتُ أنْ أكتب عن العالم برمّته. أردتُ أنْ أكتب ما يُعادلُ *«الحرب والسلم»* - أو لا شيء. لن أخوض في أي من مواضيع «الكاتبة الأنثى». سوف أخوض معارك حربية ومصارعات ثيران، وأقوم برحلات في الأدغال. ولكن لم أعرف أي شيء عن المعارك الحربية ومصارعة الثيران والرحلات في الأدغال (كما غالبية الرجال). غصتُ في حالة من الإحباط التامّ، معتقدة أنَّ الموضوعات التي أعرفها «تافهة» و«نسائيّة الطابع» - في حين أنَّ الموضوعات التي لا أعرف عنها أي شيء «عميقة» و«ذكريّة الطابع». وكائناً ما كان ما أفعل، كنتُ أشعر أنَّ مآله الفشل. فإما أنْ أفشل بالكتابة أو بعدم الكتابة. لقد كنتُ مشلولة.

وبفضل حسن حظي، وحزني، وعلاقتي الغريبة مع زوجي، وعزمي العنيد (الذي لم أؤمن به على الإطلاق في ذلك الوقت)، نجحتُ في تأليف ثلاثة دواوين من الشعر خلال السنوات الثلاث التالية. تخلّصتُ من اثنين ونشرت الثالث. ثم بدأتْ سلسلةٌ جديدة من المشاكل بالظهور. كان عليّ أنْ أتعلّم كيف أتعامل مع خوفي الخاص من النجاح لسبب واحد، وكان التعايُش مع هذا أصعب من الخوف من الفشل.

لو انني تعلّمتُ كيف اكتب، اما كنتُ قد تعلّمتُ ايضاً كيف أعيش؟ يبدو أنّ أدريان أراد أنْ يُعلّمني كيف أعيش. اما بينيت فيبدو أنه علّمني كيف اموت. وانا لم أعرف حتى أيّهما أردتُ. او لعلّي اخطأتُ في

فهمهما. لعلّ بينيت كان الحياة وأدريان كان الموت. لعلّ الحياة كانت التصالح والحزن، بينما انتهى أمر النشوة حتماً بالموت. وعلى الرغم من إيماني بعقيدة صراع الخير والشر، لم أستطع حتى أنْ أميّز اللاعبين من دون النظر إلى بطاقة تسجيل الأهداف. ولو كان في استطاعتي أنْ أميّز الخير من الشر، لاستطعتُ أنْ أختار، لكنني كنتُ أشدّ تشوُّشاً من أي وقت مضى.

(٨)

حكايات من غابات فيينا

إنّ رباط الزواج ثقيل جداً إلى درجة
أنه يتطلّب اثنين لحمله - وأحياناً ثلاثة.

• ألكسندر دوما

منذ ذلك الوقت بدأ الدوار. كنتُ أجتمع مع بينيت، متوقعة بكل ثقة أني سأبقى معه، قاطعة عهداً على نفسي بأنني لن أقابل أدريان بعد ذلك، وأن صلتي به قد انتهت، وأنّي نلت العلاقة العابرة التي أردتُ وأنها انتهت - ثم أقابل أدريان وأنهار. وأجدني أردّد كلمات أغاني حب شائعة، وعبارات مُكررة من أسوأ أفلام هوليوود. ويتعثّر قلبي في وجيبه. وكلما اقترب مني يتشوش ذهني. لقد كان شمسي المُشرقة. كان قلبانا مترابطين. إنْ تواجدَ معي في مكان واحد، أصبحُ في حالة من التوتر تمنعني من الجلوس بهدوء. كان شيئاً أشبه بالجنون، بالانغماس التام. ونسيت أمر المقال الذي كان من المُفترَض أنْ أكتب. نسيت كل شيء إلا هو.

لم تعد أي من الخدع التي كنتُ أستخدمها في الماضي تنفع. حاولتُ أنْ أنأى بنفسي عنه باستخدام كلمات خادعة مثل «إخلاص» و«زنى»، بقولي له إنه سيتدخّل في عملي، إنني إذا قبلت حبه سأكون من سعادة مُفرطة تمنعني من الكتابة. حاولتُ أنْ أقول لنفسي إني

أؤذي بينيت، وأؤذي نفسي، وأفضح نفسي. وهذا صحيح. ولكن لم تنفع أي من الطرق. لقد تملّكني. فحالما يلجُ المكان ويتسم لي، ينتهي أمري.

بعد الغداء في اليوم الأول من المؤتمر، قلت لبينيت إنني ذاهبة لأسبح وتواعدتُ مع أدريان. أوصلني بالسيارة إلى فندقي وأحضرت ثوب السباحة، ووضعت مانع الحمل، وأخذت ملابسي الأخرى، ومن ثم غادرت مع أدريان إلى قصره.

في غرفته، تعرّيتُ في غضون دقيقة واستلقيتُ على السرير.

سألني: «أراك متلهّفة؟».

«نعم»:

«لماذا، بحق الله؟ لدينا متسعاً من الوقت».

«كم لدينا؟».

قال، بصورة غامضة: «قدر ما تشائين». باختصار، إذا تركني، سيكون ذلك بسببي. هكذا حال الأطباء النفسيين. نصيحتي إلى كل الشابات الصغيرات لا تنكحن طبيباً نفسياً.

على أية حال، لم تكن علاقة ناجحة. أو ليس كثيراً. كان فقط عادياً وراح يحرّكه داخلي بعنف آملاً ألا ألاحظ. وخرجت من الأمر برعشة صغيرة وكس متورم. لكنني شعرت بالسعادة بصورة ما. قلت في نفسي، سوف أتمكن من التحرُر منه الآن؛ إنه ليس جيداً في المضاجعة. سوف أتمكن من نسيانه.

سأل «فيم تفكّرين؟».

«في أني قد نُكحتُ بكل معنى الكلمة»، وتذكرتُ أنني سبق أنْ استخدمت العبارةَ نفسها مع بينيت ذات مرة، عندما كان الأمر حقيقياً أكثر.

«أنت كاذبة ومنافقة. لمَ تكذبين؟ أنا أعلم أنني لم أُحسِن النكاح. يمكنني أنْ أقدّم أداءً أفضل من هذا بكثير».

أفحمني بصراحته. اعترفت باكتئاب: «حسن، أنت لم تنحكني كما يجب. أعترف بهذا».

«هذا أفضل. لماذا تحاولين دائماً أنْ تتصرفي كمُصلحة اجتماعية لعينة؟ ألكي تنقذي أنانيتي؟» لفظ الكلمة الأخيرة مُشدّدة.

فكّرتُ قليلاً. ماذا كنت أفعل؟ لقد افترضتُ أنه كان عليك أنْ تتصرف هكذا مع الرجال. فإنْ لم تفعل فسوف ينهارون، أو يجنّون. ولم أرغب في أنْ أقود رجلاً آخر إلى حافة الجنون.

«أعتقد أنني دائماً أفترض أنَّ أنانية الذكَر من فرط الهشاشة بحيث إنها تحتاج إلى رعاية...».

«حسن إنَّ أنانيتي ليست بهذه الهشاشة. أستطيع أنْ أتحمّل سماع أنني لم أحسن نكاحك - خاصة عندما يكون هذا صحيحاً جداً».

«كل ما في الأمر أنني لم أُقابل أحداً مثلك».

ابتسم بابتهاج. «كلا، لم تقابلي يا حبيبتي، وأجرؤ على القول إنك لن تقابلي أبداً. لقد أخبرتك أنني لستُ بطلاً. وأنا لست هنا لأنقذك - وأحملك بعيداً على ظهر حصان أبيض».

تساءلت، إذن ما سبب وجوده هنا؟ ليس النكاح حتماً.

ذهبنا للسباحة في المسابح العامة في ضواحي فيينا. لم أكن قد رأيت قبل ذلك في حياتي كل تلك الكمية من الدهن المُعرَّض لأشعة الشمس. في هايلدبرغ، كنتُ أتجنّب عن عمد أحواض المسابح العامة والسونا؛ وعندما نسافر كنا دائماً نتجنّب المنتجعات الساحلية التي يتردّد عليها الألمان. كنا نصرّ على المرور برافينا والمعسكرات التيوتونية الأخرى. وبدل ذلك، كنتُ أحدّق بحسد

إلى السُّرر العميقة الجميلة للريفييرا الفرنسية، والخصور الرياضية، التي صُرِفت عليها الأموال في كابري. أما هنا فكنا مُحاصرَين بجبال من Schlag (الكريما) وSacher Torte (الكعك) التي تحولت إلى دهون.

قلت لأدريان «إنها أشبه بلوحة *«العشاء الأخير»* لمايكل أنجلو. تلك المرسومة في آخر كنيسة سيستين».

أبرز لسانه لي ورسم تعبيراً ساخراً على وجهه.

«ها هنا كل هؤلاء الناس يستمتعون بوقتهم وبالسباحة، وأنت ترمينهم بتلك النظرة الساخرة، لا ترين من حولك إلا الحرمان والفساد. يجب أنْ أسميك، مدام سافونارولا[١]».

قلت ساخرة: «معك حق»، ألا أكفّ عن النظر إلى كل شيء وتحليله وتمزيقه؟ لا أستطيع.

قلت: «لكنهم يبدون فعلاً أشبه بلوحة *«العشاء الأخير»*؛ إنَّ انتقام الله من الألمان لأنهم خنازير يجعلهم **يبدون** أشبه بالخنازير».

وأقسم بالله أنهم كانوا كذلك: ليسوا فقط بدينين، ليسوا فقط ذوي بطون مكوَّرة، وأذرع رخوة، ولغد، وأفخاذ ترج – بل كل هذا لونه ورديّ برّاق. يُطقطق. محترق. وأشدّ احمراراً من لحم الخنزير الصيني. بدوا أشبه بجراء الخنازير. أو أشبه بالخنزير الجنين الذي كان عليّ أنْ أشرّحه في الدرس الثاني من مادة الحيوان – كان بمثابة هزيمتي الساحقة في دراستي الجامعية.

سبحنا وتبادلنا القُبَل في الماء بين كل تلك الأرواح اللعينة. كنتُ

---

١ – جيرولامو سافونارولا (١٤٥٢ – ١٤٩٨): مُصلح ديني وسياسي. ناهض الجو الآثم وانعدام الأخلاق الذي ساد عصره. حُرِمَ كنسياً، ثم أُعدِمَ وأُحرِقَ بوصفه مهرطقاً. – المترجم

أرتدي ثوب سباحة أسود اللون ذا ياقة عميقة تكاد تصل حتى السرّة، وراح الجميع يُحدّقون إليّ: النساء باستهجان والرجال بفسق. وشعرتُ بلزوجة نُطف أدريان بين ساقيّ وتسيل إلى البركة ذات المياه المُعالجة بالكلور. أميركيّ يهبُ نُطفاً إنكليزية للألمان. كان شيئاً أشبه بخطة مارشال منحرفة. فلتبارك نُطفه مياههم وتعمّدهم. فلتغسل عنهم آثامهم. أدريان المعمدان. وأنا مريم المجدلية. لكنني أيضاً تساءلت إنْ كانت السباحة بعد النكاح مباشرة تُسبب الحبَل. لعلّ المياه تدفع بالنُطف إلى ما خلف غشاء مانع الحمل. أصابني الرعب فجأة من الحبَل. فجأة رغبتُ في الحبَل. ورحت أتخيَّل الطفل الجميل الذي سنُنجبه معاً. وتشبّثتُ بالفكرة بولَه.

جلسنا على المرج تحت شجرة وشربنا البيرة. تناقشنا حول مستقبلنا - كائناً ما كان معنى هذا. بدا أنَّ أدريان يعتقد أنْ عليّ أنْ أترك زوجي وأستقرّ في باريس (حيث يمكن أنْ ينتقل ويقوم بزيارتي دورياً). في استطاعتي أنْ أستأجر غرفة في أعلى احد الأبنية وأؤلف كتباً. أستطيع أنْ أنتقل إلى لندن وأؤلف كتباً معه. ويمكننا أنْ نعيش على غرار سيمون دو بوفوار وسارتر: معاً وأيضاً منفصلَين. يمكن أنْ نتعلم أنْ نتخلّص من أعمال سخيفة كالغيرة. ونتناكح معاً ومع أصدقائنا كلهم. ونعيش بلا قلق على ممتلكات أو من تملُّك. وأخيراً ذات يوم، نؤسس مجتمعاً صغيراً من ذوي الشخصيات الفصاميّة، والشعراء وأطباء النفس الراديكاليين. ونعيش كوجوديين حقيقيين بدل الكلام عن ذلك. سوف نعيش كلنا معاً في مكان واحد.

قلت: «يشبه الغواصة الصفراء[٢]».

«يعني، ولِمَ لا؟».

---

٢ - إشارة إلى اغنية فريق البيتلز «Yellow Submarine» - المترجم

«أنت رومانسي لا علاج لك، يا أدريان... بحيرة والدن بوند وما إلى ذلك».

«اسمعي - أنا لا أفهم ما الذي يُعجبك في حياة النفاق التي تعيشين. تتظاهرين بكل ذلك الهراء عن الإخلاص والاكتفاء بزوج واحد، والعيش مع مليون تناقُض، يحتفظ بك زوجك كطفلة موهوبة مُدللة ولا يسمح لك بالاستقلال بذاتك أبداً. على الأقلّ سنكون صادقَين. سوف نعيش معاً وننكح كل شخص صراحة. لا أحد يستغل أحداً ولا يُضطر أحد إلى الشعور بالذنب لكونه مستقلاً...».

«شعراء وشخصيات انفصاميّة وأطباء نفسيون؟».

«لا أرى فرقاً بينهم؟».

«ولا أقلّ فرق».

كان أدريان قد درس مذهب الوجودية في غضون أسبوع في باريس على يد مارتين، الممثلة الفرنسية التي كانت في صندوق القمامة.

قلت: «هذه مدة قصيرة، إنه تبسيط لمذهب الوجودية. أشبه بدورة برليتز للتقوية. كيف استطاعت أنْ تحقق ذلك؟».

وصف لي كيف ذهب إلى باريس ليقابلها وكيف أدهشته مارتين باستقباله في مطار أورلي مع صديقَين: لويز وبيير. وتقرر أنْ يمضوا الأسبوع بأكمله معاً، لا يفترقون، ويُخبر كل منهم الآخر كل شيء وينكح كل منهم الآخر بكل ترتيب ممكن، دون أنْ يقدموا أية «أعذار أخلاقية سخيفة».

«كلما تحدثت عن مرضاي أو طفليّ أو صديقتي في أرض الوطن، قالت: «لا يهمني».

«كلما أبديت احتجاجاً بشان احتياجي إلى العمل، إلى كسب عيشي، إلى النوم، إلى الهرب من كثافة التجربة، تقول: «لا يهمني».

لم تصمد أي من الأعذار العادية. في الحقيقة، كان الأمر مريعاً في البداية».

«يبدو هذا فاشستياً. وكله باسم الحرية».

«حسن، فهمت قصدك، لكنه لم يكن فاشستياً لأنَّ فكرتها في الحقيقة كانت أنَّ على المرء أنْ يوسّع حدود ما يمكن تحمّله. على المرء أنْ يغوص إلى أعماق تجربته حتى وإنْ اتّضح أنْ القاع هو الرعب. لقد كانت مارتين مجنونة. أودعت المستشفى وخرجت منها بأنواع شتى من الأفكار المستنيرة الجديدة. واستجمعت قواها من جديد وأضحت أقوى من ذي قبل. وهذا ما فعله ذلك الأسبوع لأجلي. كان عليّ أنْ أتعوَّد على الإحساس المريع بأنه ليست لدينا خطط، ولا أعلم إلى أين نتوجه في الخطوة التالية، وأنني لا أتمتّع بأيّة خصوصية، وأنني مُتكل على ثلاثة أشخاص آخرين في كل شيء طوال الوقت. وأحيا لديّ مشاكل الطفولة بأنواعها كافة. ثم الجنس - كان الجنس بالنسبة إليّ مرعباً في أول الأمر. النكاح جماعةً أصعب مما تظنين. إذ عليك أنْ تواجهي مثليتك الجنسية. أعتقد أنه كان أمراً مُثقّفاً».

«أكان أمراً مسلياً؟ لا يبدو أنه كان كذلك». ومع ذلك، كنت مفتونة.

«بعد مرور الأيام القليلة الأولى من الصدمة، أصبح الأمر رائعاً. ذهبنا إلى كل مكان معاً. غنينا في الشوارع. تقاسمنا الطعام، والنقود، وكل شيء. لا أحد منا كان يقلق بشأن العمل أو تحمّل المسؤوليات».

«ماذا عن طفليك؟».

«كانا مع إستر في لندن».

«إذن، هي التي كانت تتولى المسؤوليات بينما أنت تقوم بدور الوجودي كما لعبت ماري أنطوانيت دور راعية الغنم».

«كلا – في الواقع لم يجر الأمر هكذا على الإطلاق لأنه كان دائماً ينجح من الناحيتين. فإستر كانت تسأم الحمقى الآخرين بين حين وآخر وتترك لي أمر العناية بالطفلَين. لم يكن الوضع أحاديّ الجانب».

«على أية حال هما ولداك، أليسا كذلك؟».

قال معبّراً عن استهجانه نبرة سؤالي: «امتلاك، امتلاك، امتلاك. أنتنّ معشر الأميرات اليهوديات كلكن متشابهات».

«أنا علّمتكَ تعبير «الأميرة اليهودية» ومن ثم أول ما تفعل هو أنْ تستخدمه ضدي. لقد حذّرتني أمي من الرجال أمثالك».

وضع رأسه على حجري وراح يمرّغ أنفه بكسّي. ضحك اثنان من الألمان البدينان جالسان تحت شجرة أخرى ضحكاً مكبوتاً. لم أهتم.

قال: «إنه قذر».

قلت: «إنها قذارتك».

صحّح لي: «بل قذارتنا».

ثم قال فجأة: «أريد أنْ أمنحك تجربة كتلك التي أعطتني إياها مارتين. اريد أنْ أُعلّمك ألا تخافي ما في داخلك». وغرز أسنانه في فخذي. فتركت علامة عليه.

عندما رجعت إلى الفندق في الساعة الخامسة والنصف كان بينيت في انتظاري. لم يسألني أين كنت، لكنه أحاطني بذراعيه وبدأ يخلع عني ملابسي. ضاجعني، بل ضاجع قذارة أدريان، ضاجَعْنا نحن الثلاثة بمعاني هذه الكلمة كلها. كان حينئذ عطوفاً ورقيقاً كما لم يحدث من قبل، واستمتعت كما لم يحدث إلا نادراً قبل ذلك. كان جلياً أنه كعاشق أفضل بكثير من أدريان. كان جلياً جداً أنّ أدريان أحدثَ فرقاً في عملية المضاجعة، جعلنا نستحسن كل منا الآخر بطريقة جديدة.

تلامسنا بالمعنى الكامل للكلمة. وفجأةً أصبحت ذات قيمة عند بينيت وكأنه يعشقني للمرة الأولى.

اغتسلنا معاً وتراشقنا بالماء. نظّف كلٌ منا ظهر الآخر بالصابون. كنتُ فزعة قليلاً من علاقتي غير الشرعية، من مقدرتي على أنْ أنتقل من رجلٍ إلى آخر وأشعر بقدرٍ هائل من التوهّج والثمالة. كنتُ أعلم أني سأدفع ثمن ذلك لاحقاً مع إحساس بالذنب والبؤس الذي وحدي أعرف كيف أسببه لنفسي بقدر كبير. أما في تلك اللحظة فكنت سعيدة. شعرت بأنني أتلقّى الاستحسان اللائق للمرة الأولى. هل يمكن لرجلين أنْ يُضيفا شيئاً إلى شخص كامل؟

إحدى المناسبات في المجلس التي لا تُنسى كانت الاستقبال في راثوس في فيينا. لا تُنسى لأنها أتاحتْ فرصة لا تُعوّض لمشاهدة ٢٠٠٠ أو أكثر من المحللين النفسيين يأكلون بنهم وكأنهم كانوا جياعاً في بيافرا منذ عام. ولا تُنسى لأنها أتاحت فرصة لا تُعوّض لمشاهدة العديد من المحللين النفسيين العجائز الرصينين يرقصون رقصة شعبية - أو هكذا يظنون. لا تُنسى لأنني رقصت طوال السهرة مرتدية ثوباً أحمر عليه ترترة لامعة ورحتُ أنثر خلفي منه على الأرض في أثناء انتقالي من قاعة رقص إلى أخرى، تارة أرقص مع بينيت وطوراً مع أدريان ولا أستطيع أنْ أتخذ قراري. كنتُ أترك دليلاً خلفي أينما ذهبت.

قدّمتْ مُحافظ فيينا السيدة البدينة *herzliche Grusse* (أفضل تمنياتها) لآنا فرويد وباقي المُحللين النفسيين، وأخذت تنزّ هراءً ألمانياً لا ينتهي حول مدى سعادة مدينة فيينا لعودتهم جميعاً. ولم تذكر طبعاً أي شيء عن الطريقة التي *غادروا* بها عام ١٩٣٨. حينئذ لم تكن هناك فرقة موسيقية من خمسين عازفاً تعزف لهم مقطوعة «*فالس الدانوب الأزرق*»، أو يُمطرون بوابل من «*أفضل التمنيات*» والمشروبات المجانية.

عندما أُحضِر الطعام، احتشدت قطعان من المُحللين النفسيين بملابسهم الرسمية وهم يهمهمون وينخرون حول الموائد.

قالت إحدى القيِّمات بحماقة بنبرة توحي بلكنة حي فلاتبوش، مكسوة بلكنة مدارس سكارسديل والمدرسة الجديدة: «عجّلوا - إنهم يتدافعون نحو الخط الأمامي!».

قالت أخرى، جميلة وزنها مائتيّ رطل ترتدي ثوباً مع بنطلون من الساتان الأصفر، تتلألأ بحجارة من الألماس الزائد: «لقد بدؤوا تواً يُقدمون لهم الكعك في الغرفة المجاورة». قال أحد المُحللين النفسيين العجائز يبدو بارزاً - (أو ربما عفا عليه الزمن) - يرتدي سترة رسمية عتيقة الطراز مع مربعات، «*لا تدفعني!*». كان محشوراً بين امرأة تندفع بقوة نحو طبق ديك الحبش ورجل يندفع بقوة نحو طبق المشهيات. كانوا جميعاً يحيطون بالموائد من كل جانب، حتى لم يكن في الإمكان رؤية إلا أذرع طويلة تنقضّ على الطعام بأشواك الطعام الفضيّة.

خلال أداء ذلك المشهد المدهش، كانت آلات كمان ماركة شمالتزي تعزف من موقع العازفين على الشرفات فوق حلبة الرقص الرئيسة. والأقواس الغوطية الكاذبة في الأسقف العالية كانت مُضاءة بآلاف الشموع الكاذبة، واستمر عدد من العنيدين بالدوران على حلبة الرقص على إيقاع فالس أعرج من فيينا. آه ما أجمل السفر، والمغامرة، والرومانس! كنتُ أتوهج بالصحة والسعادة، كما تتوهج امرأة بعد أنْ تُنكح أربع مرات في يوم واحد من رجلَين مختلفَين، لكنّ عقلي كان يصطخب بالتناقضات. ولم أفهم أي شيء من التناقضات التي شعرت بها.

أحياناً كنتُ أُصبح متحدية وأعتقد أنّ لي الحق كله في أنْ أختطف

أية متعة تُتاح لي على امتداد حياتي القصيرة على الأرض. فلمَ *لا أكون* سعيدة واستمتع بحياتي؟ ما *الخطأ* في ذلك؟ لقد أدركتُ أنَّ النساء اللواتي يحصلن على أكبر قدر من السعادة من الحياة (ومن الرجال) هنَّ اللاتي يطلبن أكثر، وأنَّكِ إنْ تصرَّفتِ على أساس أنك كيان ثمين ومرغوب، فإنَّ الرجال سيجدونكِ ثمينة ومرغوبة، وإنْ رفضتِ أنْ تكوني ممسحة أقدام، فلن يستطيعَ أحد أنْ يطأكِ. وأدركتُ أنَّ المرأة المُستعبَدَة تطأها الأقدام والمرأة التي تتصرَّف كأنها ملكة تُعامَل كأنها كذلك. ولكن حالما كان مزاجي المتحدي يتلاشى يتملّكني إحساس بالعزلة واليأس، أشعر بالرعب من فقدان نوعيّ الرجال ومن العزلة، وأشعر بالرثاء لبينيت، وألعن نفسي لخيانتي، وأمقتها كل المقت على كل شيء. ثم أرغب في أنْ أهرع إلى بينيت وأناشده الصفح، وأرتمي عند قدميه، وأعرض عليه أنْ أنجب له حفنة من الأطفال في الحال (فقط لأمتّن ارتباطي به)، وأعدُ بأنْ أخدمه كعبد مُخلص في مقابل أية صفقة ما دامت تتضمَّن الأمان. كنتُ مستعدة أنْ أصبح ذليلة، مُبالِغة، مفرطة العذوبة: كل تلك الأكاذيب التي تتم في العالم تحت عنوان الأنوثة.

الحقيقة هي أنَّ لا شيء من تلك المواقف كان له أي معنى وقد أدركتُ ذلك. لا الهيمنة ولا الرضوخ للهيمنة. لا التنمُّر ولا العبودية. كلاهما كانا فخاً. كلاهما لم يكن يؤدي إلا إلى الوحدة وكلاهما كانا محكومين بتجنّبهما. ولكن ماذا كان في وسعي أنْ أفعل؟ فكلما كرهت نفسي، كرهتُ نفسي أكثر لأنني أكره نفسي. كان وضعاً ميؤوساً منه.

رحتُ أستعرض وجوه الحشد بحثاً عن أدريان. لم يكن يسعدني إلا مرأى وجهه. وكل الوجوه الأخرى بدت لي فظّة وقبيحة. كان بينيت يعلم بما يجري ويتفهّم الوضع بصورة تُثير الجنون.

قال: «إنكِ أشبه بشخصية من رواية «*العام الفائت في مايناباد*». هل

حدث الأمر أم لم يحدث؟ الفرق هو أنّ مُحللها النفسي يعلم علم اليقين».

كان مُقتنعاً بأنّ أدريان «فقط» يمثّل والدي، وفي هذه الحالة فالوضع شرعي. فقط! باختصار، لم أكن إلا «أمثّل» وضعاً أوديبيّاً بالإضافة إلى «تحوّل متقلقل» نحو مُحللي النفسي الألماني، الدكتور هابه، ناهيك عن الدكتور كوننر، الذي كنتُ قد غادرت تواً. كان في استطاعة بينيت أنْ يتفهّم هذا، طالما أنها علاقة أوديبيّة، وليست حباً.

بصورة ما، كان أدريان أسوأ.

تقابلنا على الدّرج الجانبي تحت القوس الغوطي. وكان لديه أيضاً الكثير من التأويلات.

قال: «إنكِ لا تكفين عن الانتقال بيننا بسرعة جينة وذهاباً. تُرى مَنْ بيننا يمثّل الأم ومن الأب؟؟».

انتابني حافز مفاجئ ومجنون بحزم أمتعتي والابتعاد عن كليهما. ربما المسألة ليست الاختيار بينهما بل فقط الهروب منهما معاً وإلى الأبد. أنْ أتكفّل نفسي بنفسي. أنْ أتوقف عن هراء الركض من رجلٍ إلى آخر. أنْ أقف على قدميّ ولو مرة واحدة. لماذا كان هذا الأمر مرعباً إلى تلك الدرجة؟ الخيارات الأخرى كانت أسوأ، أليس كذلك؟ حياة كاملة من تأويلات فرويد أو حياة كاملة من تأويلات لينغ! يا له من خيار! وكان في وسعي أيضاً أنْ ألتحق بجماعات تتبنّى أفكاراً دينية متطرفة، أو أنْ أصبح مسخاً في حركة السنتولوجيا، أو ماركسية مُنظّرة. إنّ أي نظام يتحول إلى قيد إذا أصررت على الالتزام به بصورة تامة وخالية من أية طرافة. ولم أكن أؤمن بالأنظمة. كان كل ما هو إنسانيّ ناقصاً وسخيفاً بصورة مُطلقة. بمَ كنتُ أؤمن؟ بالفكاهة. بالضحك على الأنظمة، وعلى الذات. بالضحك حتى على حاجتي إلى الضحك

طوال الوقت. برؤيتي الحياة كتناقُض، مُتعددة الجوانب، متنوعة، مضحكة، ومأساوية، مع لحظات من الجمال الجامح. برؤية الحياة ككعكة الفاكهة، تحتوي ثمار خوخ لذيذة وفول سوداني رديء، ولكنْ مُقدّر لها مع ذلك أنْ تُلتَهَم بنهم لأنه لا يمكنك أنْ تأكل ثمار الخوخ من دون أنْ تبتلع حبات الفول السوداني المسمومة. (أخبرتُ بعضاً من هذا لأدريان).

قال أدريان، بصيغة أقرب إلى الإقرار منها إلى السؤال: «الحياة أشبه بكعكة فاكهة! أراكِ مولعة بكل ما يتعلّق بالفم، ألست كذلك؟».

«إذن ما الجديد - تريد أنْ تسخر منه؟».

قبّلني قبلة رطبة، ملوّثة، مع لسان أشبه بثمرة الخوخ داخل كعكة الفاكهة.

سأل بينيت بعد أنْ عدنا إلى الفندق: «إلى متى ستظلين تؤذينني هكذا؟ لن أتحمّل هذا إلى الأبد».

قلت: «أنا آسفة». بدا اعتذاراً ضعيفاً.

«أعتقد أنْ علينا أنْ نرحل من هنا، ونستقل أول طائرة متوجهة إلى نيويورك. لا يمكن أنْ نستمر في هذا الجنون. أنتِ مضطربة، مخبولة، مجنونة. أريد أنْ أعيدك إلى الوطن».

بدأتُ أبكي. أردتُ أنْ أعود إلى الوطن ولم أرد أبداً أنْ أعود إلى الوطن.

«أرجوك يا بينيت، أرجوك، أرجوك، أرجوك».

قال ساخراً: «ترجينني أنْ أفعل ماذا؟».

«لا أعلم».

«إنكِ حتى لا تجروئين على البقاء معه. إنْ كنتِ تحبينه - فلِمَ لا

تلتزمين بذلك وتقابلين طفليه وتذهبين إلى لندن. لكنكِ لا تستطيعين أنْ تفعلي حتى هذا. لا تعرفين ماذا تريدين»، سكت برهة، «يجب أنْ تعودي إلى الوطن في الحال».

«ما الفائدة؟ لن تثق فيّ بعد الآن. لقد دمّرتُ كل شيء. ليس هناك من أمل»، وأعتقد أني كنتُ أصدق هذا الكلام.

«ربما إذا رجعت إلى الوطن وعدت للخضوع للتحليل النفسي، إذا فهمت لماذا فعلت ذلك، إذا حللت اللغز، ربما تستطيعين أنْ تنقذي زواجنا».

«إذا عدتُ للخضوع للتحليل النفسي! أهذا تفسيرك للوضع!».

«ليس لصالحي - بل لصالحك. لكي لا تستمري في فعل مثل هذه الأمور إلى الأبد».

«وهل سبق لي أنْ فعلتها من قبل؟ هل سبق لي؟ حتى عندما كنتَ فظيعاً معي، حتى في تلك المناسبة في باريس عندما رفضتَ أنْ تكلّمني، حتى خلال تلك السنوات في ألمانيا عندما كنتُ في حالة قصوى من التعاسة، عندما كنتُ في حاجة ماسّة إلى مَنْ ألجأ إليه، عندما شعرتُ بوحدة شديدة ونأيتَ عني بكآبتك المتواصلة - لم أقم أية علاقة مع أحد. أبداً. لا شك في أنك أثرت غضبي حينئذ. وكنتَ تقول إنه ليس لديك أي تعاطف مع مشاكلي. لم تقُل لي أبداً إنك تحبني. وعندما بكيتُ وشعرت بالبؤس لأنَّ كل ما أردت هو قُربك وحبّك أرسلتني إلى مُحلل نفسي. كنتَ تستخدم المُحلل النفسي كبديل لكل شيء. فكلما شعرتَ بتهديد أي نوع من الاقتراب مني، كنت ترسلني إلى مُحلل نفسي لعين».

«إلى أين كان سيؤول حالك الآن لولا المُحلل النفسي؟ كنتِ لا تزالين تُعيدين كتابة إحدى قصائد مرة بعد أخرى. كنت لا تزالين

عاجزة عن إرسال أعمالك إلى أي مكان. كنتِ لا تزالين مرعوبة من كل شيء. وعندما قابلتك، كنتِ تدورين حول نفسك كالمجنونة، لا تعملين بصورة ثابتة على أي شيء، ومملوءة بملايين الخُطط التي لا تُنجَز أبداً. لقد منحتكِ مكاناً تعملين فيه، وشجّعتكِ عندما كنتِ تكرهين نفسك، وآمنتُ بكِ عندما لم تؤمني بنفسك، ودفعت تكاليف مُحللك النفسي اللعين لتتمكني من النمو والتطوّر ككائن بشري بدل أنْ تتخبطي مع أعضاء أسرتك المجنونة كلهم. هيا ضعي اللوم عليّ لمشاكلك كلها. لقد كنتُ الوحيدَ الذي قدّم لك الدعم والتشجيع وهذا كل ما تفعلين في المقابل - تهرعين خلف إنكليزي أبله وتئنين في وجهي حول عدم معرفتك ما تريدين. اذهبي إلى الجحيم! اتبعيه إلى حيثما شئت، أنا عائد إلى نيويورك».

قلت، وأنا أبكي: «ولكن أنا أريدك *أنت*». لقد *أردتُ* أنْ أريده. أردتُ ذلك أكثر من أي شيء آخر. وتذكّرت تلك الأوقات كلها التي أمضيناها معاً، الأوقات البائسة التي مررنا بها معاً، وتلك التي تمكنَ خلالها كل منا من مواساة الآخر وتشجيعه، وكيف دعم عملي وثبّتَ قدميّ عندما بدا كأنني مستعدة لرمي نفسي من أعلى جُرف. وكيف تحمّلتُ الجيش معه. ومرّت السنون. وتذكّرت كلّ ما عرفه كل منا عن الآخر، وكيف حرصنا على أنْ نبقى معاً؛ والتصميم العنيد الذي أبقانا متماسكين معاً عندما فشل كل شيء آخر. حتى البؤس الذي تقاسمنا بدا أنه بمثابة الرباط الأقوى من أي شيء شدّني إلى أدريان. أدريان كان حلماً. أما بينيت فكان واقعياً. هل كان كئيباً؟ في الواقع، حينئذ كان الواقع كئيباً. فلو أني خسرته، لما تمكنتُ من تذكر حتى اسمي.

تعانقنا وباشرنا المضاجعة، ونحن نبكي.

قال، وهو ينكح أعمق فأعمق: «حينئذ رغبتُ في منحك طفلاً».

بعد ظهيرة اليوم التالي عدتُ لأنضمّ إلى أدريان، تمدّدنا على غطاء في غابات فيينا، وأشعة الشمس تتسلّل من بين أغصان الأشجار.

سال أدريان: «أتحبين بينيت *حقاً* أم إنّكِ فقط تُعدّدين مزاياه؟».

اقتلعتُ ورقة عشب بري خضراء طويلة ورحتُ أمضغها: «لماذا تطرح مثل هذه الأسئلة القاطعة؟».

«أسئلتي ليست قاطعة على الإطلاق. كل ما في الأمر أنكِ شفّافة».

قلت « عظيم».

«أنا جادّ. ألا تعتقدين أنَّ *المرح* يُزيّن كل ما في الحياة؟ أم إنها لا تتألّف إلا من الأشياء السقيمة حول «مُحللي النفسي - ومُحلله النفسي»، «أحبّني - أحبَّ - مرضي». يبدو أنكِ وبينيت تُكثران من الشكوى. وتُكثران من الاعتذار. إنكما مُفعمان بالالتزامات وبالواجبات وبما فعله لأجلك. لماذا **لا** ينبغي أنْ يفعل لأجلك؟ أأنتِ شخصية شنيعة؟».

«أحياناً أعتقد أنني كذلك».

«لماذا بحق الله؟ أنتِ لستِ قبيحة، ولا حمقاء. أنت عاهرة لذيذة، ولك بطن ناتئة جميلة، وشعر أشقر غزير، وأكبر طيز بين فيينا ونيويورك - صلبة تماماً -»، وصفعها للتأكيد، «فما الداعي لقلقك؟».

«كل شيء. إنني اتّكالية جداً. أنهار بانتظام. وأمرّ بفترات فظيعة من اليأس وأكاد لا أتمكن من استنشاق الهواء. ثم إنه لا رجلَ يريد أنْ يرتبط بامرأة كاتبة. إنهن يُشكلن عوائق. إنهنّ حالمات في اليقظة في الوقت الذي يُفترَض فيهنّ أنْ يطبخن. يقلقن على الكتب أكثر من قلقهن على الأطفال. وينسين أنْ يُنظّفن المنزل...».

«يا يسوع المسيح! أنتِ مُدافعة ممتازة عن حقوق المرأة».

«أوه أنا أتحدث على سبيل ممارسة لعبة جيدة، بل إنني أعتقد أنني

أُحبها، ولكن في سرّي أنا أشبه بفتاة رواية «*حكاية O*»[٣]. أريد أنْ أستسلم لرجل ضخم بهيميّ. وكما تقول سيلفيا بلاث «كل امرأة تعشق رجلاً فاشياً». إنني أشعر بالذنب لأنني أؤلف قصائد في وقت يجدر بي أنْ أطبخ. وأشعر بالذنب اتّجاه *كل شيء*. لستَ في حاجةٍ إلى أنْ تضربَ امرأة إنْ كان في استطاعتك أنْ تشعر بالذنب. هذا هو مبدأ إيزادورا وينغ الأول في الحرب بين الجنسَين. إنّ النساء هنّ أسوأ أعداء أنفسهن. والإحساس بالذنب هو السلاح الرئيس في تعذيب النفس. أتعلَم ماذا قال تيدي روزفلت؟».

«كلا».

«أرني امرأة لا تشعر بالذنب أُريكَ رجلاً».

«تيدي روزفلت لم يقُل هذا أبداً».

«كلا، بل *أنا* قلته».

«أنتِ فقط *تخشينه* - هذا هو حالك».

«أخشى مَنْ؟ تيدي روزفلت؟».

«كلا - يا بلهاء - بل بينيت. ولا تعترفين بهذا. إنكِ تخشين أنْ يتركك فتنهارين. إنكِ لا تعلمين أنّ في مقدورك أنْ تواصلي حياتك من دونه وتخشين أنْ تكتَشفي هذا لأنّ نظريتك التافهة سوف تنهار حينئذ. ينبغي أنْ تكفّي عن اعتبار نفسك ضعيفة واتّكاليّة وأنكِ تكرهين ذلك».

٣ - «**حكاية O**»: رواية إباحية. نُشرَتْ في عام ١٩٥٤. تحكي عن الهيمنة والرضوخ في الحب. المؤلفة نشرَتها تحت اسم آن ديكلوز، ولم تكشف عن اسمها الحقيقي، بولين لييج، إلا بعد أربعين عاماً من صدور الرواية للمرة الأولى، وكانت مُعجبة بروايات المركيز دو ساد، وتحكي عن مُصوِّرة أزياء باريسية اسمها O، يُدربها حبيبها، رينيه، على القيام بأساليب شتى من الممارسات الجنسية بطرق وحشية وشاذة مع رجال آخرين. والرواية عبارة عن سلسلة غريبة من الممارسات الشاذة والوحشية. - المترجم

«أنت لم ترني أبداً وأنا أوشك أنْ أنهار».

«هراء».

«يجب أنْ *تراني*. سوف تركض مبتعداً عني أميالاً».

«لماذا؟ أأنت لا تُحتملين إلى هذه الدرجة؟».

«هذا ما يقوله بينيت».

«إذن لم لم يهرب هو؟ في الواقع إنّ هذا محض هراء ولا يستحق اهتمامك. اسمعي - ذات يوم كنتُ أعيش مع مارتين ورأيتها تنهار. ولا أعتقد أنّ حالتك أسوأ من حالتها. لكي تحصلي على ما هو جيد في الناس عليك أولاً أنْ تزيلي الكثير من القذارة عنهم».

«هيه. هذا كلام جيد جداً - هل أستطيع أنْ أسجّله على شريط؟».

«ما رأيك في تسجيله على شريط فيديو؟». وانهمكنا في القُبل مدة طويلة. وعندما توقفنا قال أدريان: «في الواقع أنت حمقاء، بوصفك امرأة ذكية».

«إنّ هذا أجمل ما قيل فيّ».

«ما أقصد أنْ أقول هو أنّ باستطاعتك أنْ تحصلي على كل ما تريدين - المشكلة هي أنك لا تعرفين ذلك. يمكنك أنْ تمسكي العالم من ناصيته. باستطاعتك أنْ تأتي معي وسترين أنك لن تشتاقي إلى بينيت. سوف نقوم بمغامرة أسطورية. سوف أكتشف أوروبا - وسوف تكتشفين نفسك».

«أهذا كل شيء؟ متى نبدأ؟».

«في الغد أو بعد غد، أو في يوم السبت. بعد انتهاء المؤتمر».

«وإلى أين سنذهب؟».

«هذا هو المهم. لا توجد خطط. سوف ننطلق هكذا ببساطة. سيكون الأمر أشبه برواية «عناقيد الغضب». سوف نكون مهاجرين».

«اسمها *عناقيد الغضب*».

«بل الغيظ».

«بل الغضب، كما في عبارة غضب الله».

«الغيظ».

«أنتَ مخطئ، يا حبّوب. وأنتَ أميٌّ باعترافك. إنَّ شتاينبك هو كاتب أميركي - والرواية عنوانها «*عناقيد الغضب*»».

«بل الغيظ».

«حسن، أنت مخطئ، ولكن دعنا من هذا».

«أنا أساساً لا أهتم، يا حبيبتي».

«تقصد أنكَ ستنطلق من دون أي خطط؟».

«إنَّ الخطة التي عليكِ أنْ تكتشفي هي مدى قوتك. الخطة هي أنْ تبدئي بالإيمان بأنَّ باستطاعتك أنْ تقفي على قدميك دون عون من أحد - إنَّ هذه الخطة كافية لأي إنسان».

«وماذا عن بينيت؟».

«إنْ كان ذكياً، فسوف يرحل مع فتاة أخرى».

«أيفعل؟».

«هذا ما يمكن أنْ أفعله *أنا*، على أية حال. اسمعي - من الجليّ أنكِ وهو مُقدّر لكما أنْ تُعيدا حساباتكما. لا يمكنكما أنْ تستمرا في الشكوى كلّ منكما للآخر هكذا طوال حياتكما. ربما هناك أناس يموتون في بلفاست وبنغلاديش ولكن هذا سبب إضافي لوجوب أنْ تتعلّمي أنْ تمرحي - من المفترض أنَّ الحياة مرحة على الأقل بعض الوقت. وأنتِ وبينيت تبدوان كائنين من المتعصبين: «لم يعُد هناك أي أمل: النهاية باتت وشيكة». أليس لديكما ما تفعلان خلاف القلق؟ إنها خسارة لعينة».

قلت، وأنا أضحك: «لقد نعتكَ بأسوأ الأوصاف».

«أحقاً؟».

«قال إنكَ «جزء من شيء»».

«أقال هذا؟ حسن هو أيضاً «جزء من شيء» لعين. ابن حرام يمارس الطب النفسي».

«أنتَ أيضاً تمارس الطب النفسي، يا حبيبي. أحياناً أعتقد أنني يجب أنْ أهرب منكما أنتما الاثنان. **امرأة تختنق وهي ترطن. العاشق والزوج يخضعان للاستجواب**».

ضحك أدريان وعبث بطيزي. لا رطانة في ذلك. إنها الموضوع كله. طيز ونصف، في الواقع. لم أكن أشعر بسعادة أكبر بطيزي إلا وأنا مع أدريان. ليت الرجال يعلمون! كل النساء يعتقدن أنهنّ قبيحات، حتى الجميلات منهن. والرجل الذي يفهم هذا يستطيع أنْ ينكح من النساء أكثر مما فعل دون جوان. إنهم *جميعاً* يعتقدون أنَّ عاهراتهم قبيحات. كلهم يعثرون على عيوب في أجسادهن. كلهم يعتقدون أنَّ أطيازهن أكبر مما ينبغي، وأثدائهن أصغر مما ينبغي، وأفخاذهن أضخم مما ينبغي، وكواحل أقدامهن أثخن مما ينبغي. حتى عارضات الأزياء والممثلات، حتى النساء اللواتي يعتقد المرء أنهنّ من فرط الجمال بحيث ليس لديهن ما يقلقن بشأن القلق طوال الوقت.

قال أدريان: «أحبّ طيزك الضخمة. وكل الطعام الذي تزدردين لتحصلي على مثل هذه الطيز الضخمة. لذيذة!»، وغرز أسنانه فيها. آكل لحم البشر.

قال لطيزي «إنَّ مشكلة زواجك هي أنها كلها *عمل*. ألا تمرحان معاً أبداً؟».

«طبعاً نمرح... هيه - هذا يؤلم!».

«متى؟»، واعتدل في جلسته. «أخبريني متى كانت حياتكما مرحة».

عصرتُ ذهني. الشجار في باريس. تحطّم السيارة في صقلية. الشجار في بيستوم. الشجار بشأن الشقة التي سنشتري. الشجار بشأن تركي عمل التحليل النفسي. الشجار بشأن التزلج على الجليد. الشجار بشأن الشجار.

«لقد أمضينا *الكثير* من الأوقات المرحة. لستَ في حاجة إلى استجوابي».

«أنتِ كاذبة. إنَّ عملك كمُحللة نفسية كله سيذهب هباءً إنْ ظللتِ تكذبين على نفسك طوال الوقت».

«نحن نمرح في السرير».

«فقط أراهن على أنَّ الفضل في ذلك إلى أنني لا أُحسن نكاحك».

«أدريان، أعتقد أنكَ تريد حقاً أنْ تحطم زواجي. هذه هي لعبتك، أليس كذلك؟ هذه هي خدعتك، هذا ما يمسسك. قد أكون ممسوسة بالشعور بالذنب. وقد يكون بينيت ممسوساً بالرطانة. أما أنت فممسوس بالعلاقات ثلاثية الأطراف. هذا هو اختصاصك. مع مَنْ كانت مارتين تعيش جعلك تنجذب إليها؟ مَنْ كانت إستر تنكح؟ أنتَ غول الزواج، هذا ما أنت. أنت صقر».

«نعم، عندما أعثر على جيفة، ارغب في إزالتها. أنتِ قلتِ هذا، لا أنا. استخدام تشبيه الصقر يخصّك، يا حلوة. واللحم الميت أيضاً. ويخصّ بينيت».

«أعتقد أنكِ مُعجَب ببينيت أكثر مما تعترف به. اعتقد انه يُثيرك جنسياً».

قال، مُكشراً: «لا استطيع انْ أُقرر إنْ كنتُ شاذاً أم لا».

«أراهن على أنَّ هذا صحيح».

«اعتقدي ما شئت، يا حلوة. افعلي كل ما من شأنه أنْ يُبعدك عن الاستمتاع بالحياة؛ وكل ما من شأنه أنْ يُبقيك تعانين. أنا أعرف نمطك. مازوشية يهودية لعينة. في الحقيقة، أنا شديد الإعجاب ببينيت، لكنه مازوشي صيني لعين. سوف يفيده إذا ذهبت من دونه. قد يتبيَّن أنه لا يستطيع أنْ يستمر بالعيش هكذا، يعاني طوال الوقت ويستدعي فرويد ليكون شاهده».

«إذا رحلتُ، سأخسره».

«لولا أنه لا يستحق الاحتفاظ به».

«لماذا تقول هذا؟».

«الأمر غاية في الوضوح. إذا رحل، فهو ليس لك. وإذا استعادكِ، فسيكون ذلك على أساس جديد. لا مزيد من التذلّل. لا مزيد من تلاعب كل منكما بالآخر بالإحساس بالذنب طوال الوقت. لا يمكنكِ أنْ تخسري أي شيء. وحتى ذلك الحين، سنقضي وقتاً ممتعاً».

تظاهرتُ أمام أدريان بأنه لم يتمكن من غوايتي، لكنه في الحقيقة فعل. إلى أقصى مدى. وعندما فكّرت في ذلك، بدا لي كأنَّ بينيت يعرف كل شيء عن الحياة ما عدا أنَّ المرح يجب أنْ يكون جزءاً منها. لقد كانت الحياة مرضاً مُزمناً يُعالَج بالتحليل النفسي. وقد لا تبرأ منه، ولكن على أية حال في نهاية المطاف سوف تموت. سوف ترتفع قاعدة الأريكة من حولك وتُصبح تابوتاً، ويحملك ستة من المُحللين النفسيين ببزات سوداء ويمضون بك (ويرمون بالرطانة على قبرك المكشوف).

كان بينيت يعلم كل شيء عن الأشياء الجزئية والأشياء الكاملة، أوديب وإلكترا، رهاب المدرسة ورهاب الأماكن المُغلقة، العنّة

والبرودة الجنسية، قتل الأب وقتل الأم، وحسد القضيب وحسد الرحم، العمل المتواصل والعلاقة الحرة، الحداد والكآبة، الصراع الداخلي والصراع الخارجي، عِلم تصنيف الأمراض وعِلم أسباب المرض، خَرَف الشيخوخة والعته المبكر، البروز والغوص، التحليل الذاتي والمعالجة الجماعية، تشكّل العرَض وتفاقم العرَض، حالات فقدان الذاكرة وحالات الإرهاق، البكاء المَرَضي والضحك في الأحلام، الأرق والنوم المفرط، العُصاب والذهان إلى أنْ تخرج من أذنيك، ولكن لم يبد أنه يعلم شيئاً عن الضحك والتنكيت، والأجوبة البارعة والتورية، العناق وتبادل القبل، الغناء والرقص - باختصار، كل الأشياء التي جعلت الحياة تستحق الحياة. وكأنَّ في الإمكان أنْ *تريد* الحياة لكي تجد السعادة عبر التحليل النفسي. كأنَّ في إمكانك أنْ تواصل حياتك من دون ضحك ما دام لديك مُحلل نفسيّ. كان أدريان يمتلك الضحك، وعند تلك النقطة كنتُ على استعداد لبيع روحي من أجله.

الابتسام. مَنْ الذي قال إنَّ الابتسام هو سرّ الحياة؟ كان لدى أدريان تكشير غريب. أنا أيضاً كنتُ أضحك طوال الوقت. وعندما نجتمع معاً كنا نشعر أنَّ باستطاعتنا أنْ نقهر أي شيء بالضحك وحده.

قال بينيت: «يجب أنْ تتركيه وتعودي إلى التحليل النفسي. إنه لا يصلح لك».

قلت: «أنت على حق». *ما هذا الذي قلته تواً؟* أنت على حق، أنت على حق، أنت على حق. كان بينيت على حق وأدريان أيضاً كان على حق. لطالما أحبّني الرجال لأنني أتّفق معهم. وليس فقط بالكلام المعسول. الآن أنا أقولها، وأعنيها حقاً.

«دعينا نعود إلى نيويورك بعد انتهاء المؤتمر مباشرة».

قلت، بصدق: «حسن».

نظرتُ إلى بينيت وقلت في نفسي كم أعرف هذا الرجل. كان جدياً ورصيناً إلى درجة تقترب من الجنون أحياناً، ولكن كان هذا أيضاً ما أحببت فيه: إمكانية الاعتماد عليه بصورة مُطلقة. إيمانه بأنَّ الحياة لغز يمكن حلّه حتماً عبر العمل الحثيث والتصميم. كنتُ أشترك معه في هذا بقدر اشتراكي مع أدريان في الضحك. لقد أحببتُ بينيت وكنتُ أعلم هذا. كنتُ أعلم أنّني سأعيش حياتي معه، وليس مع أدريان. إذن ما الذي كان يدفعني بقوة إلى تركه والذهاب إلى أدريان؟ لماذا تتغلغل حجج أدريان في أعماقي؟

قال: «كان بوسعك أنْ تُقيمي علاقة عاطفية من دون علمي؛ لقد منحتكِ الكثير من الحرية».

قلت: «أعلم» وأنا مُطرقة الرأس.

«أنت فعلت ذلك لصالحي، أليس كذلك؟ لابد أنكِ كنتِ غاضبة جداً مني».

قلت: «على أية حال، إنه عنين في معظم الوقت». عندئذ خنتُ الاثنين معاً. لقد بُحت بأسرار بينيت لأدريان، وبُحت بأسرار أدريان لبينيت، ناقلة الحكايات من أحدهما إلى الآخر. وأنا أشدّهما تعرُّضاً للخيانة، وخائنة. أما كان لي أي ولاء لأحد؟ وودتُ لو أموت. إنَّ الموت هو العقاب المناسب الوحيد للخونة.

«وودتُ لو اعتقدتُ أنه عنين، أو شاذ. على أية حال، من الواضح أنه يكره النساء».

«كيف عرفتَ؟».

«منكِ».

«بينيت، هل تعلم أنني أحبك؟».

«نعم، وهذا ما يجعل الوضع أسوأ».

وقفنا ينظر أحدنا إلى الآخر.

«أحياناً يُصيبني السأم الشديد من كوني جدياً طوال الوقت. أريد أنْ أضحك. أريد أنْ أمرح».

قال بحزن: «أعتقد أنَّ رصانتي سوف تُبعد عني الجميع في *نهاية* المطاف». ثم أخذ يُعدِّد كل الفتيات اللائي ابتعدن عنه بسببها. عرفتهن جميعاً بالاسم. وعانقته.

«كان باستطاعتي أنْ أقيم علاقات عاطفية من دون علمك. أعرف العديد من النساء يفعلن ذلك....» (في الحقيقة، كنت أعرف فقط ثلاث منهن جعلن من ذلك عادة *دائمة* لهن). «لكنَّ هذا كان سيجعل الوضع أسوأ، بصورة ما. أنْ أعيش حياةً سريّة ومن ثم أعود إلى المنزل وكأنَّ شيئاً لم يكن. كان سيكون من الأصعب تقبّله. على الأقلّ، أنا لم أكن لأتحمّله».

قال: «ربما كان ينبغي أنْ أدرك مدى شعورك بالوحشة؛ لعلّ الخطأ خطئي».

ثم تضاجعنا. لم أتظاهر بأنَّ بينيت هو أي شخص آخر غير بينيت. لم أضطر إلى فعل ذلك. لقد أردتُ بينيت.

لاحقاً قلت في نفسي، لقد كان مُخطئاً فعلاً. لقد فشل الزواج بسببي. فلو أنني أحببته بالقدر الكافي، لشفيته من حزنه بدل أن يكتنفني ذلك الحزن وأرغب في الهروب منه.

قلت: «لا شيء أصعب من الزواج».

قال: «إنني أعتقد جازماً بأنني دفعتكِ إليه دفعاً».

واستغرقنا في النوم.

«إنَّ تفهّمه اللعين لا يزيد الوضع إلا سوءاً، بصورة ما. يا إلهي، كم أشعر بالذنب!».

قال أدريان: «أي شيء آخر جديد؟».

كنا قد عثرنا على بركة جديدة للسباحة في غرينتزينغ، بركة صغيرة فاتنة، لا يؤمّها إلا عدد ضئيل من الألمان البدينين. كنا جالسَين على حافة البركة نشرب البيرة.

«هل أنا مملّة؟ هل أكرر نفسي؟» أسئلة متكلّفة.

قال أدريان: «نعم، ولكن يُعجبني أنْ أشعر بالملل بسببك. إنه أمر مُسلٍ أكثر من تسلية أي شخص آخر».

«يُعجبني تدفق الحديث بيننا ونحن معاً. إنني لم أقلق مرة حول ترك انطباع جيد عندك. إنني أبوح لك بما أفكر».

«هذا كذب. بالأمس قلت إنني مُضاجِع جيد في حين أنني أعلم أنني لست كذلك».

«أنت على حق»، كان جواباً سريعاً.

«لكني أعرف ماذا تقصدين. إننا نُحسن تبادل الحديث. بلا عقد ولا عوائق. إنّ إستر تغوص في فترات الصمت الطويلة تلك ولا أعرف بما تفكر. أنت منفتحة؛ تناقضين نفسك طوال الوقت، لكنني أحب هذا. إنها سمة إنسانية».

«وبينيت أيضاً يغيب في فترات طويلة من الصمت. إنني أُفضّل لو أنه يُناقض نفسه، لكنه أشدّ مثالية من أنْ يفعل هذا. إنه لا يلتزم بتصريح إلا إذا تيقّن من أنه حاسم. وأنت لا تستطيع أنْ تعيش هكذا - تحاول أنْ تكون حاسماً طوال الوقت - الموت أمر حاسم».

قال أدريان «فلنسبح مرة أخرى».

لاحقاً، سأل بينيت «لِمَ أنتِ شديدة الغضب مني؟».

«لأنني شعرتُ أنكَ عاملتني كأنني قطعة أثاث؛ لأنك قلت إنكَ لا تعاطف معي؛ لأنك لم تقُل لي مرة إنكَ تحبني؛ لأنك لم تباشر الجنس معي؛ لأنكَ تلومني بسبب تعاستك؛ لأنكَ تغوص في فترات الصمت تلك ولا تسمح لي بمواساتك؛ لأنك تهين أصدقائي؛ لأنك تنغلق في وجه أي تواصُل إنساني؛ لأنك تجعلني أشعر وكأنني أختنق حتى الموت».

«إنَّ أمك هي التي خنقتكِ، وليس أنا. أنا منحتك كل الحرية التي أردت».

«هذا تناقض في التعبير. إنَّ المرء لا يُصبح حراً إذا كانت الحرية «منحة». مَنْ أنتَ لـ «تمنحني» حريتي؟».

«هاتي لي شخصاً حراً بصورة تامة. مَنْ؟ هل هناك أحد؟ إنَّ والديك هما اللذان خنقاك – ليس أنا! أنتِ دائماً تلومينني على ما فعلته أمك بك».

«كلما انتقدتكَ بأية طريقة، ترميني بتأويل آخر من التحليل النفسي. اللوم دائماً على أمي أو على أبي – وليس على شيء بيننا. الا يمكننا أنْ نُبقي الأمر بيننا؟».

«كنتُ أتمنى لو أنَّ الأمر تمّ هكذا، لكنَّ هذا لا يحصل. أنتِ دائماً تعيشين طفولتك من جديد سواء اعترفت بذلك أم لا – ماذا تعتقدين أنكِ تفعلين مع أدريان غودلَف؟ إنه يُشبه والدك تماماً – أم لعلّكِ لم تلاحظي هذا».

«لم ألاحظ ذلك. إنه لا يشبه *أبداً* والدي».

نخر بينيت: «هذه نكتة».

«اسمع – لم أُجادلك حول ما إذا كان يُشبه والدي أم لا، لكنَّ هذه المرة الأولى التي تُبدي فيها أي اهتمام بي أو تتصرّف كما لو أنك تكنّ

لي أي قدر من الحب. كان عليّ أنْ أنكح شخصاً ما أمام عينيك وإلا لما أوليتني أي اهتمام. وهذا أمر غريب حقاً، أليس كذلك؟ ألا تُخبرك نظريتك في التحليل النفسي أي شيء عن هذا؟ لعلك أنت الذي يُعاني من عقدة أوديب هذه المرة. ربما أنا أمثّل أمك وأدريان يشبه أباك. لِمَ لا نجلس جميعاً ونناقش الأمر معاً؟ في الواقع، أعتقد أنَّ أدريان يَعشقك *أنت*. وأنا مجرد وسيط بينكما. إنه في الحقيقة يُريدك أنت».

«لا يُدهشني هذا البتّة. لقد أخبرتكِ بأنه شاذ».

«لِمَ لا نتضاجع نحن الثلاثة ونكتشف الأمر؟».

«كَلا، شكراً. ولكن لن أُعيقك إنْ كان هذا ما تريدين».

«لا أريد».

صرخ بينيت بشغف لم أشهده منه من قبل، «هيا، ارحلي معه! لن تقومي بأي عملٍ حقيقي بعد ذلك. أنا الشخص الوحيد في حياتك الذي أبقاكما معاً طوال تلك المدة - ولكن هيا ارحلي! سوف ترهقين نفسك تماماً ولن تتمكني من إنجاز شيء مشابه».

سألني أدريان: «كيف تتوقعين أنْ تحصلي على أية مادة مُثيرة للاهتمام تكتبين عنها إنْ كنت تخافين الخوض في تجارب جديدة؟».

وكنتُ قد أخبرته تواً بأنني لن أرحل معه وقرّرت بدل ذلك أنْ أعود إلى الوطن مع بينيت. كنا جالسَين في سيارة أدريان، المتوقفة في شارع خلفيّ بالقرب من الجامعة. (كان بينيت يحضر لقاءً حول «العدوان ضمن جماعات كبرى»).

«إنني أخوض تجارب جديدة طوال الوقت. وهذه هي المشكلة».

«هـراء. أنـتِ أميرة صغيرة مُقدّسة. إنني أعرض عليك تجربة يمكنها أنْ تغيِّركِ حقاً، تجربة يمكنكِ أنْ تكتبي عنها شيئاً حقيقياً، وأنتِ تهربين. عائدة إلى بينيت ونيويورك. إلى وِجار الزوجية الصغير

الآمن. *يا إلهي* - كم أنا سعيد لأنني لم أعد متزوجاً إنْ كان هذا هو المآل. حسبتُ أنكِ شجاعة أكثر من هذا. إنني بعد أنْ قرأتُ قصائدك «الحسيّة والجنسية» كلها - بين قوسَين - كوّنتُ عنكِ فكرة أفضل من هذه»، ورماني بنظرة اشمئزاز.

قلت مُبرِّرة: «إذا أمضيتُ وقتي *كله* في *حياة* حسّية وجنسية، فسوف أُصبح من فرط التعب بحيث لا أتمكن من الكتابة عنها».

قال: «أنت مزيَّفة، زيفاً كاملاً. ولن تحصلي على أية مادة تستحق الكتابة عنها إذا لم تنضجي. إنَّ الشجاعة هي المبدأ الأول. وأنت لست أكثر من رعديدة».

«لا تتنمَّر عليّ».

«مَنْ الذي يتنمَّر عليك؟ إنني فقط أتكلَّم معك بصراحة. ولن تعرفي أي شيء عن الكتابة إذا لم تتعلّمي الشجاعة».

«وماذا *تعرف* أنت عنها؟».

«أعرف أني قرأتُ بعضاً من أعمالك ورأيتُ فيها نُتفاً وقطعاً من نفسك. وإذا لم تنتبهي، فسوف تُصبحين معبودة المُحبَطين بأنواعهم كافة. سوف يسقط مجانين العالم كلهم في فخك».

«لقد حدث هذا فعلاً بقدرٍ ما. إنَّ قصائدي هي أساس للصيد السمين بالنسبة إلى العقول التي فقدتْ توازنها». كنتُ أنتحل من جويس، لكنَّ أدريان لم يعلم بذلك، لأنه أُميّ. خلال الأشهر التي مرت منذ صدور كتابي الأول، تلقّيتُ الكثير من المكالمات الهاتفية الغريبة والرسائل من رجل ادّعى أنني قمتُ بكل ما كتبتُ عنه ونفّذته مع كل شخص، وفي كلّ مكان. وفجأةً، أصبحتُ ملكاً عاماً على مستوى صغير. كان شعوراً غريباً. وبمعنى من المعاني، إنكِ تكتبين لكي تغوي العالم، ولكن عندما يحدث ذلك، تبدئين بالشعور كأنك عاهرة. يتّضح أنَّ التباين بين حياتك وعملك شاسع جداً. والأشخاص

الذين تأثروا بغواية أعمالك يحدث معهم ذلك عادة لأسباب خاطئة. أم هل هي الأسباب الصحيحة؟ أحقاً إنَّ في حوزة مجانين العالم كلهم رقم هاتفك؟ وأكثر من رقم هاتفك فقط.

قال أدريان: «حسبتُ أنَّ بيننا علاقة جيدة حقاً، لكنها انتهت الآن، لأنه ينتابك رعب شديد. لقد خاب أملي فيك حقاً... حسن، أعتقد أنها لن تكون المرة الأولى التي يخيب فيها أملي في امرأة. في ذلك اليوم الأول، عندما رأيتكِ تتشاجرين بشأن التسجيل، قلت في نفسي: إنَّ تلك حقاً امرأة رائعة – مُقاتلة حقيقية. *هذه* لا تتقبّل الحياة وهي جالسة. لكنني كنتُ مُخطئاً. أنتِ لستِ مُغامرة. أنتِ أميرة. سامحيني لأنني أحاول أنْ أُفسد عليك حياتكِ الزوجيةَ الحقيرةَ والآمنة»، وأدار مفتاح الإشعال وشغَّل السيارة كنوع من التأكيد.

«تباً لك، أدريان». كان جواباً ضعيفاً ولكن لم يخطر في بالي غيره.

«لا تلعنينني – اذهبي إلى الوطن والعني نفسك. عودي إلى كونك ربّة منزل بورجوازية حقيرة وآمنة تمارس الكتابة في وقت فراغها».

كان هذا أسوأ ما قاله.

قلت بشبه صُراخ: «وماذا تظن *أنتَ* نفسك – أيها الطبيب البورجوازي الحقير والآمن الذي يقوم بدور الوجودي في وقت فراغه؟».

«هيا اصرخي، يا حبيبتي، إنَّ هذا لا يزعجني *البتة*. أنا لستُ مُضطراً إلى تبرير حياتي *أمامك*. أنا أعرف ماذا أفعل. أنت شديدة التردّد وعاجزة عن تقرير ما إنْ كنتِ إيزادورا دنكن، أم زيلدا فيتزجيرالد، أم مارجوري مورننغستار[٤]». وزاد السرعة بصورة استعراضية.

---

٤ – مارجوري مورننغستار: اسم لفيلم سينمائي ورواية يحملان هذا الاسم. الفيلم من إنتاج عام ١٩٥٨ وكان من بطولة جين كيلي وناتالي وود، ويحكي قصة حياة فتاة يهودية ترغب في أنْ تُصبح ممثلة في خمسينيات القرن الماضي. والرواية صدرت عام ١٩٥٥ من تأليف هرمن ووك Wouk. – المترجم

قلت: «خذني إلى المنزل».

«بكل سرور، فقط إذا أخبرتني أين يقع **ذلك** المنزل».

جلسنا بعض الوقت دون كلام. بقيَ أدريان ينطلق بسرعة عالية ولم يقُم بأية حركة للتخفيف منها، واكتفيت بالجلوس في صمت وأنا مُمزّقة بين شيطانيَّ التوأم. هل سأبقى ربة المنزل التي تمارس الكتابة في وقت فراغها؟ أهذا هو قَدَري؟ هل سأبقى أمرّ بالمغامرات التي تُقدِّم إليّ مرور الكرام؟ هل سأواصل عيش حياتي ككذبة؟ أم سأمزج بين تخيلاتي وحياتي ولو لمرة واحدة؟

سألته: «ماذا لو غيّرت رأيي؟».

«لقد فات الأوان. لقد أفسدت الأمر. لن يعود الوضع كما كان. لم أعُد أعلم الآن إنْ كنتُ أريد أنْ أستعيدك، بصراحة شديدة».

«أنت حقاً رجل صارم، أليس كذلك؟ تكفي لحظة واحدة من التردّد حتى تجعلك تتخلّى عني. إنكَ تتوقّع مني أنْ أتخلّى عن كل شيء - حياتي، وزوجي، وعملي - دون لحظة تردُّد وأتبعك هكذا ببساطة عبر أوروبا انسجاماً مع فكرة لينغ الفجّة عن التجربة والمغامرة. لو أنك على الأقلّ أحببتني».

«لا تُدخلي الحب في الأمر وتلوثي كل شيء. هذا تهرّب من المسؤولية. ما دخل الحب في هذا؟».

«كل شيء».

«هـراء. أنـت تقولين **الحب** - لكنك تعنين **الأمـان**. حسن، لا وجود لما يُسمّى بالأمان. حتى إذا ذهبت إلى الوطن إلى زوجك الحقير الآمن - لا شيء يضمن أنه لن يقع ميتاً متأثراً بنوبة قلبية غداً أو يهرب مع فتاة أخرى أو ببساطة يكفّ عن حبك. ألا تستطيعين أن تقرئي المستقبل؟ ألا تتكهنين بالمصير؟ ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد

بأنَّ الأمان مأمون جداً؟ إنَّ كل ما هو مؤكَّد هو أنكِ تخوضين هذه التجربة، ولن تحصلي على فرصة أخرى للحصول عليها. إنَّ الموت حتميّ، كما قلتِ بالأمس».

«اعتقدتُ أنك لم تسمع».

«هذا كل ما تعرفين»، وحدَّقَ إلى المقود.

«أنت مُحقّ يا أدريان بشأن كلِ شيء ما عدا الحب. إنَّ الحب أمرٌ هامّ. أمرٌ هامّ أنَّ بينيت يُحبني وأنكَ لا تحبني».

«وأنتِ مَن تُحبين؟ هل حدثَ مرة أنْ فكرتِ في هذا؟ أم إنَّ الأمر كله يتعلّق بمَن تستطيعين أنْ تستغلي وتتلاعبي؟ هل الأمر كله يتعلق بمَن يُعطيكِ أكثر؟ هل الأمر كله يتعلّق، بالمطلق، بالمال؟».

«هذا هراء».

«أهو كذلك الآن؟ أحياناً أعتقد أنَّ كل ما في الأمر أنكِ تعلمين أني فقير، وأني أريد أنْ أؤلف كتباً ولا آبه بممارسة مهنة الطب - خِلاف أصدقائك الأطباء الأميركيين الأثرياء».

«على العكس، إنَّ فقرك يجد هوى عند نقيض عنجهيتي. أنا أحب فقرك. ثم، إنْ كان نجاحك يُعادل نجاح روني لينغ فلن تكون فقيراً. سوف تُنجز الكثير، يا عزيزي. المُضطربون عقلياً دائماً يفعلون».

«الآن أصبحت كأنكِ تتكلمين بلسان بينيت».

«نحن *متفقان* على أنكَ مُضطرب عقلياً».

«نحن، نحن، نحن - دائماً الافتتاحية المعتدة بنفسها «نحن». يا إلهي - يبدو أنَّ من الممتع والأليف أنْ يعيش المرء حياة زوجية مملّة ويبدأ حديثه بكلمة نحن. ولكن هل لهذا صلة بالفن؟ أليست تلك الألفة كلها مُفسِدة؟ ألم يحُن الوقت لتغيّري حياتك؟».

«ما أنت إلا - إياغو[٥]. أو الأفعى في جنّة عدن».

«إنْ كان ما لديك هو الجنّة - أشكر الله على أنني لم أخُض التجربة».

«يجب أنْ أعود».

«إلى أين؟».

«إلى الجنّة، إلى ضجري الزيجي الحقير والأليف، إلى كلمتي الافتتاحية نحن، إلى سُخفي. أنا في حاجة إليه كحاجتي إلى مُخدِّر».

«كحاجتكِ إليّ كمُخدِّر عندما ينالك الضجر من بينيت».

«اسمع - أنت قُلتها - انتهينا».

«وهو كذلك».

«حسن، إذن أعدني إلى الفندق. سيعود بينيت قريباً. لا أريد أنْ أتأخر من جديد. لَقد كان يستمع إلى أطروحة حول «العدوانية في التجمعات الكبرى». قد تزوّده ببعض الأفكار».

«نحن جماعة صغيرة».

«صحيح، ولكن مَن يدري».

«إنكِ تودّين حقاً أنْ يضربك ضرباً مُبرّحاً - أليس كذلك؟ عندئذٍ تشعرين بأنكِ حقاً شهيدة».

«ربما»، كنتُ أُحاكي هدوء أعصاب بينيت. كان ذلك يُثير حنقه.

«اسمعي - يمكننا أنْ نقوم بعمل جماعي - أنتِ وأنا وبينيت. يمكننا أنْ نجتاز القارة a trois (نحن الثلاثة)».

«لا اعتراض لديّ، ولكن عليك أنْ تُقنعه. ولن يكون هذا سهلاً. إنه

٥ - إياغو الذي يوسوس في أُذن عُطيل ليُثير شكّه في ديدمونة في مسرحية شكسبير. - المترجم

مجرد طبيب بورجوازي متزوج من ربة منزل صغيرة تؤلف الكتب في وقت فراغها. إنه لا يتذبذب - كما تفعل. والآن أوصلني إلى المنزل من فضلك».

شغّل السيارة برصانة هذه المرة وانطلق. وباشرنا أسلوبنا المعتاد في الالتواء خلال الشوارع الخلفية لفيينا، ونتوه عند كل منعطف.

بعد مرور عشر دقائق على ذلك رحنا نضحك من جديد بروح عالية. ولم يفشل حمقنا المشترك من الاستمتاع بوقتنا. وطبعاً، ما كان يمكن لهذا أنْ يستمر، لكنه كان شيئاً مُسكراً في حينه. أوقف أدريان السيارة ومال عليّ ليُقبّلني. قال: «دعينا لا نعود - دعينا نقضي الليل معاً».

تساءلت في نفسي. مَنْ أنا - ربّة منزل مقدّسة؟

قلت: «حسن» (وندمتُ فوراً على ما قلت). ولكن على أية حال، ما أهميّة ليلة واحدة؟ لقد كنتُ عائدة إلى نيويورك مع بينيت.

الأمسية التي تلت كانت ليلة أخرى من الضباب الحالم. باشرنا الشرب في مقهى العمال قبالة رينغستراس، وتبادلنا القُبل بين جرعات البيرة، ومرّرنا البيرة من فمه إلى فمي، ومن فمي إلى فمه، وأصغينا بانتباه إلى امرأة عجوز تنتقد بقسوة الإنفاق على برنامج الفضاء الأميركي، وكيف أنَّ عليهم أنْ يُنفقوا ذلك المال على الأرض (من أجل بناء محرقة للموتى؟) بدل تبديده على القمر، ثم أكلنا (وتبادلنا القُبل في أثناء تناول العشاء) في حديقة خارجية في مطعم، وأطعم كلّ منا الآخر زلابية الكبد ورقائق الخبز الأسود بلُقم نهمة، ثم قفلنا عائدَين ونحن سكارى إلى دار أدريان حيث مارسنا الجنس بكفاءة للمرة الأولى.

قال أثناء نكاحه لي: «أعتقد أنني كنت سأحبك لو أنني أؤمن بالحب».

عند منتصف الليل، تذكّرتُ فجأةً بينيت الذي ينتظرني منذ ست ساعات في الفندق، فغادرت السرير، وهبطتُ إلى الطابق السفلي إلى جهاز الهاتف الذي يعمل بوضع نقود، واقترضتُ شلنين من البوّاب الناعس واتصلتُ به. كان في الخارج. فتركتُ له رسالة قاسية أقول فيها: «أراك في الصباح»، ثم جعلتُ العامل على لوحة مفاتيح الهاتف يُسجل رقمِ هاتفي وعنواني. ثم عدتُ أدراجي إلى السرير حيث كان أدريان يغطّ كخنزير.

بقيت على مدى ما يُقارب الساعة مستلقية مبتسمة، أُصغي إلى غطيط أدريان، كارهة نفسي بسبب خيانتي، وعاجزة عن الاسترخاء حتى أنام. وعند الساعة الواحدة صباحاً فُتحَ الباب ودخل بينيت فجأةً. ومنذ نظرتي الأولى إليه عرفت أنه ينوي أنْ يقتلنا معاً. وفي قرارة نفسي، كنتُ سعيدة - كنتُ أستحق أنْ أُقتَل. وأدريان أيضاً.

بدل ذلك خلع بينيت ملابسه وأخذ ينكحني بعنف هناك على السرير الضيّق المُجاور لسرير أدريان. وفي أثناء ذلك العمل الغريب، استيقظ أدريان وراح يُراقبنا، وعيناه تلمعان كمُشجع للملاكمة يشاهد مباراة تتّسم بساديّة شديدة. وبعد أنْ قذف بينيت وكان يعتليني ليلتقط أنفاسه، مَال أدريان وأخذ يُداعب ظهره. لم يُبدِ بينيت أي اعتراض. وأخيراً استغرقنا نحن الثلاثة في النوم متعانقين ونتصبّب بالعرق.

لقد رويت هذه الأحداث بأشدّ ما يمكن من البساطة، لأنَّ لا شيء مما يمكن أنْ أقول لأزخرفها يمكن أنْ يجعلها صاعقة أكثر. إنَّ الحادث كله كان يعصى على الوصف - كأنَّ ثلاثتنا كنا نقوم بعرض إيمائي وكلٍ منا تدرّب على أداء دوره على مدى سنوات عديدة حتى أصبح جزءاً من طبيعته. كنا فقط نقوم بعمل سبق أنْ قمنا به مرات عديدة في تخيلاتنا. الحادث كله - بدءاً بترك العنوان عند عامل الهاتف وحتى مُداعبة أدريان لظهر بينيت الأسمر الجميل - كان محتوماً كمأساة

إغريقيّة – كعرض للعرائس. إنني أتذكّر تفاصيل معيّنة: غطيط أدريان الصافر، والنظرة الحانقة على وجه بينيت عندما ولج الغرفة (وأيضاً، بتسلسُل سريع، ولجني)، وكيف نمنا نحن الثلاثة متعانقين، والبعوضة الكبيرة التي تغذّت من دمنا المشترك وكانت توقظني بعضّاتها. وفي غسق الصباح الباكر الأزرق، استيقظتُ لأجد أنني تقلّبتُ وسحقتها في أثناء الليل. وتركت بقعة من الدم على الغطاء، كلطخة من دم الطمث لامرأة ضئيلة الحجم.

في الصباح أنكرَ كلّ منا الآخر. لم يحدث شيء. كان حُلماً. هبطنا الدرج الباروكي للدار وكأننا نزلاء منفصلين تقابلنا للمرة الأولى على الدرج الملتوي.

في قاعة الطابق السفلي كان هناك خمسة من المُرشحين الإنكليز والفرنسيين يتناولون طعام الإفطار. التفتوا نحونا كأنما بحركة واحدة. حيّتهم بمودّة زائدة – خاصة روبن فينكل، المُرشّح الإنكليزي ذو الشعر الأحمر والشارب ويتكلّم بلكنة متعجرفة فظيعة. وكان قد فاجأنا أنا وأدريان مرات عديدة عند برك السباحة والمقاهي بنظرته الخبيثة كنظرة همبرت همبرت[٦]؛ وغالباً ما اعتقدتُ أنه كان يُلاحقنا بمنظاره المُكبِّر.

قلت: «مرحبا، روبن». انضم أدريان إلى إلقاء التحية، أما بينيت فلم يتفوّه بكلمة. استمر في السير وكأنه في حالة نشوة. ولحق أدريان به. وتبدّى لي للحظة أنّه ربما ما حدث بين الرجلين في أثناء الليل كان شيئاً أكثر، ولكن سرعان ما طرحت الفكرة من رأسي. لماذا؟

عرضَ علينا أدريان أنْ يُعيدنا إلى الفندق بسيارته. فرفض بينيت

---

٦ – همبرت همبرت: شخصية الراوي في رواية «لوليتا» لفلاديمير نابوكوف، وهي شخصية ممسوسة بالفتيات المراهقات. – المترجم

بجفاف. ولكن عندما عجزنا عن العثور على سيارة أجرة، استسلم بينيت أخيراً - حتى من دون أية كلمة لطيفة أو إيماء من الرأس نحو أدريان. هزّ أدريان كتفيه استخفافاً وجلس أمام المقود. التففتُ حول نفسي في المقعد الخلفي الصغير الحجم. في هذه المرة دلّنا بينيت على الطريق ولم نتُه. ولكن طوال الطريق كان الصمت الرهيب يرين علينا، فيما عدا التوجيهات التي كان بينيت يُقدمها. ورغبت في الكلام. لقد جمعنا أمرٌ هامّ ولا فائدة من التظاهر بأنه لم يحدث. وقد يكون بداية لنوع من التفاهم بيننا، ولكن بدل ذلك بقيَ بينيت مُصمماً على إنكاره. وحتى أدريان لم يكن ذا عون في هذا المجال. كان كلامهما عن التحليل النفسي وانتقاد الذات كله محض هراء. فعندما واجها حادثة واقعية في حياتهما، لم يتمكنا حتى من مناقشتها. من الجيد أنْ يكون المرء بصاصاً مُحللاً ويتقصّى أشواق شخص آخر الجنسية الشاذة، وعلاقاته المنحرفة الثلاثية، وممارسته الزنا، ولكن عندما يواجه نفسه، لا يتفوه بأية كلمة. كانا يتواجهان مباشرة كتوأم سيامي مُتصّل عند نقطة حرجة وغير مرئية على جانب العنق. كانا أخوين بالدم. وأنا الأخت التي أفسدتهما. المرأة التي تسبّبت في سقوطهما. أنا باندورا مع صندوقها الشرير.

(٩)

صندوق باندورا أو أُمَّاي

المرأة سرّ أمها.

هذه هي الحقيقة الأساسية.

• آن سكستون[١]

طبعاً بدأ الأمر كله مع أمي. أمي: جوديث شتولوف وايت، ومعروفة أيضاً باسم جود. ولكنها ليست غامضة[٢]. ولكن من الصعب وصفها على الورق. كان حبي لها وكرهي لها متضافرين بصورة شديدة الإرباك حتى يكاد يصعب عليّ أنْ *أراها*. إنني لم أتوصّل أبداً إلى تبيُّن ملامحها. هي أنا وأنا هي وكلانا معاً[٣]. والحبل السرّي الذي يربطنا معاً لم يُقطع أبداً فبلِيَ وتعفّنَ واستحال أسود اللون. وحاجتنا الماسّة بحدّ ذاتها هي التي جعلت كلاً منا تستنكر الأخرى. كلّ منا أرادت أنْ تلتهم الأخرى.

١ - آن سكستون (١٩٢٨ - ١٩٧٤): شاعرة أميركية. معروفة بشعرها الشخصيّ والاعترافيّ. نالت في عام ١٩٦٧ جائزة بوليتزر للشعر. يدور شعرها في مُعظمه حول صراعها مع الكآبة والجنون وميلها إلى الانتحار، إلى جانب تفاصيل من حياتها العائلية. - المترجم

٢ - هنا إشارة إلى عنوان رواية توماس هاردي «جود الغامض». - المترجم

٣ - قالت هذه الجملة على طريقة البيتلز في أغنية «I am the Walrus» - المترجم

وكلّ منا أرادت أن تخنق الأخرى بالحب. وكلّ منا رغبت في أنْ تصرخ مُبتعدة عن الأخرى رعباً قبل أنْ يحدث أيٌّ من هذه الأشياء.

عندما أفكّر في أمي أحسد ألكسندر بورتنوي[٤]. ليت كان لديّ أماً يهودية حقيقية - يمكن تصنيفها وحفظها - كملكية أدبية حقيقية. (إنني دائماً أحسد الكُتّاب وأقرباءهم: نابوكوف ولويل وتوتشي بخزائنهم المملوءة بالأسرار الأرستوقراطية الأنيقة، وروث وبيلو وفريدمان بآبائهم العجائز، دبقين كنبيذ عيد الفصح، لزجين كحساء خبز الفصح).

كانت أمي تفوح برائحة عطر «جوي» أو«ديوريسمو»، ولم تكن تطبخ كثيراً. وعندما أحاول أنْ أجمع الأساسيات القليلة التي علمتني عن الحياة، لا أجد إلا:

١ - قبل كل شيء، إياكِ أنْ تكوني عادية.

٢ - إنَّ العالمَ مكان للافتراس: فعجّلي بالأكل!

كانت كلمة «عادي» أسوأ إهانة يمكن أنْ يوصف بها أي شيء. وأذكر كيف كانت تأخذني للتسوّق ونظرة الامتعاض التي ترمي بها البائعات في ساكس عندما كنّ يقترحن عليها شراء ثوب أو حذاء قائلات: «إنه رائج جداً - لقد بعنا منه في هذا الأسبوع خمسين» وكان يكفي أنْ تسمع هذا.

فتقول: «كلا، لسنا مهتمات بهذا. أليس لديكم شيء أشدّ غرابة بقليل؟»، ومن ثم تُخرِج البائعة كل الألوان الغريبة التي لا يقبل أحد أنْ يشتريها - أشياء لا تشتريها إلا أمي. ولاحقاً ينشب بيننا شجار هائل

---

٤ - ألكسندر بورتنوي: عنوان الرواية التي جعلت من مؤلفها، فيليب روث، كاتباً كبيراً لدى صدورها عام ١٩٦٩، وأثارت جدلاً واسعاً بسبب ما ورد فيها من تفاصيل جنسية. وفي الرواية يتعلّق البطل المراهق بأمه. - المترجم

لانني كنتُ أتوق إلى أنْ أكون عادية بقدر ما كانت أمي تتوق إلى أنْ تكون غريبة.

«إنني لا *أطيق* تسريحة الشعر هذه» (هذا ما قالت عندما ذهبت إلى مُصفف الشعر مع بيا وعدتُ مع تسريحة الشعر القصير المأخوذة مباشرة من مجلة «سفنْتين»)، «إنها عادية جداً». ليست قبيحة. ليست غير لائقة. بل *عادية*. كانت صفة العاديّة هي الوباء الذي يجب أنْ تدفعيه عنك بكل وسيلة ممكنة. تكافحينه بتكرار تغيير الزينة. في الحقيقة لقد اعتقدتْ أمي أنَّ مُهندسي الديكور كلهم (بالإضافة إلى مُصممي الأزياء والإكسسوار) في أميركا قد انتظموا في حلقة جاسوسية هدفها معرفة آخر ابتكاراتها في تصميم الديكور والملابس ومن ثم فجأةً يجعلونها رائجة. وصحيح أنها كانت تتمتع بحس ممتاز بالأزياء القادمة (أم إنَّ هذا فقط وليد مُخيّلتي، لأنَّ جاذبيتها كانت دائماً تخدعني؟). لقد زيَّنت المنزل بذهب عتيق قبل أنْ يُصبح الذهب العتيق أشد الألوان رواجاً للأثاث والسجاد والتنجيد. ومن ثم تصرخ قائلة إنَّ الجميع «سرقوا» أفكارها. وركّبت البورسلين الإسباني في الردهة قبل أنْ يُلفت أنظار «*اليِنتاس*[٥] في سنترال بارك ويست» - ثم نأت بنفسها بعناية عن الشركة التي تنتجه. وجلبت سجاداً من الفرو الأبيض إلى الوطن من اليونان قبل أنْ تستورده المخازن كلها. واكتشفت ثريات مرصّعة بأزهار من الحديد المشغول من أجل الحمّام قبل أنْ يفعل «مُصممو الديكور المخنثون» - كما كانت تصفهم باحتقار.

كانت لديها قوائم أسرّة ومظلات نوافذ من النحاس العتيق تتماشى مع ورق الجدران ووضعت مناشف وردية وحمراء في الحمامات في وقت كان اللونان الوردي والأحمر لا يزالان يُعتبران مزيجاً طليعياً.

٥ - يِنتاس: كلمة باللغة اليِديّة، وتعني النساء الفضوليات والثرثارات. - المترجم

وقد تجلّى خوفها من العادي بصورة أقوى في ملابسها. وعندما أصبحنا نحن الأربعة أكبر في السن، أصبحت هي وأبي يسافران كثيراً بداعي العمل، وكانت تنتقي إكسسوارات غريبة الشكل من كل مكان. ارتدت البيجاما الحرير الصينية لكي ترتاد المسرح، ووضعت خواتم من بالي في أصابع قدميها اللتين تنتعلان الصندل، ووضعت في أذنيها قرطاً على شكل بوذا صغير من حجر اليشب. وكانت تحمل مظلة من ورق الأرز المزيّت في المطر وترتدي بنطلون مُصارع ثيران مصنوعاً من النسيج المُطرَّز المصنوع يدوياً. وخلال فترة مراهقتي أدركتُ أنها تفضّل أنْ تكون غريبة الأطوار وقبيحة على أنْ تكون عادية وجميلة. وغالباً ما نجحت في ذلك. كانت امرأة ممشوقة القامة، نحيلة، ذات وجنتين عاليتين وشعر طويل وأحمر، وكانت ملابسها الغريبة ومساحيق التجميل المفرطة التي تضع تُضفي عليها أحياناً مظهر تشارلز أدامس[٦]. وطبعاً، اشتقتُ إلى أمي ذات الشعر المصبوغ باللون الأشقر والمعطف الفرو التي تلعب البريدج، أو على الأقلّ إلى أم من هيئة التدريس سمراء قصيرة وبدينة تضع نظارات مضحكة وتنتعل حذاء الصليب الأحمر.

ناشدتها عندما ارتدت من أجل حضور يوم الآباء بنطلون مصارع الثيران المزخرف بالرسوم وسترة بوتشي من الحرير الوردي ووشاحاً مكسيكياً رجالياً، «أرجوك، ألا يمكن أنْ ترتدي شيئاً آخر؟». (لا بد أنَّ ذاكرتي تُغالي - لكنك أخذتَ الفكرة العامة). كنتُ في الصف السابع، وفي ذروة ولعي بالأشياء العادية.

«ما خطب ما أرتدي؟».

---

٦ - تشارلز أدامس (١٩١٢ - ١٩٨٨): رسّام للصور المتحركة اميركي. مُبتكر شخصيات **«عائلة أدامس»**. كان دائماً يظهر أنيق الملبس وصقيل الشعر وشديد التهذيب، على عكس شخصياته الكرتونية الشيطانية. - المترجم

بل ما الذي ليس خطأً فيه! انكمشتُ متراجعة داخل خزانة ملابسها الفسيحة، أبحث عبثاً عن شيء عاديّ. (مئزر! رداء للمنزل! مجموعة من السترات من وبر الحيوان! شيء يُناسب إماً تظهر في إعلان عن وجبات بيتي كروكر، أو عن أم تقليدية). كانت الخزانة تفوح برائحة كريهة من مزيج عطر «جوي» وكرات العث. كانت هناك بعض أرواب المخمل وأوشحة طويلة من الزغب وبنطلونات سويدية فضفاضة وقفاطين من قطن الأزتك وكيمونو ياباني في الحرير وسروال نسائي قصير من الجوخ، ولكن لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق يفوق مجموعة سترات وبر الحيوان.

قلت بخجل: «كل ما في الأمر أنني أتمنى أنْ ترتدي شيئاً أكثر بساطة، شيئاً لا يُحدّق الناس إليه».

احتقن وجهها ونهضت واقفة على امتداد طولها البالغ خمس أقدام وعشر بوصات.

«أتشعرين بالخجل من أمك؟ لأنك إنْ كنت كذلك، يا إيزادورا، فأنا أرثي لحالك. أرثي حقاً. لا شيء جيد في كون المرء *عادياً*. إنّ الناس لا يحترمونك من أجل ذلك. في نهاية المطاف، الناس *يلهثون* وراء المختلفين، الواثقين من ذائقتهم *الخاصة*. لا فائدة من الاستسلام لضغوط السوقيّة الجماعية...». وغادرنا إلى المدرسة بسيارة أجرة تُخلّف وراءها هبّات من عطر «جوي»، وشراشيب الوشاح المكسيكي ترفرف، مجازياً، في وجه الريح.

عندما أفكر في كل الطاقة، في كل تلك العدوانية الفنية التي وُضِعت في غير موضعها ووجّهتها أمي نحو ولعها بالملابس الغريبة ومشاريع تصميم الديكور الجديدة، أتمنى لو أنها بدل ذلك كانت فنانة ناجحة. لقد مررنا بثلاثة أجيال من الفنانين المُحبَطين: جدي الذي كان يسبّ

الموديلات ويلعن بيكاسو ويرسم بعناد بأسلوب رامبرانت، وأمي التي تخلّت عن الشعر والرسم من أجل الملابس الغربية وإعادة التنجيد الإلزامي، وأختي راندي التي تعتبر الحبَل فناً جديداً اخترعته (واقتفت لالا وكلوي خطاها كالتلاميذ).

لا شيء أشدّ شراسة من فنان فاشل. إنَّ الطاقة تبقى، ولكن، لأنها لا تجد منفذاً، تنفجر داخلياً على هيئة نوبة ضخمة سوداء من الغضب تلوث نوافذ الروح الداخلية كلها. غالباً ما يكون الفنانون الناجحون رهيبين، ولا شيء أشد قسوة أو تفاهة من فنان فاشل. وكما قلت، كان جدّي يرسم فوق لوحات أمي بدل أنْ يخرج ويشتري قماشاً جديداً للرسم. وقد تحولتْ إلى الشعر لفترة من الوقت، لتهرب منه، لكنها قابلت والدي الذي كان مؤلِف أغاني وسرقَ صورها الشعرية ليستخدمها في كلمات أغانيه. الفنانون فظيعون. «إياكِ، ثم إياكِ أنْ تتورطي في علاقة مع رجل يريد أنْ يُصبح فناناً»، هذا ما كانت أمي تقول، وهي تعلم.

معلومة أخرى مُثيرة للاهتمام هي أنَّ أمي وجدّي كليهما لديهما طريقة خاصة في الاستخفاف بجهود كل مَنْ يبدو أنه يستمتع بالعمل على شيء أو حقّق فيه قدراً من النجاح. هناك، مثلاً، روائي يتراوح بين العادي والجيد (لن أذكر اسمه) كان صديقاً لوالديّ. كان قد ألّف أربع روايات، لا تتمتع أي منها بأسلوب متميّز، ولا حققت أي منها رواجاً، ولا فازت بأية جائزة، ومع ذلك يبدو راضياً تماماً عن نفسه ويستمتع بمكانة الحكيم المُقيم في حفلات الكوكتيل والكاتب المقيم في مدرسة للفتية في نيوجرسي لا يحضرني اسمها. لعله حقاً يستمتع بالكتابة. هكذا حال بعض الأشخاص الغريبيّ الأطوار.

وتقول أمي: «لا أعلم كيف يواظب على إنتاجها. إنه مجرد كاتب عادي. إنه غبي، وأحمق...» (إنَّ أمي لا تُطلق على الناس لقب «ذكي»!

وعبارة «ليس غبياً» هي أبعد ما تصل إليه)، «... لكنَّ كتبه **عادية** جداً.... ولم تُحقق أي منها ربحاً مادياً حقيقياً حتى الآن...».

وهنا تكمن المشكلة! ذلك أنَّه في حين أنَّ أمي تدَّعي احترامها للأصالة قبل أي شيء، فإنَّ ما تحترمه حقاً هو المال والجوائز. وزيادة على ذلك، تتضمَّن تعليقاتها عن الفنانين الآخرين إشارة إلى أنه لا معنى على الإطلاق لدأبهم لمجرد حصولهم على العائد الضئيل الذي ينالون. فلو أنَّ صديقها الروائي فاز بجائزة بوليتزر أو NBA - أو باع كتاباً ليتحول إلى فيلم سينمائيّ - فذلك شيء عظيم. وطبعاً، كانت تستخفّ بهذا، أيضاً. لكنَّ الاحترام سيعلو تعبير وجهها كله. ومن ناحية أخرى، إنَّ *أداء* العمل بتواضع لا يعني لها أي شيء، أي المكتشفات الداخلية، ومتعة العمل. لا شيء. ومع موقف كهذا، لا غرابة في أنها تحولت إلى الاهتمام بالتنجيد.

بخصوص اهتمامها بالسلب. أعتقد أنها بدأت مع الرابطة الشيوعية لطلاب الفنون في بروفنستاون العادية في تلك الأيام، ولكن بالتدريج، ومع تغلّب البحبوحة وتصلُّب الشرايين عليها (يأتيان معاً، في الغالب)، تحولت إلى مفهومها الخاص عن الدين المؤلَّف من جُزأين من روبرت أردري[٧] وجزء من كونراد لورينتز[٨].

٧- روبرت أردري (١٩٠٨ - ١٩٨٠): كاتب مسرحي وكاتب سيناريوهات سينمائية أميركي. تحول في خمسينيات القرن الماضي إلى التدريب الأكاديمي في علم الإنسان. أثّرت أفكاره على مخرجين بارزين مثل آرثر سي كلارك وستانلي كوبريك في أفلام مثل «**٢٠٠١: أوديسا الفضاء**». - المترجم

٨- كونراد زكريا لورينتز (١٩٠٣ - ١٩٨٩): عالِم في علم الحيوان، وعِلم سلوك الحيوان (إيثولوجي)، وعِلم دراسة الطيور. في عام ١٩٧٣ نال جائزة نوبل مشاركة مع نيكولاوس تنبرغن وكارل فون فريش. من مؤلفاته «**خاتم الملك سليمان**» و«**في العدوان**» و«**عندما يقابل الإنسان الكلب**». - المترجم

لا أعتقد أنّ أياً من أردري أو لورينتز كان يقصد ما استخلصتُ باسميهما: نوعاً من فلسفة هوبس[٩] الجديدة تبرهن فيها على أنّ الحياة قذرة، وخسيسة، ووحشية، وقصيرة؛ أنّ الرغبة في المنصب المرموق والمال والسلطة هي نزعة عالمية؛ أنّ النزعة الإقليمية غريزية؛ وبالتالي، الأنانيّة هي قانون الحياة الأساسي. ((«لا تحوّري ما أقول، يا إيزادورا، حتى ما يُسميه الناس الإيثار ما هو إلا تسمية أخرى للأنانية»)).

السبب الذي جعل هذا كله يسدّ أي سبيل للتعبير الإبداعي والمتمرّد بالنسبة إليّ واضح:

١ – لم أتمكن من أنْ أُصبح هيبيّة لأنّ أمي كانت أصلاً ترتدي ملابس الهيبيين (في الوقت الذي كانت تؤمن بالإقليمية وبعالمية الحرب).

٢ – لم أتمكن من التمرّد على اليهودية لأنه لم يكن لديّ أحد أتمرّد عليه.

٣ – لم أستطع أنْ أشجب أمي اليهودية لأنّ المشكلة كانت أعمق من الصفة اليهودية أو الأمهات.

٤ – لم أستطع أنْ أصبح فنانة خشية أنْ يأتي أحد ويرسم فوق لوحاتي.

٥ – لم أستطع أنْ أصبح شاعرة خشية أنْ أُلغى.

٦ – لم أستطع أنْ أصبح أي شيء آخر لأنّ ذلك أمرٌ عادي.

٧ – لم أستطع أنْ أكون شيوعية بسبب وجود أمي.

٨ – لم أستطع أنْ أكون متمردة (أو، على الأقل، منبوذة) بزواجي

---

٩ – توماس هوبس (١٥٨٨ – ١٦٧٩) فيلسوف سياسي إنكليزي، دافع عن السلطة السياسية المُطلقة. – المترجم

من بينيت لأنَّ أمي كانت ستعتقد أنَّ ذلك «على أية حال، *ليس* عادياً».

ماذا تبقّى من احتمالات مفتوحة أمامي؟ في أية زاوية ضيّقة كان في استطاعتي أنْ أنجز ما أسميته بكل وقاحة حياتي؟ لقد شعرت كأنني أحد الأطفال الذين يُدخن آباؤهم الحشيش فيُصبحون كتلاً من الغضب. ربما كان بإمكاني أنْ أنطلق في رحلة عبر أوروبا مع أدريان غودْلف، ولا أعود أبداً إلى بيتي في نيويورك.

ومع ذلك... لديّ أيضاً أمّ أخرى. إنها ممشوقة القامة ونحيلة، لكنَّ وجنتيها أشدّ نعومة من ذُرى شجر الصفصاف، وعندما أدفن أنفي في معطفها الفرو في طريقنا بالسيارة إلى المنزل، أشعر بأنه لا يمكن لأي أذى أنْ ينالني. إنها تعلّمني أسماء الأزهار، وتعانقني وتقبّلني بعد أنْ اختطفَ أحد المتنمرين في فناء الملعب (ابن طبيب نفسي) دراجتي الهوائية الإنكليزية الجديدة واندفع بها أسفل التل نحو سياج الملعب. وتظل مستيقظة طوال الليل معي تُصغي إلى مواضيع الإنشاء التي كتبت من أجل المدرسة وتعتقد أنني أعظم كاتبة في التاريخ حتى وإنْ كنتُ لم أتجاوز الثامنة من العمر. وتضحك على نكاتي وكأنني ميلتون برل[١٠] وغروشو ماركس وإروين كوري[١١] مجتمعون معاً. كانت ترافقني وراندي ولالا وكلوي للتزلج على الجليد في بحيرة سنترال بارك مع عشرة من أصدقائنا، وبينما الأمهات الأخريات كلهن جالسات في منازلهن ويلعبن البريدج ويرسلن الخادمات لرعاية أطفالهن، كانت تربط لنا أحذية التزلج (بأصابع متجمدة) ومن ثم تنتعل حذاءها الخاص وتنساب متزلجة فوق سطح البحيرة معنا، مُشيرة إلى النقاط الخطرة

١٠ - ميلتون برل (١٩٠٨ - ٢٠٠٢): ممثل كوميدي اميركي يهودي. كان أول نجم تلفزيوني أميركي كبير. - المترجم

١١ - إروين كوري «البروفسور» (ولد عام ١٩١٤): ممثل كوميدي وناشط اميركي يهودي. - المترجم

(طبقات الجليد الرقيقة)، وتعلمنا كيف نشكّل بالحركات رقم ثمانية، وتضحك وتتكلّم وتتوهج باللون الوردي من الذهب. كم أنا فخورة بها!

كنت أنا وراندي نتباهى أمام صديقاتنا بأنَّ أمي (بشعرها الطويل المنساب وعينيها الواسعتين البنيتين) صغيرة السن إلى درجة أنها ليست في حاجة إلى وضع مساحيق على وجهها. إنها ليست عجوزاً متزمتة كالأمهات الأخريات. إنها ترتدي سترة صوف بياقة عالية وبنطلون تزلج مثلنا. وتربط شعرها الطويل بشريط من المخمل مثلنا. ولا نخاطبها أبداً بأمي لأنها مسلّية جداً. إنها لا تشبه أي شخص آخر.

في عيد مولدي (٢٦ آذار، برج الحمل، طقوس الربيع)، استيقظت لأجد غرفة نومي وقد تحولتْ إلى تعريشة. حول سريري أصص أزهار النرجس البري، والسوسن وشقائق النعمان. وعلى الأرض أكوام من الهدايا، ملفوفة بأوراق الأزهار. وهناك بيض الفصح، الذي دهنته أمي بيدها وبدا أشبه ببيض فابيرجيه[١٢]. وهناك علب من الشوكولا وبيض الهلام (وتقول، وهي تعانقني: «مع تمنياتي بسنة عذبة»)، وهناك دائماً بطاقة تهنئة بعيد الميلاد عملاقة، رُسِمتْ بالألوان المائية عليها صورتي في أبهى حالاتي: أجمل فتاة صغيرة في العالم، بشعر طويل أشقر، وعينين زرقاوَين، وعلى ذراعيّ أكداس من الأزهار. إنَّ أمي تمدحني، وتمجّدني - أم إنها هكذا تراني حقاً؟ إنني مسرورة ومحتارة. أأنا حقاً أجمل فتاة في العالم؟ أم ماذا؟ فماذا عن أختيّ؟ وماذا عن الطريقة التي تصرخ بها في وجهي عالياً حتى يكاد السقف ينهار؟

إنَّ أمي لا تصرخ أبداً، وأنا أدين بكل ما أملك لها. في سن الثالثة

---

١٢ - بيتر كارل فابيرجيه (١٨٤٦ - ١٩٢٠): صائغ روسي. اشتهر لصناعته بيض الفصح الذهبي وزخارف أخرى من أجل العائلة المالكة في روسيا. - المترجم

عشرة تبعتها في رحلاتها كلها في أرجاء المتاحف الفنية في أوروبا، ومن خلال عينيها أشاهد عواصف ترنر[١٣] وسماوات تيبولو[١٤] وحزم تبن مونيه وتمثال بلزاك لرودان ولوحة «*بريمافيرا*» لبوتيتشيللي ولوحة «*عذراء الصخور*» لدافينتشي. وفي سن الرابعة عشرة أحصل على «*المجموعة الكاملة لقصائد إدنا سينت فنسنت ميلاي*» كهدية في عيد ميلادي، وفي سن الخامسة عشرة أحصل على ديوان شِعر إ. إ. كمنغز، وفي السادسة عشرة أحصل على وليم بطلر ييتس، وفي السابعة عشرة قرأت إميلي ديكنسون، وفي الثامنة عشرة لم نعد أنا وأمي نتبادل الأحاديث. إنها تعرّفني إلى شو، وكوليت، وأورويل، وإلى سيمون دو بوفوار. تجادلني بغضب حول الماركسية على مائدة العشاء. وتلقنني دروساً في رقص الباليه وفي العزف على البيانو وتوفر لي بطاقات أسبوعية لحضور حفلات فرقة نيويورك الفلهارمونية الموسيقية (حيث ينالني الضجر وأقضي معظم وقتي في مرحاض السيدات وأنا أتبرج برذاذ ريفلون الوردي وأضع أحمر شفاه لامع على شفتيّ ذات ثلاثة عشر ربيعاً).

أتردّد على رابطة طلاب الفن في كل يوم سبت وأمي تنتقد رسوماتي بقسوة. إنها ترعى مسيرتي وكأنها مسيرتها هي: يجب أنْ أتعلم رسم الأشكال الخارجية والأشخاص بالفحم أولاً، ثم الطبيعة الساكنة

١٣ - جوزيف مالورد وليام ترنر (١٧٧٥ - ١٨٥١): رسام رومانسي إنكليزي، يرسم مناظر طبيعية إنكليزية بالألوان المائية، يُعرَف باسم «رسّام الضوء». بعض لوحاته تُعتَبَر أنها تنتمي إلى الفن التجريدي، عندما يرسم العواصف البحرية على سبيل المثال. - المترجم

١٤ - جيوفاني باتيستا تيبولو (١٦٩٦ - ١٧٧٠): رسام إيطالي غزير الإنتاج. رسم أيضاً في ألمانيا وإسبانيا. اعتُبِرَ أعظم رسّام زُخرفي في القرن الثامن عشر. - المترجم

بألوان البلاستيك، وأخيراً الرسم بالزيت. وعندما أقدم طلباً للالتحاق بمدرسة الموسيقى والفن الثانوية، تقلق أمي معي حول أوراقي الثبوتية، وترافقني إلى الامتحان، وتطمئنني، وأنا ألخّص بقلق كل جزء منها أمامها. وعندما أقرر أنْ أُصبح طبيبة بالإضافة إلى كوني فنانة، تباشر بشراء الكتب لي حول علم الأحياء. وعندما أبدأ ممارسة تأليف الشعر، تُصغي إلى كل قصيدة وتمتدحها وكأنني الشاعر ييتس. إنها ترى في كل تخبّطي في عهد المراهقة شيئاً جميلاً. كل رسوماتي، وبطاقات التهنئة، والصور الكاريكاتورية، والمُلصقات، واللوحات الزيتية تُنبئ بمستقبل عظيم بالنسبة إليها. ولا شك في أنَّه لا توجد فتاة أخرى لها أمّ متفانية، وأشدّ اهتماماً في صيرورتها شخصية متكاملة، في صيرورتها، إنْ شاءتْ، فنانة. إذن لماذا أنا غاضبة منها هكذا؟ ولماذا تجعلني أشعر بأنني لستُ أكثر نسخة ضبابية من الكربون عنها؟ بأنني لم أحظ يوماً بفكرة واحدة أنسبها إلى نفسي؟ بأنني لا أتمتع بالحرية، أو بالاستقلالية، أو بالهوية؟

لعلّ الجنس هو سبب حنقي. لعلّ الجنس هو صندوق باندورا الحقيقي. لقد آمنتْ أمي بالحب الحرّ، بالرقص عارية في غابة بولونية، بالرقص في الجزر اليونانية، بأداء طقوس الربيع. لكنها، طبعاً، لم تفعل ذلك، وإلا لماذا قالت إنَّ الشبان لن يحترمونني إلا إذا «تظاهرتُ بأنني صعبة المنال»؟ وإنَّهم لن يُلاحقونني إنْ كنتُ «صريحة في التعبير عن مشاعري»، وإنَّهم لن يتصلوا بي إذا «جعلتُ نفسي رخيصة»؟

الجنس. كنتُ أرتعب من السلطة الهائلة التي يمارسها عليّ. الطاقة، الإثارة، القوة التي تجعلني أشعر بالجنون التام! ماذا عن هذا؟ كيف يمكن أنْ أُصبح «صعبة المنال»؟

إنني لم أتحلَّ مرة بالشجاعة لأطرح هذا السؤال على أمي مباشرة. لقد شعرتُ، على الرغم من كلامها البوهيمي، أنها لا تُحبّذ الجنس، إنه

في الأساس موضوع لا ينبغي فتحه. لذلك تحولتُ إلى د.هـ. لورنس وإلى كتاب «*حب بلا خوف*»[١٥]، و«*بلوغ سن الرشد في ساموا*»[١٦]. ولم تقدّم لي مارغريت ميد الكثير من العون. ما هو القاسم المشترك بيني وبين أولئك المتوحشين؟ (الكثير، طبعاً، ولكن في الوقت نفسه لم أدرك ذلك). كان يوستيس تشيسر، الطبيب، بارعاً في كل التفاصيل الرائعة («كيف تمارس الجنس»)، الولوج، والمداعبة، والنشوة اللاحقة)، ولكن لم يكن لديه الكثير يقوله عن معضلاتي *أنا* الأخلاقية: وما هو «أبعد مدى» يمكن بلوغه؟ خارج حمالة الثديين أم داخلها؟ داخل السروال الداخلي أم خارجه؟ داخل الفم أم خارجه؟ متى أبتلع، إنْ حدث ذلك. لقد كان الأمر غاية في التعقيد. وهو أعقد بمراحل بالنسبة إلى المرأة. أعتقد أنني كنتُ غاضبة من أمي لأنها لم تعلّمني كيف أكون امرأة، لأنها لم تعلّمني كيف أعقد سلاماً بين الجوع النهم الذي في كسّي والجوع الذي في رأسي.

لذلك تعلّمت شؤون النساء من الرجال. رأيتهنّ من خلال عيون كتّاب ذكور. وطبعاً، لم أفكر فيهم ككتّاب *ذكور*. بل فكّرتُ فيهم *ككتّاب*، كسلطات، كآلهة لديها المعرفة ويمكن الوثوق فيها كل الثقة. من الطبيعي أني وثقت بكل ما قالوا، حتى عندما كان يُشير ضمناً

---

١٥ - «**حب بلا خوف**»: كتاب من تأليف يوستس تشيسر (١٩٠٢ - ١٩٧٣): مُحلل نفسي، ومُصلح اجتماعي وكاتب. من أصل روسي. والكتاب المذكور هو دليل ممارسة الجنس. بعد أنْ بيعت منه ٥٠٠٠ نسخة سُحِبَ من الأسواق وأُلقِيَ القبض على مؤلّفه بتهمة الفحش. - المترجم

١٦ - «**بلوغ سن الرشد في ساموا**»: كتاب من تأليف عالمة عِلم الإنسان الشهيرة مارغريت ميد (١٩٠١ - ١٩٧٨). الكتاب المذكور هو حصيلة دراسات قامت بها العالمة في جزر ساموا عن سلوك الشبان من المراهقين والمراهقات في المجتمعات البدائية، وأصبح الكتاب ذائع الصيت والأكثر قراءة في مجال عِلم الإنسان. - المترجم

إلى منزلتي الأدنى. تعلّمتُ معنى الرعشة الجنسية مذ د.هـ. لورنس، متلبّسة شخصية الليدي تشاترلي. تعلمت منه أنَّ النساء كلهن يعبدن «القضيب» - حسب تعبيره. وتعلّمتُ من شو أنَّ النساء لا يمكن أنْ يُصبحن فنانات؛ تعلمت من دوستويفسكي أنهنّ لا ينطوين على مشاعر دينية؛ وتعلّمت من سويفت وبوب أنَّ لديهن *إفراطاً* في المشاعر الدينية (ولذلك لا يمكن أنْ يكنَّ عقلانيات)؛ وتعلّمت من فوكنر أنهنَّ أمهات ينتمين إلى الأرض ومتّحدات مع القمر وحركات المد والجزر والمحاصيلة الزراعية؛ وتعلّمت من فرويد أنَّ لديهن أنا عليا ضعيفة وأنهن دائماً «ناقصات» لافتقارهن إلى الشيء الوحيد في العالم الذي يستحق الحيازة: القضيب الذكريّ.

ولكن ما دخل هذا كله بي - أنا التي كنتُ أتردد على المدرسة وأنال درجات أفضل مما يناله الشبان وأرسم وأكتب وأقضي أيام السبت في تنفيذ لوحات الطبيعة الساكنة في رابطة طلاب الفنون وأقضي فترات بعد ظهيرة العطل الأسبوعية في تحرير صحيفة المدرسة الثانوية (لم تكن المرأة تحتل مركز مُحرر الصفحة الأولى، ورئيس تحرير - على الرغم من أنه أيضاً لم يخطر في بالنا أبداً حينئذ أنْ تناقش هذه النقطة)؟ ما دخل القمر وحركة المد والجزر والأرض الأم وعبادة «القضيب» اللورنسي بحياتي؟

قابلت أول «قضيب» وأنا في الثالثة عشرة وعشرة أشهر على أريكة غرفة نوم والديّ الحرير ذات اللون الأخضر الأفوكاتو، في ظل شجرة الأفوكاتو، النامية بجوار أمي ذات الإبهام الأخضر بلون الأفوكاتو من حفرة الأفوكاتو. كان الـ «قضيب» ينتمي إلى ستيف أبلبوم، مُقبل على التخرّج يدرس الفن في حين كنتُ طالبة مُستجدة تدرس الفن، وكانت عليه منظومة تجريدية لا تُنسى من العروق الزرقاء على الجانب السفلي

ذي لون أرجوان كاندينسكي[١٧]. عندما أستعيد صورته، أرى أنه عيّنة رائعة: مختون، طبعاً، وضخم (ما معنى ضخم عندما لا يكون هناك مرجع لذلك؟)، ويتمتّع بحياة مُثيرة خاصة به. وحالما بدأ وجوده الشبيه بجبل الثلج يبرز من تحت البنطلون الكاكي المُحكم لستيف (كنا متعانقَين و«نتبادل المداعبة تحت الخصر» كما قال أحدهم حينئذ) أخذ يفك سحّاب الفتحة ببطء (لكي لا يعلق؟) وبإحدى يديه (الأخرى كانت تحت تنورتي وداخل كسّي) أخرج ذلك الشيء الأرجواني الضخم من بين تضاعيف بنطلونه القصير، ومن طرف قميص بروكس - بروذرز، ثم من فتحته الباردة، المتلألئة، المُحكمة الإغلاق. ثم أدخلُ إحدى يديّ في وعاء الورد الذي تحتفظ به أمي المُحبّة للأزهار دائماً على طاولة شرب القهوة، وبيدي اليُمنى المُبللة بالماء واللزجة من نضح السيقان، أتابع حركة تدليك ستيف الإيقاعية. كيف فعلت ذلك بالضبط؟ بثلاثة أصابع؟ أم بكامل راحة الكف؟ أعتقد أنني كنتُ خشنة في أول الأمر (على الرغم من أنني لاحقاً أصبحتُ خبيرة). كان يرمي رأسه نحو الخلف من النشوة (لكنها نشوة مضبوطة: كان والدي يُشاهد التلفاز في غرفة الطعام) وكان يقذف على أطراف قميصه البروكس - بروذرز أو داخل منديل يُجلَب بسرعة لهذا الغرض. لقد نسيت التقنية، لكنّ الشعور يبقى. كانت، جزئياً، حركة تبادليّة (تيك تاك، أو واحد اثنين)، لكنها كانت أيضاً سُلطة. كنتُ أعلم أنّ ما أفعل يمنحني نوعاً خاصاً من السيطرة عليه - سُلطة تفوق تلك التي يمنحها الرسم أو الكتابة. ومن ثم قذفتُ أنا أيضاً - ربما ليس كما حصل مع الليدي تشاترلي، ولكن كان شيئاً رائعاً.

---

١٧ - فاسيلي فاسيليفيتش كاندينسكي (١٨٦٦ - ١٩٤٤): رسام روسي ومُنظّر مؤثّر أصبح مواطناً فرنسياً في عام ١٩٣٩. يُعتَبر صاحب أول لوحات تجريدية صِرف. - المترجم

مع نهاية مقطوعتنا الغنائية، طلب ستيف مني (وكان حينئذ في السابعة عشرة وكنتُ في الرابعة عشرة) أنْ أتناولـ «ـه» بفمي.

«أيفعل الناس هذا حقاً؟».

قال بأكبر ما استطاع من اللامبالاة «طبعاً». ذهب إلى رف كتب والديّ بحثاً عن فان ديه فلده[18] (المُخبّأ بعناية خلف كتاب «*كنوز في عصر النهضة*»). لكنه كان صعباً جداً عليّ، ولم أستطع حتى أنْ أنطقه. وهل سيجعلني ذلك حبلى؟ أم إنَّ لرفضي صِلة بالثقافة الاجتماعية المتواصلة التي كانت أمي تغرسها فيّ إلى جانب تاريخ الفن. كان ستيف يقيم في برونكس. وكنتُ أقيم في منزل مُخصّص لأسرتين في سنترال بارك ويست. فإذا كنتُ سأتولّه «بقضيب» فلن يكون قضيباً من برونكس. ربما من ستن بليس؟

وبحزم، ودّعتُ ستيف ولجأتُ إلى الاستمناء، والصيام، والشِّعر. ورحت أقول لنفسي إنَّ الاستمناء يُبقيني على الأقلّ نقيّة.

واصل ستيف تودده إليّ بزجاجات من عطر شانيل رقم ٥، واسطوانات فرانك سيناترا، ومقاطع مكتوبة بطريقة جميلة من أشعار ييتس. كان يتصل بي كلما أصبح ثملاً وفي كل عيد ميلاد أقمته على مدى خمس سنوات. (هل مجرد مداعبتي له هي التي أثارت فيه كل ذلك الإخلاص لي؟).

ولكن في حين أنني تبتُ عن فسقي بمروري بما يُشبه التحول الديني الذي تضمّن الجوع (بل حرمت نفسي الماء)، ودراسة كتاب «*سيدهارتا*»، وخسارة عشرين رطلاً من وزني (ومعها خسرت دورات

---

١٨ – هنري فان ديه فلده (١٨٦٣ – ١٩٥٧): رسام ومهندس معماري ومهندس ديكور بلجيكي. عاش أهم فترة من حياته المهنية في ألمانيا وأثّر في الهندسة المعمارية الألمانية. – المترجم

الطمث). وحصلتُ أيضاً على طفح ظاهر من البثور ولجأتُ للمرة الأولى إلى طبيب أمراض جلدية - وكانت لاجئة ألمانية قالت كلمات لا تُنسى «إنَّ البشرة هي مرآة الروح» ودلّتني على أول طبيب من سلسلة طويلة من الأطباء النفسيين، وكان طبيباً قصير القامة اسمه شريفت.

كان الدكتور شريفت (وهو الدكتور شريفت نفسه الذي طار معنا إلى فيينا) من أتباع فلهلم شتيكل[١٩] وكان يُقحم رباط حذائه تحت أصابع قدميه في الحذاء. (لستُ متأكّدة إنْ كان هذا جزء من الطريقة الشتيكليّة أم لا). كانت بناية الشقق تقع في جادة ماديسون وحالكة الظلام وأروقتها ضيقة وجدرانها مكسوة بورق جدران أصداف بحرية ذهبية، كالتي يمكن مشاهدتها في حمّام منزل في لارشمونت. وفي أثناء انتظار المصعد، كنتُ أحدّق إلى ورق الجدران وأتساءل إنْ كان صاحب المنزل قد نال مبلغاً كبيراً من تغطية جدران الحمام بورق الجدران. وإلا فلماذا يكسو جدران البهو بورق عليه أصداف ذهبية وأسماك صغيرة وردية؟

كان بحوزة الدكتور شريفت لوحتين لأوتريللو ولوحة لبراك (كان أول طبيب نفسي ألجأ إليه، لذلك لم أدرك أنها لوحات حظيت بالاستحسان المعياري لرابطة المحللين النفسيين الأميركيين APA). وكانت لديه طاولة مكتب دانماركية حديثة الطراز (أيضاً حظيتْ بدورها استحسان الـ APA)، وأريكة ماركة فوملاند بلون مائل إلى البُني تكسو قوائمها قطع صغيرة لازمة من البلاستيك ووسادة قاسية على شكل إسفين، مكسوة بمنديل من الورق، عند الرأس.

١٩ - فلهيلم شتيكل (١٨٦٨ - ١٩٤٠): طبيب ومُحلل نفسي نمساوي، أصبح من أوائل أتباع سيغموند فرويد. وقيل عنه إنه أبرز تلاميذ فرويد. كوّن أول جمعية للتحليل النفسي. لاحقاً انشقّ عن فرويد وأصبح له خطه المستقل. - المترجم

أصرُّ على أنَّ الحصان الذي أحلم به يرمز إلى والدي. كنتُ في الرابعة عشرة وأُجبر نفسي على الجوع كفّارة عن ممارستي الاستمناء على أريكة والديّ الخضراء بلون الأفوكادو. وأصرّ على أنَّ التابوت الذي أرى في الحلم يرمز إلى أمي. وما سبب انقطاع دورتي الشهرية؟ هذا لغز.

«لأنني لا أريد أنْ أصبح امرأة. لأنَّ الأمر مشوِّش جداً. لأنَّ شو يقول إنه لا يمكنك أنْ تكوني امرأة وفنانة. إنَّ إنجاب الأطفال يستنفدك، كما يقول. وأنا أريد أنْ أكون فنانة. هذا كل ما أردت أنْ أكون يوماً».

ولأنني ما كنتُ لأعرف كيف أقول ما يلي حينئذ، لكنَّ إصبع ستيف الذي كان يُقحمه في كسّي كان ممتعاً. في الوقت نفسه، كنتُ أعلم أنَّ ذلك الإحساس الرقيق، الساحق، هو العدو. فإنْ استسلمتُ له، فسأتخلّى عن كل الأشياء الأخرى التي أردت. قلتُ لنفسي بصرامة وأنا في الرابعة عشرة «يجب أنْ تختاري». التحقي بدير للراهبات. وهكذا، كما تفعل كل الراهبات الصالحات، كنت أستمني. قلت في نفسي، وأنا أُقحم إصبعين داخلي في كل ليلة، «إنني أُحافظ على تحرّري من سيطرة الرجال».

لم يفهم الدكتور شريفت. همس إليّ من خلف الأريكة «اقبلي نفسك كامرأة». ولكن في سن الرابعة عشرة لم يكن باستطاعتي أنْ أرى غير مساوئ كوني امرأة. كنتُ أتوق إلى أنْ أحصل على رعشات جنسية كما حدث مع الليدي تشاترلي. لِمَ لم يبدُ القمر شاحباً وتغمر أمواج المدّ سطح الأرض؟ أين فارس أَحلامي؟ إنَّ كل ما أرى هو الصورة الخادعة لكوني امرأة.

كنتُ أتجول في أرجاء متحف المتروبوليتاني للفن بحثاً عن امرأة فنانة تدلّني على الطريق الصحيح. أهي ميري كاسات؟ أم برنا

موريسو؟ لماذا كل الفنانات اللواتي رفضن أنْ يُنجبن أطفالاً لم يرسمن إلا أمهات وأطفالاً؟ كان وضعاً ميؤوساً منه. إنْ كنتِ أنثى وموهوبة، تصبح الحياة فخاً كيفما استدرت. فإما أنْ تنغمسي في الحياة العائلية (وتنتابك أوهام والتر ميتي[٢٠] في الهروب) أو تتوقي إلى الحياة العائلية من خلال فنِّك كله. لا يمكنك أنْ تهربي من أنوثتك. إنكِ تخوضين صراعاً مكتوباً بدمك.

لم يكن في استطاعة أمي الطيبة أو أمي الشريرة أنْ تُخرجني من تلك الورطة. فأمي الشريرة أخبرتني أنه كان في وسعها أنْ تصبح فنانة مشهورة لولاي، وأمي الطيبة تعبدني، وما كانت لتتخلّى عني ولو أعطوها العالم كله. إنَّ ما تعلّمته منها تعلّمته بالقُدوة، وليس بالنُّصح. وكان الدرس واضحاً: أنْ تكوني امرأة يعني أنْ تكوني متزوجة، ومُحبَطة، وغاضبة دائماً. كان يعني أنْ تنقسمي إلى قسمَين لدودَين.

قالت أمي الطيبة: «قد تصبحين أفضل مني. قد تصبحين أفضل، يا حبيبتي. أما أنا فلن أتمكّن من ذلك أبداً».

٢٠ - والتر ميتي: شخصية روائية غارقة في أحلام اليقظة الفخمة. وردت في قصة قصيرة للكاتب جيمس ثوربر عام ١٩٣٩ بعنوان «**الحياة السرّية لوالتر ميتي**». أصبح اسمه رديف صفة المُستغرق في الأحلام المستحيلة. - المترجم

(١٠)

منزل فرويد

ليس من الإنصاف إرسال امرأة لتكافح من أجل إثبات وجودها مثل الرجل تماماً. فإذا تخيّلتُ، مثلاً، زوجتي العذبة، الرقيقة، متنافسة، فسينتهي بي الأمر إلى أنْ أقول لها، كما كنتُ قد قلت قبل ذلك بسبعة عشر عاماً، إنني مولع بها وأناشدها أنْ تنسحب من الكفاح وتعود إلى ممارسة نشاط هادئ بعيد عن التنافس في بيتي.

• سيغموند فرويد

أوصلنا أدريان إلى الفندق دون أنْ ينطق بأية كلمة وانطلق بسيارته وغاب عن الأنظار. ثم صعدنا إلى الطابق العلوي لنزيل عنا آثام الليلة السابقة. ولما لم يكن هناك أي اجتماع يحضره بينيت بعد ظهيرة ذلك اليوم، قرّرنا أنْ نتمشّى باتّجاه منزل فرويد. وقبل أنْ يظهر أدريان على مسرح الأحداث كنا قد عزمنا على القيام بتلك النزهة، ولكن لسبب ما ضعنا وسط الفوضى.

في صباح ذلك اليوم كانت فيينا جميلة. لم تُصبح حارّة بعد، بل مُشمسة وسماؤها زرقاء ومزدحمة بأناس مظهرهم رسميّ يهرعون متوجهين إلى مراكز أعمالهم حاملين حقائب أوراقهم (التي ربما

لا تحتوي أي شيء غير الصحف ووجبة الغداء). تمشينا في أنحاء الحديقة العامة نبدي إعجابنا بشجيرات الورد الأنيقة، ومساكب الأزهار المُشذّبة. وعلّقنا قائلين لو أنَّ مساكب الأزهار تلك موجودة في نيويورك لتدنّست حتماً. وعارض كل منا الآخرين فيما يخص تخريب نيويورك في مقابل فضائل المدن الألمانية المُطيعة للقانون. وخضنا في حديثنا القديم المألوف حول الحضارة والقمع في مقابل الحافز والإنجاز. وساد بيننا التضامن المُريح لبعض الوقت الذي كان أدريان قد أسماه بـ «ضجرنا الزوجي». وكان مُخطئاً في ذلك. بما أنه كان وحيداً منعزلاً، ولا يفهم في الحياة المشتركة ولا يرى في الزواج إلا شيئاً مُضجراً. كان يفتقد غريزة التزاوج الخاصة التي تدفع شخصين إلى الاقتران، إلى ملء الفراغات في روح كل منهما الآخر، ويشعر بأنه أقوى. إنَّ الزواج ليس بالضرورة أنْ يعني دائماً ممارسة الجنس؛ إنكَ تراه يحدث بين صديقَين يعيشان معاً، أو بين مثليين جنسياً عجائز متزوجين لم يعودوا يمارسون الجنس، وترى هذا الوضع أيضاً في بعض الزيجات. زوجان يتعانقان كفراشتين طائرتين. زوجان يعتمد كل منهما على الآخر ويرعى كل منهما الآخر ويُدافع كل منهما عن الآخر في وجه العالم الخارجي. أحياناً يستحق الزواج تحمّل سيئاته كلها فقط من أجل هذا: صديق واحد في عالم لا مبالٍ.

شبكتُ ذراعي بذراع بينيت ومشينا نحوَ منزل فرويد. كان بيننا اتّفاق غير مُعلَن بأننا لن نأتي على ذكر ما جرى في الليلة السابقة. كان يمكن لأحداث الليلة السابقة أنْ تكون حلماً، والآن وقد عدنا معاً من جديد تحت أشعة الشمس، احترق الحلم وتلاشى كضباب الصباح الباكر.

ارتقينا الدَّرَج المؤدي إلى غرفة استشارة فرويد كمريضَين يبغيان الحصول على علاج بخصوص الزواج.

لطالما كرّستُ نفسي لزيارة المزارات الثقافية: المنزل الذي توفي فيه في روما، المنزل الذي عاش فيه في هامستيد، ومكان مولد موتسارت في سالزبورغ، وكهف ألكسندر بوب، ومنزل رامبرانت في حي الأقليات في أمستردام، ودارة فاغنر على بحيرة لوسرن، وشقّة بيتهوفن البائسة المؤلفة من غرفتين في فيينا... أي مكان وُلِدَ فيه أحد العباقرة، أو عاش، أو عمل، أو أكل، أو ضرط، أو سفح بذوره، أو أحبّ، أو مات - كان مُقدّساً بالنسبة إليّ. مقدّساً كدلفي أو البارثنون. بل أكثر قُدسية، في الواقع، لأنّ أعجوبة الحياة اليومية فتنتني أكثر من أعجوبة المزارات والمعابد العظيمة. وكون بيتهوفن استطاع أنْ يؤلّف مثل تلك الموسيقى في أثناء إقامته في غرفتين رثّتين في فيينا - هذا بحد ذاته معجزة. لقد حدّقت بمهابة إلى إنتاجه الدنيويّ - وكلما كان دنيوياً كان أفضل: صندوق الأملاح الصدئ، ساعة الحائط الرخيصة، سجل الحسابات المتهرئ. والطابع العادي نفسه لاحتياجاته عزّاني وملأني بالأمل. كنتُ أشمّ أرجاء منازل العظماء ككلب صيد، أحاول أنْ أتقصى عبير العبقرية. في موقع ما بين الحمّام وغرفة النوم، وفي وقت ما بين أكل بيضة والتغوُّط، تَتوهج القريحة. في المعتاد لا تظهر حيث جعلتك أفكارك الهوليودية التافهة تتوقّعين ظهورها غالباً: في مشهد رائع للغروب في أعالي جزيرة إسكيا، أو أمواج شاطئ بيغ سور الهادرة، أو فوق قمة جبل في دلفي (مباشرة بين صرة الأرض والموقع الذي قَتَلَ فيه أوديب أباه) - لكنها تحطّ عليك وأنت تقشّرين البصل أو تأكلين باذنجان أو تبطّنين صندوق القمامة بأوراق قسم مراجعة الكتب من صحيفة *ذا نيويورك تايمز*. إنّ أشد الكتّاب المُعاصرين المُثيرين للاهتمام يعرفون هذا. إنّ ليوبولد بلوم[1] يقلي الكبد،

[1] - ليوبولد بلوم: بطل رواية «يوليسيس» لجيمس جويس. - المترجم

ويتغوّط، ويتأمّل في الكون. وبونج[٢] يرى روح الإنسان في محارة (كما رآها بليك في زهرة برية). وبلاث تجرح إصبعها فتختبر رؤيا. لكنَّ هوليوود تصرّ على تخيُّل الفنان معبود نساء بعينين حالمتين بربطة عنق على شكل فراشة مبهرجة، وموسيقى ديمتري تيومكن[٣] تنساب مع المشهد، وغروب الشمس بلون برتقالي صارخ يُخيم فوق رأسه - وأيضاً، بدرجة ما، كلنا (حتى الذين ينبغي أن يعرفوا أكثر بيننا) نحاول أنْ نرتقي إلى مستوى هذه الصورة. باختصار، كنت لا أزال راغبة في الرحيل مع أدريان. وعندما شعر بينيت بهذا استدرجني إلى منزل فرويد في برغاس، رقم ١٩، ليُحاول (مرة أخرى) أنْ يُعيدني إلى رشـدي.

وافقت بينيت على أنَّ فرويد عبقريّ حدسيّ، لكنني لم أتفق مع مبدأ التحليل النفسي على أنه معصوم من الخطأ: إنَّ العباقرة دائما يُخطئون؛ وإلا لكانوا آلهة. ثم مَنْ يُريد الكمال، على أية حال؟ أو التماسُك؟ فبعد أنْ تتجاوز مرحلة المراهقة، وهرمن هسّه، وخليل جبران، والإيمان بشرّ والدِيك المتعالي - ينبغي ألا ترغب حتى في التماسُك. ولكن للأسف، العديد منا نرغب فيه. ومُستعدون لتدمير حياتنا بسبب افتقارنا له. كما أفعل أنا.

إذن تجولنا في أرجاء منزل فرويد بحثاً عن رؤيا. واعتقد أننا تقريباً توقّعنا أنْ نشاهد مونتغومري كليفت بكامل ملابسه وقد التحى ليُشبه فرويد ويستكشف حدود لاوعيه الكريه. ولكن ما شاهدنا، في الواقع،

---

٢ - فرانسيس بونج (١٨٩٩ - ١٩٨٨): شاعر وكاتب مقالات، وأحياناً يمزج بين الاثنين. - المترجم

٣ - ديمتري تيومكن (١٨٩٤ - ١٩٧٩): مؤلف موسيقي مُتخصص في موسيقى أفلام هوليوود، خاصة لأفلام الويسترن، وُلِدَ في روسيا وتدرّب فيها. ترشّح ٢٢ مرة لجائزة أوسكار، وفاز بها أربع مرات. - المترجم

كان مُخبأً للآمان. كانت غالبية الأثاث قد نُقلت إلى هامستيد مع فرويد وهي الآن ملك ابنته. واضطرّ متحف فرويد في فيينا أنْ يكتفي بالصور الفوتوغرافية وبالغرف الخالية إلى أبعد مدى. وكان فرويد قد أقام هنا على امتداد ما يُقارب القرن، ولكن لم تبقَ منه أية رائحة - فقط الصور الفوتوغرافية وغرفة الانتظار التي أعيد حشوها بأثاث من طراز ذلك الزمان.

كانت هناك صورة لغرفة الاستشارة الشهيرة بأريكة التحليل النفسي المكسوة بسجادة شرقية، والتماثيل المصرية والصينية الصغيرة، وقطع من تمثال أثري، أما غرفة الاستشارة نفسها فاختفت، مع المنطقة كلها، في عام ١٩٣٨. ما أغرب التظاهر، بصورة ما، بأنْ فرويد لم يُطرَد، أو بأنه يمكن بالاستعانة بعدد من الصور الفوتوغرافية المصفرّة إعادة خلق عالم كامل. إنّ هذا يُذكّرني برحلتي إلى داشاو[٤]: كانت المحرقة قد هُدمت وأطفال ألمان بشعور مبيضّة يركضون ويضحكون ويتنزهون على العشب النامي حديثاً. في هايدلبرغ كانوا يقولون لي «لا يمكنكِ أنْ تحكمي على بلد من خلال اثني عشر عاماً فقط».

وهكذا أخذنا ننعم النظر إلى الغرف الجرداء بصورة غريبة، وإلى بقايا حياة فرويد: شهادته الطبيّة، وسجلّه العسكري، واستمارة طلب لوظيفة مساعد بروفسور، وعقد عمل مع أحد ناشريه، وقائمة بمنشوراته مُرفقة بطلب للترقية. ثم تفحّصنا الصور الفوتوغرافية: فرويد، يحمل سيجاراً بيده، ضمن أول حلقة للمحللين النفسيين، وفرويد مع حفيده، وفرويد مع آنا فرويد، وفرويد قُبيل وفاته يتكئ

٤ - داشاو: بلدة في ألمانيا، مقاطعة بافاريا، أقام النازيون فيها معسكر اعتقال. - المترجم

على ذراع زوجته في لندن، والشاب إرنست جونز[٥] الفتى اللامع، وساندور فيرينتشي[٦] يُنعم النظر بغطرسة إلى العالم، حوالي عام ١٩١٣، وكارل أبراهام[٧] الهادئ يبدو هادئاً، وهانز ساخس[٨] يبدو أشبه بروبرت مورلي[٩]، Und so weiter (وأكثر جموحاً). كانت إبداعاته حاضرة، لكنّ روح المغامرة مفقودة. وانتقلنا بإذعان من مادة إلى أخرى متسائلين حول تاريخنا البغيض، الذي لا زال في طور التدوين.

تناولنا وجبة الغداء بهدوء ومن جديد حاولنا أنْ نرمم أضرار الليلة السابقة. كنتُ قد أخذتُ عهداً على نفسي بألا أقابل أدريان بعد ذلك. لقد عالجنا أنا وبينيت كلّ منا الآخر بعناية فائقة. حرصنا على ألا نناقش أي أمر ذي أهمية. وبدل ذلك رحنا نحكي حكايات عن فرويد. فوفقاً لإرنست جونز، لم يكن مُقيّماً بارعاً للشخصية، في فهم الناس - مع العبقرية. كان فرويد قادراً على اختراق الأحلام السريّة، ولكن أيضاً كان يمكن أنْ يقع ضحية محتال عادي. كان باستطاعته أنْ يخترع

٥ - إرنست جونز (١٨٧٩ - ١٩٥٨): طبيب ومُحلل نفسي بريطاني. كاتب سيرة حياة فرويد الرسمية. ترك جونز أثراً لا يُنكَر في تأسيس منظماته ومؤسساته ومطبوعاته في العالم المتحدث بالإنكليزية. - المترجم

٦ - ساندور فيرينتشي (ولد عام ١٩٥٥): مُحلل نفسي هنغاري. مُنظّر أساسي في مدرسة التحليل النفسي وزميل مُقرَّب من فرويد. - المترجم

٧ - كارل أبراهام (ولد عام ١٩٢٥): مُحلل نفسي ألماني ومعاون لفرويد الذي كان ينعته بـ «أفضل تلميذ لديّ». - المترجم

٨ - هانز ساخس (١٨٨١ - ١٩٤٧): من أوائل المُحللين النفسيين وصديق مُقرَّب من فرويد. أصبح عضواً في لجنة فرويد السرية المؤلّفة من ستة أعضاء، قال فرويد إنْ ثقته فيه غير محدودة. - المترجم

٩ - روبرت مورلي (١٩٠٨ - ١٩٩٢): ممثل بريطاني، غالباً للأدوار الثانوية. تعبير وجهه الممتلئ ينم عن ذهول وغطرسة لا يتغيران. - المترجم

التحليل النفسي، لكنه كان على الدوام يضع ثقته في مَنْ يخدعونه. وأيضاً لم يكن كتوماً أبداً، وغالباً ما كان يبوح بأسرار أودِعَتْ لديه بشرط واحد هو أنْ يكتمها.

فجأةً أدركنا أننا نتحدث من جديد عن أنفسنا. لم يكن هناك موضوع حياديّ بالقدر الكافي نتحدث فيه بعد ظهيرة ذلك اليوم. كانت كل الطرق تؤدي إلينا.

بعد الغداء ذهبنا إلى هوفبرغ مرة أخرى لكي نحضر تقديم أُطروحة في علم نفس الفنانين. تلك الأطروحة حلّلت بعد الوفاة كلاً من ليوناردو، وبيتهوفن، وكولريدج، ووردسوورث، وشكسبير، ودون، وفرجينيا وولف، وفنانة مجهولة الشخصية والاسم عولِجَتْ على يد مُحلل نفسي. وكل ما قدّم من دليل برهن بشكل جازم على أنّ الفنانين، ككل، ضعفاء، متواكلون، يتصرفون كالأطفال، سُذّج، مازوشيون، نرجسيون، لا يُحسنون الحكم على الشخصية، وغارقون بصورة يائسة في العقد الأوديبية. ونظراً إلى حساسيتهم المفرطة كالأطفال وحاجتهم فوق المعتادة إلى رعاية الأم، فإنهم دائماً يشعرون بالحرمان مهما تلقّوا من رعاية. وفي مرحلة الرشد، يُقدَّر لهم أنْ يبحثوا عن الأمهات في كل مكان، وعندما لا يعثرون عليهن (أبداً، أبداً) يسعون إلى اختراع أمهات مثاليات خاصات بهم من صُنعهم. يسعون إلى إعادة كتابة تاريخهم ليظهر بصورة مثالية - حتى عندما تخرج تلك الصورة المثالية أقرب إلى الهمجيّة منها إلى المثالية. باختصار، ليست هناك عائلة تعادل في شرّها المتعالي تلك التي يتخيّلها الروائي الحديث (أو الشاعر) في أعماله القائمة على أساس سيرته الذاتية. وانتقاد المرء بعنف عائلته يشبه إلى أقصى مدى رسمها بصورة مثالية. إنه يُبرهن إلى أي مدى يبقى المرء مغلولاً إلى الماضي.

وعبر الشهرة، أيضاً، يسعى الفنان إلى التعويض على نفسه عن الإحساس المبكّر بالحرمان. لكنّ هذا المسعى لا يُحقق أي نجاح. إنّ حب العالم لك لا يُعوّضك عن حب شخص واحد وأنت طفل. ثم إنّ العالم عاشقٌ فاشل. والشهرة أيضاً كانت مُخيّبة للآمال. والعديد من الفنانين يتحولون إلى إدمان الأفيون، والكحول، والشهوة الجنسية المثليّة، والشهوة الجنسية السويّة، والحميّة الدينية، والتفسير الأخلاقي للسياسة، والانتحار، ومخدرات أخرى. ولكن هذه الحلول أيضاً لم تنفع. ما عدا الانتحار - الذي دائماً ينجح، بصورة ما. عند تلك النقطة تذكّرتُ قصيدة تتضمن حكمة لأنطونيو بوركيا[١٠] لا يتحلّى المُحلل النفسي من الذكاء ما يكفي لجعله يقتطفها:

أعتقد أنّ الروح تعيش من آلامها
لأنّ الروح التي تُشفي آلامها تموت.

وكذلك حال الفنانين. ولكن بدرجة أكبر.

على امتداد كامل وصف ضعف الفنان، واتّكاله، وسذاجته، إلى آخره، كان بينيت يعصر يدي ويرميني بنظرات عارفة. عودي إلى البابا. كل شيء بات مفهوماً. كم اشتقتُ إلى العودة إلى البابا! ولكن كم اشتقتُ أيضاً إلى أنْ أكون حرّة!

---

١٠ - أنتونيو بوركيا (١٨٨٥ - ١٩٦٨): شاعر أرجنتيني، ولد في إيطاليا، وانتقل إلى الأرجنتين بعد وفاة والده. له كتاب تحت عنوان «أصوات» هو مجموعة من الحكم والأقوال المأثورة تُرجِم إلى عدة لغات وكان ذا تأثير واسع الانتشار. كان شديد الإعجاب بمؤلفين مثل أندريه بروتون، وخورخه بورخيس وهنري ميللر. - المترجم

كان يمكن لبينيت أنْ يقول (متّفقاً في ذلك للمرة الوحيدة مع ب.ف سكينر[11] «الحرية وهم»، وبصورة ما، وافقت أنا أيضاً على هذا. وآمنتُ أيضاً برجاحة العقل، والاعتدال، والعمل الجادّ، والثبات. ولكنْ ما ذلك الصوت الآخر داخلي الذي ظل يدفعني نحو النكاح الحرّ، والسيارات المُسرعة وسيل القبلات الرطبة والشجاعة المحفوفة بالمخاطر؟ ما ذاك الصوت الآخر الذي لم يكفّ عن وصفي *بالجبانة!* ويحثّني على حرق جسوري كلها، وعلى شرب السُمّ دفعة واحدة بدل رشفه قطرة قطرة، وعلى الغوص إلى أعماق خوفي لأرى إنْ كان باستطاعتي أنْ أكبح جماح نفسي؟

أكان صوتاً؟ أم ضرباً بالسوط؟ إنه شيء أشدّ بدائيّة من الكلام. شيء يُشبه الضرب في أحشائي الذي أسميته «نبض الجوع». وكأنّ معدتي تعتقد أنها قلب. ومهما ملأتها - بالرجال، والكتب، والطعام، بكعك زنجبيل على شكل رجال وبقصائد تشبه الرجال وبرجال يُشبهون القصائد - ترفض أنْ تهدأ. كنتُ عصيّة على الامتلاء. إنه شبق العقل. نهم القلب.

ماذا كان ذلك الشيء الصاخب داخلي؟ أكان طبلاً؟ أم أصوات مجموعة من الآلات؟ أم ارتطام الهواء بجلد مشدود. أم هلوسة سمعيّة؟ أكان ربما ضفدعة؟ ألم تكن تحكي بذلك الصوت عن أحد الأمراء؟ أم إنها اعتقدت أنها هي الأمير؟ هل قُدّر لي أنْ أبقى جائعة طوال حياتي؟

في نهاية الأطروحة التي تدور حول الفنانين، صفّقنا جميعاً من مجلسنا على الكراسي المتداعية ذات الظهر الذهبي ونهضنا واقفين من باب الأدب وتثاءبنا.

---

١١ - بوروس فريدريك سكينر (١٩٠٤ - ١٩٩٠): محلل نفسي، ومتخصص في علم السلوك، ومؤلف، ومخترع وفيلسوف اجتماعي أميركي. عمل بروفسورا في التحليل النفسي في جامعة هارفرد من عام ١٩٥٨ وحتى تقاعده في عام ١٩٧٤. - المترجم

قلت لبينيت: «يجب أنْ أحصل على نسخة من تلك الأطروحة».

قال «لستِ بحاجة إليها؛ إنها قصة حياتك».

لعلي أهملتُ نقل جانب آخر من أطروحة عن الفنانين (التي كتبها، كما أذكر، الدكتور كونيغسبرغر). ويتعلّق بالحب الذي يستولي على الفنان طوال حياته، خاصة ميل الفنان إلى التمسّك (بقوة هائلة) بـ «معشوق» غير مناسب على الإطلاق وتأليهه بجموح كما أله أبويه اللذين اعتقد أنه لم يحصل عليهما أبداً. هذا «المعشوق» غير المناسب كان في الغالب إسقاطاً على الفنان - العاشق. في الحقيقة، كان موضوع الوله في الغالب عادياً جداً في عينيّ الطرف الآخر. ولكن بالنسبة إلى الفنان - العاشق، أصبح المعشوق أمّاً، أو أباً، أو إلهاماً شعرياً، أو مثالاً للكمال. وأحياناً يُصبح مثالاً لكمالٍ خادع أو كمالٍ شَرير، ولكنَ دائماً يكون أشبه بمعبود، دائماً كُليّ القُدرة.

لقد أراد الدكتور كونيغسبرغر أنْ يعرف الهدف الإبداعي من ذلك الوله. أصخينا أسماعنا في توق لسماع الجواب. إنَّ الفنان، بتكرار حالة الوله الأوديبيّ، يستطيع أنْ يخلق من جديد «قصته الرومانسية العائلية» وبهذا يُعيد خلق عالم الطفولة المثالي. إنَّ حالات الوله المتعدّدة التي غالباً ما تتغيّر بسرعة عند الفنانين وُجدَتْ لبثّ الحياة في الوهم. والوله الجنسي القوي، الجديد، كان أقرب شبهاً يحصل عليه المرء في حياته الراشدة إلى شغف الطفل الصغير بأحد والديه من الجنس الآخر.

طوال هذا الجزء من الأطروحة كان بينيت يتسم. وأنا تجهّمت.

دانتي وبياتريس. سكوت وزيلدا. همبرت ولوليتا. سيمون دو بوفوار وسارتر. كينغ كونغ وفاي راي. ييتس ومود غون. شكسبير والسيدة الغامضة. شكسبير والسيد و. هـ ألن. غينسبرغ وبيتر

أورلوفسكي. سيلفيا بلاث والسفاح المروّع. كيتس وفاني برون. بايرون وأوغوستا. دودجسن وأليس. د.هـ. لورنس وفريدا. آشنباخ وتادزيو. روبرت غريفز والإلهة البيضاء. شومان وكلارا. شوبان وجورج صاند. أودن وكالمان. هوبكنز والروح القُدس. بورخيس وأمه. هل أقول أنا وبينيت؟

عند الساعة الرابعة من بعد الظهر، عاد معبودي المثالي إلى الظهور لكي يرأس اجتماعاً في غرفة أخرى من غرف الاجتماع ذات التصميم الباروكي. وكان ذاك هو الحدث الختامي قبل النهاية. وفي صباح اليوم التالي ستُلقي آنا فرويد مع فرقتها من المشاهير مُحاضرة أخرى في قاعة المحاضرات لكي تلخّص ما جرى في الدورة للصحافة، وللمشاركين، والضعفاء، والعُرج، والعُميان. ثم ينتهي المؤتمر ونغادر. ولكن مَنْ سيغادر مع مَنْ؟ هل سيغادر بينيت معي؟ أم أدريان؟ أم نحن الثلاثة معاً؟ راب - ا - دب - دب - ثلاثة مُحللين نفسيين في حوض واحد؟

كان اجتماع أدريان يتعلّق بمقترحات من أجل المؤتمر التالي وكان مملاً في مُعظمه. لكنني لم أحاول حتى أنْ أُصغي. كنتُ أنظر إلى بينيت وإلى أدريان وأحاول أنْ أختار بينهما. كنتُ من شدة الهياج إلى درجة أني بعد عشر دقائق اضطررتُ إلى النهوض والمغادرة لكي أذرع أرض الأروقة جيئة وذهاباً وحدي. ويشاء القدر أنْ ألتقي مُصادفة بالمُحلل الألماني الدكتور هابه. كان يُعانق إريك إريكسون بعد ما بدا أنه حديث ودّي. حيّاني وسألني إنْ كنت أرغب في تبادل الحديث.

وافقت.

الأستاذ الدكتور غونثر هابه رجل طويل القامة، نحيل، ذو أنف مُدبب تتوّج رأسه كتل من الشعر الأبيض الكثيف. في ألمانيا يحظى

بقدرٍ من الشهرة حيث إنه يظهر باستمرار على شاشة التلفاز، ويكتب مقالات للمجلات الرائجة، ومعروف بأنه عدوٌّ شرس للنازية الجديدة. إنه أحد الألمان الراديكاليين المُثقلين بالإحساس بالذنب الذين أمضوا فترة الهيمنة النازية في المنفى في لندن لكنه عاد لاحقاً ليُحاول تخليص ألمانيا من براثن البهيمية الشاملة. إنه من الألمان الذين لا تسمع عنهم أبداً: فكه، متواضع، ينتقد ألمانيا. وهو يقرأ صحيفة *النيويوركر* ويُرسل نقوداً إلى الفياتكونغ. ينطق كلمة think بـ «sink» و كلمة business بـ «busyness»، ولكن مع ذلك فهو ليس ألمانياً هزلياً.

عندما بدأت أتردد على غرفة مكتبه عالية السقف، رديئة التدفئة في هايدلبرغ وأستلقي على الأريكة أربع مرات في الأسبوع، كنتُ في الرابعة والعشرين وفي حالة قصوى من الرعب. كنتُ أخاف ركوب الحافلات، وأخاف كتابة الرسائل، وأخاف تدوين الكلمات على الورق. وأكاد لا أُصدق أني نشرتُ بعض القصائد وحصلتُ على شهادة جامعية في الفنون والآداب وماجستير في الفنون وتلقّيت أنواعاً شتى من التكريم. وعلى الرغم من أنَّ أصدقائي حسدوني لأنني كنتُ دائماً أبدو مرحة وواثقة من نفسي، إلا أنني كنتُ حتماً مرعوبة من كل شيء حرفياً. كنتُ أفتش الخزائن كلها قبل أنْ أنام وحدي ليلاً. وحتى بعد ذلك كان النوم يُجافيني. كنتُ أبقى يقظة لليالٍ طويلة أتساءل إن كنتُ أدفع زوجي الثاني أيضاً إلى حافة الجنون – أم إنَّ هذا ما يبدو لي.

إحدى أشد وسائل تعذيب ذاتي الصغيرة براعة هي الطريقة التي كنت أكتبُ بها الرسائل. أو بالأحرى، فشلي في كتابتها، خاصة الرسائل الخاصة بعملي. فإنْ كتب لي (كما حدث مرة أو مرتين) مُحرر أو وكيل أعمال يطلب مني بعضاً من قصائدي، يكون جوابي يأساً تاماً. ماذا أقول؟ كيف يمكنني أنْ ألبّي مثل هذا الطلب الصعب؟ كيف يمكنني أنْ أصوغ الرسالة؟

بقيَ أحد تلك الطلبات راقداً في أحد الأدراج على مدى عامين وأنا أفكر فيه. حاولتُ أنْ أكتب مسودات متنوعة. أبدأ «عزيزتي السيدة جونز». ولكن هل كانت تلك العبارة مفرطة الادّعاء؟ ربما كان ينبغي أنْ أقول «السيدة جونز»؛ لعل كلمة «عزيزتي» تنطوي على مُحاباة. ماذا لو *تخلّيت* عن العبارة الافتتاحية؟ ماذا لو أدخل في صلب الرسالة؟ كلا. سيكون ذلك مفرط الصرامة.

إذا كنتُ قد واجهتُ كل ذلك العناء في إلقاء التحية، يمكنك أنْ تتخيّل المعاناة التي مررتُ بها مع نص الرسالة.

«شكراً لكِ على رسالتك الرقيقة التي تطلبين فيها تزويدك ببعض المواد. ولكن...»

كله غلط! إنه مفرط التذلُّل. إنَّ رسالتها لم تكن «رقيقة» فلماذا أتملقها بشُكرها؟ الأفضل أنْ أكون واثقة من نفسي وجازمة:

«لقد استلمتُ تواً رسالتكِ التي تطلبين فيها مني بعض القصائد للنظر فيها...».

هذه أنانية مفرطة! (عركتُ صفيحة ورق أخرى). كنتُ قد قرأتُ ذات مرة، إياك أنْ تبدأ رسالة بضمير المتكلم. ثم، كيف يمكنني أنْ أقول «استلمتُ تواً» رسالتها في حين أني كنتُ أحتفظ بها منذ عام؟ حاولي من جديد.

«إنني أفكر في رسالتك المؤرخة ١٢ من شهر تشرين ثاني، عام ١٩٦٧، منذ زمن طويل. وآسف لأنني كاتبة رديئة للرسائل...».

إنها مفرطة الذاتية. هل تريد منك أنْ تبكي على كتفها بسبب مشاكلك العصبية في كتابة الرسائل؟ هل يهمها هذا؟

ختاماً، بعد مرور عامَين، وبعد مُحاولات عديدة، كتبت مسودة رسالة اعتذار، خنوعاً، مُتذللة بصورة مُثيرة للاشمئزاز للمُحررة المذكورة،

ومزقتها عشر مرات قبل أنْ أرسلها، وأعدتُ طبعها على الآلة الكاتبة إحدى عشرة مرة، وأعدتُ طباعة قصائدي خمس عشرة مرة (كان ينبغي أنْ تكون مثالية، كنتُ أطبع ورقة ثم أرميها - ولم أتعلّم أبداً الطباعة) وأرسلت ظرف مانيلا اللعين إلى نيويورك. وكجواب عليها استلمتُ رسالة حارة جداً (لم أُخطئ في تفسيرها على الرغم من إحساسي بجنون الاضطهاد)، إشعاراً بالقبول، وشيكاً. كم من الوقت في اعتقادك كان سيستغرق مني كتابة الرسالة التالية لو أني تلقّيت رداً بالرفض؟

هذه هي المخلوقة الواثقة من نفسها بصورة مُذهلة التي باشرت تلقّي العلاج مع الدكتور هابه في هايدلبرغ. وبالتدريج تعلّمت كيف أجلس ساكنة على طاولة مكتبي فترة كافية لأعمل. وتدريجياً تعلّمت كيف أرسلٍ مخطوطاتي مُرفقة برسائل. شعرت كمَنْ تعرَّضَ لسكتة دماغية ويتعلّم فن الخط من البداية، وكان الدكتور هابه هو مرشدي. كان لطيفاً وصبوراً ومسلياً. علّمني أنْ أكفّ عن كراهية نفسي، وكان مُحللاً نفسياً وألمانياً نادراً. وأنا التي كنتُ أتفوه بأشياء حمقاء مثل: «أوه حسن، قد أتخلّى عن مهنة الكتابة البلهاء وأنجب طفلاً». وهو الذي كان دائماً يُبرِز زيف هذا «الحل».

لم أكنْ قد رأيته منذ عامين ونصف، لكني أرسلتُ إليه أول ديوان شعر لي وكتب يحدثني عنه.

قال، كالألماني الذي يظهر في المجلات الهزلية ولا يُشبهه: «إذن، أرى أنكِ لم تعودي تواجهين صعوبة في كتابة الرسائل...».

«كلا، ولكن لدي حتماً الكثير من المتاعب الأخرى...»، وسردتُ له كامل قصتي المشوشة حول ما حدث منذ وصولنا إلى فيينا. قال إنه لن يُفسّر مغزاها لي، ولكن سيذكّرني بما كان قد قال مرات عديدة من قبل:

«أنتِ لست سكرتيرة، بل شاعرة. ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أنَّ باستطاعتك أنْ تتجنبي كل نزاع؟ ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أنَّ باستطاعتك أنْ تتجنّبي الألم؟ أو الشغف؟ هناك ما يُقال عن الشغف. ألا تسامحين نفسك وتغفرين لها؟».

«يبدو أني لا أستطيع. المشكلة هي أني متزمتة في أعماقي. إنَّ كل الكتّاب الإباحيين متزمتون».

قال: «أنتِ حتماً لستِ كاتبة إباحية».

«كلا، ولكن يبدو أنه شيء حسن. أنا أحب لفظ الكلمة. الجناس».

ابتسم الدكتور هابه. هل كان يعرف معنى «جناس»؟ تساءلتُ. وتذكرتُ كيف كنتُ دائماً أسأله إن كان يفهم لغتي الإنكليزية. لعله على مدى عامين ونصف يفهم أيّ شيء.

قال: «أنتِ متزمتة فعلاً، ومن أسوأ نوع. إنكِ تفعلين ما تشائين لكنكِ مُثقلة بالشعور بالذنب بحيث لا تستمتعين بذلك. فما الهدف من هذا؟». كان هابه، خلال فترة منفاه في لندن، قد تعلّم بعض اللغة الإنكليزية. وأذكر أنه كان يحب تعبير «في الواقع».

قلت: «هذا ما أردتُ معرفته».

«لكنّ أسوأ شيء هو إصرارك دائماً على أنَّ حياتك عادية. حتى وإنْ خضعتِ للتحليل النفسي، قد لا تكون حياتك بسيطة. لماذا تتوقعين أنْ تكونَ كذلك؟ لعل هذا الرجل يشكّل جزءاً منها. ولكن لماذا أنتِ مُضطرة إلى رمي كل شيء قبل أنْ تمنحي نفسك فرصة لاتّخاذ قرار؟ ألا تنتظرين لتري ماذا سيحدث لاحقاً؟».

«أستطيع أنْ أنتظر إنْ كنتِ حذرة - لكنني أخشى أنني أواجه صعوبة في اتّخاذ الحذر».

قال: «إلا في كتابة الرسائل، فأنت حذرة جداً».

قلت: «لم أعد كذلك».

ثم بدأت الاجتماعات تتسع ونهضنا، وتصافحنا، وقلنا وداعاً. وبقيتُ وحدي أفكر في ورطتي. لم يكن هناك شخص أكبر مني هذه المرة لينقذني.

أمضيت مع بينيت ليلة طويلة من تبادل الاتهام، وتساءل إنْ كنا سنلجأ إلى الانفصال التجريبي أم إلى الانتحار المزدوج، مُعلنَين عن حبنا المتبادل، وكراهيتنا المتبادلة، وتناقضنا مع بعضنا. تضاجَعنا، صرخنا، بكينا، وتضاجعنا من جديد. لا فائدة من الخوض في تفاصيل هذا كله. وفي وقت ما كان يمكن أنْ أفكر في زيجة ظريفة كما يحدث في إحدى مسرحيات أوسكار وايلد الهزلية، مع تفاصيل جنسية هشّة، مأخوذة من روايات أيريس مردوك، ولكن كان يجب أنْ أعترف بأنَّ طبيعة شجاراتنا كانت أشبه بمسرحية سارتر ***«لا مفر»*** - أو أسوأ كما في ***«بينما العالم يدور»***[١٢].

في الصباح، توجهنا مرهقَين إلى مقر المؤتمر، وأصغينا إلى الملاحظات الختامية حول العدوان التي ألقتها آنا فرويد وإلى آخرين من أصحاب المقام الرفيع (من بينهم أدريان، الذي قرأ أطروحةً كنتُ قد كتبتُها بالنيابة عنه قبل ذلك ببضعة أيام).

بعد الاجتماع، وبينما بينيت يتحدث مع بعض الأصدقاء من نيويورك، بقيت أنا مع أدريان.

قال: «تعالي معي. سوف نقضي وقتاً ممتعاً - ملحمة أسطورية».

«أنت تغويني، ولكن لا أستطيع».

«ولِمَ لا؟».

---

١٢ - **«بينما العالم يدور»**: مسلسل تلفزيوني أميركي أُذيع بين عامَيْ ١٩٥٦ و٢٠١٠. - المترجم

«دعنا من الخوض في هذا من جديد - *من فضلك*».

«سأكون موجوداً بعد الغداء، يا حبيبتي، إذا غيَّرت رأيك. يجب أنْ أتحدث مع بعض الأشخاص بين حينٍ وآخر ومن ثم أعود إلى الفندق وأحزم أمتعتي. سوف أبحث عنكِ بعد الغداء عند حوالي الساعة الثانية. إذا لم أجدك، سأنتظر مدة ساعة أو نحوها. حاولي أنْ تتخذي قرارك، يا حبيبتي. لا تخافي. يمكن لبينيت أنْ يأتي أيضاً، طبعاً». رسم ابتسامته الغريبة وأرسل لي عبر الأثير قبلة. «إلى اللقاء، يا حبيبتي»، وانطلقَ مُسرعاً. ومجرد التفكير في أني قد لا أراه من جديد أوهن ساقيّ.

بات الأمر منوطاً بي الآن. سوف ينتظر. كان أمامي ثلاث ساعات ونصف لأقرر مصيري. ومصيره. ومصير بينيت.

وددتُ لو أقول إنني نفّذت الأمر بصورة رائعة أو بلا مبالاة أو حتى بسفالة. السفالة وحدها يمكن أنْ تُشكّل ما يُشبه الأسلوب الخاص. يمكن أنْ تتصف بحيوية خاصة بها. لكنني فاشلة حتى في السفالة. شرِقت. تذلّلت، تفكّرت، وحلّلت. لقد كنتُ مُضجرة حتى بالنسبة إلى نفسي.

عبّرت عن ألمي وأنا أتناول طعام الغداء في الحديقة العامة مع بينيت. وعبّرت عن ألمي من ألمي. وعبّرت عن ألمي في مكتب محطة قطار الأميركان إكسبريس حيث وقفنا، عند الساعة الثانية، نحاول أنْ نُقرر ما إذا كنا سنشتري بطاقتين للذهاب إلى نيويورك أو إلى لندن أو بطاقة واحدة أو لا نشتري أبداً.

كان كل شيء موحشاً جداً. ثم فكّرتُ في ابتسامة أدريان وفي احتمال ألا أراه من جديد وفي فترات بعد الظهيرة التي أمضيناها في السباحة وإلقاء النكات وفي الانسياب بالسيارة كما في حلم نمل في

أرجاء فيينا فهرعتُ خارجة من محطة الأميركان إكسبريس كالمجنونة (تاركة بينيت واقفاً هناك) ورحت أركض في الشوارع. قعقعت بصندلي ذي الكعب العالي على حجارة رصف الطرقات، ولويت كاحلي مرتين، وأجهشت بالبكاء بصوت عال، وتشوّه تعبير وجهي بخطوط مساحيق التجميل. كل ما فكّرتُ فيه هو أنني يجب أنْ أراه من جديد. تذكرتُ كيف كان يزعجني باتّباعه الأسلوب الآمن. فكّرت فيما قاله عن الشجاعة، وعن الغوص إلى أعماق نفسك والتحديق إلى ما تعثر عليه. فكّرت في كل قواعد الفتاة الطيبة الحذرة التي عشت على أساسها - الطالبة المُجتهدة، والابنة المُطيعة، والزوجة المُخلصة المُذنبة التي لا ترتكب الزنا إلا في مُخيلتها - وقررت أنْ أكون ولو مرة واحدة شجاعة وأتبع مشاعري مهما كانت العواقب. فكّرتُ في الدكتور هاب وهو يقول: «أنت لست سكرتيرة، أنت شاعرة - فلماذا تتوقعين ألّا تكون حياتك معقّدة؟». وفكّرت في د.هـ. لورنس وهو يهرب من زوجة مدرّسه الخصوصي، وفي روميو وجولييت وهما يحتضران في سبيل الحب، وفي آشنباخ وهو يُلاحق تادزيو في أرجاء البندقية المزعجة[١٣]، وفي كل الأشخاص الحقيقيين والوهميين الذين استعادوا نشاطهم وأحرقوا جسورهم وانطلقوا إلى المدى الأزرق الوحشي. لقد كنتُ واحدة *منهم!* لم أكن ربّة منزل خائفة. بل كنتُ أحلّق.

خوفي كان من أنَّ أدريان غادر من دوني. وأسرعت في الركض، وتهت في الشوارع الخلفية. لقد كنتُ في حالة دوار طوال فترة وجودي في فيينا حتى إنني لم أكن أعرف الطريق من نقطة إلى أخرى على الرغم من أنني كنت أتنقّل بينها جيئة وذهاباً خلال تلك الشوارع مرات عديدة. وفي غمرة خوفي لم أر إشارات في الشوارع، بل رحت

١٣ - إشارة إلى أحداث رواية توماس مان «**موت في البندقية**». - المترجم

أسرع قُدُماً بحثاً عن أبنية أتعرَّفُ إليها. إنَّ تلك القصور اللعينة المبنية على طراز الروكوكو كلها متشابهة! وأخيراً لمحتُ تمثالاً لفارس بدا لي مألوفاً. ثم كان هناك فناء وممر (كنتُ ألهثُ لأستردّ أنفاسي) ثم فناء آخر وممر آخر (كنتُ أتصبَّب عرقاً) إلى أنْ وصلتُ أخيراً إلى فناء ممتلئ بالسيارات ولمحتُ أدريان متكئاً باسترخاء على سيارته ويُقلِّب صفحات مجلة.

قلت، لاهثة: «ها أنا ذي! كنتُ أخشى أنْ تغادر من دوني».

«وهل أفعل شيئاً كهذا، يا حبيبتي؟».

(كان سيفعل! كان سيفعل!).

قال: «سوف نقضي وقتاً ممتعاً».

انطلقَ بسيارته إلى الفندق مباشرة من دون أنْ يُضيع الطريق ولا مرة. في الطابق العلوي، وضعت ملابسي في الحقيبة (الثوب المُزيَّن بالترتر من الحفل، وثوب السباحة المُبلل، وقمصان النوم، ومعطف واق من المطر، وأثواب من الصوف خاصة بالسفر - وضعت كل شيء بشكل مُجعّد ومكوَّم معاً). ثم جلستُ لأكتب رسالة قصيرة إلى بينيت. ماذا بوسعي أنْ أقول فيها؟ كان العرَق ينهمر مع الدموع. بدت الرسالة أقرب شَبَهاً برسالة حب منها برسالة تعلن انفصالنا. قلت إنني أحبه (وهذا صحيح). وقلت إنني لا أعلم لماذا يجب أنْ أرحل (وهذا صحيح) وإنني شعرت بحاجتي اليائسة إلى أنْ أفعل ذلك (وهذا صحيح)، وإنني آمل في أنْ يغفر لي. عبّرتُ عن أملي في أنْ نفكر في حياتنا وأنْ نحاول من جديد. تركتُ له عنوان الفندق في لندن حيث كنا قد خطّطنا أصلاً للبقاء معاً. لم أكن أعلم إلى أين أنا ذاهبة، ولكن كنتُ ربما سأذهب إلى لندن. تركتُ له عدداً من أرقام الهواتف لأناس أنوي أنْ أقابلهم في لندن. لقد أحببته. ووددتُ لو يُسامحني. (كان

طول الرسالة قد بلغ عند هذه النقطة صفحتين). لعلي واصلت الكتابة لكي لا أغادر. كتبتُ أقول إنني لا أعلم ماذا أفعل (وهذا صحيح). كتبتُ أقول إنني أشعر باضطراب شديد (وهذا صحيح). وبينما كنت أكتب «أحبّك» للمرة العاشرة دخل بينيت.

قلت وأنا أبكي: «إني راحلة. كنتُ أكتبُ لك رسالة ولكن الآن لم أعُد بحاجة إلى ذلك»، وباشرت بتمزيق الرسالة.

انتزعها من يدي، وهو يقول: «لا تفعلي! إنها كل ما تبقّى لي منك».

ثم بدأتُ أبكي بكاءً حاراً بنشيج طويل فظيع. ناشدته «أرجوك، أرجوك، سامحني». (الجلاد يسأل المحكوم بالإعدام أنْ يسامحه قبل أنْ يقطع عنقه).

قال ساخراً: «لستِ بحاجة إلى الغفران». وبدأ يرمي أغراضه إلى الحقيبة التي كنا قد حصلنا عليها كهدية عرس من الصديق الذي عرّف كلاً منا إلى الآخر. كان زواجاً طويلاً وسعيداً. هناك الكثير من الأسفار على طريق الحياة.

هل اخترعتُ هذا المشهد كله لمجرّد كونه مشحوناً؟ لم أحبّه يوماً كما أحببته عندئذ. لم أشتق يوماً إلى البقاء معه كما اشتقت عندئذ. أكان ذلك هو سبب اضطراري إلى الرحيل؟ لِمَ لم يقُل «ابقي، ابقيّ - أنا أحبّك»؟. إنه لم يفعل.

قال، وهو يرمي بالنشرات السياحية وأشياء تافهة أخرى داخل حقيبته. تلكأنا عند المنضدة لندفع الحساب. كان أدريان ينتظر في الخارج. ليته رحل! لكنه انتظر. أراد بينيت أنْ يعرف إنْ كان في حوزتي شيكات سياحية وبطاقة ائتمان أميركان إكسبريس. هل أنا على ما يُرام؟ كان يحاول أنْ يقول «ابقي، أنا أحبك». كانت تلك طريقته في قولها، لكنني كنتُ مسحورة إلى درجة أني فسّرته بأنه «ارحلي!».

قلت من جديد، وأنا أرتعش: «يجب أنْ أرحل بعض الوقت».

«لن تكوني وحيدة – أنا سأكون كذلك» وهذا صحيح. إنَّ المرأة المُستقلة حقاً يمكن أنْ تذهب إلى الجبال وحدها وتتأمّل – لا أنْ ترحل مع أدريان غودْلَفْ في سيارة متهالكة.

كان منبوذاً، وتلكأتُ وتلكأتُ.

«ماذا تنتظرين بحق الجحيم؟ لِمَ لم تذهبي؟»».

«إلى أين ستذهب؟ أين أجدكَ؟»».

«أنا ذاهب إلى المطار. سأعود إلى الوطن. قد أذهب إلى لندن وأرى إنْ كان باستطاعتي أنْ أسترجع قيمة بطاقة الطائرة أو قد أتوجه مباشرة إلى أرض الوطن. لا يهمني. لماذا تهتمين؟»».

«أنا أهتم. أنا أهتم».

«أراهن على هذا».

هنا حملتُ حقيبتي وخرجت من الفندق. ماذا كان في وسعي أنْ أفعل غير ذلك؟ لقد وضعت نفسي في موقف صعب، وأقحمتها في هذه المؤامرة المبتذلة. حينئذ كانت قد تحولتْ إلى رهان، أو تحدّ، أو لعبة روليت روسيّة أو اختبار للأنوثة. لم يعد هناك مجال للتراجع. كان بينيت واقفاً هناك بهدوء تام، يحفظ ماء وجهه. كان يضع ياقة ضيقة حمراء براقة. لماذا لم يخرج مسرعاً ويُسدد لكمة قوية إلى فك أدريان؟ لماذا لم يُدافع عمّا هو ملكه؟ كان يمكن أنْ يتبارزا في غابات فيينا باستخدام مجلدات فرويد ولينغ كتروس. كان بوسعهما أنْ يتبارزا بالكلمات على الأقلّ. كانت كلمة واحدة من بينيت تكفي لأبقى. ولكن لم يحدث شيء من هذا. لقد افترضَ بينيت أنَّ من حقي أنْ أرحل. وكان عليّ أنْ أستخدم ذلك الحق حتى وإنْ كان الآن يُسبب لي الاشمئزاز.

قال أدريان، وهو يضع حقيبتي داخل صندوق السيارة، التي كان

يُسميها «الجزمة»، «لقد غبت أكثر من ساعة، يا حبيبتي». وغادرنا فيينا كائنين من المنفيين هاربَين من النازيين. على الطريق وفي أثناء مرورنا بالمطار وددتُ لو أقول «توقف! أنزلني هنا! لا أريد أن أذهب!». تخيّلتُ بينيت واقفاً وحده بياقته الضيقة الحمراء، بانتظار وصول طائرة ما متوجهة إلى مكان ما. لكنَّ الوقت كان قد فات. كنتُ أخوض تلك المغامرة بخيرها وشرّها ولم أكن أعلم إلى أين ستحملني.

(١١)

إعادة النظر في الوجودية

... تقول الوجودية
إنهم في حالة من اليأس التام، ومع ذلك
يستمرون في الكتابة.

● و. هـ. أودن

عندما ربطتُ مصيري بمصير أدريان غوذْلَف، ولجتُ عالماً كانت القواعد التي عشنا على أساسها هي قواعده - على الرغم، طبعاً، من أنّه تظاهر بأنه لا وجود لقواعد. فمثلاً، كان ممنوعاً أنْ أسأل ماذا سنفعل في الغد، إذ لا يُفتَرَض بالوجوديين أنْ يذكروا كلمة «غد»؛ كان ينبغي حذفها من قاموسنا. وكان ممنوعاً الحديث عن المستقبل أو التصرُّف كما لو أنَّ للمستقبل وجوداً، فلا وجود للمستقبل؛ فقط قيادة السيارة موجودة ومواقع ضرب خيامنا والفنادق؛ فقط أحاديثنا موجودة والمنظر الممتد خارج حاجز السيارة [حرفياً تعني حاجز الريح][1] (الذي سمّاه أدريان «ستارة الريح»). كان الماضي خلفنا - كنا نسترجعه أكثر فأكثر لتجزية الوقت وللتسلية (كما يعمد الآباء إلى اختراع الألعاب حول المواقع الجغرافية أو تخمين عنوان

١ - ما بين المعكوفين من وضع المترجم.

أغنية لأطفالهم الضجرين خلال رحلات طويلة بالسيارة). كنا نحكي حكايات عن ماضينا، نزيِّنها، نزخرفها ونُغنيها بالدراما كما يفعل الروائيون. طبعاً كنا نتظاهر بأننا نقول الحق، كل الحق ولا شيء غير الحق، ولكن لا أحد (كما يقول هنري ميللر) يستطيع أنْ يقول الحقيقة المُطلقة؛ وحتى البوح بما يبدو أسرارنا الخاصة كان مُختلَقاً جزئياً - أو باختصار، أدب. اشترينا المستقبل بالحديث عن الماضي. أحياناً شعرت كأنني شهرزاد، أُسلّي مِلكي بحكايات فرعيّة لكي أُبقي الحبكة الرئيسة بعيدة عن النهاية السريعة. كان باستطاعة أي منا (نظرياً) أنْ يعترف بهزيمته عند أية نقطة، لكنني أخشى أنَّ أدريان كان أقرب إلى أنْ يفعل ذلك مني، وأنَّ أمر تسليته هو مشكلتي أنا. وعندما يتكشف لي أنني وحدي مع رجل على امتداد أيام طويلة، أدركُ أكثر من أي وقت آخر كم أنا بعيدة عن التحرُّر. إنَّ حافزي الطبيعي هو أنْ أتملق. وكل تمرّدي المدَّعى ليس إلا ردّة فعل على عبوديتي العميقة.

فقط عندما تُحرَم من الحديث عن المستقبل تُدركُ فجأةً كم أنَّ المستقبل يحتل بصورة طبيعية الحاضر، وكم تُبدِّد عادةً من الحياة اليومية في وضع الخطِط ومحاولة التحكم في المستقبل. لا عليك إذا لم تتمكن من التحكم فيه. إنَّ فكرة المستقبل هي تسليتنا الكبرى، متعتنا، ووسيلتنا لقتل الوقت. استبعدها ولن يبقى إلا الماضي - وحاجب الريح مُبقَّع بحشرات ميّتة.

لقد وضع أدريان القواعد، ولكن كان لديه أيضاً ميل إلى تغييرها باستمرارها لكي تناسبه. من هذه الناحية، يُذكّرني بأختي الكبرى راندي عندما كنا أطفالاً. فقد علَّمتني لعبة النرد وأنا في السابعة (وكانت هي في الثانية عشرة) وكانت تغيِّر قواعد اللعبة من دقيقة إلى أخرى حسب الرقم الذي يظهر لها. وبعد جلسة مدتها عشر دقائق معها، تسلب كامل محتوى حصّالتي الذي ادّخرته بعناية، بينما ينتهي

بها الأمر (وكانت قد بدأتْ مُفلسة) ثرية كسكاي ماسترسون[٢]. ومهما ابتسم لي الحظ كان ينتهي بي الأمر إلى الخسارة.

وتقول أختي: «لقد ربحتُ - يا صاحبة عينيّ الأفعى!».

«أحقاً؟» (كنتُ أدّخر الدولار مصروفي كنملة بينما تُنفق هي مصروفها كجندب - ولكن كانت دائماً تنتهي إلى أنْ تصبح ثرية وأصبح أنا مُفلسة). إنها مخاطر الطفل الأول. وأنا الطفل الثاني دائماً. في الواقع، لقد وُلِدَ أدريان في العام نفسه الذي وُلِدَت فيه راندي (١٩٣٧) وكان لديه أيضاً أخٌ أصغر منه أمضى سنين عديدة يتعلّم كيف يتنمّر عليه. وسرعان ما فهمنا أساليب السلوك القديمة ونحن نشق طريقنا في متاهة أوروبا العتيقة.

تعرّفنا إلى الفندق العائلي النمساوي الشحيح بستائر صالونه البيضاء، وبعتبات نوافذه الممتلئة بنبات الصبّار، وبصاحبته ذات الوجنتين المتوردتين (التي كانت دائماً تسألنا كم ولداً لدينا - وكأنها نسيتْ ما أخبرنا به نظيرتها قبل بضعة كيلومترات)، وسريره المزدوج الخاص ذي الفراش المُقسَّم إلى ثلاثة أجزاء أفقيّة (المنخفضات تبدو كعلامات جسدية استراتيجية - كالثديين والأعضاء التناسلية - بحيث إنك دائماً تستيقظ في منتصف الليل وتجد أنَّ إحدى حلمتيك، أو خصيتيك كما أعتقد، محشورة بين الجزء الأول والجزء الثاني أو بين الجزء الثاني والجزء الثالث). وتعرّفنا إلى الأسرّة النمساوية المحشوة بالريش التي تُبلّلك بالعَرَق في أثناء الساعات الأولى من الليل، وتنزلق إلى الأرض بفعل السحر حالما تبدأ بالاستغراق في النوم، وتقضي الليل بطوله وأنت تسترجعها، وأخيراً توقظك بشفتين وعينين متورمة من

---

٢ - سكاي ماسترسون: شخصية مقامر في مسرحية غنائية تحولت إلى فيلم سينمائي عام ١٩٥٥ عنوانها «شباب وصبايا». - المترجم

قرون من الغبار العتيق (وأشياء أخرى أسوأ تسبّب الحساسية) كانت حبيستها.

تعرَّفنا إلى وجبات إفطار الفندق المؤلفة من لفائف قاسية باردة، وعبوات صغيرة من مربى المشمش بتغليف المصنع، وكميات هزيلة من الزبد، وأكواب عملاقة من القهوة بالحليب تعلوها طبقة توحي بالمرض. وتعرَّفنا إلى الموقع الأشد تواضعاً للمخيَّم، بما يفوح من رائحة فاسدة، وإلى حوض طويل من القصدير من أجل غسل الوجه وتنظيف الأسنان، وحفرة للسباحة كريهة الرائحة تنتج البعوض (كان أدريان يسبح فيها على الدوام)، ومواطنين ألمان مرحين فتحوا حديثاً لامعاً حول خيمة أدريان الواقية (التي كنا ننام فيها على وهج قماش النايلون الكهربائي الأزرق) واستجوبونا عن حياتنا كجواسيس ذوي خبرة عالية. وتعرَّفنا إلى المطاعم الألمانية الآلية على الطرق السريعة بأطباقها من السوكروت وسجق النوكفورست، وإلى مزلجتها من ورق النشاف تعلن عن أحد أنواع البيرة، ومراحيضها ذات الروائح الكريهة مدفوعة الأجرة، وآلات بيع الصابون والمناشف والواقيات الذكرية. وتعرَّفنا إلى حدائق تقديم البيرة الألمانية ذات الطاولات الدبقة ونادلات في منتصف العمر ضخمات الصدور والملابس الخاصة، وإلى سائقي شاحنات السكارى أطلقوا عليّ أوصافاً بذيئة لدى مروري بخطى متعثرة متوجهة إلى المرحاض.

في المعتاد كنا نسكر بدءاً من الظهيرة فصاعداً، نقود السيارة بتمايُل باليد اليُمنى على الطريق السريعة، ونقوم بانعطافات خاطئة في كل مكان، تتبعنا عن كثب سيارات الفولكسفاغن بسرعة ٨٠ كم في الساعة، وسيارات المرسيدس بنز التي تومض بأضوائها الأمامية بعدائيّة وتسير بسرعة ١١٠، وسيارات الـ BMW التي تحاول أنْ تسبق سيارات المرسيدس بنز. كان يكفي الألماني أنْ يرى لوحات

الإجازة الإنكليزية حتى ينطلق ويدفع بنا إلى حافة الطريق. وكان أدريان أيضاً يقود بسرعة مجنونة، ماراً على الجانب الخطأ، متمايلاً على المسار وخارجه، سامحاً للألمان أنْ يُثيروا غضبه ويحاول أنْ يتجاوزهم. كنتُ أشعر بالرعب جزئياً بسبب ذلك، لكنني كنتُ أيضاً أشعر بالإثارة. لقد كنا نعيش على حافة الخطر. وكان ممكناً أنْ نُقتَل في حادث تحطّم رهيبة تمحو كل أثر لوجهينا وآثامنا. على الأقلّ كنتُ متيقّنة من أنني لا أشعر بالملل.

إنني، كغيري ممَّن يشغلهم التفكير في الموت، ويكرهون ركوب الطائرات، ويتفحّصون أدقّ تجاعيد وجوههم في المرآة وينتابهم خوفُ مَرَضيَ من أعياد الميلاد، ويمسسهم القلق من الموت بسبب مرض السرطان أو الورم الدماغي أو الإصابة المفاجئة بتمدُّد الأوعية الدموية، أكره الموت. يمكن أنْ أمرض من الانتقال جيئة وذهاباً من نيويورك إلى واشنطن، ولكن وأنا أقود سيارة رياضية أنطلق بسرعة ١١٠ دون تردّد وأحب كل دقيقة مرعبة. إنَّ إثارة معرفة أنني أصنعُ موتي بيدي أشدّ متعة من الرعشة الجنسية. لا بد أنْ هذا يُشبه شعور رجال الكاميكازي، وهم يصنعون بأنفسهم محرقتهم التي تلتهمهم، بدل أنْ ينتظروا أنْ تباغتهم المحرقة ذات صباح وهم آمنون في أسرَّتهم في هيروشيما أو ناغازاكي.

هناك سبب آخر لمغالاتنا في شرب الخمر: أعني نوبات كآبتي. كنتُ أتراوح بين الانتعاش واليأس (كراهيتي لنفسي بسبب ما اقترفت، ويأس شديد لأنني وحدي مع رجل لا يُحبني، وألمي على مستقبل ممنوع عليّ أنْ آتي على ذكره). إذن سكرنا، ووسط ضحكنا المكبوت وسلوك السكارى الغريب، يتلاشى اليأس. طبعاً، لم يكن يتلاشى تماماً أبداً، بل يُصبح تحمّله أسهل. كأنْ تسكر على متن طائرة لكي تُخفف من وطأة خوفك من الطيران. وتبقى مُعتقداً أنك ستموت كلما تغيّر

ضجيج المحركات، لكنكَ لا تعود تأبه لذلك. بل إنكَ تكاد تُحب الفكرة. تتخيَّل نفسك تنزلق من الغيوم الزغبية إلى محيط أزرق مملوء بأعزّ ذكريات الطفولة.

تعرَّفنا إلى مواقف سيارات الشحن الفرنسية المزوَّدة بآلات صنع الإسبريسو الايطالية التي تُقدِّم قهوة كثيفة ممتازة. وتعرَّفنا إلى مسرات البيرة الألزاسيّة وصناديق الدرّاق التي يبيعها المزارعون على قارعة الطريق. عرفنا أننا موجودان في فرنسا عندما تحول لون أضواء السيارات الأمامية من الأبيض إلى لون أصفر المستردة وأصبح الخبز لذيذ الطعم. وتعرّفنا إلى أشدّ أجزاء فرنسا قُبحاً، تلك الأرض السيئة السمعة المجاورة للحدود الألمانية حيث الطرقات مُكسّرة تجعل القوافل المزدوجة تتلوى والفرنسيون يرفضون أنْ يُصلحوه، قائلين إنَّ الألمان يصلون إلى باريس بسرعة كافية في كل الأحوال. وتعرُفنا إلى سلسلة لا تنتهي من الأنزال[٣] الرخيصة مزودة بمصابيح كهربائية ضعيفة ومراحيض نساء يعجّ فيها الذباب (تبولنا فيها لأننا كرهنا الخروج إلى مرحاض الرواق القذر الذي لا يُضيء المصباح فيه إلا بعد أنْ تكسر أظافرك وأنت تدير قفل الباب). وتعرَّفنا إلى موقع مخيم أكثر أناقة مزود بمرحاض داخلي وبار وصندوق موسيقى يهدر بأغاني البيتلز. لكننا في أغلب الأوقات (بما أننا في شهر آب وكل شخص في أوروبا يقضي إجازته في مخيَّم مع أطفاله الاثنين ونصف)، كنا نعثر على أفضل مواقع التخييم مشغولة واضطررنا إلى نصب خيمتنا على جانب الطريق (والتغوّط في وضعية القرفصاء والأعشاب تدغدغ مؤخرتينا وذباب الخيل يطنّ بصورة شنيعة حول فتحات شرجنا لكي تستقر على البراز الحديث). وتعرُفنا إلى الـ Autostrada del Sole

٣ - أنزال: جمع نُزُل: فنادق على طريق السفر. - المترجم

(طريق الشمس السريعة)[٤] بما تتصف به من تعذيب بافيس[٥] الذاتي المتواصل - ورؤى فيلليني بالحلوى المغلّفة بورق السيلوفان، وجبال من الدمى، وبراميل خبز البانيتون، وأوعية المربى المربوطة بشرائط الهدايا، ودراجات ثلاثية الدواليب تجرّ سُفناً من الكراميل. وتعرّفنا إلى مجانين إيطاليين، يسرعون بسياراتهم الفيات بسرعة ٩٠ ميلاً في الساعة، لكنهم دائماً يتوقفون لكي يرسموا علامة الصليب على أنفسهم ويُسقطوا بضع ليرات في صندوق معونات يحمله يسوع يقف على قارعة الطريق. وتعرّفنا إلى عدد من المطارات الكبرى والصغرى في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، لأنه عند تلك النقطة من النهار بعد أنْ يتلاشى تأثير الجولة الثانية من البيرة ويُبرز إحساسي الهائل بالاكتئاب وجهه القبيح من جديد (إلى جانب أعراض ثانوية كالصداع وعواقب السُكر)، يُصيبني الرعب وآمرُ أدريان بإيصالي إلى أقرب مطار. ولم يكن يرفض أبداً. آه كان يلزم الصمت ويُبدي خيبة أمله فيّ، لكنه لم يكن أبداً يُعارض بصورة مباشرة أية رغبة لي أفصحتُ عنها بوضوح. ونتوجه إلى أقرب *Flughafen* أو *aeroporto* (مطار)، ونتوه ونسأل عن الاتجاهات مرات عدّة على طول الطريق. وعندما نصل إلى هناك نجد دائماً أنَّ الطائرة التالية لن تُقلع إلا بعد يومين، أو أنَّ المقاعد

---

٤ - الطريق العامة الشهيرة التي تسمّى طريق الشمس السريعة هي طريق سريعة شُقّتْ في إيطاليا وتمتد من ميلانو في أقصى الشمال مروراً ببولونيا وفلورنسا وروما وانتهاءً بنابولي. بدأ شقّها في عام ١٩٥٦ وافتُتِحَت في عام ١٩٦٤، وهي جزء من شبكة طرق أوروبية سريعة. - المترجم

٥ - سيزار بافيس (١٩٠٨ - ١٩٥٠): شاعر وروائي وناقد أدبي ومترجم إيطالي. اعتُبِرَ أحد أعظم الكتّاب في القرن العشرين في بلده. انضم إلى الحركة المناهضة للفاشية ونُفيَ داخلياً إلى جنوب إيطاليا، وأُفرِجَ عنه بعد عام. وبعد سلسلة من الإحباطات السياسية والعاطفية انتحر بعد أنْ نال جائزة ستريغا على كتابه «La bella estate». - المترجم

محجوزة كلها (أوروبا في شهر آب: الناس كلها في إجازة)، او انها أقلعت قبل دقيقتين. ثم يكون هناك بار في المطار ونشرب المزيد من البيرة ويُقبّلني أدريان ويمزح معي ويعصر مؤخرتي بحب ونتحدث عن مغامرتنا المشتركة. وننطلق من جديد بروح عالية. ففي كل الأحوال، لم أكنْ متيقّنة من أنَّ لديّ أي مكان آخر أذهب إليه.

كانت جولتنا أبعد ما يمكن عن الرحلة الممتعة والمريحة. فإنْ كنا نسير بحركة دائرية وملتوية وندور ضمن دوائر، فذلك لأنَّ خط رحلتنا لم يتخذ شكله من نقاط علام أو إعلانات إطارات السيارات ميشلان الجذابة ذات النجوم الثلاثة، بل من تقلبات مزاجي المُدوّخة - وأيضاً، إلى حدّ ما، من تقلبات مزاج أدريان. كنا نتنقّل من اكتئاب إلى اكتئاب، وندور بين جولات المرح والشرب، واللحظات الممتعة. لم يكن لخط رحلتنا إيقاع جغرافيّ أو سبب، ولكن طبعاً، لا أستطيع أنْ أدرك إلا عندما أسترجع الأحداث، وأرتّب أسماء الأماكن التي زرنا في جدول. فقد استقرينا فترة كافية في سالزبرغ بحيث نقوم بزيارة *Geburtshaun* (مسقط رأس) موتسارت، وأكلنا حتى الشبع من الـ *Leberknodel* (زلابية الكبد)، ونمنا نوماً متقطّعاً ومن ثم تابعنا طريقنا إلى ميونيخ. ثم تجولنا في أنحاء ميونيخ وجبال الألب التي بعدها، وقمنا بزيارة قلاع متنوعة بناها الملك المجنون لودفيغ البافاري، وارتقينا الطريق المتعرجة المؤدية إلى الـ *Schloss Neuschwanstein* (قلعة نوشفانشتاين) وسط سيل مُفاجئ من المطر، وجلنا القلعة مع جيش من ربات البيوت الشبيهات بحبات البندورة ينتعلن أحذية مُشوّهة ويمررن بنا وهن يُصدرن ضجيجاً حَلقياً بلغتهن السلسة ويستحيل لون وجوههن أحمر من فرط الافتخار بإرثهن الوطني المجيد من فاغنر، وسيارات فولكسفاغن، والخنازير البرية.

أذكر الريف المحيط بنوشفانشتاين بصفاءٍ كابوسيّ: جبال الألب

كما في صور البطاقات البريدية، والسحب المشتبكة مع ذُرى الجبال المُثلّمة، والأصابع الملتهبة للثلج العتيق التي تنحت حواف الجبال، والقرون الصامتة للذرى التي تواجه السماء الزرقاء المفعمة بالدخان، والمروج الخضراء المخملية في الوديان (منحدرات التزلج للمبتدئين في الشتاء)، والبيوت البيضاء والبنيّة ذات أسقف الشاليهات المرتّبة كما في لعب الأطفال.

إنَّ أشهر قلعة في ألمانيا ليست في شفيتزينغن أو في شباير، أو هايدلبرغ أو هامبرغ، أو بادن - بادن أو روتنبرغ، أو برختسغادن أو برلين، أو بايروث أو بامبرغ أو كارلسروهه أو كرانيشتاين، أو في غلينغن او إلتز - بل في ديزني لاند، كاليفورنيا. مذهلٌ كم يُشبه والت ديزني الملك المجنون لودفيغ البافاري في الذهنية. فقلعة لودفيغ نوشفاشتاين هي نسخة مزيّفة نابضة بالحياة من القرن التاسع عشر لقرون وسطى لا وجود لها. إنَّ قلعة ديزني هي زيف الزيف.

لقد ذُهلت خاصة بكهف لودفيغ الجيريّ المزوَّد بتدفئة مركزية وبصواعد مُضاءة بأضواء نيون خضراء، وبجدارياته لمشاهد من أوبرا سيغفريد وتانهاوزر (تبيّن إلهات شقراوات بصدور ناعمة كالراتينج ومحاربين شُقر اللحى يتكئون في وديان خضراء على صخور تكسوها الطحالب). فتنتني صورة لودفيغ بعينيه اللتين يطل منهما جنون الارتياب. وفي كل مكان من القلعة هناك دليل على كل ما هو شديد الابتذال، والعاطفية وإثارة للاشمئزاز في الثقافة الألمانية - خاصة ذلك الإيمان المتباهي المعتز بنفسه بروحانية «سلالتهم»: نحن شعب *geistig* (عقلي)، مشاعرنا عميقة، ونحب الموسيقى، ونحب الغابات، ونحب وقع الخطى العسكرية...

لاحظْ آلهة الحب والحمائم تحوم حول تانهاوزر الذي يميل على صخرةٍ جيرية رمادية ومتكئاً بمرفقه الصقيل المرسوم على الجوخ

المفرط الحداثة وينهمر من كفليّ إلهة الحب الضخمين. ولكن لاحظ خاصة كيف أنَّ في هذه القلعة، وفي هذه اللوحات، وهذا البلد (كما في ديزني لاند) - لا شيء يُترَك للمُخيلة. كل ورقة نبات رُسمَتْ وظُلِّلَتْ برهافة؛ وكل ثدي يوجّه حلمته البسيطة إليك كعين أحمق؛ وكل ريشة في جناح إله الحب ملموسة حتى الارتعاش. لا مخيلة - هذا هو الحيوان.

بعد ميونيخ وما حولها، اتجهنا شمالاً حتى هايدلبرغ (نتوقف، ندور ونتعرَّج في مسارنا على طول الطريق)، وسرنا على الطريق السريعة حتى بازل (الشوكولا السويسرية، وكاتدرائية سويسرية - ألمانية من الحجر الرملي الصلب تطل على نهر الراين)، ثم إلى ستراسبورغ (وطن كبد الإوز المحشو والبيرة الرائعة)، كانت جولة جامحة ملتوية المسار على الدروب الخلفية المؤدية بصورة أو بأخرى إلى باريس، ثم انحدرنا خلال جنوب فرنسا، إلى إيطاليا (عبر الريفييرا)، وجنوباً حتى فلورنسا، ثم شمالاً من جديد إلى فيرونا والبندقية، عبر جبال الألب، خلال تيتشينو وإلى النمسا من جديد، ثم شمالاً إلى ألمانيا من جديد، ثم إلى فرنسا، وأخيراً إلى باريس، للمرة الأخيرة، حيث الحقيقة (أو إحداها) تكشّفتْ لي لكنها لم تُحررني (حتى الآن).

على الرغم من أنَّ خط السير غير الوافي يبدو لا يُصدَّق، إلا أنَّ الشيء الذي لا يُصدَّق أكثر من هذا هو عندما تُدرك أنَّ الرحلة كلها لم تستغرق أكثر من أسبوعَين ونصف. وأكاد أقول إننا لم نشاهد أي شيء. كنا نقود السيارة معظم الوقت ونتحدث. ونتناكح. عندما كنتُ أرغب في أدريان سراً يُصبح عنيناً، لكنه يُصبح فحلاً شبِقاً في معظم الأماكن العامة: في أكواخ الشاطئ، في مواقف السيارات، في المطارات، بين الأطلال، وفي الأديرة والكنائس. فإذا لم يخرق على الأقلّ مُحرَّماً أو اثنين دفعة واحدة، لم يكن يُظهِر أي اهتمام. أما ما يُشعل الإثارة فيه

تكفيل بجعله ينكح أمّه في الكنيسة. بوركتِ بين النساء وبوركَتْ ثمرة بطنك، إلى آخره.

تحدثنا. وتحدثنا. وتحدثنا. التحليل النفسي على متن سيارة. ذكرى الأشياء الماضية. وضعنا لائحة لتجزية الوقت: عُشاقي السابقون، عشيقاته السابقات، أنواع النكاح المتنوعة (النكاح الجماعي، نكاح الحب، نكاح بدافع الشعور بالذنب، إلى آخره)، الأماكن المتنوعة التي تناكحنا فيها (في حمام على متن طائرة ٧٠٧، وفي كنيسٍ يهودي مُقفر على متن سفينة *«الملكة إليزابث»* العريقة، في دير متهدمٍ للرهبان في يوركشير، في قوارب تجديف، في مقابر)... يجب أنْ أعترف بأنني اختلقت بعضها، لكنَّ الأمر الأساسي كان التسلية، وليس الحقيقة الحرفية. طبعاً لا أظنكَ تعتقد أنني أقول الحقيقة الحرفية هنا أيضاً؟

لقد أراد أدريان، ككل طبيب نفسي آخر عرفته أو نكحته، أنْ يعثر على نماذجَ تُحتذى في ماضي حياتي. ويُفضِّل أنْ تكون أنماطاً مكررة، مُدمِّرة للذات - ولكن أي نوع من الأمثلة مقبول. وطبعاً، حاولت أنْ أتفضَّل عليه بذلك. ولم يكن شيئاً صعباً. عندما يتعلّق الأمر بالرجال كنتُ دائماً أفتقر إلى سمة بسيطة تُعرَف بالحذر، أو ربما يمكن تسميتها الحس السليم. إنني أقابل رجلاً جدير بأية امرأة أخرى تحترم نفسها أنْ تهرب منه عفوياً على بُعد أميال، وأنجح في العثور على شيء ثمين في كل مميزاته المشكوك فيها، شيء جذاب ومُلفت للنظر في هوسه. كان أدريان يحب أنْ يسمع هذا الكلام. وطبعاً استثنى نفسه من جماعة العُصابيين الذين عرفتهم. لم يتبدّ له أبداً أنه جزء من أي نمط.

قال بلهجة انتصار: «أنا الوحيد ممَّن قابلتهم الذي يعصى على التصنيف». ثم انتظر مني أنْ أُصنف الآخرين. ففعلت. أوه لقد أدركتُ أنني أحول حياتي إلى روتين من الفوضى، مجرد رقم، قصة مملة، نكتة

سخيفة، شيء ضئيل. فكّرت في كل الاشتياق، والألم والرسائل (التي أُرسلَتْ والتي لم تُرسَل)، ولحظات النشوة الصارخة، والحوارات الهاتفية الأحادية الجانب، والمعاناة، والعقلنة، والتحليل الذي تناول كلاً من تلك العلاقات، علاقات القوارب، علاقات عابرات المحيط. علمتُ أنَّ طريقة شرحي لها كانت خيانة لتعقيدها، لإنسانيتها، لفوضاها. إنَّ الحياة خالية من أية حبكة. إنها أشدّ إثارة للاهتمام من أي شيء تستطيع أنْ تقول عنها لأنَّ اللغة، بحد ذاتها، تُنظّم الأشياء والحياة بعيدة كل البُعد عن أي نظام. حتى أولئك الكتّاب الذين يحترمون فوضى الحياة ويُحاولون أنْ يضعوها كلها في كتبهم، ينتهي بهم الأمر إلى جعلها تبدو أشدّ تنظيماً مما كانت وفي نهاية المطاف هي لا تقول الحقيقة. ولأنه ليس هناك كاتب يُخبر حقيقة الحياة، هذا يعني أنها أشدّ إثارة للاهتمام من أي كتاب. وليس هناك كاتب يستطيع أنْ يُخبر حقيقة الناس - أي إنهم أكثر إثارة للاهتمام من أية شخصيات مكتوبة.

قال أدريان: «إذن كفى فلسفة عن الكتابة اللعينة وأخبريني عن زوجك الأول».

«حسن. حسن».

(١٢)

المجنون

العشاق والمجانين عقولهم مُضطربة،
أوهام متشكّلة، تُدرك
أكثر مما يمكن للعقل البارد أنْ يُدرك.
المجنون، العاشق، والشاعر،
كلهم يتألفون من المُخيّلة:
واحدٌ يرى من الشياطين ما يعجز جحيم فسيح عن استيعابه،
أي، المجنون؛ والعاشق، الذي لا يقلّ هوساً،
يرى جمال هيلين في جبين مصر:
وعين الشاعر، التي تدور بحركة مسعورة،
تنقّل نظراتها من السماء إلى الأرض، ومن الأرض
إلى السماء؛
وبما أنّ المُخيّلة تُجسّد
أشكال الأشياء المجهولة، فإنّ قلم الشاعر
يُحوّلها إلى أشكال، ويمنح العدم الأثيري
مسكناً واسماً...

• شكسبير من «حلم ليلة صيف».

عليك أنْ تتخيّله: قصير القامة، أسمر البشرة، ذا لحية بنيّة - مزيجاً من بيتر لوري، والفريد دريك، وهمفري بوغارت (كما كان يمكن لبيا وأنا أنْ نقول)، أو أحياناً كأنّ إدوارد ج. روبنسون يمثّل دور

قيصر الصغير. كان يحب أنْ يتكلّم بخشونة على طريقة أبطال السينما في عهد شبابه. كان، كما وصف نفسه، مُدمناً على مشاهدة الأفلام السينمائية، وحتى وهو في المدرسة كان أحياناً يُشاهد فيلمين أو ثلاثة أفلام في اليوم الواحد، يُفضّل مشاهدتها في (كما سمّاها) «دور القيء» - دور السينما المتهدمة في الشارع الثاني والأربعين التي يلجأ إليها المنبوذون ليناموا ويلجأ إليه المنحرفون (كانت والدة براين تلفظ الكلمة بشكل مُشوّه) للانغماس في انحرافهم، وكان يُعرَض فيلمان أو حتى ثلاثة من أفلام الحرب، والغرب الأميركي، أو ملاحم حلبات القتال الرومانية.

على الرغم من ولعه بالأفلام السينمائية الرديئة وبإيماءات إدوارد ج. روبنسون، كان براين عبقرياً، طفلاً ذا مستوى ذكاء متفوق وصل إلى كولومبيا مع تاريخ من كسر الأرقام القياسية في لائحة الدرجات الدراسية، ونيل جوائز المناظرات الاجتماعية، وجوائز «المواطنة» (كائناً ما كانت) تجاوز الأرقام القياسية من كل مدرسة التحق بها في كاليفورنيا، وتاريخ مذهل من الانهيارات العقلية بدءاً بسن السادسة عشرة وما بعد. إلا أنني لم أعلم بهذا إلا لاحقاً، بعد أنْ تزوجنا وأودِع المستشفى من جديد. هذا السهو لم يكن مرجعه إلى الخداع من جانبه بل إلى أنه لم يعتبر نفسه أبداً مجنوناً. بل العالم كان كذلك. وقد اتّفقتُ معه في هذه النقطة حتماً - إلى أنْ جاء يوم حاول فيه أنْ يطير من النافذة ويأخذني معه.

لعل ذكاء براين الوقّاد وبراعته في الألفاظ النارية هما ما دفعني إلى حبه قبل أي شيء. لقد كان مُحاكياً عظيماً، ومُتحدثاً يأسر الأسماع، واحد أولئك الرواة الموهوبين الذي يبدو كأنه خارج من حانة أيرلندية أو من إحدى مسرحيات ج. م سينغ. كان موهوباً في الثرثرة: وأزعر العالم الغربي (قادماً مباشرة من لوس أنجلوس). ولطالما نظرت باحترام

شديد إلى الكلمات ودائماً كنتُ أرتكب خطأ الإيمان بالكلمات أكثر بكثير من إيماني بالأعمال. كان يمكن الحصول على قلبي (وعلى كسّي) مقابل عبارة بليغة، أو بيت شعر جيد، أو بيتين أنيقين، أو تشبيه حسّي. هل سمعتَ مرة أغنية الروك الأميركية «يا حبيبتي دعيني أخترق صندوقك» التي أُذيعت لفترة وجيزة قبل أنْ تُمنَع من البثّ إلى الأبد؟ كانت تقول ما يلي:

يا حبيبتي دعيني أخرق صندوقك
يا حبيبتي دعيني أعزف
على بيانوك...

حسن، في حالتي يجب أنْ تقول:

يا حبيبتي دعيني أخرق تشبيهك
يا حبيبتي دعيني أنام في توقفك...

لا شك في أنَّ ذكاء براين هو ما جذبني إليه. أنت لا تعلم كيف كان شكل الفتية الأذكياء في كولومبيا في تلك الأيام: كانوا يرتدون القمصان الرياضية ويضعون خمسة وعشرين قلماً ناشفاً يرشحون في جيوب الصدر، ويضعون نظارات سميكة بأُطُر بلون اللحم، وثمة بثور سوداء في آذانهم، وبثور أخرى على أعناقهم، ويرتدون بنطلونات ذات طيّات، وشعورهم دهنية، و(أحياناً) يعتمرون القلنسوة اليهودية المنسوجة يدوياً مُثبّتة بدبوس شعر واحد. كانوا ينتقلون بالقطار النفقي من حساء حفل البلوغ الذي تُقيمه أمهاتهم في برونكس إلى غرف درس موسى حاداش وجلبرت هايت في مورننغ سايد هايتس، حيث يتعلمون ما يكفي من مادة الأدب والفلسفة ليحصلوا على الدرجات العليا، لكنهم أبداً لا يفقدون بلاهتهم،

وموقف الدفاع عن النفس الذي يتصف به التلاميذ، وافتقارهم التام للجاذبية.

براين أيضاً حصل على الدرجة العليا، لكنه كان يتّصف بما افتقروا إليه: الرقيّ. كان يبدو كأنه لا يقضي أي وقت في الدراسة. وعندما يُطلَب منه أنْ يكتب أطروحة من عشر صفحات، كان يتناول عشر صفيحات من ورق الطباعة من الحزمة ويطبع عليها مباشرة إلى أنْ يُنجز، في جلسة واحدة، الأطروحة. وغالباً ما كان يكتب أعجوبة تلك الصفحات العشر في صباح اليوم الذي سيُقدمها فيه. وكان على معرفة واسعة جداً بالأشياء. ليس فقط على تاريخ العصور الوسطى والتاريخ الروماني، ليس فقط فلاسفة عصر النهضة وآباء الكنيسة المبكرة، ليس فقط المهنة والمنصب، ولفائف تاريخ البلاط الملكي والفاشستية السياسية، وريتشارد قلب الأسد وورولو، دوق النورماندي، ليس فقط ابيلار وألكوين، والاسكندر الأكبر والفريد الأكبر، ليس فقط بركهارت وبيولف، وابن رشد وأفينيون، وشعر الشعراء الجوالين وحركة الإصلاح الجيورجية، وهنري الأسد وهيراقليطس، وطبيعة الهرطقة وأعمال توماي هوبس، وجوليان المرتدّ وجاكوبون دا تودي، وحكاية *«ذهب الراين»* وتاريخ الإسمانيّة[1] - بل أيضاً أنواع الخمور والمطاعم، وأسماء أشجار متنزه سنترال بارك كلها، وأجناس أشجار الجنكة الصينية في مورننغسايد درايف، وأسماء الطيور، وأسماء الأزهار، وتواريخ مولد أولاد شكسبير، والموقع الدقيق الذي غرقَ فيه شيللي، والتسلسل التاريخي لإنتاج أفلام تشارلي تشابلن، والتشريح الدقيق للأبقار (وبالتالي كيف يتم انتقاء قطع اللحم في السوق العامة)، وكلمات كل أغنية من أغاني غيلبرت وسوليفان ألّفا موسيقاها،

---

١ - الإسمانيّة: مذهب فلسفي يقول بأنّ المفاهيم المُجرّدة، او الكُليّات، ليس لها وجود حقيقي، وانها مجرد أسماء لا أكثر. - المترجم

وتصنيف كوخل لمؤلفات موتسارت الموسيقية، وبطولات الألعاب الأولمبية في كل نوع من أنواع الرياضات على امتداد السنوات العشرين الأخيرة، والعدد الوسطي لضربات كل لاعب أميركي كبير في رياضة البيسبول، وشخصيات روايات ديكنز كلها، تاريخ إصدار ساعة يد ميكي ماوس للمرة الأولى، وتواريخ وطراز السيارات القديمة وكم بقيَ من كلٍ منها ومَنْ يمتلكها (كانت سيارات البوغاتي والهيسبانو - سويزا هي المفضّلة لديه)، ونوع الدرع الذي كان يُرتدى في القرن السادس عشر (ومدى اختلافه عن درع القرن الثالث عشر)، وطريقة تزاوج الضفادع وتلقيح أشجار الصنوبريات، والأوضاع الجنسية كلها في كتاب «*كاما سوترا*»، وأسماء أدوات التعذيب كلها في العصور الوسطى، إلى آخره، ***ad infinitum*** (إلى ما لا نهاية).

هل أجعله يبدو بغيضاً؟ إنَّ بعض الناس اعتبروه كذلك. لكنَّ الجميع وجدوه مُسلياً. كان مُهرّجاً بالفطرة، هزلياً، ثرثاراً لا يكف عن الكلام. يُعطي الانطباع بأنه دائماً يتفجَّر بالطاقة. كان باستطاعته أنْ يُنجز من الأعمال في يوم أكثر مما تستطيع إنجازه غالبية الناس في عشرة، وكان دائماً يبدو كأنه يوشك أنْ يقفز من جلده. وطبعاً وجد هذا هوى عندي - وأنا النهمة، ذات الشهية الشبقة لتجربة كل شيء. تقابلنا في الأسبوع الثاني من سنتي الأولى في الجامعة (وسنته الثانية) ومنذ ذلك الحين بتنا لا نفترق تقريباً. آه، لكنني احتفظتُ بحقي في الخروج مع أشخاص آخرين بين وقت وآخر، لكنه كان يحرص على أنْ أكون مغمورة بحضوره، بحديثه، بمواهبه، بطباعته لأطروحاتي، ببحثه الحثيث بين الأكوام عن الكتب التي أحتاج، وبرسائله واتصالاته الهاتفية والأزهار والقصائد التي تتعهد بالولاء الدائم - إلى درجة أنَّ باقي الشبان بدوا أشبه بنسخ مُحاكية شاحبة.

في تلك الأيـام، كـان هناك حمقى ومثقفون، شبان أخويّة

ومستقلون. أما براين فكان خارج كل فئة وضمن الفئات كلها. كان الأصل، ذا شخصية متميزة، موسوعة من المعلومات حول كل المواضيع ما عدا ربما الجنس الذي كانت معرفته فيه في أول الأمر نظرية أكثر منها عملية. فقدنا عذريتنا معاً. أو تقريباً معاً. أقول «تقريباً» لأنَّ من المشكوك فيه أنه كان قد تبقّى لديّ الكثير بعد كل تلك السنين من العبث الحثيث بالإصبع والاستمناء المنتظَم، وكان براين قد ارتاد ماخوراً في تيجوانا مرةً وهو في السادسة عشرة - كان ذلك هدية عيد ميلاده من والده، الذي نقله بالسيارة مع مجموعة من أصحابه كنوع من حفل سن السادسة عشرة صاخب.

وكما وصفها براين، كانت التجربة فاشلة. فقد راحت العاهرة تردد «عجّل! عجّل!» وفقد براين انتصابه، وكان والده (كما كان يمكن لأوديب أنْ يقول) قد نكحها أولاً، وأخذ أصحابه يدقون الباب. لم يكن انتساباً ناجحاً؛ والولوج، كما يُقال في الكتب الجنسية، لم يكتمل. لذلك أعتقد أنه يمكن القول إننا فقدنا عذريتنا معاً. كنتُ في السابعة عشرة (لا أزال تحت السن القانونية لممارسة الجنس، كما ذكّرني براين بظرف) وكان هو في التاسعة عشرة. وكنا قد تعارفنا قبل ذلك بشهرين - شهرين من التعامل بعنف مع غرائزنا في ريفرسايد بارك، تحت طاولات مكتبة الكلاسيكيات حيث كنا «ندرس معاً» (تحت مراقبة العيون الخالية من التعبير لسوفوكليس، وبركليس، ويوليوس قيصر)، وعلى الأريكة في غرفة جلوس منزل أبويّ، وعلى أكداس الكتب في مكتبة بطلر (حيث صُعقتُ لاحقاً عندما سمعت بعض الطالبات المُدنّسات يمارسن الجنس). وفي الختام قدّم كل منا «معروفاً ختامياً» للآخر (وهذه العبارة الفاتنة مأخوذة من القرن الثامن عشر) في قبو منزل براين في ريفرسايد درايف حيث كانت الصراصير (أو لعله كان بقّ الماء) أكبر حجماً

من قبضة يدي (أو من قضيبه) وكان رفيقا براين في الغرفة يقرعون الباب بحجّة أنهم يريدون صحيفة «*الصنداي تايمز*» «إذا كنا قد انتهينا».

كانت غرفة براين - وهي واحدة من ست غرف مؤقتة تمتد أفقياً - تشترك بجدار واحد مع غرفة المرجل، وكانت الغرفة الوحيدة المزوَّدة بالتدفئة. أحد الجدران كان حاراً على الدوام كاللهب؛ والآخر كان أشدّ برودة من حَلَمة الساحرة (حسب تعبير براين). ولا تنتظم درجة الحرارة إلا بفتح النافذة (التي تطل على ما يشبه الوهد الإسمنتي الذي ينخفض بمقدار طابق واحد تحت مستوى الرصيف) والسماح للهواء البارد بالدخول. ولما كانت الريح تهب قوية من جهة النهر، كانت مُثلجة بما يكفي لتبطل حرارة المرجل - ولكن ليس حرارتنا.

في هذا الجو الرومانسي استمتع كلٌّ منا بالآخر للمرة الأولى. تسبينا في صرير نوابض السرير المُستعمل الذي كان براين قد جلبه، مع توقُّع مرتجف، قبل ذلك بأسبوعَين من تاجر خردة من بورتو ريكو في جادة كولومبوس.

وطبعاً، في نهاية المطاف، كان لا بد أنْ أغويه. أنا واثقة من أنّ الوضع لم يتغيَّر منذ أيام جنّة عدن. بعد ذلك بكيت وشعرت بالذنب وواساني براين كما ربما واسى الرجالُ العذارى اللواتي أغووهنّ على امتداد العصور. استلقينا هناك على ضوء الشمعة (كان براين، حسب مفهومه للرومانسية أو ربما إحساسه الداخلي بالرمزية، قد أضاء شمعة على الطاولة الليلية قبل أنْ يقوم كل منا بتجريد الآخر من ملابسه) ورحنا نُصغي إلى أنين قطط الزقاق داخل البئر الإسمنتي خارج النافذة المسودّة بفعل السخام. أحياناً كانت إحدى القطط تقفز على صندوق مترع بالقمامة وتكسر زجاجة بيرة فارغة على

الأرض، ويتردَّد صدى قرقعة علبة الصفيح الفارغة على الرصيف في أرجاء الغرفة.

في البداية كانت علاقتنا الرومانسية جيدة وروحانية ومراهقة. (لاحقاً صرنا أشبه بحوار مأخوذ من مسرحية لستريندبرغ). كنا نقرأ الشعر كل منا للآخر في السرير، ونناقش الفرق بين الحياة والفن، ونتساءل إنْ كان ييتس سيُصبح شاعراً عظيماً لو أنَّ مود غون تزوجته. في الربيع أخذنا دورة حول شكسبير كما أعتقد أنَّ العشاق الشبان كلهم يجب أنْ يفعلوا. وفي صباح أحد أيام شهر نيسان المشرقة والباردة قليلاً قرأنا مسرحية *«حكاية الشتاء»* بصوت عال كل منا للآخر ونحن جالسان على أريكة في ريفرسايد درايف.

عندما تبدأ أزهار النرجس بالظهور،
مع هتاف! العاهرة المُطلّة على الوادي –
ثم تأتي ملكة جمال العام،
لأنَّ الدم الأحمر يُحدق في شحوب الشتاء...

القبّرة التي تغرّد –
مع هتاف! مع هتاف! السمنة والزرياب –
يغنيان لي ولعماتي أغاني الصيف،
ونحن نتقلّب على التبن.

كان براين منهمكاً في لعب دور فلوريزل أمامي وأنا أقوم بدور برديتا[٢] («هذه أعشابك الغريبة في كل جزء منك/ أعطي الحياة-

٢ – فلوريزل وبرديتا: بطلا مسرحية «حكاية الشتاء». – المترجم

لا راعية، بل إلهة الزهور/ تظهر في واجهة نيسان...») عندما اجتذبت قراءتنا مجموعة كبيرة من الأطفال - سود ومن بورتو ريكو وتوزّعوا على المقعد وعلى العشب بجوارنا، يبدو عليهم الانتشاء من أدائنا.

جلس أحد الأطفال عند قدميّ ورفع بصره إليّ في تعبُّد. شعرت بالسعادة. إذاً فالشعر قبل أي شيء هو الصوت العالمي! لقد كان هناك لعلاً شيء في شكسبير يمكن أنْ يجد هوى عند حتى أشدّ الآذان سذاجة وبراءة. بدا أنّ معتقداتي كلها مُبرَّرة. ورحتُ أقرأ بإلهام جديد:

إنّ الطبيعة خُلقَتْ بلا معنى
لكنّ الطبيعة هي التي تحقق المعنى. إذن فوق ذلك الفن
الذي تقولين إنه يُعزز الطبيعة، هناك فنّ
تصنعه الطبيعة. كما ترين، أيتها الجميلة، لقد زوّجنا
سلالة رقيقة من أقوى أصل
وجعلنا لحاءً من أصل وضيع يُنبت
برعماً من أنبل سلالة. هذا فن
يُرمم الطبيعة - أو يُغيّرها بالأحرى؛ لكنّ
الفن نفسه هو الطبيعة.

(هل يطلب شكسبير تصريحاً مفتوحاً و/أم تمازج الأجناس؟)
بعد ذلك ببضع صفحات بدأ الأطفال يتململون وحينئذ كان البرد قد ازداد كثيراً ولم يعد ممكناً الجلوس في مكان واحد على أية حال، لذلك لممنا أغراضنا وغادرنا بعد رحيلهم مباشرة.

سألته ونحن نخرج من المتنزّه «ألم يكن هذا شيئاً عظيماً، يا حبيبي؟».

ضحك براين. قال «إنَّ *Vox populi* (صوت الشعب)، في أساسه، نخير». كان ذلك من أقواله المُفضّلة؛ لا أعلم من أين حصل عليه. ولاحقاً اكتشفت أنَّ محفظة نقودي مفقودة من حقيبة يدي التي كانت مفتوحة وموضوعة على المقعد ونحن نقرأ. لم أكن متيقّنة إنْ كان الأطفال أخذوها أم إنني أضعتُها قبل ذلك ولم ألاحظ. أعتقد لوهلة أولى مجنونة أنه يمكن أنْ يكون براين أخذها لكي يُثبت لي رأيه في «الإنسان العادي». وكأمي، كان براين من أنصار هوبس. على الأقلّ إلى أنْ اكتشف أنه يسوع المسيح وطرأ عليه تحول في الشخصية والمُعتقَد.

وماذا عن جنونه؟ ما هي أول علاماته؟ من الصعب القول. وحديثاً قالت لي زميلة قديمة لي إنها كانت تعلم منذ البداية أنَّ هناك شيئاً غريباً في براين «وأنها لا يمكن أنْ تتورط في علاقة معه». لكنَّ غرابة براين بالذات هي ما أحببته فيه. لقد كان غريب الأطوار، ولا يُشبه أي شخص آخر، كان يرى العالم من خلال عينيّ شاعر (على الرغم من افتقاره تماماً إلى أدنى قدر من الموهبة في كتابة الشعر)؛ يرى الكون يضجّ بالحياة، كأنما تسكنه الأرواح. وكانت الثمارَ تكلّمه. عندما كان يُقشّر تفّاحة يجعلها تبدو كأنها تصرخ من بطنها. كان يُطبّق طريقة الكلام من البطن ذاتها على ثمار اليوسفي والبرتقال وحتى الموز - يجعلها تغني وتتكلم وحتى تُلقي شِعراً.

كان يُغيّر نبرة صوته تعبير وجهه ليتناسب مع تقلبات مزاجه. أحياناً يُصبح إدوارد ج. روبنسن وهو يقوم بدور آل كابون، وأحياناً باسيل روثبون بدور شرلوك هولمز، وتارة غريمفالكون القزم (وهو شخصية اختلقناها معاً)، وتارة شيكووف (صديق آخر من المخيّلة: جزء منه

ماخوذ من مسرحيات شكسبير، وجزء آخر يُشبه كل راع أليف - اشبه بكلب صيد يكتب الشعر)... لقد كانت أيامنا وليالينا الطويلة معاً سلسلة من الروتين، والتشخيص، والمسرحيات القصيرة - وبراين يقوم بالتمثيل في مُعظمه. وكنتُ جمهوره المُخلص! كان في وسعنا أنْ نسير ونسير ونسير - من كولومبيا إلى منطقة فيليج، عبر جسر بروكلين (ونحن نُلقي شِعر هارت كرين، طبعاً) ومن ثم نعود حتى مانهاتن - ولا نشعر بأيٍ ضجر. لم نكن نجلس على طاولة في مطعم صامتين كزوجين شابين متجهمَين. كنا دائماً نتحدث ونضحك.

أعني قبل أنْ نتزوج. أما الزواج فدمَّر كل شيء. بقينا أربع سنوات عشيقين وصديقين مُخلصَين ودارسَين للمسرح الشكسبيري معاً - ثم أفسدنا ذلك كله بالزواج. أنا لم أرغب في ذلك أبداً. لطالما بدا لي الزواج شيئاً سوف يُتاح لي أنْ أُخصِّص الكثير من الوقت له في المستقبل. المستقبل البعيد. لكنَّ براين أراد أنْ يمتلك روحي. كان يخشى أنْ أطير بعيداً. لذلك أنذرني. إما أنْ تتزوجيني أو أتركك. خشيتُ أنْ أفقده. اردتُ أنْ أبتعد عن الوطن، وكنتُ أوشك أنْ أتخرَّج من الجامعة ولم أكن أعلم ماذا سأفعل بعد ذلك - فقبلتُ الزواج منه.

لم نكن نمتلك النقود التي نعيش بها، بالمعنى الحقيقي. كان في حوزتي قيمة المنحة الدراسية، ووديعة مالية صغيرة لا أستطيع أنْ أصرفها إلا بعد مرور سنوات عديدة، وبضع سندات تفقد قيمتها بسرعة كان والديّ قدَّماها إليّ بمناسبة عيد مولدي الواحد والعشرين. وكان براين قد طُرِدَ من سنة التخرُّج بسبب نوبة غضب مع المؤسسة، لكنه وجد أنّ عليه أنْ يبحث عن عمل. وتغيَّرت حياتنا جذرياً. ادركنا أنْ المتزوجين حالما يلجون الصندوق البورجوازي لا يعودون يجتمعون. كانت أيام السعادة الرومانسية قد انتهت. المشاوير الطويلة، الدراسة معاً، وفترات بعد الظهيرة التي أمضيناها معاً في السرير - باتت كلها

جزءاً من عصرٍ ذهبيّ مضى. أصبح براين يقضي أيامه (ومعظم لياليه) يكدح في شركة صغيرة لاستطلاع السوق حيث يكدّ في العمل امام الحواسيب، وينتظر بقلق إعطاء أجوبتها على أسئلة صاعقة حول ما إنْ كانت النساء اللواتي أمضينَ عامين في الجامعة سيشترين المزيد من مواد التنظيف أكثر مما تفعل اللواتي تخرّجن من الجامعة. لقد انغمس في استطلاع السوق بالشغف المهووس نفسه الذي كنّه لتاريخ العصور الوسطى أو لأي شيء آخر. كان عليه أنْ يعرف كل شيء؛ كان عليه أنْ يبذل جهداً في عمله من أي شخص آخر، بمن فيهم رئيسه في العمل - الذي باع شركته مقابل عدة ملايين من الدولارات نقداً حالما أُودِعَ براين القسم النفسي. واتّضح لاحقاً أنَّ العملية كلها كانت خداعاً. ولكن بحلول ذلك الوقت، كان رئيس براين في العمل يعيش في قلعة قديمة في سويسرا مع زوجة شابة وكان براين قد حصل على «تصريح بالخروج». وعلى الرغم من ذكاء براين الوقّاد، إلا أنه لم يعلم (أو لم يرد أنْ يعلم) أي رجل مُخادع كان رئيسه. كان غالباً ما يجلس ويراقب الحواسيب حتى منتصف الليل. في تلك الأثناء كنتُ أكدّ بين أكوام كتب مكتبة بطلر أؤلف أطروحة سخيفة عن الكلمات القذرة في الشعر الإنكليزي (أو، كما عنونها مستشار أطروحتي المتوتر: «العامية الجنسية في الشعر الإنكليزي في منتصف القرن الثامن عشر»). حتى حينئذ كنتُ كاتبة إباحية متحذلقة.

تحول زواجنا من سيئ إلى أسوأ. توقف براين عن ممارسة الجنس معي. كنتُ أتوسل إليه وأناشده وأسأله عما ارتكبتُ من خطأ. وبدأتُ أكره نفسي، وأشعر بأنني قبيحة، وغير محبوبة، وتفوح من جسمي روائح كريهة - كل العوارض التقليدية للزوجة التي لم تعد تُنكَح! بدأتُ أتخيّل عمليات نكاح حرة مع بوابين، ومُشردين، وعمال في بار ويست إند، وطلاب خريجين - وأيضاً (فليساعدني الله!) مع

بروفسورات. كنتُ أحضر «دورة أطروحة في أدب القرن الثامن عشر» أصغي إلى طالب خريج بليد وبغيض يتكلم مُطوّلاً عن مراجعات ناحوم تيت[٣] لمسرحيات شكسبير، وفي الوقت نفسه أتخيّل نفسي أرضع قضيب كل عضو ذكر (هاه) في قاعة الدرس. وأحياناً أتخيّل نفسي أنكح في الواقع البروفسور هارينغتون ستانتون، وهو رجل خمسيني أصيل من بوسطن تدعمه عائلة من نيوإنغلند ذات علاقات واسعة - عائلة معروفة بانخراطها في السياسة، والشعر، والاضطراب العقلي. وكان البروفسور ستانتون معروفاً بضحكه العالي ودائماً ينعت جيمس بوزويل ببوزي - وكأنه يسكر معه في كل ليلة في ويست إند (وأنا أشكّ، حقاً، في أنه كان يفعل ذلك). وقد أشار أحدهم ذات مرة إلى ستانتون بأنه «ذو عقل وقّاد ولكن فيه خلل». وهذا صحيح. وعلى الرغم من شبكة علاقاته الواسعة اجتماعياً، كان يتأرجح بين العقل والجنون، لا يبقى على حال طويلاً بحيث تعي موقفك منه. كيف ينكح البروفسور ستانتون؟ كان مفتوناً بالكلمات القذرة من القرن الثامن عشر. هل سينطق كلمات قذرة («كس»، «بيض»، «عش») في أذني بصورة مشوّهة ونحن نتناكح؟ هل سيتّضح أنه يطبع شارة العائلة وشماً على قلفته؟ كنتُ أجلس هناك أقهقه بصوت مكتوم على تلك التخيلات والبروفسور ستانتون يرسم لي ابتسامة مُشرقة، مُعتقداً أنني أضحك على إحدى ملاحظاته البارعة.

ولكن ما فائدة تلك التخيُّلات التي تدعو إلى الرثاء؟ كان زوجي قد كفَّ عن نكاحي. رأى أنه يكفيه ما يبذل من جهد مُضنٍ في العمل. وفي كل ليلة كنتُ أبكي من كل قلبي لكي أستطيع أنْ أنام، أو ألجأ إلى

---

٣ - ناحوم تيت (١٦٥٢ - ١٧١٥): شاعر، وكاتب مسرحي، ومؤلف تراتيل بريطاني. ولد في إيرلندا. من أشهر كتبه تأليفه لنسخة أخرى من مسرحية «الملك لير» بنهاية سعيدة. - المترجم

الحمّام لكي أستمني بعد أنْ يستغرق هو في النوم. كنتُ في الواحدة والعشرين ونصف من العمر ويائسة. وعندما أستعيد تلك الأحداث، تبدو لي غاية في البساطة. لِمَ لم أبحث عن شخص آخر؟ لِمَ لم أُقم علاقة جنسية أو أتركه أو أُصرّ على نوع من الاتّفاق على ممارسة الجنس الحر؟ لكنني كنتُ امرأة طيبة من حقبة الخمسينيات، نشأتُ على الاستمناء بإصبعي علي أنغام أغنية فرانك سيناترا ***«في الساعات الأولى من الصباح»***، ولم أضاجع رجلاً آخر غير زوجي. داعبتُ «فوق الخصر» و«تحت الخصر» وِفقاً لقواعد غامضة غير مُدوَّنة للياقة. أما إقامة علاقة مع رجلٍ آخر فبدا تصرّفاً متطرّفاً إلى درجة أني لم أجرؤ حتى على التفكير فيه. ثم إنني كنتُ متيقنة من أنَّ فشل براين في نكاحي هو خطئي أنا، وليس خطأه. فإما أني شبِقة جنسياً (لأنني أردتُ أنْ أنكح أكثر من مرة في الشهر) أو أنَّ كل ما في الأمر أني خالية من أية جاذبية. أو لعلَّ المشكلة تكمن في سن براين. لقد نشأتُ على أساطير جنسية متنوعة تخص حقبة الخمسينيات من العمر مثل:

أ – لا وجود لشيء اسمه الاغتصاب. لا أحد يستطيع أنْ يغتصب امرأة إلا برضاها في الدقيقة الأخيرة. (الفتيات في مدرستي الثانوية كنَّ في الحقيقة يُكررن هذا الكلام فيما بينهن بوقار. والله وحده يعلم من أين حصلنا عليه. لقد كانت حِكمة موروثة، وكنا نتناقلها فيما بيننا، كالمخلوقات الآليّة).

ب – هناك نوعان من الرعشة الجنسية، الفرجيّة، والبظريّة. واحدة «ناضجة» (أي خيِّرة)، والأخرى «غير ناضجة» (أي شريرة)؛ واحدة «طبيعية» (أي خيِّرة) والأخرى «عُصابيّة» (أي شريرة). إنَّ هذا الدستور الأخلاقي النفسي الزائف والمشوّه كان أكثر قَدَريّة من المذهب القَدَري نفسه (Calvinism).

ت - إنَّ الرجال يصلون إلى ذروة طاقتهم الجنسية في سن السادسة عشرة وبعد ذلك تبدأ بالانحدار...

كان براين في الرابعة والعشرين. ولا شك في أنه كان قد تجاوز فترة ازدهاره بثماني سنوات. ولو أنه كان ينكحني مرة واحدة في الشهر وهو في الرابعة والعشرين - تخيّل قِلّة ما نكحني وهو في الرابعة والثلاثين! إنها فكرة مروّعة.

ربما حتى الجنس ما كان يهم لو لم يكن دلالة على العيوب الأخرى كلها التي عانى منها زواجنا. لم نكن نتقابل أبداً. كان يبقى في المكتب حتى السابعة، الثامنة، أو التاسعة، أو العاشرة، أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلاً. وكنتُ أدير المنزل وأكدّ في المكتبة العامة حول موضوع اللغة الجنسية العامية في القرن الثامن عشر. إنه الزواج البورجوازي المثالي. لا يُتاح فيه للزوج والزوجة أي وقت يقضيانه معاً. لقد استنفد الزواج آخر سببٍ لنا للبقاء متزوجَين.

استمر الوضع على هذه الشاكلة شهوراً عدّة. وازداد إحساسي بالكآبة. وصرت أجد صعوبة أكثر فأكثر في مغادرة السرير في الصباح. كنتُ في المعتاد أبقى نائمة حتى الظهيرة. وبدأتُ أنقطع عن حضور دروسي كلها، ما عدا قُدس الأقداس: محاضرة الأطروحة. بدا عام التخرُّج في نظري شيئاً سخيفاً لأنني كنتُ أحب الأدب، ولكن في عام التخرُّج لا يُفترَض بك أنْ تدرس الأدب؛ بل يُفترَض أنْ تدرس النقد. وقد ألَّفَ أحد البروفسورات كتاباً «يُثبتُ فيه» أنَّ رواية «توم جونز» كانت في الحقيقة أمثولة ماركسية. وبروفسور آخر ألّفَ كتاباً «يُثبتُ فيه» أنّ رواية «توم جونز» كانت في الحقيقة أمثولة مسيحية. وبروفسور آخر ألّف كتاباً «يُثبت فيه» أنَّ رواية «توم جونز» هي في الواقع أمثولة عن الثورة الصناعية. كان من المفترَض أنْ أحفظ أسماء البروفسورات كلها والنظريات كلها لكي أجتاز الامتحانات فيها كلها.

لا أحد بدا أنه يأبه بقراءة «توم جونز» طالما أنه يستطيع أنْ يسرد دفعة واحدة أسماء النظريات المتنوعة وأسماء الذين وضعوها. كان لكل كتب النقد عناوين مثل «فن الضحك» أو «العوامل الهزلية في أدب هنري فيلدينغ» أو «المضامين الجمالية في ديالكتيك الهجاء». كان جديراً بذلك أنْ يدفع فيلدينغ إلى التقلُّب في قبره. كانت استجابتي لذلك بالنوم أكبر مدة ممكنة.

الحقيقة هي أنني لطالما كنتُ طالبة ممتازة رُغماً عني وكانت الاختبارات سهلة عليّ، ولكن في مدرسة التخرّج يُصبح الهراء جلياً إلى درجة أنه يتعذّر عليك تجاهله. لذلك أمضيتُ تلك الفترة كلها في النوم. نمتُ في أثناء إجراء الامتحانات الشاملة في شهر أيار. نمت بدل أنْ أعمل على أطروحتي. في المناسبات النادرة التي كنتُ أصل بها إلى غرفة الصف، كنتُ أجلس هناك أخربش قصائدي في دفاتري. وذات يوم تزودت بالشجاعة أفضيتُ بمشاكلي للبروفسور ستانتون.

قلت، وأنا أرتجف منتعلة حذائي السويدي الأرجواني اللون عالي الرقبة: «لا أعتقد أني أريد أنْ أصبح بروفسوراً». كان ذلك تحقيراً. لقد كرّستني منحة وودرو ويلسون الدراسية للتدريس في الجامعة. كان أشبه بإنكار الله، والوطن، والعلَم.

«ولكنكِ طالبة ممتازة، يا سيدة ستولمان، أي عمل آخر يمكنك أنْ تتولي؟».

(حقاً أي عمل آخر؟ أي عمل آخر كان يمكن أنْ يتوفر في الحياة غير «المضامين الجمالية في ديالكتيك التهكم؟»).

«حسن، أعتقد أنني أريد أنْ أمارس الكتابة». قلت هذا بنبرة اعتذار وكانَ المعنى هو: «أعتقد أنني أريد أنْ أقتل أمي».

بدا الاضطراب على البروفسور ستانتون. قال، بغيظ، «أوه هذا».

لعل الطلاب كانوا دائماً يلجؤون إليه حاملين طموحات عقيمة كالرغبة في الكتابة.

«في الواقع، يا بروفسور ستانتون، لقد باشرت دراسة أدب القرن الثامن عشر لأني أحب التهكم، لكنني أعتقد أنني أرغب في كتابة أدب تهكميّ لا أنْ أنتقده. إنَّ النقد بصورة ما لا يبدو مُرضياً كثيراً».

انفجر قائلاً: «مُرضياً!».

غصصتُ.

قال: «ما الذي يدعوكِ إلى الاعتقاد أنَّ مدرسة التخرُّج يُفترَض بها أنْ تكون مُرضية؟ إنَّ مادة الأدب هي *عمل*، وليست لهواً».

قلت بخنوع: «نعم».

«لقد انتسبتِ إلى مدرسة التخرُّج لأنكِ تحبين القراءة، لأنكِ تحبين الأدب - حسن، إنَّ الأدب يتطلَّب *عملاً شاقاً!* وليس لهواً!». بدا أنَّ البروفسور ستانتون عثر على موضوعه الصحيح.

«نعم، ولكن بعد إذنك، بروفسور ستانتون، لا يبدو أنَّ هذا النقد كله بعيد عن روح فيلدينغ أو بوب أو سويفت. أعني أنني دائماً أتخيَّلهم مستلقين هناك في قبورهم يضحكون علينا جميعاً. هذا بالضبط هو النوع الذي يمكن أنْ يجدوه *مضحكاً*. أعني أنني أقرأ بوب أو سويفت أو فيلدينغ فأشعر برغبة في الكتابة. إنه يُحفِّز عقلي على إنتاج الشِعر. إنَّ النقد يبدو لي شيئاً سخيفاً. آسف لقولي هذا، لكنه كذلك».

«مَنْ الذي عيَّنكِ حارسة على روح بوب؟ أو سويفت؟ أو فيلدينغ؟».

«لا أحد».

«إذن عمَّ تتذمرين؟».

«أنا لا أتذمَّر. أنا فقط أعتقد أنني ربما أكون قد ارتكبتُ خطأً. أعتقد أنني أرغب حقاً في الكتابة».

«يا سيدة ستولرمان، سوف يتوفر لديك الكثير من الوقت للكتابة **بعد** أنْ تنالي درجة الدكتوراه. وحينئذ سوف تحصلين دائماً على مادة تلجئين إليها في حال لم تُصبحي إميلي ديكنسون».

قال: «أعتقد أنكِ على صواب»، وذهب إلى المنزل لينام.

أيقظني براين بعنف في شهر حزيران. أنا لست متأكّدة تماماً متى بدأ الأمر، ولكن يمكن القول إنني في وقت ما من منتصف شهر حزيران لاحظتُ أنه أصبح أكثر جنوناً من المعتاد. كان قد توقف عن النوم تماماً. أرادني أنْ أبقى يقظة معه طوال الليل لأناقشه في مسألة الجنة والنار. وهذا لم يكن غريباً على براين. فلطالما كان مهتماً بصورة استثنائية بالجنة والنار. لكنه الآن بدأ يتحدث عن المجيء الثاني كثيراً جداً وأصبح يتحدث عنه بطريقة جديدة.

فماذا لو (هو يسأل) عاد المسيح إلى الأرض على هيئة باحث مُنفّذ في التسويق مغمور؟

ماذا لو أنَّ لا أحد صدَّقه *من جديد*؟

ماذا لو أنه حاول أنْ يبرهن على هويته بالمشي على سطح الماء في بحيرة سنترال بارك؟ هل ستغطي شبكة أخبار CBS المسائية الحدث؟ هل سيُدرج على أنه قصة إنسانية مُثيرة للاهتمام؟

ضحكت. وبراين ضحك أيضاً. كانت مجرد فكرة تصلح رواية في الخيال العلمي، كما قال. كانت مجرد نكتة.

في الأيام التي تلتْ، تضاعفت النكات.

ماذا لو أنه كان هو زيوس وكنتُ أنا هيرا؟ ماذا لو كان دانتي وكنتُ بياتريس؟ ماذا لو كان هناك اثنان منا – مادة ومادة مُضادة، بثلاثة أبعاد أو بلا أبعاد؟ ماذا لو أنَّ الناس في القطار النَّفَقي يتواصلون معه حقاً بالتخاطُر ويطلبون منه أنْ يُخلّصهم؟ ماذا لو أنَّ المسيح عاد وحرّر

الحيوانات المُحتجزة في حديقة حيوان سنترال بارك كلها؟ ماذا لو أنّ ثيران الياك لحقت بالمسيح على طول الجادة الخامسة وجثمت الطيور وغرّدت على كتفيه؟ هل سيُصدق الناس مَنْ يكون بالنسبة *إليهم*؟ ماذا لو أنه بارَكَ الحواسيب وبدلَ أنْ تلفظ أوراقاً تحتوي معلومات حول منظف الملابس الأكثر رواجاً بين ربات المنازل، أصبحت تلفظ أرغفة من الخبز وأسماكاً؟ ماذا لو أنَّ العالم يحكمه حقاً حاسوب عملاق ولا أحد يعلم ذلك غير براين؟ ماذا لو أنَّ ذلك الحاسوب يعمل بدماء بشرية؟ ماذا لو، كما يقول سارتر، إننا جميعاً في الجحيم الآن؟ ماذا لو أننا جميعاً محكومون بآلات أخرى مُعقّدة تحكمها آلات معقّدة أخرى التي تحكمها آلات معقّدة أخرى؟ ماذا لو أننا لا نتمتع بأي قدر من الحرية؟ ماذا لو أنّه ليس في استطاعة الإنسان أنْ يبرهن على حريته إلا بالموت على الصليب؟ ماذا لو أنكِ عبرت شوارع نيويورك على الرغم من وجود إشارة المرور الحمراء وأنتَ مُغمض العينين على مدى أسبوع دون حتى أنْ تحفّ بك سيارة واحدة؟ هل هذا يُبرهن على أنكَ الله؟ ماذا لو أنَّ كل كتاب فتحته عشوائياً كُتبَ في موقع ما من كل فِقرة فيه كلمة الله؟ أليس هذا دليلاً إيجابيّاً؟

واستمرت الأسئلة ليلة بعد أخرى. كان براين يُكررها على مسمعي كالأمثولة. ماذا لو؟ ماذا لو؟ ماذا لو؟ أصغي إليّ. لا تغرقي في النوم! أصغي إليّ! إنَّ العالم ينتهي وأنتِ تستغرقين في النوم في أثناء ذلك! أصغي إليّ!

في خضم هذيانه للحصول على جمهور دائم لجأ حتى إلى صفعي على خدي أكثر من مرة ليوقظني. كنتُ أُصغي وأنا مُصابة بدوار وزائغة البصر. أصغيت. وأصغيت. وبعد الليلة الخامسة، لم يعُد هناك ظلّ من شك في أنه ليس لدى براين أية خطط لكتابة خيال علمي. لقد كان هو نفسه المجيء الثاني. وكان الاعتراف بذلك سيظهر ببطء. وعندما

حدث، لم أكن في الواقع متيقّنة من أنه *ليس* الله. ولكن، وِفقاً لمنطقه، إنْ كان هو يسوع، فأنا الروح القُدس. وعلى الرغم من بصري الزائغ، أدركتُ أنَّ *ذلك* جنون مُطبق.

في يوم الجمعة، غادر رئيس براين في العمل المدينة خلال عطلة نهاية الأسبوع وفوّضه بإتمام صفقة هامة مع مُصنّعي مُنتج لتنظيف الأفران يُسمّى «الزُّبَد الخارق». وكان يُفترَض ببراين أنْ يُقابل مُصنّعي «الزُّبَد الخارق» في مركز الحاسوب يوم السبت، لكنه لم يتمكّن من الوصول إلى هناك. ثم اتّصلوا بي من جديد. ولم يحضر براين. اتصلت هاتفياً بكل شخص خطر على بالي وأخيراً لزمتُ المنزل ورحت أقضم أظافري مُدركة أنَّ أمراً جللاً سيقع.

عند الساعة الخامسة، اتصل براين بي ليقرأ على مسمعي «قصيدة» ادّعى أنه ألّفها في أثناء سيره على سطح بحيرة سنترال بارك. قال فيها:

إنْ كان الزَّبَد الخارق مجرد فقاقيع،
فلماذا يُسبب لنا الكثير من المشاكل؟
إذا لم نُسرع بالتصرُّف فسوف يتحول العالم إلى حطام
كل ذلك من أجل فقاقيع بلهاء.

سأل، بسذاجة تامة، «ما رأيك فيها، يا حبيبتي؟»).

«براين - هل تعلم أنَّ مُصنّعي «الزبد الخارق» حاولوا الاتّصال بك طوال النهار؟»).

«أليست لامعة؟ أعتقد أنها حقاً تلخّص كل شيء. إنني أنوي أنْ أرسلها إلى *«النيويورك تايمز»*. الشيء الوحيد الذي أتساءل بشأنه هو ما إنْ كانت *«التايمز»* ستقبل نشر قصيدة تحتوي كلمة «اللعنة». ما رأيك؟»).

«براين - هل تعلم أنني جالسة هنا طوال النهار أُجيب على مكالمات هاتفية من شركة «الزبد الخارق»؟ أين كنتَ بحق الجحيم؟».

«هذا بالضبط حيث كنتُ».

«أين؟».

«في الجحيم. تماماً كما أنكِ في الجحيم وأنا في الجحيم وكلنا في الجحيم. كيف تقلقين حول مجرد فقاقيع كالزبد الخارق؟».

«ماذا ستفعل بحق الله بشأن العقد؟».

«فقط هذا».

«فقط ماذا؟».

«باسم الله، سأنسى الأمر. لن أفعل أي شيء بشأنه. لِمَ لا تأتين إلى قلب المدينة وتقابلينني وسأعرض عليكِ قصيدتي».

«أين أنت؟».

«في الجحيم».

«حسن، أنا أعلم أنكَ في الجحيم، ولكن أين *أقابلك*؟».

«يجب أنْ تعرفي. أنتِ أرسلتني إلى هنا».

«أين؟».

«إلى الجحيم. حيث أنا الآن. وحيث أنتِ الآن. أنتِ حقاً بطيئة الفهم، يا حبيبتي».

«براين، أرجوك تعقَّل -».

«أنا عاقل تماماً. أنتِ التي تهتمين بمجرد فقاعة. أنتِ التي تعتقدين أنْ اتّصال أصحاب الزبد الخارق بنا أمرٌ هام».

«فقط أخبرني في أية زاوية من الجحيم أقابلك وسآتي إليك. أُقسم أني سأفعل. فقط أخبرني أية زاوية».

«ألا تعلمين؟».

«كلا. بشرفي لا أعلم. أرجوك أخبرني».

«أعتقد أنكِ تحاولين أنْ تستغفلينني».

«براين، حبيبي، أنا فقط أريد أنْ أراك. أرجوك دعني أقابلك».

«تستطيعين أنْ تريني في هذه اللحظة بعين عقلك. إنَّ عماكِ هو من صُنعك. أنتِ والملك لير».

«هل تقف في كشك هاتف؟ أم في حانة؟ أرجوك أخبرني».

«أنتِ تعلمين سلفاً!».

استمر الحديث على هذا المنوال لبعض الوقت. أغلق براين الخط في وجهي مرتين ثم عاود الاتصال بي. وأخيراً وافقَ على تحديد كشك الهاتف الذي يقف فيه، ليس بالاسم بل بما يُشبه لعبة التخمين. كان عليّ أنْ أشارك فيها بحذف الاحتمالات. استغرقَ هذا عشرين دقيقة أخرى وبضع نكلات. وأخيراً اتَّضحَ أنه موجود في حانة غوثام. انطلقتُ واستقللتُ سيارة أجرة لكي أقابله. وعلمتُ أنه أمضى اليوم في مرافقة أطفال سود ومن بورتو ريكو في نزهاتٍ على متن قارب في بحيرة سنترال بارك، وشراء المثلجات لهم، وتوزيع النقود على أناسٍ في المتنزه، ووضع الخططِ للهرب من الجحيم. وهو لم يمشِ حقاً على سطح البحيرة لكنه فكَّرَ في الأمر ملياً. الآن أصبح مستعداً لتغيير حياته. لقد اكتشفَ أنه يمتلك ذخيرة من طاقة إنسان متفوق. إنَّ باقي البشر يحتاجون إلى النوم. أما هو فلا. الآخرون يحتاجون إلى وظائف ودرجات علمية وحاجات يومية. أما هو فلا. كان ينوي أنْ يستقل متن القَدَر الذي طالما انتظره – لينقذ العالم. وكان عليّ أنْ أساعده.

الحقّ أقول، لم يكن حديثه يُزعجني حقاً. بل أثار حماسي. لقد وجدت فكرة ترك براين مجال البحث التسويقي وتركي مدرسة التخرُّج

وانطلاقنا معاً لإنقاذ العالم فكرة جيدة. في الحقيقة لطالما ألححتُ عليه للتخلّي عن مجال البحث التسويقي. وكنتُ قد أغريته بمرافقتي إلى أوروبا فقط للتجوال بعض الوقت. لكنّ براين كان دائماً يحتجّ. لقد انخرط في مجال البحث التسويقي وكأنه آخر حملة صليبية عظيمة.

في أثناء تجوالنا في المدينة في أمسية يوم السبت تلك، أزعجني سلوكه أكثر من حديثه الجامح. لقد أراد أنْ نُغمض عيوننا معاً ونجتاز الشوارع رُغماً عن إشارات المرور (لكي نُثبت أننا من الآلهة). وكان يلج المتاجر ويطلب من أصحابها بعض الأغراض، ثم يُمسك كلَّ منها، ويتحدث بتيه عن كل منها، ومن ثم يخرج. ويلج مقهى ويعبث بكل وعاء للسُكّر على كل طاولة قبل أنْ يجلس. ويُحدّق الناس إليه. أحياناً كان أصحاب المتاجر والنُدُل يقولون، «على رسلك يا سيد، بهدوء يا سيد»، أو أحياناً يطردونه. كان الجميع يشعرون بأنّ به خطباً. وكان يثور ويُكلّم الهواء. بالنسبة إلى براين، لم يكن هذا إلا برهاناً على القُدسيّة.

قال: «كما ترين، إنهم يعلمون أنني الله ولا يعرفون كيف يتصرفون إلا بهذا الشكل».

كان شيئاً يتسم بصعوبة مُضاعفة لأنني لم أكن أؤمن كلياً بنظرية براين. الأشخاص الاستثنائيون غالباً ما يصفهم العالم العادي بالجنون. فإذا عاد الله حقاً، فلعله سيودَع مستشفى المجانين. لقد كنتُ من أتباع لينغ قبل أنْ يبدأ لينغ بنشر أي شيء. لكنني كنتُ أيضاً خائفة حتى الموت.

عندما وصلنا أخيراً إلى المنزل عند الساعة الثانية صباحاً، كان براين لا زال ممسوساً ويقظاً تماماً، على الرغم من أنني كنتُ مُستنزفة. أراد أنْ يستعرض قوته أمامي. أرد أنْ يُثبت قدرته على إرضائي. لم يكن قد نكحني منذ حوالي ستة أسابيع، أما الآن فلن يتوقف. راح ينكح

كالآلة، رافضاً الاستسلام لبلوغ الرعشة بل حثّني على القذف مرة بعد مرة بعد مرة. بعد المرات الثلاث الأولى شعرت بالغضب وأردتُ أنْ أتوقف. توسلتُ إليه كي يتوقف لكنه رفض. وتابع نكاحي كسفّاح الفاس. كنتُ أبكي وأتوسل.

قلت وأنا أجهش: «براين، توقف أرجوك».

صرخ: «ظننتِ أنني لا أستطيع أنْ أرضيك». كانت عيناه ضاريتين.

قال: «أترين! أترين! أترين! أترين!».

«براين، *توقف* من فضلك!».

«أليس هذا برهاناً؟ أليس هذا برهاناً على أنني الله؟».

همست «توقف من فضلك».

عندما توقف أخيراً، ابتعد عني بعنف وأقحم قضيبه الذي لا يزال منتصباً في فمي. لكنني كنتُ أبكي بحُرقة ولم أتمكن من جعله يقذف. استلقيت على السرير وأنا أجهش. ماذا أفعل؟ لم أرغب في البقاء وحدي معه، ولكن إلى أين أذهب؟ وللمرة الأولى بدأتُ حقاً أقتنع بأنه خطِر.

وفجأةً انهار براين وشرع يبكي. أراد أنْ يَخصي نفسه، كما قال. أراد أنْ يُطهِّر زواجنا من أية شهوة جنسية. أراد أنْ يُصبح على غرار أبيلار، وأنْ أصبح مثل إيليويز. أراد أنْ يتطهَّر من الشهوات الجسدية كلها لكي يستطيع أنْ يُخلِّص العالم. أراد أنْ يكون رقيقاً كخصيّ. أراد أنْ يكون رقيقاً كالمسيح. أراد أنْ يُصاب بالعديد من السهام كالقديس سيباستيان. أحاطني بذراعيه وأخذ يجهش بالبكاء في حضني. مسّدتُ على شَعره، آملة في أنْ يستغرق في نهاية المطاف في النوم. بدل ذلك استغرقتُ أنا في النوم.

لستُ متأكدة من الوقت الذي استيقظتُ فيه، لكنَّ براين كان يقظاً

منذ ساعات - ربما طوال الليل. مشيتُ إلى غرفة الحمّام بخطى مترنّحة وكان أول ما رأيتُ رسمٌ أوليّ مُلصق إلى المرآة بشريط لاصق يبيّن رجلاً قصيراً تُحيط به هالة ذا قضيب ضخم منتصب، ورجلاً آخر بلحية طويلة يوشك أنْ يستمنيه. خلفهما هناك نسر (يُشبه النسر الأميركي) اللهم ما عدا أنّ لديه انتصاباً شديد الوضوح وذا سِمة إنسانية.

كان براين قد كتب فوق الصورة «الأب، والابن والروح القُدس».

توجهت إلى طاولة الكتابة في غرفة النوم. كانت قِطعٌ من بطاقات الفهرس (تحتوي كل الملاحظات التي تخص أُطروحتي) مبعثرة على الأرض تحت الطاولة كنثار من الورق الملوّن. وعلى سطح الطاولة مجموعة من الكتب: المجموعة الكاملة لأعمال شكسبير وميلتون مفتوحة بشكل بارز وقد أُحيطَتْ كلمات، وعبارات وأحرف معيّنة بدوائر بحبر متعدد الألوان. للوهلة الأولى لم أتبيّن أي نظام أو ترتيب، ولكن كانت هناك ملاحظات حانقة على الهوامش. عبارات مثل «يا للجحيم!» أو «حيوان بسنامَين!» أو «الجنس اللطيف ليس لطيفاً كثيراً!». وعلى شكسبير وميلتون نُثرت بقايا ورقة نقدية من فئة عشرين دولاراً مُزِّقَتْ بعناية. وفي موقع آخر على الطاولة كانت نُسخٌ مُنتزَعة من كتب عن الفن، كلها تصوِّر الله أو يسوع أو القديس سيباستيان.

هرعتُ إلى غرفة الجلوس بحثاً عن براين وعثرت عليه يُعدِّل وضعية مُكبِّر الصوت على الهاي - فاي. كان يستمع إلى مقطوعة *«تنويعات غولدبرغ»* من عزف غلين غولد، وبدأ يرفع الصوت ومن ثم فجأة يُخفضه، لكي يُحدث ما يُشبه التأثير الساحر.

سأل: «إلى أي مدى يمكن رفع الصوت لدى سماع موسيقى باخ في هذا المجتمع؟ عالية هكذا؟»، ورفع المفتاح عالياً، «أم منخفضة؟»، وأخفضه بحيث أصبح بالكاد يُسمع. «في الواقع! لا سبيل إلى الاستماع إلى موسيقى باخ في هذا المجتمع!».

«براين، ماذا فعلت بأطروحتي؟». كان سؤالاً متكلّفاً. كنتُ أعلم علم اليقين ماذا فعل بها.

كان براين يعبث بمفتاح الهاي - فاي متظاهراً بأنه لم يسمعني.

«ماذا فعلتَ بأطروحتي؟».

«إلى أي مدى يمكن رفع الصوت لدى سماع باخ في هذا المجتمع من دون أنْ يأتي رجال الشرطة؟».

«ماذا فعلت بأطروحتي؟».

«عالياً هكذا؟، وأدار مفتاح الصوت».

«ماذا فعلتَ بأطروحتي؟».

«أم منخفضاً؟»، وأخفض الصوت.

«ماذا فعلتَ بأطروحتي؟».

«عالياً هكذا؟».

صرخت بأعلى صوتي «براين!». ولكن لا فائدة. ذهبتُ إلى الطاولة وجلست هناك مُحدقة إلى «الكتب المفتوحة» التي تركها. وددتُ لو أقتله أو أقتل نفسي. ولكن بدل ذلك بكيت.

دخل براين.

سأل: «مَنْ في اعتقادكِ سيذهب إلى الجنة؟».

لم أُجِب.

«هل سيذهب باخ؟ هل سيذهب ميلتون؟ هل سيذهب شكسبير؟ هل سيذهب شكسووف[٤]؟ هل سيذهب ابن الحرام القديس سيباستيان؟ هل سيذهب أبيلار المخصي؟ هل سيذهب سندباد البحري؟ هل سيذهب تندباد الخياط؟ هل سيذهب جنباد حارس السجن؟ هل سيذهب نورمان ميلر؟ هل سيذهب وينباد الحوت؟ هل سيذهب فينباد الفاشل؟

---

٤ - اسم لا وجود له طبعاً، لكنه يعبث بلفظ اسم شكسبير. - المترجم

هل سيذهب ريناد الريلر؟ هل سيذهب جويس؟ هل سيذهب جيمس؟ هل سيذهب دانتي أم إنه أصبح هناك الآن؟ هل سيذهب هومر؟ هل سيذهب ييتس؟ هل سيذهب هاردي مع انتصاب؟ هل سيذهب رابليه مع الرابل؟ هل سيذهب فيّون بخسّة؟ هل سيذهب رالاي بفخامة؟ هل سيذهب موتسارت بخفّة؟ هل سيذهب ماهلر بخطى ثقيلة؟ هل سيذهب إل غريكو بومض البرق؟ هل ستذهب مصابيح الكهرباء؟». التفتُّ ونظرتُ إليه. كان يلوّح بذراعيه بعنف ويقفز في مكانه.

هتف: «ستذهب مصابيح الكهرباء إلى الجنة! ستذهب! ستذهب!».

هتفت بسخط: «أنت تدفعني نحو الجنون!».

صرخ: «أنتِ ستذهبين إلى الجنة!»، ثم أمسك بيدي وأخذ يجرني نحو النافذة، «هيا بنا نذهب إلى الجنة! هيا بنا! هيا بنا!»، وفتح النافذة على مصراعيها ومال نحو الخارج.

صرخت بهستريا: «كفى! لم أعد قادرة على التحمُّل!»، ثم أخذتُ أهزّه. لابد أنه أصيب بالخوف الحقيقي لأنه أطبقَ على حنجرتي بكلتيّ يديه، وبدأ يخنقني.

صرخ: «اخرسي، سوف تأتي الشرطة!»، لكني لم أعد أصرخ. شدّ قبضته عليّ وبدأت أغيب عن الوعي.

لماذا أفلتني قبل أنْ يقتلني، لستُ متأكدة. لعلَّ السبب هو فقط حُسن حظي. لا أعلم كيف أعلّله. كل ما أعرف هو أنه عندما أفلتني أخيراً، كنتُ أرتعش من رأسي إلى قدميّ وألهث طلباً للهواء (وأذكر أني عثرت لاحقاً على رضوض كبيرة زرقاء اللون على عنقي). هرعت وولجت خزانة الرواق وجلستُ هناك في الظلام أعضُّ على رُكبتي وأجهش وقلت لاهثة: «آه يا إلهي، أوه يا إلهي، أوه يا إلهي». ثم نجحت بصورة ما في استجماع شتات نفسي واتصلتُ هاتفيا بطبيب العائلة.

كان موجوداً في إيست هامبتون. واتصلت بطبيب أمي النفسي. كان موجوداً في فاير أيلند. واتصلت بطبيبي النفسي الحالي. كان موجوداً في ولفليت. واتصلتُ بصديقة لأختي راندي وهي عاملة اجتماعية في مجال الطب النفسي. فطلبت مني أنْ أستدعي الشرطة أو طبيباً - اي طبيب. قالت إنَّ براين مريض في عقله، ولعله يشكل خطراً. وينبغي أنْ لا أبقى وحدي معه.

إنه يوم أحد من شهر حزيران وإذا أردتَ أنْ تصاب بالمرض، يُستحسن أنْ يحدث ذلك في منتجع ساحلي. حيث لا وجود لطبيب. وأخيراً وصلتُ إلى الشخص الذي كان ينوب عن طبيبي الباطني. قال إنه قادم على جناح السرعة. وبعد ذلك بخمس ساعات وصل. وخلال تلك المدة كلها كان براين هادئاً بصورة مذهلة. جلس في غرفة الجلوس يُصغي إلى موسيقى باخ، وتبدو عليه النشوة. وجلستُ في غرفة النوم أحاول أنْ أستوعب ما جرى. تظاهر كل منا بتجاهُل الآخر. وساد هدوء ما بعد العاصفة.

على الأقلّ أصبح لمشكلة براين اسم الآن. كان ثاني أفضل شيء بعد الشفاء. عندما قيل لي إنه مُصاب «بالذهان» انتابني إحساس غريب بالارتياح. ها هنا مرض يمكن علاجه، مشكلة يمكن حلّها. وإعطاء اسم للشيء جعله أقلّ إثارة للخوف. للأسف، لقد محا إحساسي بالذنب. الجنون ليس ذنب أحد. إنه من عمل الله. كان هناك شيء مُريح جداً في ذلك. إنَّ الكوارث الطبيعية كلها مُريحة لأنها تُشدد على أهميتنا، التي لولاها لتخلّينا عن الإيمان. أحياناً من المريح بصورة غريبة أنْ تعلم مدى عجزك.

تحمّلنا فترة ما بعد الظهيرة مع يوهان سيباستيان باخ. قال كونغريف (الذي هو حتماً في الجنة يلعب الورق مع موتسارت) «إنَّ للموسيقى قُدرةً على ترويض وحشٍ كاسر». وعندما أفكر في كل

الأوقات الصعبة التي ساعدنا باخ على اجتيازها أتيقّن من أنه هو أيضاً موجود في الجنة.

عند الساعة الخامسة دخل علينا الدكتور ستيفن برلمتر - وهو يُسرف في الاعتذار وراحتا يداه تنضحان بالعرق. ومنذ ذلك الوقت اصبحت حياتنا بين أيدي الأطباء وتصنيفاتهم الصغيرة الأنيقة. وطمانني الدكتور برلمتر أنّ زوجي، براين، «شاب مريض جداً». سوف «يحاول أنْ يساعده». وبدأ يُحاول إعطاوه جرعة من الثورازين - التي كان يفرّ هارباً عند تلقيها ويهرع إلى الدَّرَج الخلفي (هابطاً الطوابق الثلاثة عشر كلها) ومنها إلى متنزه ريفرسايد بارك. ونلاحقه أنا والطبيب، ونعثر عليه، ونلاحقه من جديد، ونوقفه، ونتزلفه، ونراقبه وهو يفر هارباً من جديد، ونلاحقه من جديد، ونتزلفه من جديد إلى آخره. وباقي التفاصيل قذرة بقدر ما هي شائعة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبح أمر إيداعه المستشفى أمراً لا مفر منه. كان الرعب حينئذ قد اصبح يُسيطر عليه واضحتْ أوهامه تزداد تنوعاً باطّراد. والأيام التي تلتْ كانت كابوسيّة. وصل والدا براين بالطائرة من كاليفورنيا وأعلنا على الفور أنّ براين على احسن ما يُرام وأنني أنا المجنونة. حاولا أنْ يمنعاه من تناول أية أدوية وكانا على الدوام يسخران من الأطباء (وهو أمر، اعترف، ليس سهلاً فعله). وحثّاه على تركي والعودة إلي المنزل في كاليفورنيا - وكأنّ ابتعاده عني سيجعله تلقائياً أفضل حالاً. وكان الدكتور برلمتر قد أحالَ براين إلى طبيب نفسي حاولَ على مدى خمسة أيام شجاعة أنْ يُبقيه خارج المستشفى. ولكن بلا فائدة. وبين والد براين ووالدته، ورئيس براين في العمل، وأصحاب شركة «الزبَد الخارق»، وبروفسورات وأطباء براين السابقين حسنيّ النيّة، لم تعد حياتنا مُلكاً لنا. كان حفارو القبور المزعومون يُلاحقونه وفي كل يوم يهرب أكثر.

في صباح اليوم الخامس بعد زيارة الدكتور برلمتر، خلع براين

ملابسه كلها بالقرب من بوليفار تاور في سنترال بارك. ثم حاولَ أنْ يمتطي حصان الملك جاغيلو البرونزي مع الملك جاغيلو[٥] البرونزي (بسيوفه المتصالبة وكل شيء). وأخيراً أخذه رجال الشرطة إلى مستشفى الأمراض النفسية في جبل سيناء (حيث السيرانات يصرخن، والثورازين يتدفّق كالنبيذ)، وفيما خلا بضع عطل نهاية الأسبوع العابرة، لم نعش معاً بعد ذلك.

استغرق الأمر ثمانية أشهر أخرى أو نحوها لينحل زواجنا بصورة كاملة. وبعد أنْ أودِعَ براين مستشفى جبل سيناء، انتقل والداه للعيش معي، وأخذا ينهالان عليّ بالاتّهامات ليل نهار، ويُرافقانني إلى المستشفى في مساء كل يوم، ولم يسمحا لنا أبداً بالانفراد ولو لعشر دقائق. على أية حال كانت ساعات الزيارة محصورة بين الساعة السادسة والسابعة، وكانا عازمَين على التفريق بيننا حتى حينئذ. بالإضافة إلى أنني عندما كنت أنفرد ببراين كان يُهاجمني طوال الوقت. قال إني خائنة. كيف جرؤت على حبسه؟ ألا أعلم أنني بهذا سأُحشَر في الطبقة السابعة - طبقة الخونة؟ ألا أعلم أنَّ جريمتي هي أسفل أنواع الجرائم التي وردتْ في كتاب دانتي؟ ألا أعلم أنني ضمنتُ بذلك الجحيم؟

على أية حال ما كان يمكن للجحيم أنْ يكون أسوأ من ذلك الصيف. كان نظام حكم دييم[٦] قد سقط تواً والبوذيون يحرقون أنفسهم في

---

٥ - الملك فلاديسلاف جاغيلو (١٣٥١؟ - ١٤٣٤): كان دوق ليثوانيا الأعظم فوحَّدَ ليثوانيا وبولونيا بعد زواجه من ملكة بولونيا وأصبح ملكاً. - المترجم

٦ - نغو دينه دييم (١٩٠١ - ١٩٦٣): أول رئيس جمهورية لجنوب فيتنام. بعد انسحاب فرنسا من الهند الصينية عام ١٩٥٤حاول أنْ يُقيم جمهورية فيتنام الشرعية وتلقّى مساعدة من الولايات المتحدة بسبب مناهضته للشيوعيين. اتبع سياسة قمعية بحق الغالبية البوذية، ونتيجة ذلك خسر دعم الولايات المتحدة. اغتيل مع أخيه إبّان وقوع انقلاب عسكري ضده في عام ١٩٦٣. - المترجم

بلد صغير غريب الأطوار كان اسمه يزداد شيوعاً باطراد - فييتنام. كان باري غولدووتر[٧] يخوض معركة رئاسة الجمهورية على منصّة التجارة على امتداد الساحل الشرقي كله ومن ثم يُبحر على متنها في البحر. ولم يكن قد مضى على اغتيال جون ف. كينيدي أكثر من عام. وكان ليندون جونسون هو أمل الأمة الوحيد لدحر غولدووتر والحفاظ على السلام. وذهب شابان أبيضان هما غودمان وشفرنر جنوباً إلى المسيسيبي ليعملان في تسجيل أسماء المصوتين، مع شاب أسود اسمه تشيني، وانتهى الأمر بالثلاثة إلى الرقود في قبر واحد مُخيف. وانفجر حي هارلم وبدفورد - ستويفيسنت في أول سلسلة من فصول الصيف الطويلة والحارة. وفي تلك الأثناء، كان براين في المستشفى يهذي حول كيف سيُخلّص الإنسانية. وطبعاً كانت الإنسانية بأمسّ الحاجة إلى ذلك الخلاص.

وتباعدنا. ليس بسرعة، وليس عبر لقائي بشخص آخر. لم أخرج أبداً خلال فترة مكوث براين في المستشفى. وأصبت باضطراب عصبيّ واحتجتُ إلى بعض الوقت للشفاء. ولكنني بدأتُ تدريجياً أدرك كم أنني أكثر سعادة من دونه، كيف كانت طاقته المسعورة تستنزف حياتي، وكيف حرمتني تخيلاته الجامحة من أية حياة خيالية خاصة بي. وبدأت ببطء أُقدّر الإصغاء إلى أفكاري الخاصة. بدأتُ أُصغي إلى أحلامي الخاصة. وكأنني كنتُ أعيش في غرفة ترجّع الأصداء على مدى خمس سنوات ومن ثم فجأة جاء أحدهم وأخرجني منها.

باقي القصة في معظمه مُعقّد. لقد أحببتُ براين وجعلني إدراك

---

٧ - باري موريس غولدووتر (١٩٠٩ - ١٩٩٨): رجل اعمال اميركي وسيناتور عن ولاية أريزونا من أصل يهودي. ترشّح لرئاسة الولايات المتحدة ١٩٦٤. كان ذا شخصية جذّابة وخطيباً مفوّهاً خلال النصف الأول من ستينيات القرن الماضي، وكُنّي بـ «السيد مُحافظ». - المترجم

انني أفضِّل العيش من دونه على العيش معه. أيضاً، أعتقد أنني لم أعد أثق فيه بعد أنْ حاول أنْ يخنقني. قلت إنني غفرتُ له، لكنَّ شيئاً في داخلي لم يغفر أبداً. كنتُ أخشاه وهذا ما قضى على زواجنا في نهاية المطاف.

واقتربت النهاية ببطء. كانت النقود، كالمعتاد، عاملاً مُحفّزاً. وبعد أنْ أمضى ثلاثة أشهر في مستشفى جبل سيناء، لم يعد في وسع الصليب الأزرق أنْ يُغطي النفقات وبات لزاماً نقل براين. كان عليه أنْ يذهب إما إلى أحد مستشفيات الدولة (وهو أمر بثّ الرعب فينا معاً) أو إلى مستشفى خاص (حيث التعرفة تصل إلى حوالي ٢٠٠٠ $ في الشهر). كنا قد وصلنا إلى طريق النقود المسدود.

هنا تدخّل والداه، لا ليقدّما يد المساعدة بل ليساهما في الإزعاج. إذا تركته يرحل إلى كاليفورنيا، سوف يدفعان تكاليف العلاج الخاص. وإلا، ولا قرش واحد. وعشتُ مع هذا الإنذار فترة من الوقت وأخيراً قررتُ أنْ لا خيار أمامي.

في شهر أيلول انتقلنا إلى كاليفورنيا. «انطلقنا بسرعة إلى المنطقة» ليس على متن عربة خيل مغطّاة، بل على متن طائرة ٧٠٧، واصطحبنا معنا والدي وطبيباً نفسياً. فقد رفضت شركة الطيران أنْ تنقل براين إلى أرض الوطن من دون طبيب نفسي مُرافق - وهذا كان يعني أيضاً أنّ علينا نحن الأربعة أنْ نسافر في الدرجة الأولى، ونمضغ الجوز بين جرعات الأقراص المُهدِّئة.

كانت رحلة طيران لا تُنسى. كان براين شديد الهياج إلى درجة أنني نسيت خوفي الشخصي من الطيران. وكان والدي يزدرد أقراص المُهدِّئ كل دقيقة ويحضّني على التحلّي بالشجاعة، وكانت أعصاب الطبيب النفسي (الطبيب المُقيم ذو الوجه الجميل والأعوام الستة

والعشرين الذي اندمج معنا إلى درجة التنافُر التام) شديدة التوتر وفي حاجة ماسّة إلى طمأنتي المتواصلة له. كنتُ الأم إيزادورا - التي تعتني بهم جميعاً. كل الآلهة والعجائز الفاشلين.

في عيادة ليندا بيلا في لا جولا، تمّ الحفاظ على وهم روح التطوُّع بصرامة؛ فكل الممرضات يرتدين البنطلونات القصيرة الضيقة التي تصل حتى الركبتين، والأطباء يرتدون القمصان الرياضية والبنطلونات القطنية ويعتمرون قبعات رياضة الغولف. وكان المرضى يرتدون الزي المعتاد الموحّد ويتجولون في المكان بصورة تشبه جو فنادق الطرق السريعة الممتازة، المزوَّدة ببرك سباحة وطاولات لعبة البينغ - بونغ. وأفراد هيئة الإدارة كلهم مبتهجون بإصرار وحاولوا أنْ يتظاهروا بأنْ ليندا بيلا أشبه بالمُنتجع، وليس مكاناً تلجأ إليه عندما يتخلّى عنك الجميع. ونصح الأطباء بعدم إطالة مشاهد الفراق. واجتمعت مع براين للمرة الأخيرة في غرفة المعالجة بالعمل[8] حيث كان يضرب بعنف كتلة من الغضار على إحدى الطاولات.

قال: «لم تعودي جزءاً مني بعد الآن. هذا كان في الماضي».

فكّرتُ كم هو مؤلم أنْ أكون جزءاً منه، وكيف كدتُ أصل إلى نقطة نسيان هويتي، لكنني لم أتمكن من الإفصاح عن ذلك.

قلت: «سأعود».

أجاب ساخراً «لِمَ؟».

«لأنني أحبك».

«لو أنكِ أحببتني لما جلبتني إلى هنا».

«هذا غير صحيح، يا براين، لقد قال الأطباء -».

---

٨ - غرفة في مستشفى يُعالَج فيها المرضى عبر الانهماك في العمل. - المترجم

«أنت تعلمين أنَّ الأطباء لا يعرفون أيَّ شيء عن الله. وليس من *المُفترَض* أنْ يعرفوا. لكنني حسبتُ أنكِ *أنتِ* تعرفين. أنتِ تشبهين الآخرين. مقابل كم قطعة فضة بعتني؟».

قلت بضعف: «إنَّ كل ما أريد هو أنْ تتحسّن صحتك».

«تتحسّن *عمَّ*؟ وكيف سيعرفون أني تحسّنت – وهم المرضى. لقد نسيتِ كل ما تعلّمتِ. لقد غسلوا دماغكِ أنتِ أيضاً».

قلت: «أريد لك أنْ تتحسّن لكي لا تُضطر إلى تناول الأدوية...».

«أنتِ تعلمين أنَّ هذا هُراء. لقد *أعطوك* دواءً كتجربة ومن ثم استخدموه كمؤشّر على صحتك. عندما تكون جرعة الدواء عالية فأنت في حال سيئة. وعندما تكون منخفضة – فأنت في حال أفضل. إنَّ الفكرة دوّارة. مَنْ يحتاج إلى الدواء اللعين أصلاً؟» وأخذ يضرب الغضار بوحشية.

قلت « أعلم».

الحقيقة هي – أنني اتّفقتُ معه. لا شك في أنَّ تصنيفات الأطباء للصحة والمرض أشدّ جنوناً من براين. ولا شك في أنَّ ابتذالهم كان من الشدّة بحيث لو أنَّ براين *كان* الله حقاً، لما عرفوا ذلك.

قال: «إنَّ الأمر كله مسألة إيمان. ولطالما كان كذلك. كلمتي، أم كلمة الحشود الغفيرة؟ أنت اخترتِ الحشود. لكنَّ هذا لا يجعلكِ على حق. وزيادة على ذلك – أنتِ تعلمين هذا. إنني أرثي لحالك. أنت *ضعيفة* لعينة. لم تتحلّي يوماً بالشجاعة»، وضرب الغضار بقوة حتى جعله رقيقاً.

«براين – يجب أنْ تفهم موقفي. لقد شعرتُ بأنني سأنهار تحت وطأة الضغط. كان والداك يصرخان في وجهي طوال الوقت. والأطباء ينصحون. ولم أعد أعرف مَنْ أنا –».

«أنت كنت تحت وطأة الضغوط؟ *أنت! مَنْ* الذي سُجن - أنتِ أم أنا؟ مَنْ الذي خُدِّرَ بالثورازين - أنتِ أم أنا؟ مَنْ الذي خُدِع - أنتَ أم أنا؟».

قلت وأنا أبكي: «كلانا». كانت قطرات مالحة كبيرة تنحدر على وجهي إلى زاويتيّ فمي. كان مذاقها طيباً. للدموع مذاق مُريح جداً. وكأنَّ في استطاعتك أنْ تبكي حتى تحصلين على رحمٍ جديد وتزحفين إلى داخله. كأليس تسبح في بحر دموعها.

«كلانا! هذا مُضحك!».

قال: «هذا صحيح، كلانا تألَّمنا. لا يمكن احتكار الألم».

قال: «ارحلي»، ورفع كتلة الغضار وأخذ يدحرجها لتغدو أشبه بأفعى، «التحقي بدير الراهبات، يا أوفيليا[٩]. لا يهمني إنْ أنت أغرقت نفسك -».

«يبدو أنكَ دائماً تنسى أنكَ هددتني بالقتل، أليس كذلك؟». أعلم أنه ما كان ينبغي أنْ أقول هذا، لكنني كنتُ شديدة الغضب.

«حياتك *أنت!* لو أنكِ أحببتني - لو أنكِ تعرفين معنى التضحية - لو لم تكوني طفلة مُدللة، لما ذكرتِ هذا الهراء عن حياتك!».

«براين، *ألا تتذكر؟*».

«أتذكر ماذا؟ أنا أتذكر كيف حبستني - هذا ما أتذكُر -».

فجأةً تذكرتُ أنَّ هناك نسختين من الكابوس الذي عشنا - نسخته ونسختي - وأنهما متنافرتان من النواحي كلها. إنَّ براين ليس فقط لم يكن يتعاطف مع تعاستي؛ بل لم يكن يعي وجودها.

بل لم يتذكّر الأحداث التي أودتْ به إلى المستشفى. كم نسخة

٩ - إشارة إلى حبيبة هاملت في مسرحية شكسبير. - المترجم

أخرى من حقيقتنا كانت موجودة؟ نسختي، ونسخة براين، ونسخة والديه، ونسخة والديّ، ونسخة الأطباء، والممرضات، والعاملين في الخدمة الاجتماعية...». كان هناك عددٌ لامتناهِ من النسخ، عدد لامتناه من الحقائق. لقد عشت مع براين كابوساً، والآن اتّضحَ أننا لم نعش أي شيء معاً. لقد اجتزنا تجربة من خلال باب واحد، لكننا بعد ذلك افترقنا وولجنا نفقَين منفصلَين، ونحن نترنّح كلّ خلال ظلامه المنفصل وحده، وخرجنا أخيراً من طرفَين متعاكسَين من الأرض.

حدّقَ براين إليّ ببرودة وكأنني عدوّه اللدود. أُقسم بأنني لا أتذكّر الكلمات التي تبادلنا عند الفراق.

كان لا يزال أمامي وأبي بعد ظهيرة ومساء قبل أنْ نعود بالطائرة إلى نيويورك. استأجرنا سيارة وقدناها إلى تيجوانا، حيث اشترينا بنياتا قذراً قليلاً - وهو حمار ذو لون وردي فاقع. رحنا نجوب الشوارع معاً ونعلّق على «اللون المحلي»، ونُبدي ملاحظات تنبوئية حول فقر الناس وثراء الكنائس.

إنَّ أبي لا يزال يحتفظ بوسامته ويبدو أصغر سناً بخمسة عشر عاماً من أعوامه الستين، يزهو بلياقته الجسدية وبشعره الخفيف، ويمشي بخطى رشيقة انتقلت عدواها إليّ. إننا متشابهَان في المظهر، وفي المشية، وكلانا مدمنان على التورية في الكلام وإعطاء الإجابات البارعة، ومع ذلك نادراً ما نتواصل. دائماً ينتابنا شيء من الارتباك عندما نجتمع معاً - وكأنَّ كلاً منا ينطوي على سرٍّ رهيب حول علاقتنا، لكنه لا يستطيع البوح به. ماذا يمكن أنْ يكون ذلك السر؟ أتذكّر كيف كان يضرب الجدار الفاصل بين غرفتيّ نومنا لكي يُطمئنني ويُخفف من خوفي من الظلام. أتذكر كيف كان يُغيّر أغطية الفراش عندما أبلله وأنا في الثالثة من العمر، ويُعدّ لي حليباً حاراً وأنا في الثامنة عندما يُصيبني الأرق. أتذكّر أنه حكى لي ذات مرة (بعد أنْ شهدتُ شجاراً

مرعباً بين والديّ) أنهما سيعيشان معاً «إكراماً لي»... ولكن إنْ كان هناك المزيد - غواية عهد الطفولة أو شجاراً عنيفاً - فإنْ ذاكرتي المُغرقة في التحليل لا زالت غير قادرة على العودة إلى ذلك الزمن السحيق. أحياناً تُعيدني فجأةً رائحة لوح صابون (أو أية مادة منزلية) إلى ذكرى منسية منذ زمن طويل من عهد الطفولة. ثم أجدني أتساءل كم من ذكرى أخرى مُستترة عني في تضاعيف مخي؛ لا شكّ في أنّ مخي سيبدو كأنه آخر أرض مجهولة عظيمة، وسوف أمتلئ بالدهشة لاحتمال أنْ يأتي يوم تُكتَشَف فيه عوالم جديدة هناك. تخيّل جزيرة أطلنتس الضائعة مع كل الجزر الغارقة من عهد الطفولة موجودة هناك تنتظر مَنْ يكتشفها. الفضاء الداخلي الذي لم نكتشفه بصورة تامة بعد. عوالم داخل عوالم داخل عوالم. والشيء الرائع هو أنها في انتظارنا. وإنْ كنا قد فشلنا في اكتشافها، فذلك فقط لأننا لم نبن بعد وسيلة النقل المناسبة - سفينة فضاء أو غواصة أو قصيدة - التي ستوصلنا إلى هناك.

لهذا السبب، جزئياً، اكتب. كيف لي أنْ أعرف فيما أفكّر إلا إذا رأيتُ ما أكتب؟ إنَّ كتابتي هي الغواصة أو سفينة الفضاء التي ستحملني إلى العوالم المجهولة داخل رأسي. والمغامرة لا نهاية لها ولا تنضب. إذا تعلّمتُ كيف أبني وسيلة النقل المناسبة، أستطيع أنْ أكتشف مزيداً من المناطق. وكل قصيدة جديدة هي وسيلة نقل جديدة، صُمّمَتْ لتنفذ أعمق قليلاً (أو تطير أعلى قليلاً) من التي قبلها.

لعلّ زواجي من براين انتهى في ذلك اليوم الذي خرجتُ فيه إلى شوارع تيجوانا مع والدي ذي الأجوبة البارعة. كان والدي يحاول بكل قِواه أنْ يبدو مرحاً وذا عون، لكنني كنتُ غارقة في إحساسي الخاص بالذنب. كانت ورطة: إذا لازمتُ براين وحاولتُ أنْ أعيش معه من جديد، سوف أُجنّ، أو على الأقلّ سوف أتخلّى عن مُعظم كياني. ولكن إذا تركته وحيداً مع جنونه وإسعافات الأطباء، فإنني

أتخلى عنه - في الوقت الذي هو في أمسّ الحاجة إليّ. وبمعنى ما، كنتُ خائنة. لقد وصل الأمر إلى مرحلة الخيار بين نفسي وبينه، واخترتُ نفسي. ولا زال إحساسي بالذنب بهذا الشأن يمسني. ففي مكان ما من أعماق رأسي (بكل ما يحتوي من ذكريات الطفولة الغارقة) تكمن صورة مجيدة للمرأة المثالية، نوع من النسخة اليهودية من غريزيلدا[١٠]. إنها راعوث وإستر ويسوع ومريم مُجتمعون في واحد. إنها دائماً تدير لك الخد الآخر. إنها وسيلة نقل، وعاء، ليست لديها حاجات أو رغبات خاصة بها. عندما يضربها زوجها، تفهم دوافعه. وعندما يمرض، ترعاه. وعندما يمرض الأطفال، ترعاهم. إنها تطبخ، وتهتم بشؤون المنزل، وتدير أعمال المحل التجاري، وتمسك دفاتر الحسابات، وتصغي إلى مشاكل الجميع، وتزور المقبرة، وتزيل الأعشاب الضارة عن القبور، وتنظف الأرضيات، وتجلس بهدوء على الشرفة العليا من الكنيس بينما الرجال يتلون الصلوات حول وضاعة النساء. إنها قادرة على القيام بالأعمال كلها ما عدا الحفاظ على ذاتها. وفي سري، أنا دائماً خجلة من نفسي لأنني لستُ هي. المرأة الصالحة هي التي تهب حياتها للاعتناء بزوجها وتغذية جنونه. وأنا لم أكن امرأة صالحة. كانت أمامي أعمال أهم بكثير أؤديها.

---

١٠ - غريزيلدا: شخصية أسطورية تنتمي إلى أوروبا العصور الوسطى. إنها المرأة الصالحة، رمز للصبر والتحمُّل، وأيضاً للزوجة المُطيعة. استخدمها كتّاب تلك الفترة في أعمالهم مثل بوكاتشيو، وتشوسر وتوماس ديكر، والموسيقار الإيطالي فيفالدي ألَّفَ أوبرا تحمل الاسم نفسه. وتحكي القصة كيف اختار المركيز سالوتزو غريزالدا زوجة له من بين طبقة الفلاحين لكي يختبر إخلاصها، فتظاهر أولاً بأنّ أولادهما ماتوا على يديه، ثم تظاهر بأنه تزوج مرة أخرى بسبب الملل وأهملها. وخلال هاتين المحنتين وغيرهما من المحن أبدت غريزالدا صبراً وتحمّلاً وإخلاصاً، وأخيراً يرضخ الزوج ويُعيد غريزالدا إلى أولادها ومنزلها بعد أن نجحت في اختباراتها كلها. - المترجم

ولكن إنْ كنتُ مهملة في حق براين فقد عوَّضتُ عن ذلك بقدرٍ مُضاعَف مع تشارلي فيلدينغ. لا يمكنكَ ببساطة أنْ تهزم علاقتي بتشارلي (التي تلتْ مباشرة نهاية زواجي ببراين) بسبب المازوشية الصرف - «مازوشية أنثوية طبيعية»، جيدة، صحيّة. غريبٌ كيف نمنَح دائماً الرجل التالي كل ما فاض عن الرجل السابق. إنها التفسير النفسي لـ «اللحظات السيئة».

(١٣)

قائد الأوركسترا

أهو زلزال أم فقط اهتزاز؟
أهو حساء السلحفاة الأصيل أم تقليد له؟
أهو كوكتيل - هذا الإحساس بالفرح،
أم ما أشعر به هو شعور حقيقيّ؟
هل لديّ الإحساس الصحيح أم الخطأ؟
هل سأستمع إلى موسيقى باخ أم فقط إلى أغنية
لكول بورتر؟

• - كول بورتر[1]، من «في الحب طويل الأمد» (١٩٣٨)

كان تشارلي فيلدينغ («تشارلز» عندما يوقِّع باسمه) طويل القامة منحدر الكتفَين ويبدو أشبه باليهودي التائه[2]. كان أنفه طويلاً بصورة مُبالغ فيها ومعقوفاً وله فتحتان واسعتان، وفمه الصغير المنحدر نحو الأسفل يحمل دائماً تعبيراً نكداً، يتراوح ما بين الاحتقار والكآبة.

---

١ - كول بورتر (١٨٩١ - ١٩٦٤): مؤلف موسيقى وأغان أميركي من أسرة فاحشة الثراء. قدّم مسرحيات غنائية جسّد فيها حياته وغنى أغانيه. - المترجم

٢ - اليهودي التائه: تقول الأسطورة القروسطية إنه حُكِمَ عليه بالطواف حول الأرض حتى مجيء المسيح ثانية إلى هذا العالم جزاءً له على هُزئه به يوم صلبه. - المترجم

وكانت بشرته شاحبة وتوحي بالمرض، وتغزوها البثور التي لا زالت تزعجه من حين إلى آخر. كان يرتدي معطفاً رياضياً غالياً من الجوخ يتدلى على كتفيه وكأنما على علّاقة من الأسلاك وكانت رُكبتا بنطلونه واسعتين. وجيبا معطفه التشسترفيلد القديم منتفخة بكتب ذات أغلفة ورقيّة. ومن حقيبة أوراقه البالية المصنوعة من جلد الخنزير يبرز طرف عصا قائد الأوركسترا.

لو رأيته في القطار النفقي أو وهو يتناول الطعام في مطعم صغير منعزل في محل شرافت (حيث كان يُضيف قيمة الفاتورة إلى حساب والده) لافترضتَ، من التعبير المرتسم على وجهه، أنه في حالة حداد. ولم يكن كذلك - اللهم إلا إذا كان في حالة حِداد مُسبقة على والده (الذي كان سيرِثَ أمواله).

أحياناً، في أثناء انتظار وصول وجبة العشاء (المؤلّفة من الدجاج مع القشدة، ومثلجات الفدج الحارة مع بوظة الشوكولا)، يتناول نوتة موسيقية من حقيبة أوراقه، ثم يُمسك بعصاه باليد اليُمنى، ويبدأ بقيادة أوركسترا وهمية. وكان يفعل ذلك بانطلاق مثاليّ وبلا أية رغبة كما بدا في أن يكون واضحاً. كان ببساطة غير واعٍ لوجود الناس من حوله.

كان تشارلي (أطلقت عليه أمه هذا الاسم تيمّناً بالأمير تشارلي، وتشارلي، في الأصل، أمير يهوديّ) يعيش وحده في شقّة من غرفة واحدة في إيست فيليج. وهو الحي نفسه الذي سكن فيه أسلافه الفقراء قبل ذلك بجيلَين. كانت الستائر المجلوبة من مدينة البندقية مُثقلة بالسخام الأسود اللزج، وتتكسّر حُبيبات خشنة تحت قدمك وأنت تعبر الأرضية الجرداء. كان كل شيء في المكان يوحي بالبساطة والتقشّف: مطبخ مُريح الخزانات فيه دائماً خالية إلا من علب المشمش المُجفف وأكياس الحلوى القاسية، وثمة آلة بيانو مُستأجرة، وسرير واحد، وجهاز تسجيل، وجهاز محمول لتشغيل الأسطوانات، وعلبتا

كرتون لحفظ الأسطوانات (لم تُفتَحان منذ أنْ جلبهما من منزل والديه قبل عامين). خارج النافذة يوجد دَرَج الفرار من الحريق يطلّ على فناء قذر تعيش على طرفه سُحاقيتان في منتصف العمر تنسيان أحياناً أنْ تسدلا الستائر. وكان تشارلي يحمل ذلك الاحتقار النابع من الدفاع عن النفس للمثليين جنسياً الذي يكنّه عادة الذين يُحرجهم نازعهم الجنسي. كان مُثاراً جنسياً طوال الوقت، لكنه كان شديد الخوف من أنْ يُصبح سوقياً. كان تعليمه الذي حصّله من جامعة هارفرد مُصمَّماً لكي يقضي على كل سوقيّة كامنة في جيناته، وعلى الرغم من أنه كان يرغب في أنْ يحصل على مُضاجعة، إلا أنه لم يرغب في تحقيق ذلك بطريقة تجعله يبدو فظاً - إما أمام نفسه أو أمام الفتيات اللواتي حاول أنْ يغويهن.

على أية حال، لقد لاحظتُ أنه ما لم يكن الرجل عبقرياً أصيلاً، تصبح ثقافة هارفرد عائقاً دائماً. ليس بسبب ما تعلمه هناك، بل بسبب ما يفترض نفسه على الدوام - عبء كونه خريج جامعة هارفرد: الهالة، الجو، مشاكل النُّطق، الذكريات الرقيقة عن نهر تشارلز. كان ذلك يحوله إلى طفل ويجعله يندفع في أروقة وكالات الدعاية وربطة عنقه تتدلى خلفه. إنها تجعله يتحمّل الطعام الرديء وجو نادي هارفرد المتزمت الخسيس من أجل إثارة إعجاب فتاة صغيرة جميلة بالمصدر الفخم لشهادة اللاهوت الجامعية.

كان تشارلي قد أُصيب بعائق هارفرد هذا؛ تخرّجَ بدرجة متوسطة ومع ذلك كان دائماً يشعر بأنه متفوق بدرجة كبيرة عليّ أنا العضو في جمعية فاي بيتا كابّا[٣] التي حصلت عليها من بارنارد الوضيع ذي

٣ - فاي بيتا كابّا: جمعية شرفيّة وطنية، تأسست عام ١٧٧٦ لا يُقبَل في عضويتها إلا أصحاب القُدرات الأكاديمية العالية. - المترجم

الطبقة الاجتماعية المتدنية. شعر وهو في هارفرد أنّه أصبح راقياً، أنه على الرغم من فشله في العالم، كان لا يزال (هنا يجب أنْ تُلقي جوقة غيلبرت وسوليفان هذه العبارة) خرِّيج هارفرد.

كان تشارلي في كل يوم تقريباً يبقى نائماً حتى الظهيرة، ثم ينهض ويتناول طعام الإفطار في أحد مطاعم الأجبان والألبان التي بقيتْ منذ أيام حي المُهاجرين القديم. ولكن في يومين من الأسبوع كان يجرّ نفسه قسراً من السرير عند الساعة التاسعة ويستقِل القطار النفقي إلى قلب المدينة إلى مدرسة للموسيقى حيث كان يُعلِّم العزف على البيانو ويقود جوقة إنشاد. كان مبلغ المال الذي يكسبه من ذلك العمل لا يكاد يُذكَر، لكنه كان يعيش في الأساس على الدخل الذي تدرّه وديعة مالية وضعها والده له. كان شديد التكتُّم بشأن دخله، وكأنه سرّ قذر. ومع ذلك، لطالما افترضتُ أنه لولا أنَّ ذلك يتعارض مع بُخله، لعاش بصورة ما بطريقة أقلّ وضاعة مما فعل.

ولكن كان هناك سرّ عائلي قذر وربما هو السبب في كون موضوع المال شديد الحَرَج. كانت عائلة تشارلي قد ورثت المال عن طريق عم تشارلي، مل - راقص قاعات الرقص الشهير الذي يحمل هوية مُستعارة وعاش حقبة الثلاثينيات بشعرٍ لمّاع وأنفٍ جعله مستقيماً وزوجة راقصة ***غير يهودية***. وكان مل فيلدينغ قد أمضى مسيرته المهنية على مدى حياته مُحافظاً على سرّ كونه يهودياً، ووافق على تقاسم ثروته مع العائلة التي اشترطتَ أنْ يجعلوا أنوفهم كلها مستقيمة ويُغيِّروا اكنيتهم من فيلدشتاين إلى فيلدينغ. رفضَ تشارلي أنْ يرضخ لتغيير الأنف، لكنه قبِل الاسم. لكنَّ والد تشارلي قام فعلاً ببتر نصف أنفه (وكانت النتيجة أنه بدا يهودياً بأنفٍ صغير بشكل سخيف). لكنَّ الشيء الأساسي هو أنَّ آل فيلدشتاين غادروا بروكلن ولجؤوا إلى بيرسفورد (حي الأقليات الأنيق ذاك، تلك القلعة الزائفة) الواقع في سنترال بارك ويست.

كان مجال عمل العائلة هو سلسلة واسعة من مدارس الرقص التي تبيع عضوية مدى الحياة لعجائز يعانون الوحدة. ولم تُعد مهنة بالمعنى الدقيق إلا بقدر ما يمكن القول عن التحليل النفسي أو ديانة ما أو لقاء بين مجموعات أو جمعية روزيكروشية إنها مِهن، ولكنها، مثل هذه، كانت تعدُ أيضاً بالقضاء على الوحدة، والعجز، والألم، وطبعاً خيّبتْ أمل الكثير من الناس. وكان تشارلي قد عمل في مجال محترَف الرقص بضع سنوات خلال فصول الصيف في أثناء الدراسة الجامعية، لكنَّ تلك كانت مجرد عربون احترام. لقد كان يكره أنواع الأعمال اليومية كلها - حتى وإنْ كانت تتألّف من الانزلاق على حلبة الرقص مع سيدة في الثمانين من العمر أصبحت تواً عضواً مدى الحياة مقابل عدة مئات من الدولارات. وعندما تعرّفتُ على تشارلي أبدى حساسية شديدة في موضوع الرقص في الصالات. لم يكن يرغب في العموم في أنْ يُعرَف بأنَّ والده كان يكسب عيشه من هذا العمل. ومع ذلك، كان غالباً ما يُسقط اسم عمه الشهير أمام أصدقائه وأصدقائي.

ولكن ماذا فعل تشارلي؟ لقد أعدَّ نفسه للعَظَمة. كان يحلم بظهوره الأول كقائد أوركسترا - فيما عدا ذلك لم يكن يفعل أي شيء آخر ليُعجِّل من تحقيق ذلك - وبدأ بالسيمفونيات. كانت - كلها دون استثناء - غير مكتملة. وباشر أيضاً بتأليف السوناتات والأوبرات (القائمة على أساس أعمال لكافكا أو بيكيت). تلك كانت أعمالاً غير مكتملة (لكنه كان دائماً يعدُ بإهدائها إليّ). لعله بالنسبة إلى الآخرين كان فاشلاً، لكنه بالنسبة إلى نفسه كان شخصية رومانسية. كان يتحدث عن «الصمت، المنفى، والبراعة». (الصمت: هو السيمفونيات غير المكتملة. المنفى: كان قد غادر بيرسفورد إلى إيست فيليج. البراعة: علاقته العاطفية معي). كان يمر بمرحلة التجارب الأولى للفنانين العِظام كلهم. كقائد للأوركسترا، لم يكن قد حصل بعد على فرصته

الكبرى وكانت تعيقه، كما رأى، حقيقة أنه ليس شاذاً جنسياً. وكمؤلف موسيقي، كان الأمر يتعلق بتعلّم كيفية التعامل مع أزمة الأسلوب التي تُفسد العصر. هذا أيضاً سوف يُحلّ في وقته. وعلى المرء أنْ يفكّر بمنطق العقود وليس السنين.

كان تشارلي يجلس على كرسي البيانو أو أمام طبق من كعكة الكرز في مطعم راتنر ويفكر كيف سيُصبح عندما يُحقق النجاح في نهاية المطاف - وقد بدأ شعر صدغيه يبيضّ، ويُصبح رقيقاً، ويرتدي ملابس غريبة الأطوار. بعد أنْ يقود أوركسترا سيمفونيته الخاصة الأولى في المتروبوليتان، لن يتعالى على التردُّد على نادي هاف نوت ليعزف مع مجموعة من عازفي الجاز المُلهمين. وسوف تطوّقه فتيات الجامعة اللواتي يتعرّف عليه لكي يُعطيهن توقيعه، وسوف يصدّهن بعبارات ذكية. وفي أوقات الصيف سوف ينسحب إلى منزله الريفي في فرمونت، لكي يؤلّف الموسيقى على آلة البيانو تحت قبّة السماء المائلة، ويغادر محترفه لكي ينخرط في حديث شيّق مع الشعراء والمؤلفين الموسيقيين الشبان الذين يلحقون به إلى هناك. وسوف يُخصص ثلاث ساعات في اليوم لكتابة سيرته الذاتية - بأسلوب وصفه بأنه وسط بين أسلوبيّ بروست وإيفلين و(كاتباه المُفضّلان). ثم ستكون هناك نساء. سوبرانات فاغنارية بمؤخرات ذات غمازات ضخمة كتلك التي تظهر في لوحات بيتر بول روبنز. (كان لدى تشارلي ولع عظيم بالنساء الممتلئات - بل حتى البدينات. ولطالما رأى أنني نحيلة أكثر مما ينبغي ومؤخرتي صغيرة أكثر مما ينبغي. ولو أننا بقينا معاً لعلني أصبحتُ أشبه بالفيل). وبعد نساء السوبرانو البدينات تأتي بعدهنّ في المرتبة النساء الأديبات: الشاعرات اللواتي يهدين دواوينهن إليه، والناحتات المهووسات بجعله يقف أمامهن عارياً، والروائيات اللواتي وجدنه شديد الفتنة وجعلن منه الشخصية

المركزية في قصصهن المُقنَّعة[٤] *romans a clef*. وقد لا يتزوج أبداً، ولا حتى لكي يُنجب أطفالاً. الأطفال (كما كان يقول غالباً) مُملّون. ولطالما كانت كلمة **مملّون** (التي يلفظها وكأنها مكتوبة بأحرف مائلة) من كلماته المُفضّلة. ولكنها لم تكن من أحكامه الأكثر إدانة (ولا كلمة **مُبتذل** على الرغم من أنه كان يحب هذه أيضاً). أما كلمته المُطلَقة في إدانتها فكانت **سوقيّ**. وطبعاً يمكن للناس أنْ يكونوا سوقيين، كما الكتب والموسيقى واللوحات الفنية - ولكن مع تشارلز يمكن للطعام أنْ يكون سوقياً. وكما قال ذات مرة عندما اصطحبه عمه الشهير إلى مطعم لو بافيون: «هذه الفطائر **سوقيّة**». كان ينطقها مع فراغ كبير بين مقطعيّ الكلمة - وكأنّه بين مقطعيّ «سو» و«قيّ» يرتعش على شفا الوقوع على كشف. وكان النُّطق أيضاً مسألة كبرى بالنسبة إلى تشارلز.

بعد هذا كله، فاتني أنْ أقول أهم شيء - أعني، أنني كنتُ أعشقه بجنون (مع تشديد على كلمة **جنون**). وجاءت السخرية لاحقاً. بالنسبة إليّ لم يكن شاباً طنّاناً تكسوه البثور، بل شخصية تتمتع بسِحر أسطوريّ، نسخة مستقبليّة من ليني برنشتاين[٥]. كنتُ أعلم أنَّ عائلته (بحياتها المخملية، وغرفة الجلوس المزخرفة ذات المظهر الرخيص اللمّاع) كانت مائة مرة أشدّ سوقيّة من عائلتي. شعرتُ بأنَّ تشارلي مغرور أكثر منه ذكياً. كنتُ أعلم أنه لا يغتسل أبداً، ولا يستخدم مُزيل الروائح الكريهة أبداً، ولا يمسح طيزه كما ينبغي (وكأنه لا يزال

---

٤ - القصة المقنّعة: قصة تصوّر أشخاصاً حقيقيين وأحداثاً واقعية في أسلوب روائي مُقنَّع. - المترجم

٥ - ليني برنشتاين، أو ليونارد برنشتاين (١٩١٨ - ١٩٩٠): قائد أوركسترا ومؤلف موسيقي أميركي، يهودي. من أشهر أعماله «**قصة الحي الغربي**» (١٩٥٧) و«**عصر القلق**» (١٩٤٩). - المترجم

يأمل في أنْ تأتي الماما وتهبّ إلى نجدته)، لكنني كنتُ مدلّهة بحبّ. وسمحتُ له بالتعالي عليّ. فقبل كل شيء، كان مُخلصاً لأشدّ الفنون عالميّة: الموسيقى. لقد كنتُ كاتبة متواضعة، ذات تفكير بسيط. أهم شيء هو أنه كان عازف بيانو كوالدي الذي يعزف على البيانو. عندما يجلس أمام لوحة المفاتيح، يتبلّل سروالي الداخلي. يا لتلك النغمات المتواصلة! يا لتلك النغمات المتصاعدة! يا لتلك النغمات الحادة! يا لتلك النغمات المنخفضة!

أتعرف تلك العبارة الفظيعة «دغدغة مفاتيح البيانو»؟ هكذا كان تشارلي يُثير جموحي. أحياناً كنا حتى نتناكح على مقعد البيانو على إيقاع المُسرّع[٦].

تقابلنا بطريقة غريبة. في التلفاز. وأي شيء أشدّ غرابة من قراءة الشعر في التلفاز؟ إنه ليس شِعراً وليس تلفازاً. إنه «برنامج تثقيفي» - عُذراً لهذا التعبير.

بُثّ البرنامج على القنال ١٣ وكان خليطاً من الفنون السبعة - وليس أي منها حيويّاً. ولم يفهم أحد لماذا اعتُبِرَ تثقيفياً. كان هناك سبعة «فنانين» شبّان وكل منهم كان أمامه أربع دقائق لكي يُقدِّم (أو تقدِّم) مادته. ثم كان هناك ذلك البدين القذر المنتفخ العينين، الذي يُدخّن الغليون الذي اسمه شيء يُشبه فيليبس هاردتاك وقام بإجراء حديث مع كلٍّ منا، طارحاً أسئلة حاسمة مثل «ما هو، في اعتقادك، الإلهام؟»، أو «ما هو التأثير الذي خلّفته طفولتك على عملك؟». وللإجابة عن تلك الأسئلة (وعشرة غيرها) خُصِّصَتْ أربع دقائق أخرى. إلى جانب تقديم عروض الضيافة هذه، كان هاردتاك يكسب

٦ - المُسرّع: جهاز يشبه البندول يستخدمه المتعلمون على العزف لكي يُسرِّعوا من إيقاع عزفهم. - المترجم

قوته من كتابة مقالات نقدية للكتب ويعمل موديلاً من أجل إعلانات الويسكي - وهما عملان متشابهان أكثر مما يبدو على السطح. فالويسكي دائماً «خفيف» و«معتدل» والكتب دائماً «صلبة» و«قوية». وكل ما كان عليك أنْ تفعل هو أنْ ترفع هاردتاك عالياً حتى تخرج منه كل صيغ الصِّفة. ولكن أحياناً يختلط عليه الأمر فيصف كتاباً بأنه «خفيف» و«معتدل» ويصف الويسكي بـ«الصلب» و«القوي». وكان هاردتاك يحتفظ للويسكي ذي العشرين عاماً والمؤلفين الشيوخ بكلمة «رطب». وللمؤلفين الشبان وللويسكي ماركة X، كان لدى هاردتاك الجواب التقليدي: «إنه يفتقر إلى السلاسة».

معظم الفنانين في ذلك العرض كانوا يستحقون هاردتاك. كان هناك أحمق شاب لقَّبَ نفسه بـ «صانع سينما» عرض فيلماً ضعيفاً، مفرطاً في استخدام النور فيه، مدته أربع دقائق يحكي عما بدا أنه اثنان (أو ربما ثلاث) أميبات ترقص ملتصقة بامتداداتها؛ ورسام أسود وصف نفسه بالرسّام الناشط ولا يرسم إلا الكراسي (وهو موضوع مُعارِض للعنف بصورة غريبة بالنسبة إلى رسّام ناشط)؛ ومغنية صوت سوبرانو شديدة شحوب الوجه، ولها أسنان بارزة جداً (كان تشارلي موجوداً هناك لكي يُصاحبها على مدى أربع دقائق من الغناء من ألحان برنشيني المرتعش)؛ ورجل يعزف على مجموعة آلات نقر اسمه كنت بلاس كان يقفز بحركات متشنجة وهو يعزف على الطبول، والإكسيلوفون، وأصوات قعقعة أخرى؛ وراقص للرقص الحديث لا يستخدم كلمة «رقص» دون أنْ يرفقها بأداة التعريف؛ ومُعارِض اجتماعي ومغنٍّ شعبي لكنته البروكلينية الأصلية مشوبة بدروس في فن الخطابة، والنتيجة الغريبة هي أنه ينطق اسم الجلالة الله، «اللاااااه»؛ ومن ثم كنتُ أنا.

وضعوني داخل إطار صورة من الخشب الرقائقي الرمادي لكي أُلقي شعراً خلال الدقائق الأربع المُخصصة لي، ولكي أجلس هناك كان عليّ أنْ أجثم على ما يُشبه السقالات. كان تشارلي موجوداً تحتي مباشرة، جالساً على البيانو ويُحدّقُ إلى تنورتي. وبينما كنتُ أقرأ شعري، كانت عيناه تحرقان فخذيّ. وفي اليوم التالي اتصل بي هاتفياً. لم أتذكّره. ثم قال إنه يريد أنْ يضع موسيقى على كلمات شعري، فقابلته على العشاء. ولطالما كنتُ ساذجة حيال مثل تلك الخدع. «تعالي نصعد إلى شقتي ودعيني أؤلف موسيقى لقصائدك»، وكنتُ دائماً آتي. أو على الأقل أذهب.

لكنّ تشارلي فاجأني. لقد بدا هزيلاً وقذراً ومعقوف الأنف عندما وصل إلى بابي، ولكن في المطعم استعرضَ معرفته الهائلة بأغاني كول بورتر وروجرز وهارت وغرشوين: كل الأغاني التي كان والدي يعزفها على آلة البيانو وأنا طفلة. حتى أغاني كول بورتر المغمورة، والأغاني التي تكاد تكون منسية لروجرز وهارت المأخوذة من مسرحيات غنائية مغمورة، وأقل أغاني غرشوين شهرة - كان يعرفها كلها. بل كان يعرف منها أكثر مما أعرف - وأنا صاحبة الذاكرة القوية للأبيات الجذّابة. حينئذ وقعت حتى أذنيّ في حبه، حوّلته من ضفدع قذر معقوف الأنف - إلى أمير - أمير يهودي يعزف على البيانو. وحالما ألقى المقطع الأخير من أغنية «هيا نفعلها» ونطق الكلمات بشكلٍ حسن، أصبحتُ مستعدة لأنْ أفعلها معه. كانت مسألة بسيطة. رجعتُ إلى المنزل وأويت إلى السرير. لكنّ تشارلي كان مغموراً بحظّه الحسن.

قلت: «قُدني».

«يبدو أني اضعتُ عصاي».

«حسن إذن، افعلها مثل ميتروبولوس[٧] - باستخدام يديك المُجرّدتين».

قال: «أنت رائعة»، وهو يتقلّب تحت الأغطية. ولكن، باليد أم بالعصا، كان الوضع ميؤوساً منه. كانت أسنانه تصطك وكتفاه تهتزان بعنف. كان يلهثُ طلباً للهواء كمريضٍ بانتفاخ الرئة.

سألتُ «ما الأمر؟».

«المسألة فقط هي أنكِ رائعة، وأكاد لا أصدق ذلك». بدا كأنه يجهش ويختنق على التوالي.

ناشدني: «هل ترغبين في رؤيتي من جديد على الرغم من هذا؟ لقد وعدتِ بألا تستخدمي هذا ضدي؟».

دُهشت. «أتعتقد أني غول؟». استنهضَ عجزُه فيّ غرائز الأمومة كلها. «أي حقيرة تلك التي ستطردك؟».

قال وهو يئنّ: «حصل هذا مع الأخيرة؛ لقد طردتني ورمت ملابسي في الرواق. ونسيَتْ إحدى فردتيّ الجورب. واضطررتُ إلى الذهاب إلى المنزل على متن القطار النفقي بكاحلٍ عارٍ. كانت أشد تجارب حياتي إذلالاً».

قلت، وأنا أُهدهده: «يا حبيبي».

أعتقد أنه كان ينبغي أنْ أعلم بأمر اضطرابه العاطفي من نشيجه واختناقه وارتعاشه - لكنَّ هذا لا يحدث معي. بالنسبة إليّ أكد ذلك على حساسيته. الأمير وحبّة البازلاء. كان شيئاً غير مفهوم. كانت ليالي الافتتاح تُحبطه. كان يمكن دائماً أنْ نغني أغاني كول بورتر معاً بدل ممارسة النكاح. لكنه كان ينام بين ذراعيّ؛ ينام بطريقة لم أعرفها عن

٧ - ديمتري متروبولوس (١٨٩٦ - ١٩٦٠): مؤلف موسيقي، وعازف بيانو وقائد أوركسترا يوناني. - المترجم

غيره قط. كان يئز ويبقبق ويضرط ويتقلّب. كان يئنّ ويرتعش. بل كان حتى ينزع بثوره في أثناء النوم. كنتُ أبقى يقظة نصف الليل أراقبه بذهول تامّ.

في الصباح كان يستيقظ مبتسماً وينكحني كفحل. كنتُ قد اجتزت الامتحان؛ لم أطرده. تلك كانت جائزتي.

على مدى الأشهر الثماني التالية أو نحوها بقينا معاً، نقضي الليالي عادةً إما في منزله أو منزلي. كنت أعمل على إبطال زواجي من براين، وأمارس التعليم في المدينة الجامعية في نيويورك وفي الوقت نفسه أنهي تحصيلي درجة ماجستير في الفنون من جامعة كولومبيا. كنتُ لا أزال أعيش في الشقة نفسها التي فقد فيها براين عقله وكرهتُ أنْ أبقى وحدي في الليل، لذلك عندما لم يتمكن تشارلي من المكوث معي، تبعته إلى إيست فيليج وشاركته سريره الضيق.

قال إنه يُحبني، قال إنه يعبدني، ومع ذلك ظلّ مبتعداً. شعرتُ بشيء غريب في تصريحاته عن حبه لي، شيء متردِّد وكاذب. كنتُ جامحة لأنها كانت المرة الأولى التي يبتعد فيها رجل عني هكذا. كنتُ متعوّدة على أنْ تكون لي اليد العليا وقد أثار تردّده سُخطي؛ وهذا زاد من تولّهي به، وزاد من تردّده أكثر فأكثر. القصة القديمة، القديمة، نفسها.

كنتُ أعلم أنَّ هناك فتاة أخرى في باريس، صديقة قديمة من رادكليف تدرس الآن الفلسفة في جامعة السوربون. ووفقاً لرواية تشارلي، كانا مجرد صديقين. قال إنَّ العلاقة انتهت.

كانت ممتلئة وذات شعر قاتم ولديها (وِفقاً لروايته) عادة مزعجة جداً هي الاستغراق في نوم عميق بعد أنْ تُنكَح. كانت قد انتقلت إلى باريس هرباً منه، وأصبح لديها صديق فرنسيّ عاش معها في رو دو لارب (بدا أنَّ تشارلي يعلم دقائق الأمور جيداً بالنسبة إلى شخص لم

يعد يهتم بأي شيء). ولكن إنْ كان هذا كله صحيح، فلماذا كانت توقّع رسائلها إليه كلها بـ «أحبك»؟ ألكي تحتفظ بشيء نفيس؟ وماذا عنه هو؟ أكانت هي الشيء النفيس (أم الشهواني) بالنسبة إليه؟ أم كنتُ *أنا*؟

لطالما شعرتُ بأنّ قراءة بريد الآخرين هو أسفل عمل، لكنّ الغيرة تدفعك إلى القيام بأعمال غريبة. ففي صباح يوم حزين في إيست فيليج، بعد أنْ غادر تشارلي باكراً لكي يُدرِّس طلاب الموسيقى، تسللتُ من السرير كجاسوس ورحت أفتش شقّته (وقلبي يخفق بقوة كأحد طبول شاؤول غودمان[٨]). كنتُ أبحث طبعاً عن أختام بريد باريس - وعثرتُ عليها، تحت بنطلون تشارلي الرمادي الواشي الخاص بركوب الخيل مباشرة.

اعتماداً على رسائلها، كانت سالومي وينفيلد (هل سُمّيَتْ كذلك تيمُناً باسم جدها سول؟) نموذجاً أدبياً. وكانت أيضاً متورطة في لعبة دفع تشارلي نحو الغيرة الجنونية ويحمل داخله مقادير صغيرة من الحب.

عزيزي تشارلز (كتبت تقول):

نحن (نحنُ!) نُقيم هنا في الطابق السادس (السابع بالنسبة إليك) من مبنى قذر وزريّ اسمه فندق دو لارب في أثناء بحثنا عن غرف أرخص. باريس رائعة - إنّ جان بول سارتر يسكن حرفياً بالقرب منا، وسيمون دو بوفوار، وبيكيت، وجينيه - باختصار tout le monde (الجميع).

حبيبي، أحبك. ألا تعتقد أنه لمجرد أنني أعيش مع سيباستيان (الذي، بالمناسبة، يصنع كُسكُساً ممتازاً) - لم أعد أهتم بك. كل ما في الأمر أنني

٨- شاؤول غودمان (١٩٠٧ - ١٩٩٦): قارع طبول في فرقة نيويورك الفلهارمونية. - المترجم

في حاجة إلى بعض الوقت لأجرّب، لأتنفّس، لأعيش، لأتمطّى، لأمدد عضلاتي (خمّن أيّها!) من دونك.

إنني افتقدك ليلاً ونهاراً، وافكر فيك، بل واحلم بك. لا تستطيع أن تتصور مدى شعوري بالإحباط لعيشي مع رجل لا يعرف معنى B.L.T[9]، ولا يأكل كعكة البلينتز، ويعتقد أنّ The Charles[10] هو أحد ملوك إنكلترا السابقين! مع ذلك هو (سيباستيان) لطيف ومخلص وأيضاً (هنا رَسم خط طويل بالحبر الأسود) يجعلني أدرك يومياً كم لا أزال أحبك.

Attends – moi, cheri

سالي

Attends – moi أنت!

ولكن كيف يمكنني أنْ أواجه تشارلي برسالة أخذتها من بين ملابسه الداخلية التي ليست نظيفة كثيراً؟ بدل ذلك طبّقت السياسة الغابيّة التي تعتمد على المراقبة والانتظار. وأبقيتُ احتقاري سرياً. كنتُ مُصممة على انتزاعه، تدريجياً، من صديقة المراسلة السريّة.

في شهر حزيران، غادرنا معاً إلى أوروبا. كان تشارلي ذاهباً للمشاركة في مسابقة لقيادة الأوركسترا في هولندا؛ وكان لدي أصدقاء سأقوم بزيارتهم في يوركشير، وسأقابل صديقتي القديمة بيا في فلورنسا للقيام برحلة استجمام في أرجاء جنوب أوروبا، وسأزور شقيقتي راندي في الشرق الأوسط. وخططنا أنا وتشارلي للمكوث

٩ - أي شطيرة اللحم المُقدّد: الأحرف المذكورة هي الأحرف الأولى من المواد التي تحتوي (لحم مُقدد، وخس، وبندورة). - المترجم

١٠ - ذا تشارلز: في الغالب هو اسم نهر في الولايات المتحدة، ينبع من هوبوكن ويقطع ولاية ماساتشوستس ويصب في بوسطن في المحيط الأطلسي. يبلغ طوله ١٢٩ كم. - المترجم

في هولندا معاً مدة أسبوعين ومن ثم نفترق. كان من المفترَض أنْ يعود إلى الوطن لكي يقود مقطوعة أوراتوريو في أحد الاحتفالات الفنية، لكنَّ ذلك لم يكن أمراً مؤكّداً. وتمنيتُ في سري أنْ نتّفق معاً على إلغاء خططنا كلها والاكتفاء بالسفر معاً حتى آخر الصيف.

أبحرنا على متن السفينة *«كوين إليزابث»*، في الدرجة السياحية. رفض كونارد المتجهِّم أنْ يمنحنا حجرة تضمنا معاً إلا بعد أنْ نقدِّم برهاناً مكتوباً على أننا متزوجين (وطبعاً لم يكن ذلك في حوزتنا). ثم إنَّ تشارلز كان شحيحاً. فمن أجل الاقتصاد، تشارك مع ثلاثة رجال عجائز قمرة بأربعة أسرّة وشغل هو سريراً ضيقاً، ولكن لم يكن أمامي من خيار غير أنْ أشغل سريراً ضيقاً في قمرة تضم أربعة أسرّة للنساء. وهي، طبعاً، بلا نوافذ، وتقع مباشرة فوق المُحركات. كانت رفيقاتي هن سيدة ألمانية تبدو وتتكلّم مثل «عاهرة بوخنفالد»[11]، وممرضة هزيلة تغطّ، ومُدرِّسة إنكليزية في الخمسين من عمرها ترتدي سترة من الصوف وقماشاً من الجوخ وتنتعل حذاءً متموِّج النعل، وتستخدم عطر شركة ياردلي *«اللافندر الإنكليزي»* حتىٰ فاحتِ القمرة كلها بعبقه.

كانت مشكلتنا في أثناء فترة العبور التي امتدّتْ خمسة أيام ونصف هي أين نمارس الجنس. كانت قمرتي مشغولة، بما أنَّ الممرضة الفرنسية بدتْ أنها تنام طوال النهار والسيدتان الإنكليزية والألمانية تنامان منذ الساعة التاسعة. وذات مرة حاولنا أنْ تلغي وجبة الغداء

---

١١ - «عاهرة بوخنفالد»: لقب إلسه كوخ (١٩٠٦ - ١٩٦٧): كان زوجها مديراً لمعسكرات التعذيب النازية؛ مارست أعمال تعذيب وحشية. اُتهِمَت أثناء محاكمتها بانها كانت تأخذ تذكارات من بشرة الضحايا التي تحمل وشماً. وُصِفَتْ بالقاب كثيرة مثل «حيزبون بوخنفالد» و«ملكة بوخنفالد» و«وحش بوخنفالد» و«أرملة السفّاح» و«حيزبون بوخنفالد الحمراء». - المترجم

لكي نحظى بقمرة تشارلي في أثناء تناول العجائز الثلاثة الطعام في الخارج، لكنّ أحدهم عاد وصفع الباب بغضب حالما باشرنا. لذلك بدأنا نجوب أرجاء السفينة بحثاً عن أماكن تصلح للنكاح فيها. إلى تلك الدرجة كنا مُصمّمين. قد تظن أنّ الأمر سهل في سفينة عتيقة ممتلئة بالزوايا المنعزلة والأركان المظلمة كـ«*كوين إليزابث*»، لكنه لم يكن كذلك. فالخزانات المُبطّنة موصدة، وقوارب النجاة أعلى من قدرتنا على الارتقاء إليها، والغرف العامة مكشوفة أكثر مما ينبغي، وغرف الحضانة ممتلئة بالأطفال، ولم نتمكن من العثور على أية قمرة خالية. فاقترحت اللجوء إلى إحدى قمرات الدرجة الأولى في وجود الناس خارجها، لكنّ تشارلي كان جباناً.

سأل «ماذا لو عادوا؟؟».

«لعلهم سيشعرون بالحرج ولن يقولوا أي شيء على أية حال - أو سيعتقدون تلقائياً أنهم موجودون في القمرة الخطأ وفي أثناء بحثهم في المكان وعثورهم على المضيف، سنكون نحن قد *اختفينا*».

يا إلهي، هل كنتُ فضوليّة بالمقارنة مع تشارلي! كم كان جباناً! إنّ خوفي من الطيران يسمح لي، قبل كل شيء، بركوب الطائرات ما دمتُ أوافقُ على معاناة الرعب طوال فترة الطيران، أما رعبه *هو* من الطيران فكان سيئاً إلى درجة أنه لم يكن *يقترب* من أية طائرة. إلى هذا الحال إننا في تلك الورطة قبل أي شيء.

ولكننا في نهاية المطاف عثرنا على مكان. المكان المُقفر الوحيد على متن السفينة. مكان مثالي بكل معنى الكلمة - رمزياً وعملياً (ما عدا أنه كان خالياً من أي سرير): الكنيس اليهودي في الدرجة السياحية.

صرخت ونحن نتلمّس مكان مفتاح النور وأدركنا طبيعة الغرفة التي

عثرنا عليها. أي مكان! يا لطيف! نجمة داود! وحتى كتاب التوراة - يا إلهي! لقد شعرت بإثارة حقيقية.

قلت: «سوف أتظاهر بأنني العذراء الطاهرة أو ما شابه»، وأنا افتح سحّاب تشارلي.

قال مُحتجاً: «ولكن ليس في الباب قفل!».

«لن يأتي أحد في كل الأحوال! وحتماً ليس أصحابنا المسيحيين من رفاق السفر وطاقم السفينة الأنغليكاني. وكل مَنْ سيلج المكان سيعتقد أننا نتعبّد أو ما شابه. ماذا يعرفون عن طقوس العبادة اليهودية؟».

قال بوضاعة: «لعلهم سيُخطئون ويعتقدون أنكِ الشجيرة المحترقة[١٢]».

«مضحك جداً». كنتُ أخلع سروالي الداخلي وأُطفئ الأنوار.

لكننا لم نتناكح تحت أنظار الله إلا مرة واحدة، لأننا في اليوم التالي عندما رجعنا إلى معبد الحب الخاص بنا وجدناه موصداً بالقفل. لم نعلم السبب. وطبعاً كان تشارلي متأكداً (بأسلوبه المرتاب) من أنّ شيئاً (أهو الله؟) صوَّر تفاصيل اجتماعنا الحميم وسجل تأوهاتنا كلها. وأمضى باقي الرحلة مرعوباً. كان *متأكداً* من أننا سنقابل فرقة الإنتربول الخاصة بمكافحة الرذيلة في الهافر.

بالنسبة إليّ كان باقي رحلة العبور مملاً جداً، فقد جلس تشارلي على أحد الأرائك الطويلة يدرس نوتاته الموسيقية ويقود فرقاً سيمفونية وهمية، وأنا أراقبه، لأخفف من وطأة احتقاري لسالي، التي كنتُ متيقّنة من أنه سيُقابلها في باريس. حاولتُ أنْ أطرحها من تفكيري لكنها ظلّت تقفز أمامي كورقة لفّ الحلوى التي ترفض أنْ تغرق في بحيرة سنترال بارك. ماذا كان في وسعي أنْ أفعل؟ حاولتُ أنْ اكتب

١٢ - نوع من الشجيرات الأميركية، وتسمى أيضاً الأوفونيموس.

لكنّ التركيز خانني. كل ما استطعت أنْ أفكّر فيه هو سالي - تلك المحتالة الكبرى. لقد جعلتْ تشارلي يتمسّك بها كما جعلني تشارلي أتمسّك به. إنّ مشاكل الحب كلها هي مشاكل سوء توزيع، اللعنة عليه. هناك وفرة تكفي الجميع، لكنها دائماً تكون من نصيب الأشخاص غير المناسبين، في الأوقات غير المناسبة، وفي الأماكن غير المناسبة. فالمحبوبون ينالون المزيد من الحب والمحرومون منه يزدادون حرماناً. كنتُ كلما اقتربنا من فرنسا، أعتبرُ نفسي أكثر من الفئة الثانية.

طبعاً، خسر تشارلي مسابقة قيادة الأوركسترا. ومن الجولة الأولى. فعلى الرغم من اجتهاده المتباهي، لم يتمكن من تذكر النوتة. إنه لم يُخلَق ليكون قائد أوركسترا. عندما يقف على المنصة العالية، يبدو دائماً واهناً كما حدث له في ليلتنا الأولى في السرير؛ يتراخى جسده كله، ويتقوّس كتفاه فوق ظهره كمعكرونة كانيلوني طال طبخها وخسرتْ حشوها. مسكينٌ تشارلي إنه يفتقر إلى الجاذبية. إنه عكس براين تماماً. لطالما اعتقدتُ (في أثناء مراقبتي أداء تشارلي) أنه لو كان يتمتّع ولو بقليلٍ من سحر براين لأصبح ظاهرة. إنّ براين، طبعاً، لم يكن يتمتع بأية موهبة في الموسيقى، ولكن ليت كان في استطاعتي أنْ أجمعهما معاً! لماذا ينتهي بي الأمر دائماً برجلَين يُشكلان معاً رجلاً واحداً عظيماً؟ أهذا هو بصورة ما سرّ عقدة أوديب عندي؟ هل السبب هو والدي وجدّي؟ والدي الذي دائماً يبدأ بالعزف على البيانو عندما تزداد الأمور سخونة وجدّي الذي يعلق هناك وهو الشبيه بكرة من نار، يتناقشان في الماركسية، والحداثة، والداروينيّة أو أي مذهب آخر - وكأنّ حياته متوقفة عليه؟

هل مُقدّر لي أنْ أقضي حياتي أهرع متنقّلة بين رجلَين؟ واحدٌ حيّ ولطيف ويكاد يكون لا مبال وواحد كالنار وقلق حتى إنه يستنفد الأوكسجين المُخصّص لي كله؟

مشهد نموذجي على مائدة عشاء آل وايت شتولوف. أمي، وجود، يتبادلان الصراخ حول روبرت أودري والإقليميّة. جدّي شتولوف (المعروف للجميع بلقب بابا) يقتطف من أقوال لينين وبوشكين لكي يُثبت أنّ بيكاسو محتال. وأختي كلوي تأمر جود بأنْ يخرس، وراندي تصرخ في وجه كلوي أنْ اخرسي، وبوب ولالا في الطابق العلوي يلعبان الورق، وبيير يتناقش في الاقتصاد مع قابيل. كلوي تعذّب بينيت بحديثها عن علم الطب النفسي، وبينيت يسعل بعصبية ويُجيب بغموض، وراندي تهاجم شِعري، وجدّتي (ماما) تخيط وتحذّرنا من «الكلام كسائقي الشاحنات»، وأنا أقلّب صفحات مجلة لكي أحتمي بصورة ما (دائماً بالاستعانة بالكلمة المطبوعة!) من عائلتي.

كلوي: إنّ إيزادورا دائماً *تقرأ* شيئاً. *ألا تستطيعين أنْ تتخلي عن المجلة اللعينة*؟

أنا: لماذا؟ ألكي أستطيع أنْ أصرخ كما يفعل الجميع؟ كلوي: سيكون *ذلك* أفضل من قراءة *مجلة* لعينة طوال الوقت.

أبي (مُهمهماً أغنية «تشاتانوغا تشو تشو»): «اقرئي مجلة وستجدين نفسك في بالتيمور...». كلوي (عيناها مصوّبتان نحو السماء كأنها تبتهل): وأبي دائماً يُهمهم أو يُعطي ملاحظات بارعة. ألا نستطيع أبداً أنْ نتبادل حديثاً *جديّاً* هنا؟

أنا (وأنا أقرأ): مَنْ يُريد حديثاً جديّاً؟

كلوي: أنت عاهرة عدائية.

أنا: بالنسبة إلى شخص يكره الطب النفسي، أنتِ مُثقلة بالهراء.

كلوي: اللعنة عليك.

ماما (ترفع بصرها عن الخياطة): يجب أنْ تخجلوا. أنا لم أربِّ أحفادي لكي يتكلّموا كسائقي الشاحنات.

بابا (ملتفتاً عن حواره مع جود): شيء *مُقرف*. كلوي (بأعلى صوتها): **فليخرس الجميع لحظة ويُصغوا إليّ!**

موسيقى البيانو تُسمع من غرفة الجلوس. إنه والدي يعزف توزيعه الخاص لأغنية «مع بداية الرقص»، التي كان قد عزفها في أول إنتاج لاستعراض «*اليوبيل الفضي*» في برودواي.

«*عندما بدؤوا... أل... رقص... تذكّرتُ موسيقى غاية في الرقّة...*»[١٣]

يتناهى إليّ صوته على متن أنغام آلة بيانو نشاز قليلاً ذات حجم صغير. لكنّ بابا وجود حتى لم يلاحظا مغادرته.

يقول جود «في هذا المجتمع الذين يضعون معايير الفنون هم وكالات الصحافة وعلاقات الناس العامة – وهذا يعني أنّه لا وجود لمعا –».

يُقاطعه بابا «*لطالما قلت* **إنّ العالم مُقسّم إلى نموذجين من الناس: المُخادعون وأنصاف المخادعين...».**

ويُجيبهما والدي بنغمة متقطعة.

افترقنا أنا وتشارلي في أمستردام مع كثير من الدموع. في محطة القطار المركزية. كان سينطلق إلى باريس والهافر (ليعود بعدها مباشرة إلى الولايات المتحدة كما قال). لكني لم أُصدّقه. وكنتُ سأتوجّه أنا إلى يوركشير – شئتُ أم أبيت، ولم أشأ ذلك أبداً. كان وداعاً مصحوباً بالدموع. إننا نأكل سمك رنكة أمستردام ونبكي – كلانا.

يقول: «من الأفضل لكلينا أنْ نفترق بعض الوقت، يا حبيبتي».

أقول «نعم»، كاذبة من بين أسناني[١٤] (الممتلئة ببقايا سمك الرنكة). ونتبادل القبل واللعاب الممزوج برائحة البصل. استقللت

---

١٣ – كلمات الأغنية المذكورة.

١٤ – تقصد، في سرّها.

متن القطار إلى هوك أوف هولاند، ولوّحت بإحدى يديّ التي تفوح برائحة الرنكة. وتشارلي يُرسل قبلاته عبر الأثير. إنه يقفُ على الرصيف، مستدير الكتفَين، وعصا قيادة الأوركسترا تبرز من جيب معطفه المطري، ويحمل في يده حقيبة ممتلئة بأوراق نوتة الموسيقى الأوركسترالية البالية. ويتحرّك القطار. وعلى متن السفينة البخارية المنطلقة من رأس هِوك أوف أمستردام إلى هارويتش، أقفُ وسط الضباب وأبكي، أفكر في نفسي وسط الضباب وأبكي، وأتساءل إنْ كنتُ سأتمكن يوماً من استخدام هذه التجربة في أحد الكتب. وبظفر طويل زهريّ اللون، نزعتُ قطعة أخرى من سمك الرنكة من بين أسناني وقذفتها بحركة استعراضية نحو بحر الشمال.

في يوركشير، أستلمُ رسالةً من تشارلي الذي لا زال في باريس (طبعاً). يقول فيها «حبيبتي، لا أعتقد أنّه لمجرد كوني مع سالي يعني أنني لم أعد أحبك...».

أنا باقية في منزل ريفيّ رحب، تضربه الرياح، مع أصدقاء إنكليز مجانين يشربون الجن طوال النهار ليبقوا دافئين وينخرطوا في حديث على طريقة أوسكار وايلد وأمضي الأيام العشر التالية في غيبوبة السُكر. أرسلت برقية إلى بيا لكي تُقابلني في فلورنسا في موعد أقرب من ذلك الذي اتفقنا عليه، وننتقم نحن الاثنتان من عشيقَينا الخائنَين (عشيقها في بوسطن) بمضاجعة كل رجل في فلورنسا ما عدا تمثال «داود» لمايكل أنجلو. لكنّ ذلك لا يُجدي. فنحن لا نزال تعيستين تعاسة مُطلقة. يتصل بي تشارلي في فلورنسا يستجدي غفراني (لا يزال في باريس مع سالي) وهذا عجَّل بحدوث حفل عربدة ممل آخر... ثم أبدينا أنا وبيا الندم وقررنا أنْ نتطهّر. اغتسلنا بخل كيانتي الأبيض الإيطالي، وركعنا أمام تمثال برسيوس في لوجيا دي لانتزي وطلبنا الغفران. ثم ارتقينا برج الناقوس الذي نفّذه جيوتو لكي نُصلي على

روح جيوتو (في الحقيقة، كان يمكن أنْ تكون روح أية شخصية قديمة). وصمنا عن الأكل على مدى يومَين واكتفينا بشرب سان بيليغرينو. واغتسلنا بمشروب سان بيليغرينو. وأخيراً، من باب التكفير المُطلق، قررنا أنْ نُرسل بالبريد غشاءينا الواقيين إلى عشيقينا الخائنين في محاولة لجعلهما يشعران بدل ذلك بالندم. ولكن بمَ نلفّهما؟ كانت بيا تحتفظ بصندوق كعكة موتا بانيتون قديم تحت سريرنا في غرفة نُزُل عام متهالك. أبحث وأبحث فلا أجد صندوقاً مناسباً أُرسل فيه غشائي، فأتخلّى عن المشروع بسرعة. (ما فائدة إرسال غشائي إلى تشارلي وسالي داخل صندوق كعك موتا بانيتون على أية حال؟). لكنّ بيا لا تستسلم. إنها تتنقّل في المكان بنشاط بحثاً عن ورقة بنيّة اللون وشريط لاصق. إنها تدون عناوين وعناوين البريد العائد. تذكّرني بنفسي وأنا في الثالثة عشرة عندما كنتُ أرسل سراً في طلب ضمادات صحيّة داخل «أوراق تغليف عادية بُنيّة اللون».

ننطلق إلى مقهى أميركان إكسبريس (حيث ضاجعنا نصف موظفي البريد الفلورنسيين ذوي النظرات الخبيثة). طُلبَ منا أنْ نقدّم وصفاً للمادة في تصريح الجمارك. ولكن ماذا نكتبُ في التصريح؟ «غشاء واحد، مُستعمَل؟»، «غشاء واحد، أُسيء استخدامه؟»، «رداء مُستعمَل» ربما؟ أيمكن أنْ يُعتبَر الغشاء *رداءً*؟ وتناقشنا أنا وبيا حول هذا. تقول «أنت ترتدينه فعلاً». وأرى أنَّ عليها أنْ ترسله إلى بوسطن بوصفه قطعة أثرية وهكذا تتفادى دفع الضريبة. ماذا لو اضطرّ صديقها الآثم إلى دفع ضريبة غشائها القديم؟ هل سيُضيف ذلك النفقات إلى الأذى الحاصل، والمهانة إلى الشعور بالذنب؟

تقول بيا «انقضّي عليه!. دعيه يدفع ضريبة النقل وأحرجيه قدر ما تستطيعين». وبهذا كتبتُ على الطرد «حقيبة من الجلد الفلورنسي - القيمة ١٠٠ $».

بعد ذلك بقليل افترقنا أنا وبيا. ثم ذهبتُ إلى بيروت لزيارة راندي وتابعتْ هي طريقها إلى إسبانيا، وهناك، بما أنه لم يكن في حوزتها غشاء واق، اكتفت بممارسة الجنس بالفم حتى آخر فصل الصيف. لم نكن تشعر بأي ذنب بسبب تلك الممارسات. بدت سخيفة بصورة ما، لكنني أتفهّم شعورها جيداً. فقبل كل شيء، كنا فتاتين طيبتين من حقبة الخمسينيات.

(١٤)

العرب وحيوانات أخرى[1]

أنا شيخ العرب.
سوف تحبينني.
وليلاً وأنت نائمة
سأتسلل إلى خيمتك...

• - من «شيخ العرب»، لد سنيدر،
فرانسيس ويلر، وهاري ب. سميث

من فلورنسا استقللت الـ rapido (القطار السريع) إلى روما من هناك أخذتُ الطائرة المتوجهة إلى بيروت.

كنت شديدة الخوف، كما أتذكّر - من كل شيء: من الطائرة، طبعاً، ومما إذا كانت هناك رسائل من تشارلي تنتظرني في منزل راندي في بيروت، ومما إذا كان العرب سيكتشفون أني يهودية (على الرغم من أنّ كلمة «موحّدة» مكتوبة بأحرف بارزة على جواز سفري). طبعاً، إذا عرفوا معناها لستُ متأكّدة من أنهم لن يجدوا أنها بغيضة

١ - فقط من باب الإنصاف والموضوعية، على الرغم من المهانة المُستفزة التي ينطوي عليها العنوان، إلا أنّ المعنى الحقيقي له - كما سيتضح للقارئ بعد قراءة هذا الفصل - ليس بالضبط كما يوحي ظاهرياً. لكنّ هذا لا يمنع أنّ الكاتبة تقول كلاماً وتعليقات متغطرسة وغير مقبولة على الإطلاق. - المترجم

ككلمة يهودية - بما أنَّ نصف سكان لبنان هم من الكاثوليك. ومع ذلك بقيتُ مرعوبة من كوني لست مُقنَّعة كمُخادعة، وعلى الرغم من جهلي التامّ بالديانة اليهودية، كنتُ أكره أنْ أكذب بشأن دياتني. كنتُ متيقّنة من أنني زيّفت الحماية التي يؤمنها يهوه لي (ليست كثيرة - اعترف) بسلوكي المُخادع الفظيع.

كنتُ متيقّنة أيضاً من أنني أُصِبت بالمرض الجنسي عبر كل أولئك الفلورنسيين غير المختونين. آهٍ، إنني مُصابة برهاب من كل شيء تقريباً يمكن أنْ يخطر على البال: تحطّم الطائرات، السيلان، ابتلاع الزجاج المسحوق، التسمُّم بالسمك الفاسد، العرب، سرطان الثدي، سرطان الدم، التازيون، الورم القتاميني... المُلفت في رهابي من السيلان هو أنه لا يهم إنْ كنتُ أشعر بأنني على أحسن ما يُرام، أو كان فرجي خالياً من القروح والآفات. إنني أنظر وأنظر وأنظر، ومهما قلَّ ما أعثر عليه، فأنا واثقة من أنني أحمل بعض الأعراض الصامتة للإصابة بالسيلان. إنني أعلم سراً أنَّ أنابيب فالوب لديّ ربما تبرأ وتشكّل نسيج ندب وأنَّ بويضاتي تجفّ كقرنات بذور قديمة. أتخيّل هذا بتفاصيل بصريةٍ مُضخمة. إنَّ كل أطفالي الذين لم يولدوا يجفّون! يذوون قبل أنْ ينموا. وأسوأ ما في كونك امرأة هو أنك تُخفين جسدك، تمضين فترة مراهقتك وأنت تتقوّسين نحو الخلف أَمام مرآة الحمّام، وتحاولين أنْ تنظري إلى داخل فرجك. وماذا ترين؟ الكتلة المجعّدة لشعر عانتك، الشفرين القرمزيي اللون، وزر إنذار البظر الورديّ - ولكن هذا أبداً لا يكفي! إنَّ الجزء الأهمّ غير مرئيّ؛ وادٍ غير مُكتشَف، كهف تحت الأرض، وأنواع الأخطار المُستترة الكامنة كلها.

وكما اتّضح، كانت رحلة الطيران إلى بيروت مُصممة لتُثير شكوكي المختلفة كلها. اجتزنا عاصفة هائلة فوق البحر المتوسط، والمطر يضرب النوافذ والطعام يندلق في أرجاء الطائرة كلها والربان

يخرج علينا كل بضع دقائق بتطمينات لم أُصدّقها ولا للحظة. (لا شيء يبدو قابلاً للتصديق باللغة الإيطالية على أية حال – ولا حتى *Lasciate Ogni Speranza* «تخلّوا عن كل أمل»). كنتُ على أتمّ الاستعداد للموت لأني كتبتُ كلمة «موحِّدة» على جواز سفري. وهذا كان، في الواقع، نوع الإثم الذي يُحاسبك عليه يهوه – هذا ونكاح الوثنيين.

كلما ضربنا جيب هوائي وانخفضت الطائرة حوالي خمسمائة قدم (جاعلة معدتي في فمي) أقسم على أنْ أتخلّى عن ممارسة الجنس، وأكل لحم الخنزير المُقدَّد والسفر بالطائرة إذا رجعتُ إلى الـ terra firma (اليابسة) سالمة.

باقي الركّاب على متن الطائرة لم يمثّلوا فكرتي عن الصحبة المرحة التي يمكن للمرء أنْ يموت معها. فعندما اختلطت الأشياء وتلاطمنا في أرجاء المكان كالعث المتشبث بطائرة ورق منزلقة، بدأ أحمق ثمل يصرخ «أوووبسي ديزي» كلما غصنا، وراح بضعة حمقى آخرين يضحكون ضحكاً هستيرياً. جعلتني فكرة أنْ أموت مع كل أولئك الحمقى الهزليين ومن ثم أصل إلى العالم السفلي بجواز سفر مكتوب عليه «موحِّدة» ألهج بالصلاة طوال رحلة الطيران. لا وجود لمُلحدين على متن الطائرات المُضطربة.

المذهل هو أنّ العاصفة هدأتْ (أو أننا خلّفناها وراءنا) عندما أصبحنا نطير فوق جزيرة قبرص. كان يجلس إلى جواري مصريّ زريّ المظهر (وهل هناك نوع آخر؟)[٢]، وحالما أدركَ أنه سينجو من رحلة الطيران، بدأ يتودد إليّ. قال لي إنه ينشر مجلة في القاهرة وإنه ذاهب إلى بيروت في رحلة عمل. وأصرّ أيضاً على أنه لم يخفْ أبداً لأنه دائماً يطوق عنقه بهذه المسبحة الزرقاء لتحميه من الحسد.

٢ – آراء الكاتبة وفي هذا الفصل تخصّها وحدها. – المترجم

لكنه بدا لي خائفاً جداً، بمسبحة زرقاء أو بدونها. وتابع مؤكداً لي أننا نحن الاثنين نحمل «أنفاً يدل على حسن الحظ» ولذلك ما كان يمكن للطائرة أنْ تتحطّم ما دمنا على متنها. ولمس طرف أنفي ومن ثم لمس طرف أنفه وقال: «أترين – محظوظان».

قلت في نفسي «يا إلهي – لقد ارتطمتُ بمهووس بالأنوف. ولا أستطيع القول إنّ فكرة أنّ أنفينا متشابهَان قد أثّرتْ فيّ. كان صاحب أنف كبير، كأنف عبد الناصر (كل المصريين يُشبهون عبد الناصر في نظري)، في حين أنّ أنفي على الأقلّ صغير ومستقيم، وإنْ كانت أرنبته ليست بالضبط مرتفعة. قد لا يكون مثالياً بالنسبة إلى جرّاح التجميل، لكنه لا يُشبه أنف عبد الناصر. وإنْ كان لا بد أنْ يُشبه شيئاً فإنّ طرفه الأفطس يكشف عن المساهمة الجينية لفحل بولوني اغتصبَ إحدى جداتي الأوائل في أثناء إحدى المذابح المنسية[٣] التي ارتُكِبَتْ في بيل.

لكنّ اهتمامات جاري المصري تجاوزت الحديث عن الأنوف. نظر إلى نسخة من مجلة *«تايم»* كانت مفتوحة (دون أنْ أقرأها) على حجري في أثناء العاصفة، وأشار إلى صورة لـ (حينئذ) سفير الأمم المتحدة غولدبرغ، وقال العبارة التاريخية: «إنه يهودي». هذا كل ما قال، ولكن بدا أنّ نبرة صوته تتضمّن أنّ هذا كل ما لديه ليقوله.

نظرتُ إليه بإمعان وكان يمكن أنْ أقول له مقابل سنتين (عبر أنفي البولوني) «أنا أيضاً»، لكنّ لا أحد أعطاني سِنتين. في تلك اللحظة أعلن الربان الإيطالي عن هبوطنا في مطار بيروت.

كنتُ لا أزال أرتعش جراء ذلك الحديث الصغير عندما لمحت

٣ – في ثمانينيات القرن التاسع عشر ارتكبت في روسيا القيصرية في حق اليهود في منطقة مُخصصة لليهود تُدعى بيل، وتقع حالياً في أوكرانيا. – المترجم

راندي يبطنها الضخم خلف الحاجز الزجاجي في المطار. كنتُ أتوقَّع الأسوأ لدى مروري بالجمارك، لكنني لم أواجه أية مشاكل. بدا صهري، بيير، أنه على صداقة حميمة مع شخصيات المطار كلها ومررتُ بينهم كأنني شخصية مشهورة. كان ذلك في عام ١٩٦٥ ولم تكن الأوضاع متشنجة في الشرق الأوسط كما أضحت خلال حرب الأيام الستة. وطالما أنك لا تأتي عبر إسرائيل، يمكنك أنْ تتنقل في لبنان كما لو أنك في ميامي بيتش - وهو، في الواقع، يشبهه بصورة ما، وحتى في وفرة النساء.

أقلّتني راندي مع زوجها من المطار بسيارة كاديلاك سوداء بلون الكفن مُكيَّفة الهواء كانا قد جلباها من الولايات المتحدة. وفي الطريق إلى بيروت مررنا بمعسكر للاجئين حيث يعيش الناس في علب من الكرتون وحشود من الأطفال يتمشون في المكان شبه عرايا يمصّون أصابعهم. وعلى الفور أدلتْ راندي بتعليق مستبد حول مدى قُبح ذلك المنظر.

سألتها: «قبيح المنظر؟ أهذا كل ما لديك؟».

قالت ساخرة: «أوه، لا تكوني مُحسنة ليبرالية لعينة. مَنْ تظنين نفسك - إليانور روزفلت؟».

«شكراً على المديح».

«كل ما في الأمر أنني مللتُ كل مَنْ يتألَّم على الفلسطينيين المساكين. لِمَ لا تقلقين علينا نحن بدل ذلك؟».

قلت: «أنا أقلق».

مدينة بيروت بحد ذاتها جيدة، لكنها ليست رائعة كما تظن، ليس كما يتحدث عنها بيير. كل شيء فيها تقريباً جديد. هناك مئات الأبنية البيضاء الشبيهة بعلب رقائق الذرة ذات واجهات من الرخام،

والشوارع في كل مكان خاضعة للتجديد. الجو حار ورطب بصورة لا تُطاق في شهر آب وحيثما وُجِدَ عشب تراه وقد استحال لونه إلى البُنّي بفعل أشعة الشمس. البحر المتوسط أزرق اللون (لكنّ زرقته لا تُضاهي زرقة بحر إيجه - مهما يقول بيير). من نواح معيَّنة، تبدو المدينة أقرب شبهاً بأثينا - إذا استثنينا الأكروبولوس. إنها مدينة شرقية ممتدة وأبنية جديدة تبرز إلى جوار أخرى قديمة تبدو متهدّمة. ما تتذكره فيها هو إعلانات الكوكا كولا جنباً إلى جنب مع المساجد، ومحطات الوقود تضع إعلانات الوقود بالعربية، ونساء مُحجّبات يجلسنَ في المقاعد الخلفية لسيارات شيفروليه بستائر مُسدلة، وسيارات مرسيدس بنز، وموسيقى عربية رتيبة تنبعث من كل مكان، ونساء بملابس قصيرة جداً وشعور مُشوشة يتمشّين على طول شارع الحمرا حيث تعرض دور السينما كلها على مداخلها إعلانات الأفلام الأميركية ومحلات بيع الكتب مملوءة بمطبوعات دار بنغوين. كتب الجيب، وكتب أميركية بأغلفة ورقية، وأحدث الروايات الإباحية من كوبنهاغن وكاليفورنيا. ويبدو أنَّ الشرق والغرب قد تقابلا، ولكن بدل أنْ يُنتجا مزيجاً جديداً رائعاً، زالت خصائص الاثنين معاً.

كانت العائلة بأكملها في انتظاري في شقة راندي - الكلّ ما عدا والديّ، اللذين كانا في اليابان ولكن من المتوقّع عودتهما في أي يوم. وعلى الرغم من مرات حملها العديدة، إلا أنَّ راندي تستمر في التصرُّف وكأنها أول امرأة في التاريخ لديها رحم. كلوي كانت تمسح الأرضية في انتظار وصول رسائل من إيبل (كانت تصلها بانتظام منذ أنْ كانت في الرابعة عشرة). ولالا مُصابة بالزحار وتحرص على أنْ يعلم كل شخص بتفاصيل كل نوبة تُصيبها - بما في ذلك لون البراز وقِوامه. وكان الأطفال جامحين بعيداً عن الزوار كلهم وعن الانتباه، يقفزون في أرجاء المصطبة يسبّون الخادمة بالعربية (مما كان يدفعها

إلى حزم أمتعتها وتقديم استقالتها مرة واحدة على الأقلّ في اليوم).
وبيير - الذي يبدو شبيهاً بخليل جبران بمديحه لنفسه ورسم صور ذاتية - يتجول في أرجاء الشقة الرحبة ذات الأرضية الرخامية برداء الحمّام الحرير ويُلقي نكات فاسقة حول العادة الشرق أوسطية القديمة التي يحقّ للرجل الذي يتزوج من الأخت الكبرى بموجبها أنْ ينال الأخوات الأصغر سناً أيضاً. وعندما لم يكن يُسلينا بالعادات الشرق أوسطية القديمة، كان يقرأ لنا ترجمات من شعره (يبدو أنّ العرب كلهم يؤلفون الشعر) بدا لي أشبه بالصحافة التافهة:

حبي أشبه بحزمة من الحنطة
تتفجّر لتغدو زهرة.
عيناها حجرا توباز في الفضاء...

قلت لبيير ونحن نشرب القهوة العربية المفرطة الحلاوة: «المشكلة هي أنّ حزم الحنطة لا تتفجّر لتغدو أزهاراً».

قال بجديّة: «إنه الجواز الشعري».

اقترحت «هيا بنا إلى الشاطئ!»، لكنّ الجميع كانوا شديدي التعب، والحرّ، والكسل.. كان جلياً أنني لن أتمكن من دفعهم إلى الذهاب إلى بعلبك أو حتى إلى الأرز. ودمشق، والقاهرة - مستحيل. كانت إسرائيل على الطرف المقابل من الحدود ولكن كان علينا أنْ نطير عبر قبرص وهذه الفكرة كانت مُستبعدة بعد ما حصل في الرحلة الأخيرة. ثم ستكون هناك مشكلة العودة إلى لبنان من جديد. وكل ما فعلت هو الاسترخاء في أرجاء شقة راندي مع الباقين وانتظار وصول الرسائل من تشارلي - التي نادراً ما تصل. وبدل ذلك صرت أسمع أخبار كل أولئك المهرجين الآخرين: الفلورنسي المتزوج الذي أراد

مني أنْ أهمس له بكلمات قذرة، والبروفسور الأميركي الذي ادّعى أنني غيّرتُ حياته، وأحد موظفي البريد في الأميركان إكسبريس الذي أقنع نفسه بأنني وارثة. لقد أردتُ تشارلي، ولا أحد غيره. وتشارلي أراد سالي. كنتُ يائسة. أمضيتُ نصف وقتي في بيروت أداري رهابي من السيلان، وأتفحّص فرجي أمام المرآة، وأغتسل في مرحاض راندي الأبيض الرخامي.

عندما وصل والديّ مُحمَّلين بالهدايا من الشرق المفترَض أنه غامض، ساء الوضع أكثر. أبدتْ راندي سعادتها برؤيتهما خلال الأيام الثلاثة الأولى ومن ثم بدأتْ تشتبك مع جود في مشاجرات مطوّلة أخذا خلالها يستعيدان أحداثاً وقعت قبل عشرين أو خمسة وعشرين عاماً. وضعت راندي اللوم على أمي بسبب كل شيء: بدءاً بامتناعها عن تغيير حفاضها إلى الإفراط في تغييره؛ بدءاً بإعطائها دروساً في العزف على البيانو وهي صغيرة جداً إلى رفضها السماح لها بالذهاب للتزلج وهي صغيرة بالقدر الكافي. وهاجمت كل منهما الأخرى كائنين من المحامين المبتدئين. يستجوبان الماضي. ورحت أتساءل – ما الذي دعاني إلى العودة إليها لأخذ قسط من الراحة؟ وتُقتُ إلى الفرار من جديد. شعرتُ كأنني كرة بينغ – بونغ إنسانية. أفتش عن رجال هرباً من عائلتي ومن ثم أعود إلى عائلتي هرباً من الرجال. عندما أكون في المنزل، أرغب في الفرار، وعندما أكون بعيدة أرغب في العودة إلى المنزل من جديد. ماذا تسمي هذا؟ مأزقاً وجودياً؟ قهر المرأة؟ الوضع الإنساني؟ كان وضعاً لا يُحتمَل حينئذ وهو لا يُحتمَل الآن: التردد جيئة وذهاباً عبر أحبولة تناقضي. حالما ألمس الأرض، أرغب في القفز عالياً والطيران من جديد. فماذا أفعل؟ أضحك. إنني أتألم عندما أضحك – على الرغم من أنّ لا أحد يعلم بهذا غيري.

لم يمكث والديّ أكثر من أسبوعٍ أو نحوه ومن ثم انطلقا إلى إيطاليا

ليقوما بزيارة مصنع لإنتاج دلاء الثلج[٤]. ولحسن الحظ أنّهما يعملان في مجال الاستيراد والتصدير يسمح لهما بحزم حقائبهما والطيران كلما تفاقمت الحرب العائلية الضروس إلى درجة القصف. إنهما يصلان مُحمَّلَين بالهدايا والمشاعر الطيبة وينطلقان عندما يبدأ الهراء بالتطاير. العملية كلها تستغرق أسبوعاً. خلال باقي العام يتوقان إلى بناتهما المنتشرات في أرجاء العالم ويتساءلان لماذا يعيش معظمهن في منأى بعيد عن الوطن. وفي خلال سنوات تواجدي في ألمانيا ووجود راندي في بيروت، كانت أمي تتساءل بحزن لماذا اختارت اثنتان من بناتها العيش (حسب تعبيرها) «في مناطق العدو».

قلت، لصالح العدو الأبدي: «لأنها بدت مضيافة أكثر من أرض الوطن». لقد كان حقاً قولاً خسيساً - أعترف بهذا - ولكن ماذا كان لديّ دائماً لأحتمي به من أمي غير الكلمات؟

ظلّ المنزل مزدحماً بعد مغادرة والديّ: أربع أخوات، بيير، ستة أطفال (كان هناك فقط ستة في عام ١٩٦٥)، مربية أطفال، وخادمة لتنظيف المنزل.

كان الجو شديد الحرارة حتى إننا كنا نادراً ما نغادر الشقة مكيّفة الهواء. وازدادت رغبتي في الخروج ومشاهدة المواقع الجديرة بالمشاهدة، لكنَّ بلادة العائلة كانت مُعدية. قلت في نفسي، غداً سأغادر إلى القاهرة، لكنني كنتُ خائفة جداً من الذهاب وحدي إلى القاهرة ورفضت كل من لالا وكلوي أنْ ترافقاني.

سارت الأمور على هذا المنوال المُقبِض مدة أسبوع آخر. وفي مناسبة واحدة، ذهبنا جميعاً إلى نادٍ على شاطئ صخريّ واسترسل بيير

٤ - دلو الثلج: دلو توضع فيه قطع الثلج لإبقاء زجاجة المشروب باردة. - المترجم

في إلقاء الشعر حول زُرقة البحر المتوسط حتى رغبتُ في التقيّؤ. (كان دائماً يُلقي علينا مُحاضرة عن الحياة الطيبة في بيروت وكيف توصل إلى الفرار من «روح أميركا التجارية»).

في النادي عرّفنا إلى إحدى صديقاته اللواتي وصفهن بأنهن «زوجاته الأربع»، وانتابني إحساس مزعج بالرغبة في العودة إلى الوطن في التو واللحظة. ولكن أين هو الوطن؟ أهو مع عائلتي؟ مع بيا؟ مع نشارلي؟ مع براين؟ أم هي وحدتي؟

بدا أنَّ كسل عائلتي عبثيّ، ولكن في الواقع كان يتضمَّن ما يشبه الروتين. فقد كنا نستيقظ عند الساعة الواحدة، ونستمع إلى صراخ الأطفال، ونلاعبهم قليلاً، ونتناول وجبة ضخمة ما بين الإفطار والغداء مؤلَّفة من فاكهة استوائية، ولبن، وبيض، وجبن، وقهوة عربية، ونقرأ نسخة باريس من *«هيرالد تريبيون»* حول الثقوب التي أحدثتها الرقابة. (كان ممنوعاً أي ذكر لإسرائيل أو اليهود - وكذلك الأفلام السينمائية التي يمثلها الإسرائيليان الشهيران سامي ديفيز الابن، وإليزابث تيلر). ثم نباشر النقاش حول كيف سنُمضي النهار. في هذا الموضوع، كنا متحدين كاتحاد العرب في التخطيط لشن هجوم على إسرائيل. وفي كل مناسبة يمكنك أنْ تراهن على أنَّ كل شخص في المنزل سيفضّل شيئاً مختلفاً. فكلوي تقترح الشاطئ؛ وبيير، بيبلوس؛ ولالا، بعلبك؛ وأكبر الصبية، متحف الآثار؛ الأطفال الصغار، التسلية في المتنزه؛ وراندي تصوت لصالح كل شيء. وعند الانتهاء من المناقشة، يكون قد فات الأوان على الذهاب إلى أي مكان. فنتناول طعام العشاء ومن ثم إما نشاهد حلقة من مسلسل *«بونانزا»* في التلفاز (مُرفقة بترجمة إلى العربية والفرنسية تغطي تقريباً الشاشة بأكملها)، أو نذهب لمشاهدة فيلم مجهول الهوية في شارع الحمرا.

في بعض المناسبات كان يُقاطع مناظرتنا وصول والدة بيير وقريباته -

ثلاث عجائز متشحات بالسواد (ذوات صدور ضخمة وشوارب زغبية) يبدين متشابهات حتى ليصعب التمييز بينهن. كن يصلحن أنْ يشكلن جوقة غناء عظيمة لولا أنهنّ لم يكنَّ يحفظن إلا أغنية واحدة. تقول: «ما رأيك في لبنان؟ إنَّ لبنان أفضل من نيويورك؟». ويغنِّينها مراراً وتكراراً حرصاً منهن على أنْ تحفظ الكلمات. أوه لقد كنّ ظريفات حقاً، ولكن ليس من السهل فتح حديث معهن. وحالما يصلن، تظهر لويز (الخادمة) مع القهوة، ويتذكَّر بيير فجأة أنه مرتبط بموعد عمل، وتختفي راندي (مُبررة ذلك بوضعها الحسّاس) داخل غرفة النوم لتأخذ غفوة. ونُترَك أنا وكلوي ولالا لنتدبر أمرنا، ونلجأ إلى وسائل شتى للتعامل مع لازمة الأغنية، «نعم – لبنان أفضل من نيويورك».

لا أعلم ما إنْ كان السبب هو الحر، أم رطوبة الجو، أم حضور العائلة، أم تأثير كوني «في أرض العدو»، أم إحساسي بالكآبة لغياب تشارلي – ولكن بدا أنه ليست لدي الإرادة على النهوض وعمل أي شيء مهما كان. شعرت كأنني نُقلت إلى أرض آكلي زهر اللوتوس(٥) وسوف أموت في بيروت بسبب الكسل وحده. وتوالت الأيام، وكان الجو خانقاً، وبدا لي أنَّ لا فائدة من مقاومة الرغبة في الجلوس، والتشاحن مع العائلة، والتفكير في إصابتي بالسيلان، ومشاهدة التلفاز. وأخيراً يتطلب الأمر أزمة لكي يدفع العائلة إلى الحركة.

أعترف بأنها كانت أزمة صغيرة – ولكن كانت تكفي أية أزمة. بدأتْ ببساطة. ذات يوم، قال الصبي، روجر، ذو السنوات الست، للويز «بنت شرموطة» (٦) ***ibn sharmuta***... وهذه أكبر إهانة توجَّه إلى المرء في الشرق الأوسط.

٥ - نبات مُخدِّر.
٦ - كما وردتْ.

كانت لويز تحاول أنْ تُحمم روجر وكان يصرخ. في تلك الأثناء كان بيير يتشاجر مع راندي، قائلاً إنَّ الأميركيين فقط لديهم تلك الفكرة المجنونة بالاستحمام كل يوم، وإنَّ ذلك ليس أمراً *طبيعياً* (كلمته المفضّلة)، وإنَّ ذلك يتسبب في جفاف زيوت البشرة الرائعة كلها.

صرخت راندى مُجيبة بأنّها لا تريد لابنها أنْ يفوح برائحة القذارة كوالده الشهير، وأشارت إلى أنَّ عاداته القذرة لم تخدعها.

«ماذا تقصدين بعاداتي القذرة؟».

«أعني أنني أعلم *جيداً* أنني عندما أقول إنني لن أضاجعك إلا إذا اغتسلتَ، فإنكَ تلج الحمّام وتفتح صنبور الماء وتكتفي *بالجلوس* هناك تدخّن *سيجارة* على كرسي المرحاض اللعين». قالت هذا بوضاعة وكاد ينشب شجار.

طبعاً فهم روجر ما كان يدور ورفضَ أنْ يدع لويز تُدخله الحمّام إلا بعد أنْ تُستأنف هذه القضية ويصدر الحكم. لكنَّ لويز كانت شديدة الإلحاح، وفي ذروة الغضب، رمى روجر قماشة الغسل الرطبة إلى وجهها، صارخاً «*بنت شرموطة!*».

طبعاً، بدأتْ لويز تبكي. ثم قالت إنها مستقيلة وتوجهت إلى غرفتها لكي تحزم أمتعتها. تلبَّسَ بيير سيماء نجم سينما فرنسي وحاول أنْ يتملّقها لكي تبقى. ولكن عبثاً. هذه المرة كانت مُصممة. أسرع بيير إلى صب جام غضبه على روجر - في الحقيقة لم يكن ذلك مُنصفاً، بما أنَّ روجر يسمع بيير يصرخ على الدوام «*ابن شرموطة*» في أثناء قيادة السيارة. (لا توجد أنظمة مرور في بيروت بل الكثير من السباب). ثم إنَّ بيير في المعتاد يعتقد أنَّ السباب بالعربية على ألسنة الأطفال أمر ظريف.

طبعاً تنتهي فترة بعد الظهيرة بالجميع وهم يصرخون أو يكون

وبُسفح الماء على الأرض كلها، ومن جديد لا نذهب إلى أي مكان او حتى إلى الشاطئ. لكنَّ الحادث يزودنا بعمل نقوم به. علينا أنْ نُعيد لويز إلى قريتها في الجبال (إنها «قرية أسلاف» بيير، حسب قوله) ونعثر على فتاة قروية أشدّ سذاجة لتحلّ محلها.

في صباح اليوم التالي، نمر ببضع ساعات الصراخ الإلزامية ومن ثم تكدّس داخل السيارة وننطلق بمُحاذاة البحر المتوسط نحو التلال. نتوقف في بيبلوس لكي نُملي أبصارنا بمنظر القلعة الصليبية، ونتأمّل بارتخاء الفينيقيين، والمصريين، والآشوريين، واليونانيين، والرومان، والعرب، والصليبيين والأتراك، ونتناول الطعام في مطعم يقدّم ثمار البحر، ومن ثم نتقدّم داخل الجبال التي تشويها أشعة الشمس على طول طريق يبدو كأنه لُقية أخرى من اللّقى الأثرية.

كركبي، «قرية أسلاف» بيير التي لا يكفّ عن التبجُّح بها، هي بلدة صغيرة إلى درجة أنك يمكن أنْ تجتازها دون أنْ تلاحظها. لم تصل الطاقة الكهربائية إلى البلدة إلا في عام ١٩٦٣، وبرج الكهرباء، في الحقيقة، يحتلّ مساحة القرية. (وهو أيضاً الشيء المُثير للاهتمام الذي يتحمّس سكان القرية كثيراً لعرضه عليك).

عندما وصلنا إلى الساحة العامة (حيث كان حمار أعجف يجرّ حجراً بحركة دائرية ليطحن القمح)، تَدافَعَ الجميع بالمعنى الحرفي للكلمة ليلمسوا السيارة، ولووا أعناقهم لكي يُلقوا نظرة إلينا، يبدو عليهم الخنوع بصورة تدعو إلى الأسى. وكان جلياً أنْ بيير *يحب* ذلك المشهد. فهي سيارته *هو*، ولعله كان يرغب في أنْ يعتقد الجميع أننا *نحن* زوجاته الأربع (على الرغم، طبعاً، من أنهم يعلمون أنّ ذلك ليس صحيحاً). هذا كله زاد من الإحساس بالأسي إذا أخذنا بعين الاعتبار أنْ كل سكان القرية تقريباً تصله بهم على الأقل صلة قربى وأنهم جميعاً أميون ويمشون حُفاة - فلماذا كان صعباً فهم إثارة إعجابهم؟

استعرضَ بيير سيارته السخيفة الشبيهة بالدبابة أمام الزاحفين ونحن نتابع التقدم (لكي نتيح الفرصة لكل الفضوليين لإلقاء نظرة عن قرب). ثم توقف أمام «منزل الأسلاف» - منزل صغير من اللِّبن المطليّ بماء الكلس والكرمة تنمو على سطحه لا يحتوي إلا نوافذ صغيرة مربّعة بلا زجاج أو ستائر عليها حواجز من الحديد المتراكب (وذباب يطنّ داخلاً خارجاً منها وإليها بحرية - لكنّ الداخل إليها حتماً أكثر عدداً من الخارج منها)

بثّ وصولنا في الجميع حمّى النشاط. فقد باشرت والدة بيير وخالاته بإعداد التبّولة والحمّص بحركة عنيفة وخرج والد بيير - الذي يبلغ حوالي الثمانين ويشرب العرق في كل يوم - لكي يصطاد العصافير من أجل العشاء وكاد يُصيب نفسه. في تلك الأثناء قدِمَ عمّ بيير الإنكليزي غافين - لندني مغترب تزوج العمة فرانسواز في عام ١٩٢٣ (وهو يُقيم في كركبي نادماً على ما فعل منذ ذلك الحين) - أرنباً كان قد اصطاده في صباح ذلك اليوم وباشر بتنظيفه.

المنزل لا يحتوي إلا على أربع غرف، بجدران مكسوة بماء الكلس وعُلِّقت صلبان فوق الأسرّة كلها (عائلة بيير تعتنق المذهب الكاثوليكي الماروني) وصور لمجموعة متنوعة من القديسين وهم يصعدون إلى السماء تتلقّى القُبل على ورق مجلات صقيل. وكانت هناك أيضاً صور عديدة من صور المجلات تمثل أفراد العائلة المالكة منتشرة في كل مكان؛ ثم كانت هناك صورة يسوع نفسه، يرتدي الثوب الروماني الفضفاض، ووجهه بالكاد يبدو من تحت طبعات القُبل.

في أثناء إعداد وجبة العشاء، قادنا بيير إلى الخارج ليُرينا «منطقته». أصرّتْ راندي على المكوث في المنزل ورفع قدميها عالياً، لكنّ بقيتنا لحقنا به طائعين على الصخور (تتبعنا حاشية من الأقرباء الحفاة الذين أخذوا يُشيرون بحماس إلى برج الكهرباء). كان بيير يسخر منهم بالعربية؛

كان يسعى إلى شيء ريفي أكثر. وقد عثر عليه، فوق التل الصخري التالي، حيث كان راع حيّ حقيقي يحرس قطيع ماشية حيّ وحقيقي تحت شجرة تفاح نخرة. كان شيئاً *ساحراً*. كان *ريفياً*. يُذكرُ بهومر وفرجيل وبالكتاب المقدس. اقتربنا من الراعي - طفل في الخامسة عشرة تملأ وجهه البثور - فوجدناه يُصغي إلى جهاز راديو صغير ياباني محمول يُذيع أغنية لفرانك سيناترا تبعتها على الفور مجموعة من الإعلانات المُغنّاة بالعربية. ثم أخرجت كلوي الحيوية ذات السابعة عشرة عاماً سيجارة من المنتول وقدّمتها إليه - فقبلها، مُحاولاً أنْ يبدو هادئاً وراقياً قدر الإمكان. ثم مدّ ذلك الراعي *الساحر* يده إلى جيبه *الساحرة* وأخرج منها ولاّعة غاز *ساحرة*. عندما أشعل سيجارة كلوي، بات جلياً أنه أمضى حياته بأكملها يشاهد أفلاماً سينمائية.

بعد العشاء، حلّ علينا كل مَنْ في القرية من أقرباء (أعني البلدة كلها بالمعنى الحرفي). كثير منهم جاؤوا لمشاهدة التلفاز (بما أنّ عمة بيير هي إحدى القلائل في كركبي الذين يمتلكون جهازاً) ولكن في تلك الليلة جاؤوا لمشاهدتنا أيضاً. وقف معظمهم يُحدقون إلينا يبدو عليهم الارتباك، ولكن أحياناً كانوا يلمسون شعري (أو شعر كلوي أو لالا) ويُصدرون أصواتاً تشير إلى أنهم مولعون حقاً بالشقراوات. أو يربتون على كل جزء من أجسامنا وكأنهم عميان. يا إلهي - لا شيء يُضاهي أنْ يلمسك حشد من السيدات اللبنانيات من الوزن الثقيل ولهنّ شوارب. كنتُ مرعوبة. هل يستطعن عبر اللمس أنْ يعرفن أننا من *اليهود*؟ كنتُ *واثقة* من ذلك. لكنني أخطأت التقدير. لأنه عندما حان الوقت لتقديم الهدايا لنا، حصلتُ على مسبحة فضيّة، وسترة صوفية طويلة التيلة منسوجة باليد مقاس ٤٦ (تصل حتى رُكبتيّ)، وخرزة زرقاء على سلسلة (لردّ العين الحاسدة). في تلك المرحلة لم أنو أنْ أرفض أية تميمة؛ كانت كل الشفاعات والآلهة مقبولة بامتنان.

بعد الانتهاء من توزيع الهدايا، جلس الجميع لمشاهدة التلفاز ـ كانت البرامج في مُعظمها إعادة لبرامج أميركية قديمة جداً. لوسيل بـول[٧] ترفرف برموشها الصناعية، وريموند بر يقوم بدور بيري ميسون[٨]، والشاشة برمّتها مغطاة بالترجمات، حتى بات من الصعب مشاهدة الممثلين من تحت الأحرف.

إنَّ رؤية كل تلك الأنماط الريفية تحب لوسيل بول وريموند بر جعلني أؤمن حقاً بعالميّة الفن. وصبوتُ إلى اليوم الذي تمد فيه أميركا حضارتها المجيدة إلى الأجرام السماوية الأخرى. هناك سيشاهدون ـ أعني كل تلك الأنماط بين المجرات – لوسيل بول وريموند بر بانتباه منتشٍ.

وطال مكوث الأقرباء وطال. شربوا القهوة والنبيذ والعرق إلى أنْ أخذت العمة فرانسواز تعصر يديها السمينتين. كنا جميعاً مُرهقين ونرغب في النوم، وبدل أنْ يطردهم عم بيير غافن، غادر الغرفة بهدوء، وارتقى إلى السطح، وأخذ يعبث بهوائي التلفاز إلى أنْ تشوّش الإرسال وغابت الصورة. وفي غضون دقائق، رحل الزوار. وأدركتُ أنَّ العم غافن غالباً ما يرتقي إلى السطح بهدوء.

كانت الاستعدادات للنوم عملية معقّدة. راندي وبيير والأطفال وُضِعوا في منزل والد بيير أسفل التل. ولالا وكلوي تقرّر أنْ تتشاركا سريراً مزدوجاً في منزل مجاور آخر للعمتين. وفزت أنا بسرير مفرد في مُلحق منزل العمة فرانسواز الصغير. كنتُ أفضّل أنْ أبيت مع لالا

---

٧ - لوسيل بول (١٩١١ - ١٩٨٩):ممثلة هزلية أميركية تلفزيونية وسينمائية. لها عروض تلفزيونية واسعة الانتشار مثل «أحب لوسي» و«الحياة مع لوسي» وغيرها. رُشّحت لجائزة إيمي ١٣ مرة، وفازت بها أربع مرات بالاضافة إلى جوائز أخرى. - المترجم

٨ - مسلسل بوليسي شهير قديم. - المترجم

وكلوي على أنْ ابقى وحيدة في تلك الغرفة المخيفة، أنام تحت صليب وصور متهرئة تمثل الملكة الفخمة. ولكن لم يكن هناك متّسع لثلاثة أشخاص في السرير، فبقيت وحيدة، أتسلّى قبل النوم بأفكار عن عقارب تعدو على الجدار، وعضّات قاتلة من عنكبوت، وتخيلات عن كسر عنقي في أثناء الليل عندما أحاول أنْ أعثر على المرحاض الخارجي من دون الاستعانة بمصباح ومضي. آه، كان هناك الكثير من الأشياء التي تجعل أشد العقول ارتياباً تنشغل باستغراق على امتداد ساعات من الأرق.

كان قد مضى على استلقائي هناك في ذروة الخوف ساعة ونصف تقريباً عندما صرّ الباب وفُتح.

قلت، وقلبي يضرب بقوة، «مَنْ؟».

«هسسس»، وتقدّم شبحٌ قاتم نحوي. وولج الرجل تحت السرير.

كنتُ مرعوبة «يا ربّي!».

قال بيير: «هسس – هذا أنا – بيير». ثم اقترب وجلس على السرير.

«يا يسوع – حسبتُ أنك مُغتصب أو ما شابه».

ضحك. «يسوع لم يكن مُغتصباً».

«لا أعتقد ذلك... ما الأخبار؟». كان اختياراً ضعيفاً للكلمات في تلك الظروف.

قال، برقّة زائفة، «تبدين شديدة البؤس».

«أعتقد أنني كذلك. بعد كل ذلك الجنون الذي مررتُ به مع براين في الصيف الفائت والآن مع تشارلي...».

قال، وهو يداعب شعري: «اكره أنْ أرى أختي الصغيرة مبتئسة». ولسبب ما جعلت هذه «الأخت الصغيرة» القشعريرة تسري فيّ.

«تعلمين أنني لطالما اعتبرتُك كأختي الصغيرة، أليس كذلك؟».

«في الحقيقة لم أكن أعلم، ولكن شكراً لك على أية حال، ساكون على ما يُرام. لا تقلق. إنني أفكر في العودة إلى الوطن والتوقف في إيطاليا من جديد بضعة أيام في الطريق. إنّ بطاقة السفر تتيح لي توقّفاً غير محدود في روما. لا أظن أنّ المناخ هنا يُناسبني. على أية حال، من المفترَض بلالا وكلوي أنْ تنتقلا إلى نيويورك في الأسبوع القادم والجو يزداد حرارة باطراد...»، كنتُ أبربر بسبب التوتر. في تلك الأثناء، كان بيير يتمدد بجواري على السرير ويُحيطني بذراعيه. فماذا يُفترَض بي أنْ أفعل؟ إذا قاومته كأي مُغتصب عادي، فسوف أسبب له *المهانة*، ولكن إذا اتخذتُ مساراً أقلّ مقاومة وسايرته، فسيكون *سفاح قربى*. ناهيك عن حقيقة أنّ راندي قد تقتلني. ولكن ماذا ينبغي أنْ أقول؟ ما هو السلوك السديد في مثل ذلك الموقف؟

قلت بوهن: «لا أعتقد أنها فكرة جيدة». كانت يدا بيير قد أضحتا تحت رداء نومي، تداعب فخذيّ. لم أقاوم الإثارة كما أردتُ أنْ أتظاهر.

سأل بلامبالاة: «ما هي الفكرة غير الجيدة؟ قبل أي شيء، من *الطبيعي* أنْ يحب أخ أخته الصغيرة...»، وتابع ما كان يفعل بصورة طبيعية.

سألت، وأنا أعتدل في جلستي «*ماذا* قلت؟».

«فقط أنّ من الطبيعي تماماً بالنسبة إلى أخ أنْ يُحب أخته الصغيرة...»، كأنه ألبرت إليس يُلقي مُحاضرة.

قلت برفق: «بيير، ألم تقرأ رواية *«لوليتا»*؟».

قال بيير، وقد انزعج مني لأنني ألهيته: «إنني أكره أسلوب لغته الزائف».

قلت مُشدِّدة: «لكنّ هذا سِفاح قُربى».

«هسسس – ستوقظين الجميع... لا تقلقي، لن تحبلي. سنقوم بها على الطريقة اليونانية، إنْ أردتِ...».

«ليس *الحبل* ما يُقلقني إكراماً لله – بل سِفاح القُربى!». لم تؤثّر حجتي على تصميم بيير كما بدا.

قال، وهو يُعيدني إلى الوسادة « هسسس». كان أشبه بأولئك الرجال الذين قابلت في إيطاليا. إذا قاومتِ لأنكِ غير مهتمة حقاً، يعتقدون أنكِ خائفة من الحبل ويُلحون باقتراح بدائل أخرى – الجماع عبر الشرج، مصّ القضيب، الاستمناء المشترك – أي شيء إلا الرفض. ارتفع بيير مسافة قصيرة إلى أعلى السرير وقدّم قضيبه المنتصب إلى فمي... إنه الحسم. كانت روح القتال تصطخب داخلي. سيكون من السهل جداً الانصياع. أنْ أمصّه وأنتهي من الأمر. كان أمراً غاية في السهولة. أي فرق قد يُحدثه مثل ذلك العمل في حياتي؟

قلت: «لا أستطيع».

قال بيير: «هيا، سأعلّمك».

«ليس *هذا* ما اقصد. أعني أني *لا أستطيع* حقاً؛ أخلاقياً، *لا أستطيع*...».

قال: «إنه سهل».

قلت: «أنا *أعلم* أنه سهل».

قال: «انظري، كل ما عليك فعله هو...».

صرخت «بيير!». لملمَ بيير أطراف بيجامته السفلى حوله وفر هارباً من الغرفة.

جلستُ هناك برهة، والغرفة تتردد فيها أصداء صرختي، وانتظرتُ

لأرى ماذا سيحدث. لا شيء. السكون يشمل الغرفة. ثم مددتُ يدي إلى رداء الاستحمام والخف وانطلقتُ بحثاً عن لالا وكلوي. كنتُ قد صممتُ على مغادرة لبنان بأسرع وقت ممكن. أنْ أغادر الشرق الأوسط ولا أطرق بابه بعد الآن.

شققتُ طريقي أسفل التل إلى المنزل الذي تنزلان فيه، وكدتُ أتعثر بالصخور وبجذور الأشجار مع كل خطوة. تدريجياً، تعوّدت عيناي على الظلام وتمكنت من رؤية أسطح المنازل في كركبي، يُهيمن عليها برج الكهرباء. إنها الحضارة! لعلّ الشبان، في تلك اللحظة بالذات، كانوا ينكحون الماشية أو أخواتهم في نصف الحظائر والمروج التي في كركبي. وما الخطأ في هذا؟ لا شيء حقاً، أعتقد، أما أنا فلم أتمكن من فعل ذلك. أكنتُ متحشّمة؟ ما دخل الأخلاق في عمل جنسي صغير قذر؟ لأنكِ إنْ بدأت تمصّي زوج أختك، فإنّ الشخص التالي الذي ستمصّينه هو زوج *أمك* - ويا إلهي - أي أب!.

لكنّ طبيبك النفسي يُصرّ على أنّكِ في الحقيقة *ترغبين* في الوالد. فلماذا كان الحصول عليه أمراً مستحيلاً؟ ربما عليك أنْ تمصّي الوالد وتنتهي؟ لعلها الطريقة الوحيدة للتغلّب على الخوف؟

تسللتُ مارة بالغرفة الأمامية في منزل العمة سيمون (ثم بالعمة سيمون والعم جورج اللذين كانا معاً يغطّان بإيقاع موسيقي)، ووجدتُ كلوي ولالا جالستين معاً على السرير تقرآن بصوت مرتفع في كتاب إباحي رخيص عنوانه «*فتيات ماجنات*». على السرير كان هناك حوالي عشرة كتب تحمل عناوين مثل «*سفاح المراهقات*»؛ «*المقايضة*»؛ «*نمط عائلي*»؛ «*أختي وأنا*»؛ «*ابنتي، زوجتي*»؛ «*الرغبة في الكرز*»؛ «*الطويل والقصير*»؛ «*زقاق بوديكات*»؛ «*وُلجت في كل الأماكن*»؛ «*جولة حول العالم*» و«*رسائل الشهوة*».

كانت لالا تقرأ بصوت مرتفع فِقرة تتسم بشاعرية خاصة. لم تنتبه أي منهما لوصولي.

«بدأ كفلاه يتحركان بسرعة [لالا تقرأ بإلقاء مسرحي متكلّف] *مع إلحاح اقتراب الذروة. شعرت جسده يضرب جسدي، وقضيبه المنتصب يملأ كل بوصة من قناتي الأنثوية وكان في وسعي أنْ أصرخ من فرط المتعة. شعرت بالانفجارات تبدأ داخلي وسائل كَمّني يتدفق على طول قناة الحب، يُزيّت قضيبه الحارّ ويجعله ينزلق بسهولة أكبر...».*

... لماذا لا تنتاب أشخاص الروايات الإباحية الرخيصة الوساوس التي تنتابني؟ إنها ليست أكثر من أعضاء تناسلية تلتحم مع بعضها بلا هوادة في الظلام.

طلبتُ منها: «هلاّ توقفتِ عن ذاك الهراء وكلّمتني؟».

قالت لالا، وهي تلوّح بالكتاب: «أليس في هذا مُغالاة؟».

«اسمعن يا صغيرات، إنَّ بين أيدينا الشيء الواقعي لذلك ضعن هذه الروايات الإباحية الرخيصة جانباً وأعرنني سمعكما القذر...».

تبادلت كلوي ولالا النظرات ثم بدأتا تضحكان وكأنهما على عِلمٍ بما لا أعلم.

«حسن - ما الأمر؟»، وواصلن الضحك كمتآمرتين.

«هيا أيتها الغبيتان - أخبراني!».

«ستقولين إنَّ بيير حاول أنْ يُغويك...» لالا قالت هذا، وهي تُقهقه بصوت مكبوت.

«كيف عرفتِ هذا؟».

قالت: «لأنه حاول ذلك معي».

قالت كلوي «ومعي».

«أنتما تمزحان».

«حسن لقد ضحكتُ منه وطردته من سريري، وكذلك فعلت كلوي، حسب *قولها*... لكنني لستُ متأكدة من أنني أصدّقها...».

صرخت كلوي «عاهرة!».

«حسن... حسن.... أنا أصدقك».

«وتقصدان أنكما أتيتما إلى هنا بعد ما حدث؟».

قالت لالا بلا مبالاة «حسن، ولِم لا؟ إنه غير مؤذٍ على الإطلاق... إنه فقط حامي قليلاً لأنّ راندي تقضي حياتها كلها في حالة متقدّمة من الحبل».

«حامي قليلاً؟ أتسمين ذلك مجرد حامي قليلاً؟ أنا أسمّيه سِفاح القربى».

«أوه يا إلهي، إيزادورا، أنتِ حقاً لا تُطاقين. إنّكِ فقط تنكحين صهرك... إنه ليس *حقاً* سِفاح قُربى».

«ليس كذلك؟» أعتقد أنني شعرت بالإحباط.

قالت لالا بامتعاض: «ليس كذلك على الإطلاق، لكنني متيقّنة من أنكِ ستجدين طريقة لجعله أكثر إثارة على الورق» (كانت لالا تكره كتابتي منذ ذلك الحين).

قلت: «سأعمل على ذلك».

في طريق العودة من كركبي مع الخادمة الجديدة كان بيير هادئاً جداً ورائقاً. كان يُحصي علامات الطريق.

قلت في نفسي، *يا للعرب، اللعنة على العرب!*. أي إحساس غير متكافئ بالذنب انتابني بسبب كل الآثام الجنسية الحقيرة التي ارتكبت! ومع ذلك هناك أناسٌ كُثُر في العالم يتفذون ما يشعرون به

دون أنْ تنتابهم لحظة من الإحساس بالذنب بسببه - ما دام لا يُقبَض عليهم متلبسين. فلماذا ابتُليتُ بإحساس متضخّم بالذات العليا؟ ألأنني فقط يهودية؟ على أية حال ما الذي فعله موسى لليهود بقيادتهم إلى خارج مصر ومنحهم مفهوم الله الواحد الأحد، وحساء عيد الفصح، والإحساس الأبدي بالذنب؟ أما كان في استطاعته أن يتركهم ببساطة وشأنهم ليعبدوا القطط والثيران والصقور أو ليعيشوا كغيرهم من كبار الحيوانات (التي - كما تذكّرني أختي راندي على الدوام - يرتبطون بها بصلات قُربى وثيقة)؟ هل من *المستغرب* إذن أنْ يكره الجميعُ اليهودَ لأنهم منحوا العالم الإحساس بالذنب؟ أما كان في استطاعتنا أنْ نستمر في حياتنا بسلاسة من دونه؟ نتخبّط في الطين البدائي ونعبد خنافس الروث ونتناكح كما نشاء؟ فكروا، على سبيل المثال، في أولئك المصريين الذين بنوا الأهرامات. هل اكتفوا بالجلوس والقلق حول ما إنْ كانوا مُستخدَمين متعادلين في الفُرَص؟ هل خطر لهم مرة أنْ يتساءلوا إنْ كانت رُفات أجسادهم تستحق حياة آلاف الآلاف الذين ماتوا وهم يبنون الأهرامات؟ إنه القمع، والتناقُض، والإحساس بالذنب. يتساءل العربي «ماذا - أأنا أقلق؟». لا عجب في أنهم يرغبون في إبادة اليهود. أليس الجميع يرغبون في ذلك؟.

في بيروت، خطّطنا للعودة إلى الوطن. كان مع لالا وكلوي رحلة مُعدّة لهما بالطائرة إلى نيويورك، لذلك كان لا بد لهما من المغادرة معاً، وكان معي بطاقة عودة قديمة من شركة أليطاليا من بيروت إلى روما إلى مطار كينيدي.

توقفتُ في روما كما كنتُ أنوي وامضيتُ أسبوعاً آخر في فلورنسا قبل أنْ أعود إلى الوطن وأواجه مشكلتي مع تشارلي. حتى في شهر آب الحار والمزدحم، بقيتْ فلورنسا واحدة من المدن المفضّلة لديّ في العالم. هناك عدت إلى معاشرة أليساندرو وهذه المرة أمضينا ستة أيام

من العلاقة الجنسية المثالية، الخالية من الحب. ونزولاً عند طلب مني، نبذَ هوسه بالألفاظ البذيئة، وعثرنا على غرفة فاتنة في نُزُل في فيزول حيث تمكنا من ممارسة الجنسِ من الواحدة وحتى الرابعة من بعد ظهر كل يوم (عادة متحضرة جداً عند ساعة الغداء). ربما بسبب حنقي الشديد من تشارلي، أو لعلّ بيير أثارني حقاً، لكنَّ ممارستي للجنس مع أليساندرو كانت مُلهَمة. كانت المرة الوحيدة في حياتي التي أتمكن فيها من ممارسة جنس مشبوب، وافر، مع شخص دون أنْ أقنع نفسي بأنني أحبه. كان أشبه بستة أيام من الهدنة بين هويتي وذاتي العليا.

بعد أنْ يعود أليساندو إلى زوجته في المساء، كنتُ أبقى وحدي؛ أحضر الحفلات الموسيقية في قصر بيتّي Pitti، أقابل بعض الشخصيات الأخرى من زيارتي السابقة ومرة أخرى يُلاحقني باشتياق البروفسور «مايكل أنجلو» (كارلينسكي) ذو اللحية الملتهبة. وعلى الرغم من الحرّ والتصنيف المتنافر للأصدقاء، أحببتُ فلورنسا وقد مررتُ بلحظات كرهتُ خلالها أنْ أغادرها. لكنَّ مهنة التدريس وبرنامج درجة الدكتوراه كانا ينتظرانني في نيويورك، وكنتُ لا أزال أقرب كثيراً إلى تلميذة المدرسة التي تنطوي على أنا عُليا بحيث لا أختار شيئاً أكرهه وأفضّله على آخر أحبه. أو لعلّ السبب كان حقاً تشارلي: لقد غضبت كثيراً بسبب خيانته لي، لكنني لم أقوَ على الانتظار إلى أنْ أراه من جديد.

بعد اجتماعنا بفترة قصيرة أنا وتشارلي انفصلنا. ومع ذلك، يبدو أنني لن أنسى ازدواجيته أبداً، في الحقيقة، إنني أدركُ الآن أنها تشبه ازدواجيتي، وربما كان ينبغي أنْ أكون أكثر تفهُّماً. وظلَّ أليساندرو يُمطرني بالرسائل من فلورنسا ويتحدث عن الـ«*divorzio*» (الطلاق)، لكنني كنتُ قد شاهدتُ الكثير من الأفلام الإيطالية بحيث لم أُصدّقه. وجاء «مايكل أنجلو» مرة وبدا أسوأ حالاً بكثير تحت

أشعة شمس نيويورك الملوّثة بحيث لم أتمكن من الاستمرار. لقد كان لظلال فلورنسا البنيّة والصفراء الضاربة إلى الحمرة تأثير عجيب عليه - كما يفهم على الفور كل مَنْ قرأ روايات إ.م فورستر. كان شهرا أيلول وتشرين أول كئيبين ومُضجرَين. خرجت مع نوع مُقبض من المُطلَّقين، مُتعلِّقين بأمهاتهم، عُصابيين، مذهونين وأطباء نفسيين. ولم أتمكن من الحفاظ على روحي العالية إلا بوصفهم جميعاً بتفصيل خسيس في رسائلي إلى بيا. ثم، في شهر تشرين ثاني، ولج بينيت وينغ حياتي وبدا أنه الحل لمشاكلي كلها. صامتٌ كأبي الهول وشديد الرقّة. مُخلص وطبيب نفسيّ معاً. وارتميت على الزواج كما ارتميت (في أوروبا) على السرير. بدا سريراً وثيراً؛ كانت المخالب مُستترة.

(١٥)

أسفار مع بطلي المُجرّد من البطولة

أريد! أريد!

• وليام بليك

اخبرتُ أدريان كل شيء. عن كامل تاريخي المهووس في البحث عن الرجل المستحيل لأجد نفسي أعود دائماً إلى نقطة البداية: داخل راسي. تلبّست شخصيتيَ أختيّ من أجله، وأجل أمي، وأبي وجدّي، وزوجي، وأصدقائي... كنا نركب السيارة ونتحدث ونقود السيارة ونتحدث. سألته، كالمريض الذي يبحث دائماً عن الطبيب المثالي، «ما هو تقديرك؟».

وكان أدريان دائماً يقول «أنت مقدمة على تغيير في حياتك، يا حلوة. يجب أنْ تغوصي في أعماقَ نفسك وتخلصي حياتك».

أليس هذا ما كنتُ *أفعل*؟ ما معنى ذلك التجوال إذا لم يكن رحلة عودة إلى ماضيّ؟

قال: «لم تصلي بعد إلى العمق الكافي. يجب أنْ تبلغي القاع ومن ثم ترتقين عائدة».

«يا يسوع! أشعر كأنني فعلت ذلك تواً!».

رسم أدريان ابتسامته المتكلّفة الجميلة المعتادة والغليون مُقحَم بين

شفتيه الورديتين الملتويتين. قال: «لم تبلغي القاع بعد»، وكأنه يُخبِئ مفاجأة لي.

سألت «هل ستأخذني إلى هناك؟».

«إذا أصريتِ، يا حبيبتي».

إنَّ لا مبالاته الرائعة هي ما كان يُغيظني، ويُثير شهوتي، وأكاد أُجنّ من شدة الإحباط. وعلى الرغم من عناقه لي ومداعباته، كان أدريان رائعاً جداً. كنتُ أُحدّقُ وأحدّق إلى جانب وجهه الجميل وأتساءل ما الذي يجري بحق الله داخل رأسه ولماذا أعجز عن سبر أعماقه.

قلت: «أريد أنْ ألج رأسك، ولا أستطيع. إنه يُثير جنوني».

«ولكن لماذا تريدين أنْ تلجي رأسي؟ ما هي المشكلة التي تعتقدين أنك ستحلين؟».

«كل ما في الأمر أنني أرغب في أنْ أشعر حقاً بالاقتراب من شخص ما، والاتحاد معه، وأشعر بالاكتمال ولو مرة واحدة. أرغب حقاً في أنْ أحب أحدهم».

«ما الذي يدعوكِ إلى الاعتقاد أنَّ الحب سيحلّ أي شيء؟».

قلت: «قد لا يحلّ أي شيء، ولكني أريده. أريد أنْ أشعر بأنني مُكتملة».

«لكنكِ سبق أنْ شعرتِ بأنكِ جزء من براين وذلك أيضاً لم ينفع».

«إنَّ براين مجنون».

قال أدريان: «كل شخص يتسم بقدر قليل من الجنون إذا ولجتَ رأسه. إنها فقط مسألة درجة».

«أعتقد...».

«انظري - لماذا لا تكفّين عن البحث عن الحب وتحاولين أنْ تعيشي حياتك؟».

«لأنه اي حياة ساعيش إذا لم أحب؟».

«لديك عملك، وكتابتك، وتدريسك، وأصدقاؤك...».

قلت في نفسي، رتابة، رتابة، رتابة.

«في كل الأحوال، إنَّ كتاباتي كلها هي محاولة للحصول على الحب. أعلم أنَّ هذا جنون. أعلم أنَّ نتيجته الإخفاق. ولكن هذا هو الواقع: أنا أريد أنْ يحبني كل رجل».

قال أدريان: «ستخسرين».

«أعلم، لكنَّ معرفتي لا تغيّر أي شيء. لِمَ لا تغيّر معرفتي أي شيء؟».

لم يُجب أدريان. على أية حال، لم أكن أسأله، بل فقط أطرح السؤال على الجبال الزرقاء التي يُضيئها الغسق (كنا نسير بالسيارة خلال غودارد باس على منحدر).

أخيراً قال أدريان: «في أوقات الصباح، لا أستطيع أنْ أتذكر اسمك أبداً».

إذن هذا هو جوابي. نفذ فيّ كطعنة الخنجر. كنتُ أبقى يقظة في كل ليلة وأنا متمددة إلى جواره أرتعش وأردد اسمي مراراً وتكراراً بيني وبين نفسي لكي أحاول أنْ أتذكّر مَنْ أنا.

«المشكلة في المذهب الوجودي هو» (قلت هذا ونحن نقود السيارة على الأوتوستراد) «أنك لا تستطيع أنْ تتوقف عن التفكير في المستقبل. إنَّ للأفعال عواقب».

قال أدريان: «أنا أستطيع أنْ أتوقف عن التفكير في المستقبل».

«كيف؟».

هزّ كتفيه استخفافاً. «لا أعلم. أنا فقط أستطيع. مثلاً، اليوم أشعر بالانتعاش».

«لماذا تشعر بالانتعاش؟»».

قال وهو يضحك: «لأنكِ يهودية لعينة. الشعب المختار. قد تكونين عادية في أمور أخرى، لكنكِ في المعاناة أنت ممتازة دائماً».

«يا ابن الحرام».

«لماذا؟ فقط لأنني أقول الحقيقة؟ اسمعي - أنت تريدين الحب، تريدين الوفرة، تريدين المشاعر، تريدين القُرب - فماذا أعددتِ لهذا؟ المعاناة. على الأقلّ *معاناتك* وافرة... إنَّ المريضة *تعشق* طبيبها. ولا تريد أنْ تَشفى».

إنَّ مشكلتي هي أنني طالما أردتُ أنْ أكون الأعظم في كل شيء. أعظم عاشقة. أعظم جائعة. أعظم مُعانية. أعظم ضحية، أعظم حمقاء... إذا تورطتُ في المشاكل طوال الوقت، فذلك خطئي اللعين لأنني أرغب دائماً في أنْ أكون الأعظم. كان يجب أنْ أحصل على أشد أول الأزواج جنوناً، وأشدّ ثاني الأزواج غموضاً، وأن أُصدر أشد أول الكتب جرأة، وينتابني أشد أنواع رعب ما بعد النشر تهوراً... لم أكن أستطيع أنْ أكون وسطية. إنْ كنتُ سأُعرِّض نفسي للسخرية بإقامة علاقة مع ابن حرام عديم الإحساس، فعليّ أنْ أفعل ذلك أمام كامل مجتمع التحليل النفسي في العالم، وأنْ أُضاعفه بالذهاب معه في جولة ثملة قد تودي بحياتنا معاً. إنَّ الخطيئة والخطاب متلازمَين في حزمة واحدة، إذا لم يتم تسليمها تُعاد إلى مُرسلها. ولكن مَنْ هو المُرسِل؟ إنه أنا، أنا، أنا.

ثم، فوق كل شيء آخر، بدأتُ أقتنع بأني حبلى. هذا كل ما كان ينقصني. كانت حياتي مُضطربة. زوجي يعلم الله أين. وأنا وحدي مع رجل غريب لا يهمه أمري البتّة. وحامل. أو هذا ما أظن. هل كنتُ أحاول أنْ أجد برهاناً؟ على استطاعتي تحمُّل أي شيء؟ لماذا كان عليّ أنْ أحوِّل حياتي إلى اختبار للقدرة على التحمُّل؟

لم يكن لديّ سبب حقيقي للاعتقاد بأنني حامل. فلم تفتني أي من الدورات الشهرية. لكني لم أحتجّ أبداً إلى سبب حقيقي لأعتقد أي شيء. فكلما نزعت مانع الحمل كنتُ أتحسس عنق الرحم، بحثاً عن جواب. لِمَ لم أتوصّل أبداً إلى معرفة ما يجري داخلي؟ لِمَ بقيَ جسدي لغزاً غامضاً بالنسبة إليّ؟ في النمسا، في إيطاليا، في فرنسا، في ألمانيا - تحسّست عنق رحمي وفكرت في الاحتمالات. كنتُ أكتشف أنني حامل. كنت أمر بمراحل الحمل كلها دون أنْ أعلم إنْ كان الطفل سيأتي أشقر الشعر أو أزرق العينين مثل أدريان أو صينيّة مثل بينيت. ماذا أفعل؟ مَنْ الذي سيقبلني؟ لقد تركتُ زوجي وهو لن يُسامحني أبداً ولن يستعيدني. ووالديّ لن يُساعداني من دون أنْ ينتزعوا ثمناً عاطفياً ضخماً بحيث إني ساضطر إلى التحوُّل إلى طفلة من جديد لكي أعتمد عليهما. وأخواتي سوف يعتقدن أنني أستحق ذلك بسبب حياتي المُشتتة. وسوف يضحك أصدقائي من خلف عبارات الرثاء الزائفة. وتنهار إيزادورا!.

أو أُجري عملية إجهاض. عملية إجهاض رديئة تؤدي إلى قتلي. أو بتسمُّم الدم. أو بالإصابة بعُقم دائم. وفجأة أردتُ طفلاً من كل قلبي. طفلاً من أدريان. أو من بينيت. طفلاً أنجبه. من أي شخص كان. أردتُ أنْ أحبل. أردتُ أنْ *أنتفخ بطفل*. كنتُ أستلقي يقظة داخل خيمة أدريان الواقية وأبكي. ويُتابع هو غطيطه. كنا نائمين على حافة الطريق في فرنسا في تلك الليلة وكان يمكن أنْ يكون أيضاً سطح القمر. إلى هذه الدرجة وصل إحساسي بالوحشة، وبالحرمان.

قلت أنْ: «لا أحد، لا أحد، لا أحد، لا أحد...»، وأنا أعانقُ نفسي وكأنني طفلة كبيرة كما كنتُ فعلاً. كنتُ أحاول أنْ أُهدهد نفسي حتى أنام. قلت في نفسي، من الآن فصاعداً سوف أُضطر إلى أنْ أعتني بنفسي، أنْ أُواسي نفسي. أنْ أُهدهد نفسي حتى أنام. ربما هذا ما

عناه أدريان بحديثه عن الغوص إلى أعماق النفس واستعادة نفسك منها. لتتعلّم كيف تبقى على قيد حياتك. تتعلّم كيف تتحمّل وجودك الخاص. تتعلّم كيف تعتني بنفسك. وليس دائماً تتحول إلى مُحلل نفسي، أو إلى عاشق، أو زوج، أو أب.

هدهدتُ نفسي. نطقتُ اسمي لأحاول أنْ أتذكّر مَنْ أنا: «إيزادورا، إيزادورا، إيزادورا، إيزادورا... إيزادورا وايت شتولرمان وينغ... شهادة في الآداب والفنون، ماجستير في الفنون، منتسبة إلى جمعية فاي بيتا كابا. إيزادورا وينغ، شاعرة شابة واعدة. إيزادورا وينغ، مهرجة، طفلة باكية، حمقاء. إيزادورا وينغ، علّامة، زوجة سابقة ليسوع المسيح. إيزادورا وينغ، مع خوفها من الطيران. إيزادورا وينغ، وعاء الجنس التي زاد وزنها قليلاً، مُصابة بدرجة سيئة من انحراف بؤرة عين عقلها. إيزادورا وينغ، بكسّها الذي لا يشبع وبثقوب في رأسها وقلبها. إيزادورا وينغ النهمة إلى القضيب. إيزادورا وينغ التي تريد منها أمها أنْ تطير. إيزادورا وينغ التي ثبّتت لها قدميها.. إيزادورا وينغ، المريضة المحترفة، الباحثة عن المُخلّصين، والحسّيّة، واليقين. إيزادورا وينغ، مُحاربة طواحين الهواء، الحزينة المحترفة، المُغامِرة الفاشلة...

لا بد أنني نمت. استيقظت لأرى أشعة الشمس تتسلل من خلال زرقة الخيمة الواقية البراقة. كان أدريان لا يزال يغطّ. كانت ذراعه ذات الشعر الأشقر قد سقطت بكل ثقلها على صدري وتضغط عليه، وجعلتني أعي بصورة مزعجة أنفاسي. كانت العصافير تغرّد. كنا في فرنسا. على جانب الطريق. بعض تقاطع الطرق في حياتي. ماذا أفعل هنا؟ لماذا أنا مستلقية داخل خيمة في فرنسا مع رجل لا أعرفه؟ لماذا لست في المنزل في السرير مع زوجي؟ فكّرتُ في زوجي وغمرتني موجة مفاجئة من الحنان. ماذا يفعل؟ هل اشتاق إليّ؟ هل نسيني؟ هل عثر على امرأة أخرى؟ امرأة عادية ليست مضطرة إلى الانطلاق في

مغامرات لتبرهن على قدرتها على التحمُّل. امرأة عادية ترضى بإعداد وجبة الإفطار وتربية الأطفال. امرأة عادية تجدها في كل مكان. امرأة أميركية عادية نموذجية؟.

فجأة انتابتني رغبة عارمة في أنْ *أكون* تلك المرأة العادية. أنْ أكون ربة المنزل الصغيرة الطيبة تلك، التي تمجّد الأم الأميركية، ذلك النمط الذي يجلب الحظ المأخوذ من مجلة «*مدموازيل*»، تلك القيمة من مجلة «*ماكول*»، تلك الظريفة من مطعم «*كوزمو*»، تلك الفتاة مع ختم إدارة المنزل الجيدة موشوم على مؤخرتها وفي رأسها ترن أجراس الإعلان. *ذاك* كان الحل! أنْ أكون عادية! ألا أكون غريبة! أنْ أكون قانعة بالحل الوسط ووجبات العشاء أمام شاشة التلفاز ومشاهدة «هل في الإمكان إنقاذ هذا الزواج»؟ حينئذ كنتُ أتوهّم أنني ربة منزل سعيدة. وهمٌ نابع مباشرة من عقل رجل إعلانات صغير، أتخيل أنني أرتدي مئزراً وبلوزة قطنية مُخططة وأنتظر زوجي والأطفال بينما جهاز التلفاز الحاضر دائماً يتغنى بفضائل المنزل الأميركي والزوجة - الجارية الأميركية بعقلها الصغير المرتبك.

فكّرتُ كم كنتُ أشعر أنني بلا منزل وبلا جذور في الليلة السابقة وفجأة تبدّى لي الجواب على ذلك واضحاً جلياً: *كوني عاديّة!* كوني زوجة صغيرة آمنة في منزلها الصغير الآمن ولن تستيقظي أبداً منبوذة على جانب الطريق في فرنسا من جديد.

لكنَّ الوهم تلاشى؛ انفجر كالفقاعة وقد كان كذلك. فكّرت في أوقات الصباح في نيويورك عندما كنتُ أستيقظ مع زوجي وأشعر بوحشة مشابهة. خلال فترات الصباح الموحشة تلك كلها كنا نتبادل التحديق عبر عصير البرتقال وأكواب القهوة. تلك اللحظات الموحشة كلها قيست بملاعق القهوة، وفواتير الغسيل، بلفائف ورق المرحاض المستعملة، بالأطباق القذرة، وبالصحاف المكسورة، بالشيكات

المُلغاة، بزجاجات الويسكي الفارغة. الزواج أيضاً يمكن أنْ يكون موحشاً. الزواج يمكن أنْ يكون كئيباً. كل ربات البيوت السعيدات تلكَ اللواتي يُعددن الإفطار لأزواجهن وأطفالهن كنَّ يحلمن بالهرب مع عشاق والنوم داخل خيام في فرنسا! كانت رؤوسهن مغموسة بالوهم. كنّ يُعددن وجبات الإفطار، ويُرتّبن الأسرّة، ويصنعن الوجبات السريعة، ومن ثم ينطلقنَ للتسوق وشراء آخر أعداد مجلة «ماكول» لقراءة فصل جديد من فصول حياة جاكي أوناسيس. كنَّ يحلمن على الدوام بالهرب؛ كنَّ دائماً مفعمات بالاحتقار. وكانت حياتهن مغمورة بالوهم.

ألم يكن هناك مخرج؟ هل الوحشة ظاهرة عالمية؟ هل القلق هو حقيقة الحياة؟ أليس من الأفضل الاعتراف بدل أنْ نواصل البحث عن حلولٍ زائفة؟ الزواج ليس علاجاً للوحشة. إنَّ الأطفال يكبرون ثم يرحلون. والعشّاق ليسوا الدواء الشافي. والجنس ليس حلاً نهائياً. إذا حوّلتِ حياتك إلى مرض مستديم فالموت هو الدواء الوحيد. وفجأة، اتّضح الأمر كله. استلقيت هناك في تلك الخيمة، في كيس النوم المزدوج ذاك بجوار ذلك الغريب الذي يغطّ ورحت أفكر وأفكر وأفكر. ماذا بعد؟ كيف أعيش حياتي؟ إلى أين أتوجه من هنا؟

بحلول فترة ما بعد الظهيرة، كنا قد أصبحنا ثملَين ومرحين. سكرنا بالبيرة. وتوقفنا لنشتري الخوخ من مزارع على حافة الطريق ووجدنا أنه لا يبيع إلا بالصندوق، وهكذا تابعنا انطلاقنا بالسيارة مُحمّلين بالخوخ. صندوق ضخم منه ملأ الجزء الخلفي من السيارة. ورحت آكل منه بنهم واكتشفتُ أنّ الثمار كلها تقريباً تحتوي دوداً. فضحكت واكلت ما حول الديدان. رميت أجزاء الثمار ذات الدود إلى الريف. وكنتُ من فرط السُكر بحيث لم أهتم بالديدان أو بالحمل أو بالزواج أو بالمستقبل.

قلت لأدريان: «أشعر بسعادة غامرة!».

«هذه هي الفكرة، يا حلوة. وها أنتِ فهمت الفكرة».

بحلول المساء، وبعد زوال تأثير البيرة، عاد الانقباض من جديد. كانت أيامنا، وجولاتنا بالسيارة، وسُكرنا، تتسّم بانعدام أي هدف. لم أكنْ حتى أعلم في أي يوم من الأسبوع نحن. لم أكنْ قد فتحت صحيفة منذ أنْ كنتُ في فيينا. بَل إنني لم أستحمّ، أو أغيّر ملابسي. وأشدّ ما افتقدتُ كان الكتابة. لم أكنْ قد كتبتُ قصيدة واحدة منذ أسابيع وبدأتُ أشعر بأنني لن أتمكن من فعل ذلك بعد الآن. فكّرتُ في آلتي الحاسبة الكهربائية الحمراء المستعملة القابعة في نيويورك، فسرى في كياني وخز الاشتياق. هذا ما أحببت! يمكنني أنْ أعود إلى بينيت إكراماً لحيازة الآلة الكاتبة. كالأشخاص الذين يبقون معاً «إكراماً للأطفال» أو لأنهم لا يستطيعون أنْ يقرروا مَنْ سيحصل على عقد إيجار الشقة.

في تلك الليلة عثرنا على موقع حقيقي للتخييم بدل جانب الطريق. (*Le Camping*، كما يسميها الفرنسيون). لم يكن رائعاً، ولكن كان يحتوي حفرة للسباحة، ومطعماً للوجبات الخفيفة، ومكاناً لأخذ دش. كنتُ في أمسّ الحاجة إلى أخذ دش وحالما حجز أدريان بقعة من الأرض، انطلقت إلى مكان أخذ الدش. وفي أثناء إزالة القذارة عن جسمي، تحدثتُ مع بينيت بالتخاطُر. قلت له أينما كان «سامحني» (وقلتها لنفسي، أينما كنت).

عندما رجعت إلى الخيمة، كان أدريان قد وجد صديقاً. في الواقع، كانا اثنين. زوجين أميركيين. هي، ذات جمالٍ خشن، وشعر أحمر، ووجه بنمش، كبيرة الصدر، يهودية، لديها لَكْنَة أهل بروكلين. وهو سمسار في البورصة متأنّق ومدمن على حبوب الهلوسة. كانت ربة منزل أنيقة غارقة في الرذيلة. كان لديهما منزل في بروكلن هايتس،

وسيارة فولكسفاغن للتخييم، وثلاثة أطفال في المخيم، ولهفة أربعة عشر عاماً. كان أدريان يُثير إعجاب الزوجة (جودي) بلكنته الإنكليزية ونظريات لينغ (التي لم يعُد لها أي تأثير عليّ). بدت مستعدة للانضمام إليه في الخيمة.

قلت بإشراق لشريكيَّ في المواطنة وفي الديانة: «هاي».

قالا بصوت واحد: «هاي».

قال أدريان: «والآن ماذا سنفعل؟ أنأوي إلى السرير أم نسكر؟».

قهقهت جودي بصوت مكبوت.

قلت: «لا تذكّرني، نحن لا نؤمن بالتملُّك أو الامتلاك»، حسبتُ أنني أقوم بتقديم مُحاكاة جيدة لأدريان.

قدَّم الزوج (مارتي) عرضه بعصبية: «لدينا قطعة لحم كنا ننوي أنْ نشويها. هل ترغبان في الانضمام إلينا؟». عندما ينتابك الشك، كُلْ. كنتُ أعرف نمطه.

قال أدريان: «ممتاز». إنه الرجل الذي أتى على العشاء. فهمتُ أنَّ توقُّع مضاجعة جودي تحت بصر الزوج أثار شهيته. هذا كان سرّه. لمّا كان بينيت غائباً عن مسرح الأحداث، فَقَدَ هو اهتمامه بي نوعاً ما.

جلسنا لنأكل اللحم المشوي ولنستمع إلى قصة حياتهما. كانا قد قررا أنْ يتصرّفا بعقلانية، كما قال مارتي، بدل أنْ يحصلا على الطلاق كما فعل ثلاثة أرباع أصدقائهما. قررا أنْ يمنح كل منهما الآخر الكثير من الحرية. قاما بفعل أشياء كثيرة «ضمن جماعات»، حسب تعبيره، في إيبيزا، حيث أمضيا شهر تموز. مسكين، لم تبدُ عليه السعادة الغامرة. كان يُردد درساً شائعاً في الجنس كالفتى الذي يتلو واجباته الدينية. كان أدريان يرسم تكشيراً واسعاً. إنه مهتد أصلاً. وقبِلَ الأمر من هذه الناحية.

سألت جودي «وأنتِ؟».

قلت: «نحن لسنا متزوجَين. لا نؤمن بالزواج. هو جان بول سارتر وانا سيمون دو بوفوار».

تبادلت جودي ومارتي النظرات. لقد سمعا بهذين الاسمين في مكان ما، ولكن لم يتذكّرا أين.

قلت بوضاعة: «نحن مشهوران. في الحقيقة، هو ر. د لينغ وأنا ميري بارنز[1]».

ضحك أدريان، لكنني لم أشعر بأنني خسرت جودي ومارتي. كان ذلك حماية ذاتية محض. شعرت بأنّ المكاشفة قادمة، وبأنّ عليّ أنْ اضع ثقلي الثقافي كله. كان ذلك كل ما تبقّى لديّ.

قال أدريان: «حسن، لماذا لا نقوم بالمقايضة كبداية؟».

بدا مارتي مكتئباً. لم يكن ذلك مُشجعاً كثيراً لي، لكنّ الحقيقة كانت أنني لم أرغب فيه كثيراً.

قال أدريان: «تفضّل انت أولاً». رغبتُ في أنْ أراه يعتلي منجنيقه - كائناً ما كان معنى هذا. (لم اكن أبداً واثقة) «أعتقد انني سأبقى خارج اللعبة في هذا الدور. وإذا شئتم، سأراقب». كنتُ قد قررت أنْ أتغلّب على أدريان في هذه اللعبة. أنْ أبقى هادئة. حيادية. وكل ذلك الهراء.

ثم قفز مارتي واقفاً ليتحدى رجولته. قال متلعثماً: «أعتقد أننا إما أنْ نقايض أو لا نلعب».

قلت: «آسفة، لا أريد أنْ أكون مُفسِدة للمتعة، ولكن ليس لدي مزاج

---

١ - ميري إديث بارنز (١٩٢٣ - ٢٠٠١): رسّامة وكاتبة إنكليزية. أُصيبتْ بانفصام في الشخصية لكنها شُفيت على يد الدكتور لينغ واعتُبِرَتْ مريضته المثالية وعادت إلى نشاطها واصبحت رسّامة ناجحة. وقد قامت بتوثيق تجربتها مع الدكتور لينغ. - المترجم

للعب». كدتُ أُضيف: «ثم إنني يمكن أنْ أكون مُصابة بالسيلان...»، لكنني قررت ألا أُفسد الأمر من أجل أدريان. فليقدِّم ما لديه. كنتُ قوية. ويمكنني أنْ أتقبّله.

قالت جودي: «ألا تعتقدين أننا ينبغي أنْ نتوصل إلى قرار جماعي؟».

يا إلهي، أتراها كانت فتاة الكشّاف السابقة!

قلت: «لقد اتّخذتُ قراري تواً». كنتُ شديدة الفخر بنفسي. لقد عرفتُ ماذا أريد ولن أتراجع. رفضتُ وأعجبني ذلك. حتى أدريان كان فخوراً بي. أدركتُ ذلك من طريقته في التكشير. كان يعمل على بناء الشخصية. ولطالما كان مُهتماً بإنقاذي من نفسي.

قلت: «حسن، هل نراقبكما أم نكتفي بالجلوس بالقرب من بركة السباحة والتحدُّث؟ أنا أميل إلى الخيارَين».

قال مارتي بلهفة: «بركة السباحة».

قلت: «آمل ألا يكون هذا تلاعباً بالألفاظ».

لوحت بيدي بمرح لأدريان وجودي وهما يرتقيان سيارة التخييم فولكسفاغن ويسدلان الستائر. ثم امسكت بيد مارتي وقُدته إلى بركة السباحة القديمة حيث جلسنا على صخرة.

«هل تريد أنْ تحكي لي قصة حياتك، أم ستكتفي بوصف علاقات جودي الجنسية؟».

بدا مكتئباً.

سأل، وهو يومئ باتجاه سيارة التخييم، «أدائماً تتقبّلين الأمور بهذه البساطة؟».

«إنني في المعتاد نزّاعة إلى الشك بصورة مرعبة، لكنَّ صديقي الذي هناك كان يُنمّي شخصيتي».

«ماذا تعنين؟».

«إنه يُحاول أنْ يُعلّمني كيف أكفّ عن العذاب، وقد ينجح في ذلك - ولكن ليس للأسباب التي يعتقد».

قال مارتي: «لا أفهم».

«أنا آسفة. أعتقد أني أستعجل الأمور. إنها قصة طويلة، حزينة، وليست نادرة الحدوث في العالم».

نظر مارتي بكآبة باتجاه سيارة التخييم. أمسكتُ بيده.

قلت: «دعني أُفضي لك بسرّ - تشاء المُصادفة أنه لا يحدث الشيء الكثير هناك في الداخل. إنه ليس الفحل الذي يعتقد».

«أهو عنين؟».

«في الغالب».

«إنّ هذا لا يسعدني، لكنني أُقدّر مراعاتك لمشاعري».

نظرتُ إلى مارتي. لم يكن مظهره سيئاً. وفكّرت في كل تلك الأوقات التي تقتُ خلالها إلى رجال غرباء، وأماكن غريبة، وقضبان ذكرية ضخمة وغريبة. ولكنني لم أشعر إلا باللامبالاة. كنتُ أعلم أنّ مُضاجعتي لمارتي لن تُقرّبني بأي قدر من الحقيقة التي أفتش عنها - كائناً ما كانت. لقد أردتُ فعل حبٍ جميل جمالاً مُطلقاً يُصبح كل طرفٍ فيها هو دولاب صلاة[٢] للآخر، مُنحدر حادّ، وصاروخ. لم يكن مارتي هو الحل. وهل أي شخص كذلك؟

سأل: «كيف وصلتِ إلى هنا؟ ألستِ أميركية؟».

---

٢ - دولاب صلاة: في الديانة الهندوسية (خاصة في التيبت)، هو دولاب أو أسطوانة خُطّت عليها صلوات، وكل دورة فيه تُعتبَر صلاة منطوقة، وهكذا تُكرر الصلوات بإدارة الدولاب. - المترجم

«هذان الأمران لا يُلغي أحدهما الآخر... في الحقيقة، لقد تركتُ زوجي اللطيف بكل معنى الكلمة من أجل هذا».

هنا انتعش مارتي. سَرَتْ عبر وجهه موجة صاعقة ضعيفة. ألهذا السبب فعلت ذلك - لكي أتمكن من أنْ أقول بكل وقاحة «لقد تركتُ زوجي»، وأرى أمواج الصعقة تسري بيني وبين شخص غريب؟ أليست مجرد حركة استعراض؟ ويا له من نوع شديد القذارة من الاستعراض.

«من أين أنتِ؟».

«من نيويورك».

«ماذا تعملين؟».

السِمة الحميمة والغريبة في الانتظار خارج سيارة تخييم بينما زوجانا يتناكحان استدعت الإفضاء بما يُشبه الاعتراف، لذلك أفضيت به إليه.

«أنا من نيويورك، يهودية، أنحدر من عائلة متوسطة راقية مُصابة بُعصاب شديد، متزوجة للمرة الثانية من طبيب نفسي، بلا أولاد، عمري تسعة وعشرون عاماً، نشرت حديثاً ديوان شعر من المُفترَض أنه إباحي مما دفع رجال غرباء إلى الاتصال بي هاتفياً في منتصف الليل ليقدموا لي عروضاً ويصفونني بأوصاف، وأثاروا حولي ضجة كبرى - جولات قراءة في الجامعات، مقابلات صحفية، رسائل من مجانين، وما شابه - وانتابني الغضب. باشرت قراءة قصائدي الخاصة وحاولت أنْ أتوحُد مع الصورة التي يحملونها عني. بدأتُ أحاول أنْ أعيش أوهامي. بدأتُ أُصدِّق أنني شخصية روائية اخترعتُها بنفسي».

قال مارتي، مُعجَباً: «شيء غريب».

«المشكلة هي أنَّ الأوهام هي مجرد أوهام ولا يستطيع المرء أنْ يعيش في نشوة في كل يوم من أيام العام. حتى وإنْ صفعتَ الباب

رحلت، حتى وإنْ نكحت كل شخص تقع عليه عينك، فإنكَ لن تقترب بالضرورة من الحرية».

ألستُ أتكلّم مثل بينيت؟ يا للسخرية!

قال مارتي: «أتمنى أنْ تقولي هذا لجودي».

قلت: «لا أحد يستطيع أنْ يُخبر أحداً أيّ شيء».

لاحقاً، عندما اجتمعتُ أنا وأدريان في الخيمة، سألته عن جودي.

قال: «عاهرة مملّة. إنها تكتفي بالاستلقاء وكأنها لا تعي وجودك».

«هل أعجبَتها؟».

«وما أدراني؟».

«ألا يهمك أنْ تعرف؟».

«اسمعي – لقد نكحتُ جودي كما يشرب المرء القهوة بعد وجبة العشاء. وهي ليست قهوة جيدة على الإطلاق».

«إذن لِمَ تهتم؟».

«ولِمَ لا؟».

«لأنكَ إنْ اختزلتَ كل شيء إلى ذلك المستوى من اللامبالاة، يُصبح كل شيء بلا معنى. هذه ليست وجودية، بل خَدَر. وينتهي الأمر بجعل كل شيء بلا معنى».

«والمعنى؟».

«المعنى هو أنَّ الأمر ينتهي بكَ إلى عكس ما أردت. فإنْ أردتَ القوة، حصلتَ على الخَدَر. إنَّها هزيمة ذاتية».

قال أدريان: «أنت تعظينني».

قلت دون أنْ أعتذِر: «أنت على حق».

في صباح اليوم التالي رحلت جودي مع مارتي. كانا قد حزما أمتعتهما في أثناء الليل وفرّا كغجريين.

قال أدريان: «لقد كذبتُ عليك ليلة أمس».

«حول ماذا؟».

«في الحقيقة أنا لم أنكح جودي أبداً».

«كيف ذلك؟».

«لأنني لم أرغب في ذلك».

ضحكت بصورة قذرة. «تقصد أنكَ عجزت عن الفعل».

«كلا. *ليس* هذا ما أعني. أعني أنني لم *أرغب*».

قلت: «لا يهمني أبداً إنْ فعلتَ أو لم تفعل».

«هذا هراء».

«هذا رأيكَ *أنتَ*».

«أنت فقط حانقة لأنني أول رجلٍ قابلته ولم تتمكني من التحكّم فيه، ولا تستطيعين أنْ تتحمّلي طويلاً ألاّ تتحكمين في أي شخص أو أي شيء».

«هراء. كل ما في الأمر أنه يتصادف أنني أتبنى معايير أرقى نوعاً ما لِما أريد من معاييرك. أنا أعرف سرّ لعبتك. وأتّفق معك حول التصرّف العفوي والمذهب الوجودي - لكنّ هذا ليس عفويّة أبداً - إنه يأس. أنت قلتَ هذا عني في أول مرة تناكحنا وأنا الآن أقوله لك. إنّ هذا كله يأس واكتئاب يلبس قناع الحرية. إنه حتى ليس ممتعاً. إنه يدعو إلى الرثاء. حتى هذه الرحلة تدعو إلى الرثاء».

قال أدريان: «إنكِ لا تمنحين أي شيء فرصة».

لاحقاً سبحنا في البركة وجفّفنا أنفسنا بأشعة الشمس. تمدّد أدريان على العشب وضيّقَ عينيه في وجه الشمس. واستلقيتُ واضعة رأسي على صدره أشمّ عطر بشرته الدافئ. وفجأةً مرّت غيمة أمام الشمس وبدأ المطر يهطل خفيفاً. لم نتحرك. ومرّت الغيمة المطرية، وتركتنا

مرشوشين بقطرات كبيرة. شعرتُ بها تتبخّر عندما ظهرت الشمس واشرقت من جديد على بشرتنا. مشت حشرة طويلة الساقين عبر كتفيّ أدريان وتغلغلتْ في شَعره.

استقمتُ في جلستي.

«ما الأمر؟».

«إنها بقّة مُثيرة للاشمئزاز».

«أين؟».

«على كتفك».

نظر بزاوية منحرفة عبر صدره بحثاً عنها وأمسك بها من إحدى سيقانها. أدلاها، وراح يراقبها تحرّك سيقانها في الهواء كسبّاح يُحرك ساقيه في الماء.

ناشدته «لا تقتلها!».

«حسبتُ أنكِ تخشينها».

«أنا كذلك، لكنني لا أريد أنْ أراك تقتلها»، وانكمشتُ متراجعة.

قال، وهو ينزع إحدى سيقانها: «ما رأيك في هذا؟».

«أوه يا إلهي - *لا تفعل*! *أكره* أنْ أرى أحداً يفعل هذا».

واصل أدريان نزع السيقان وكأنها وريقات زهرة الربيع.

قال: «تحبني، لا تحبني...».

قلت: «أنا *أكره* هذا. أرجوك لا تفعل».

«حسبتُ أنكِ تكرهين *البق*».

«لا أحبّها عندما *تزحف* عليّ - لكنني أيضاً لا أتحمّل رؤيتها تُقتَل. وأشعر بالاشمئزاز عندما أراك تقطّع أوصالها هكذا. لا أقوى على المراقبة»، ونهضتُ واقفة وهرعت عائدة إلى حفرة السباحة.

هتف أدريان خلفي: «أنا لا أفهمكِ! ما سبب حساسيتك المُفرطة اللعينة؟».

وغصت تحت الماء.

لم نتبادل الحديث من جديد إلا بعد وجبة الغداء.

قال أدريـان: «لقد أفسدتِ الأمر بغضبك وقلقك وحساسيتك المفرطة».

«حسن، إذن أنزلني في باريس وسأطير من هناك إلى الوطن».

«بكل سرور».

«كان يمكن أنْ أقول لك إنكَ ستملّني إذا ما أظهرتُ أي قدر من المشاعر الإنسانية. أية امرأة طيّعة تريد، على أية حال؟».

«كفاك سُخفاً. أنا فقط أريد منك أنْ تُصبحي راشدة».

«وفق تعريفك للكلمة».

«وفق تعريفنا معاً».

قلت ساخرة: «كم أنت ديموقراطيّ».

باشرنا بوضع الأمتعة في السيارة، ونزع دعامات الخيمة والعدّة. استغرق ذلك منا عشرين دقيقة لم نتبادل في أثنائها أية كلمة. وأخيراً ركبنا السيارة.

«أعتقد أنه لا يعني لكَ أي شيء أنْ أهتمّ بكَ إلى درجة أنْ أُفسِد حياتي كلها من أجلك».

قال: «أنتِ لم تفعلي ذلك من أجلي؛ إنني فقط عذرك».

«ما كنتُ أبداً لأستطيع أنْ أفعل ذلك من دون أنْ أكنّ نحوك مشاعر قوية كما فعلت»، ثم تذكرتُ، مع قشعريرة سَرَتْ في أوصالي كلها، اشتياقي إليه في فيينا. الضعف في رُكبتيّ. الأحشاء المُضطربة. وجيب

القلب السريع. اللهاث. كل الأشياء التي أثارها فيَّ ودفعتني إلى اللحاق به. لقد اشتقتُ إليه كما كان عندما قابلته في المرة الأولى. لقد خاب أملي في الرجل الذي أضحى عليه.

قلت: «لا يمكن للرجل المُختبئ تحت السرير أنْ يُصبح الرجل الذي فوق السرير. إنَّ كليهما استثنائي. وحالما يخرج الرجل من تحت السرير ويرتقي لا يعود الرجل الذي تمنّيت».

«عمَّ تتحدثين بحق الجحيم؟».

قلت: «عن نظريتي في ممارسة الجنس الصرف». وبذل أقصى جهدي في شرح الأمر.

سال، وهو يُطوقني بذراعيه ويضغط رأسي على أسفل إلى أنْ أصبح في حجره، «تقصدين أنني خيّبتُ أملك». شممتُ رائحة بنطلونه القذرة».

قال: «هيا نخرج من السيارة».

مشينا حتى إحدى الشجرات وجلسنا تحتها. وضعت رأسي على حجره. وباشرت البحث بلا هدى عن فتحة بنطلونه. أنزلتُ السحّاب حتى المنتصف وأمسكتُ قضيبه الرخو بيدي.

قال «إنه صغير».

رفعتُ بصري إليه، إلى عينيه بلونهما الأخضر والذهبي، وشعره المنسدل على جبينه، وإلى الخطوط التي يرسمها الضحك على زاويتيّ فمه، ووجنتيه اللتين لوّحتهما أشعة الشمس. كان لا يزال جميلاً في نظري. رغبتُ فيه مع اشتياق لا يقلّ إيلاماً لأنه حنين جزئياً. تبادلنا القُبل طويلاً، كان لسانه يُحدثُ دوائر تُثير الدوار في فمي. ومهما طالت قبلاتنا بقيَ قضيبه رخواً. وأرسل ضحكته المُشرقة وضحكتُ معه. كنتُ أعلم أنه دائماً يتردد معي. كنتُ أعلم أنني لن أتمكن حقاً

من امتلاكه وهذا جزء من السبب الذي جعله شديد الجمال في نظري. قد أكتب عنه، وأتحدث عنه، وأتذكّره، لكنني أبداً لن أمتلكه. إنه رجل لا يمكن بلوغه.

تابعنا الطريق إلى باريس. أصررتُ على رغبتي في الرحيل إلى الوطن، لكنّ أدريان حاول أنْ يُقنعني بالبقاء. أصبح الآن يخشى من فقدان ولائي. وشعرت بأنني أنجرف. كان يعلم أني باشرت الكتابة عنه في دفتري لأستخدم ذلك في المستقبل. ومع اقترابنا من ضواحي باريس، بدأنا نشاهد عبارات مكتوبة على أسفل جسور الطرقات العامة. كانت إحداها تقول:

FEMMES! LIBERONS – NOUS!

(أيتها النسوة! فلنتحرر!)

(١٦)

مغوية ومهجورة

أعتقد أنّ التصويت لا يعني أي شيء للمرأة.
علينا أن نتسلّح.

• إدنا أوبراين

باريس من جديد.

وصلنا يكسونا غبار الطريق. كمُهاجرَين في رواية لجون شتاينبك، كمُمثّلَين هزليين مُغبرَّين في رواية لكوليت.

إنّ التحديق على جانب الطريق يحمل طابع روسّو نظرياً بصورة فائقة جداً، ولكن عملياً، يترك بين فخذيكِ إحساساً لزجاً. وإحدى مساوئ كونكِ امرأة هو أنكِ تتبوّلين في حذائك. أو عليه.

إذن وصلنا باريس، دبقَين، مُغبرَّين، وقذرَين قليلاً. وعاد الحب يصل بيننا - تلك المرحلة الثانية من الحب التي تتألّف من الحنين إلى المرحلة الأولى. والمرحلة الثانية من الحب هذه التي تحلّ عندما تشعرين بيأس بأنكِ تبتعدين عن الحب ولا تتحمّلين فكرة معاناة خسارة أخرى.

يُداعب أدريان رُكبتي.

«كيف حالك، حبيبتي؟».

«على ما يرام، حبيبي».

لم نعد نعرف كم من هذا حقيقيّ وكم منه زائف. نحن مُتّحدان في أدائنا.

إنني مُصممة الآن على العثور على بينيت لأحاول من جديد كي يستعيدني. ولكن ليست لديّ أدنى فكرة عن مكان بينيت. وأقرر أنْ أحاول الاتصال به هاتفياً. أفترضُ أنه عاد إلى نيويورك. إنه يكره التجوال في أرجاء أوروبا مثلي تماماً.

في غار دو نور، أعثر على جهاز هاتف وأحاول أنْ أُجري حواراً حميماً. لكنني نسيت كل كلمة فرنسية تعلّمتها ولغة عاملة الهاتف الإنكليزية ليست بأفضل حالاً. وبعد حوار سخيف، والعديد من الأخطاء، وخطوط مقطوعة وأرقام خاطئة، اتصلتُ برقم منزلي.

سألتُ عاملة الهاتف عن *«le Docteur Wing»* وعن بُعد، كأنما من عمق أعماق المحيط الأطلسي، سمعت صوت الفتاة التي استأجرت شقتنا من الباطن سحابة فصل الصيف.

«إنه ليس هنا. إنه في فيينا».

تناهى إليّ صوت عاملة الهاتف *«le Docteur est* Madame، *a Vienne»*.

صرخت *«Ce n`est pas possible!»* - ولكن كانت تلك أقصى حدود لغتي الفرنسية. وحالما بدأتْ عاملة الهاتف تجادلني، عُقِدَ لساني. ذات مرة، قبل سنين، عندما جئتُ إلى هنا وأنا طالبة في المَدرسة، كان في استطاعتي أنْ أتكلّم تلك اللغة. أما الآن، فإنني أكاد لا أتقنّ حتى الإنكليزية.

صرخت: «يجب أنْ يكون هناك!». أين هو إنْ لم يكن في المنزل؟ وماذا سأفعل بحق الله من دونه؟

اسرعت بالاتصال بأقرب أصدقاء بينيت إليه، بوب، الذي احتفظ بسيارتنا مدة فصل الصيف. لا ريب في أنّ بينيت سيتصل به أولاً. المدهش هو انّ بوب كان في المنزل.

«بوب – إنه أنا – إيزادورا – أنا في باريس. هل بينيت عندك؟».

جاءني صوت بوب ضعيفاً. «حسبتُ أنه معك» ثم سادت برهة صمت. لقد انقطع الاتصال. إلا أنّ الصمت لم يكن تاماً. هل أسمع هدير المحيط ، أم إنني أتخيّل ذلك؟ أشعر بخيط رفيع من العرق يجري بين ثدييّ. وفجأة يظهر صوت بوب من جديد.

«ماذا حدث؟ هل...»، ثم تشويش. ثم صمت. تخيّلتُ سمكة عملاقة تنهش في كابل المحيط الأطلسي. وكلما قضمت السمكة قضمة، يختفي صوت بوب.

«بوب!».

«لا أسمعك. *قلت: هل تشاجرتما؟* ».

«نعم. من الصعب أنْ أشرح لك. الأمر فظيع؟ والذنب كله...».

«*ماذا؟* لا أسمعك... أين بينيت؟».

«لهذا *اتصل* بك».

«ماذا؟ لم أسمع ما قلت».

«*لا*. لم أسمع هذا أيضاً... اسمع، إذا تصل، أخبره أنني أحبه».

«*ماذا؟*».

«قُل له إنني أبحث عنه».

«ماذا؟ لا أسمعك».

«قُل له إنني أريده».

«*ماذا؟* لا أسمعك».

«أخبره أنني أريده».

«*ماذا؟* هلّا كرّرت ما قلتِ؟».

«هذا لا يُطاق».

«لا أسمعكِ».

«فقط أخبره أنني أحبه».

«ماذا؟ هذا اتصال فظيـ...».

انقطع الخط للمرة الأخيرة. تدخّل صوت عاملة الهاتف حاملة خبراً يقول إنني أدين لها بـ ١٢٩ فرنكاً جديداً وبـ ٣٤ سنتيماً.

«لكنني لم أسمع أي شيء!».

أصرّت عاملة الهاتف على أنني مدينة في كل الأحوال. توجهت إلى صندوق الهاتف، وبحثت في محفظة نقودي فلم أعثر على أية فرنكات، لا قديمة ولا جديدة. لذلك اضطررتُ إلى خوض محنة تبديل العملة والتشاجر مع الصرّاف، لكنني في الختام دفعت. كان المزيد من الاعتراض على الدفع لا يستحق العناء.

أبدأ بدفع الفرنكات كأنها كفّارة. وأنا أتذكّر هذه الحادثة بهدوء الآن أُدركُ أنني كنت مستعدة لدفع أي مبلغ مقابل أنْ أصل إلى أرض الوطن. وهذا الجزء هو المُفضّل لدي. لِمَ أخدع نفسي؟ أنا لستُ وجوديّة. لا شيء بالنسبة إليّ يتّسمُ بالواقعية إلى أنْ أدوّنه كله - وأراجعه وأزخرفه في أثناء ذلك. ودائماً أنتظر انتهاء الأشياء لكي أعود إلى المنزل وأُودعها الورق.

يقول أدريان، لدى خروجه من مرحاض الرجال: «ماذا حدث؟».

«كل ما أنا متيقّنة منه هو أنه ليس موجوداً في نيويورك».

«لعله في لندن».

«هه - لعله كذلك». قلبي يخفق بقوة لمجرد فكرة أنني سأراه من جديد.

اقترح قائلة: «لِـمَ لا نذهب إلى لندن معاً ونتقاسم الأصدقاء المخلصين؟».

يقول أدريان المعلّم الأخلاقي: «لأنني أعتقد أنَّ عليك أنْ تواجهي هذا وحدك».

لا أجد في عرضِه شيئاً خبيثاً. إنه، بصورة ما، على حق. لقد أوقعتُ نفسي في هذه الورطَة - لِمَ أعتمدُ عليه للخروج منها؟.

أقول، كسباً للوقت: «هيا نتناول مشروباً ونفكر في الموضوع».

«حسن».

انطلقنا بالسيارة، وخارطة باريس على حجري، وسقف السيارة مكشوف، والشمس تلمع على المدينة - كالنسخة السينمائية من قصتنا.

أوجّه أدريان نحو البول ميك ويسعدني أنْ أكتشف أنني أتذكر الجادات، ونقاط العلام، والمنعطفات. وتدريجياً، أستعيد لغتي الفرنسية.

أهتف *«Il pleure dans mon Coeur / Comme il pleut sur la ville!»* (*إنها تُمطر في قلبي / كما تُمطر على المدينة*)، وأنا فرحة لتمكني من تذكّر بيتَين من القصيدة الوحيدة التي نجحت في استظهارها من سنوات تلقّي دروس الفرنسية كلها. وفجأة (ودون أي سبب، ما عدا مشاهدة باريس) أطير أعلى من أية طائرة ورقية. كانت أمي تقول: «لقد وُلِدَتْ مع جرعة زائدة من الأدرنالين». وهذا صحيح - فعندما لم أكن في حالة من الكآبة الرهيبة، أكاد أنفجر من الغضب، والضحك، والأجوبة البارعة.

يقول أدريان: «ماذا تقصدين بـ *il pleut* ؟ إنه أسطع يوم باشعة الشمس شهدته منذ أسابيع». لكنه يتقبّل القهقهات مني وحتى قبل أنْ نصل إلى المقهى كنا قد أصبحنا في أحسن حال. نوقف السيارة في الرو ديه إيكول (وهو أقرب مكان لإيقاف السيارة استطعنا أنْ نعثر عليه) ونترك أمتعتنا كلها في السيارة. وأتردد برهة لأنه لا توجد طريقة للاحتفاظ بأغراضنا - لم تكن السيارة تحتوي إلا قطعة من - ولكن قبل كل شيء، لِمَ أهتم بالدوام والممتلكات؟ *إنّ الحرية هي مُرادف لعدم وجود ما تخسر* - أليس كذلك؟

توجهنا إلى المقهى الكائن في بلاس سان ميشيل، ونحن نثرثر مع بعضنا معبِّرين عن ابتهاجنا بالعودة إلى باريس، وكيف أنَّ باريس لم تتغيَّر، والمقاهي لا زالت حيث تركناها، والشوارع لا زالت على حالها، وباريس دائماً كما هي.

شرب كلٌّ منا كأسين من البيرة وتباهينا بتبادل القُبل علناً. (كان جديراً بكل مَنْ يرانا أنْ يعتقد أننا أعظم العشّاق في العالم في خلوة).

يقول أدريان، وقد عاد المُغازل الواثق من نفسه الذي كان عليه في فيينا: «إنَّ الذات العليا محلولة في الكحول».

أقول: «إنَّ ذاتي العليا هي المحلولة في أوروبا»، وضحكنا معاً بأعلى صوتنا.

ثم أقترح: «دعنا لا نعود إلى الوطن. فلنبقَ هنا إلى الأبد ونتصرف بهذيان في كل يوم».

يُجيب أدريان، وهو يشدّني إليه: «إنَّ العنب هو الوجوديّ الحقيقي الوحيد».

«أو الهوبس. أيُقال هوبس أم هوب؟ لست متاكدة».

يقول أدريان نبرة الواثق «بل هوبس[1]»، ويرشف رشفة أخرى من البيرة.

أقول «هوبس»، وأفعل مثله.

نتجول في أرجاء باريس ونحن في حالة زيغ من أثر البيرة. على الغداء نأكل الكسكس وعلى العشاء نأكل الأصداف، وما بينهما نشرب كميات كبيرة من البيرة ونتوقف مرات لا حصر لها لنتبوّل؛ ونتجول في أرجاء جاردان ديه بلان وفي أنحاء البانثيون وخلال جاردان دو لوكسمبور. وفي الختام نرتاح على مقعد بالقرب من مونتين دو لوبزرفاتوار. إننا متراخيان بصورة ممتعة. نراقب الجياد البرونزية العظيمة التي تظهر من خلف النافورة. وينتابني ذلك الإحساس الغريب بالهشاشة الذي يمنحه الكحول وأشعر بأنني أعيش قصة سينمائية رومانسية. أشعر بارتياح شديد وارتخاء ودوار. إنَّ نيويورك أبعد عني من القمر.

أقول: «هيا نبحث عن فندق ونأوي إلى السرير»، ليس بسبب موجة قوية من الشبق الجنسي، بل مجرد تعبير عن رغبة ودود في تحقيق ذلك الدوار الرومانسي. قد نقوم بمحاولة أخرى. فقط نكاح واحد مثالي لكي نتذكّره به. وبصورة ما باءت محاولاتنا كلها بالفشل. ويبدو من المؤسف أننا كنا معاً طوال الوقت وأنني غامرت بالكثير من أجل أقلّ القليل. أم هل هو ربما لبّ الأمر كله؟.

يقول أدريان: «كلا، ليس لدينا الوقت الكافي».

«ماذا تعني بأنه ليس لدينا الوقت الكافي؟».

«سوف أُضطر إلى السفر في هذه الليلة إذا توقعت أنْ أصل إلى شربور في صباح الغد».

---

١ - هوبس: جزء جاف من زهرة تُضاف إلى صناعة البيرة لإضافة لذعة مرّة إلى مذاقه. - المترجم

«*لماذا* ينبغي أنْ تصل إلى شربور في صباح الغد؟»»، وبدأ الأمر يتبيّن لي من خلال نشوة الخمر.

«لكي أقابل إستر والأطفال».

«أتمزح؟».

«كلا، لا أمزح»، ونظر في ساعة يده. «أعتقد أنهم يُغادرون لندن الآن. من المفترَض أنْ نقضي فترة إجازة قصيرة في بروتاني».

حدَّقتُ إليه، وهو ينظر بهدوء إلى ساعة يده. إنَّ حجم خيانته الهائل يلجم لساني. ها أنا ذي – ثملة، قذرة، لا أعلم حتى في أي يوم نحن – وهو يسعى إلى الوفاء بموعد حدده قبل أكثر من شهر.

«تعني أنكَ كنتَ تعلم بهذا كله طوال الوقت؟».

أومأ برأسه إيجاباً.

«وتركتني أعتقد أننا وجوديان في حين أنكَ كنتَ تعلم طوال الوقت أنَّ عليك أنْ تقابل إستر في يوم مُحدَّد؟».

«حسن – افهمي ما تشائين. إننا لم نُخطط للأمر بنيّة سيئة كما يبدو أنكِ تعتقدين».

«إذن *ماذا* كان؟ كيف استطعتَ أنْ تُقنعني بأننا فقط نتجول حيث تقودنا نزواتنا – في حين أنه كان لديك طوال الوقت موعد مع إستر؟».

«أنتِ التي أعدت تنظيم كل شيء يا حبيبتي، ليس أنا. أنا لم أقُلْ أبداً أنني سأُعيد ترتيب حياتي *أنا* لأبقى إلى جانبك».

شعرتُ كأنني تلقّيت لكمة على فكّي. وكأنني تلقيت ضربة قاصمة وتهشّمتْ دراجتي الهوائية على يد صديقي الحميم. لقد كانت أسوأ خيانة يمكن أنْ تخطر على بالي.

«تعني أنك جلستَ هناك *طوال* الوقت تتحدث عن الحرية

والمُصادفة وأنت تعلم أنَّ لديك خططاً لمقابلة إستر؟ أنا لم *أقابل* في حياتي منافقاً مثلك!».

طفق أدريان يضحك.

«ما الشيء اللعين المُضحك؟».

«حنقك».

صرخت «أودّ لو *أقتلك*».

«أراهن على ذلك».

وبذلك بدأتُ أتحرك نحوه وأُسدد اللكمات إليه. أمسك بي من رسغيّ وأوقفني.

ضحك وقال: «كل ما أردت هو أنْ أزوّدك بمادة للكتابة».

«يا *ابن الحرام!*».

«ألا يُشكّل هذا نهاية مثالية لقصتك؟».

«أنت فعلاً خنزير».

«هيا، يا حبيبتي، لا تتناولي الأمر بجدية صارمة. إنَّ العِبرة من القصة هي نفسها على أية حال، أليست كذلك؟».

«إنَّ أخلاقياتك أشبه بطرق متشعبة بين سلاسل جبال الألب. إنها تجعل دبابيس الشَعر هذه تستدير طوال الوقت».

قال: «أنا أيضاً سمعت مثل *هذا* الكلام من قبل».

«حسن، أنا قادمة *معك*».

«إلى أين؟».

«إلى شربور. كل ما علينا أنْ نفعل هو أنْ نجتاز منطقة بريتاني في الخامسة. وسوف نتناكح جميعاً مع بعضنا دون أنْ نتعلل بأعذار أخلاقية بلهاء - كما قلتَ عندما كنا في فيينا».

«هذا هراء، لن تذهبي».

«بل سأذهب».

«*لن* تذهبي. لن أسمح بذلك».

«ماذا تعني بأنكَ *لن تسمح بذلك*؟ أي نوع من الهراء هذا؟ إنكَ تتباهى بكل شيء أمام بينيت. لقد شجّعتني على زعزعة حياتي ومرافقتك وها أنت منهمك في الحفاظ على تماسُك *عائلتك* الصغيرة الآمنة! أي هراء تعتقد أنني سأتحمّلَ؟ أنتَ الذي بعتني قائمة من القيم عن الصدق والانفتاح وعدم العيش وسط عدد هائل من التناقُضات. إنني ذاهبة معك حتماً إلى شربور. أريد أنْ أقابل إستر وأطفالها وسوف نتصرّف ارتجالاً».

«هذا غير وارد حتماً. لن آخذكِ معي. سوف أرمي بكِ حرفياً من السيارة إذا اقتضى الأمر».

نظرتُ إليه غير مُصدِّقة. لماذا كان صعباً عليّ أنْ أُصدِّق أنه سيكون قاسي الفؤاد إلى هذه الدرجة؟ كان جلياً أنه يعني ما قال. كنتُ متيقّنة من أنه سيرمي بي من السيارة إذا اضطرّ إلى ذلك. بل قد يواصل طريقه وهو يضحك.

«ولكن ألا *تقلق* من كونك منافقاً؟». كانت نبرة صوتي مشوبة بلمسة مناشدة وكأنني أعلم مُسبقاً أنني خاسرة.

قال: «أرفضُ أنْ أُسبب الإزعاج للأطفال هكذا، وكلامي نهائيّ».

«من الواضح أنه لا مانع لديك أنْ تزعجني».

«أنتِ راشدة. تستطيعين التحمُّل. هم لا يستطيعون».

أي جواب كان يمكن أنْ أُعطي على هذا؟ كان في وسعي أنْ أصرخ وأزعق قائلة إنني أنا أيضاً طفلة، وإنني سأنهار إذا تركني، وإنني سأتحطم. قد يحدث هذا. لكنني لستُ تابعة لأدريان، وليس من شأنه

انْ يُنقذني. أنا لست تابعة لأحد الآن. أنا حرة. حريّتي مُطلَقة. كان ذلك أشد ما انتابني في حياتي من الأحاسيس بثّاً للرعب. كأنك تترنح على حافة وادي غراند كانيون آملاً أنْ تتعلَّم الطيران قبل أنْ تسقط في الهاوية.

لم أتمكن من الإحاطة برعبي والتحكُّم فيه إلا بعد أنْ غادر. لم نفترق على عداوة. وعندما أدركتُ أني هُزِمتُ هزيمة نكراء، لم أعُد أكرهه. بداتُ أركِّز على كيفية تحمُّل وحدتي. وحالما توقفتُ عن توقُّع إنقاذه لي، وجدتُ أنَّ في مقدوري أنْ أتعاطف معه. أنا لستُ طفلة. ويحقّ له أنْ يحمي أطفاله. حتى مني - إذا أدركَ أني أُشكِّل تهديداً لهم. لقد خانني، ولكني طوال الوقت شعرتُ بأنَّ هذا سيحدث وقد استغللته بصورة ما بوصفه خائناً بثقة كما عمل هو على استغلالي كضحية. لقد كان، بصورة منحرفة، أداةً لتحقيق حريتي. وفي أثناء مراقبتي له وهو يبتعد بسيارته، أدركتُ أني سأعود إلى الوقوع في شِباك حبّه حالما تصبح المسافة بيننا كبيرة بقدرٍ كاف.

وهو لم يُغادر أيضاً من دون أنْ يُقدم لي يد المساعدة. كنا معاً قد استعلمنا عن بطاقات السفر بالطائرة إلى لندن ووجدنا أنَّ الطائرات كلها محجوزة على مدى اليومين التاليين. كان في استطاعتي أنْ أنتظر حتى يوم الأربعاء أو أنْ أستعلم عن قطارات السفن لليوم التالي، أو أنْ أتوجه إلى المطار وأنتظر انْ يُنادى عليّ بوصفي مُسافراً بديلاً. كان لديّ خيارات. كل ما كان عليّ أنْ أفعل هو أنْ أتحمّل وجيب قلبي القويّ المجنون إلى أنْ أعثر على بينيت من جديد - أو شخص ما. ربما أنا نفسي.

جررتُ حقيبة السفر عائدة إلى مقهى في بلاس سان ميشيل. وفجأةً، بما أنني بلا رجل، ادركتُ كم هي ثقيلة. لم أكن قد حزمت الأمتعة متوقعة أنْ أسافر وحدي. كانت حقيبتي ممتلئة بدلائل السفر،

وآلة تسجيل صغيرة من أجل تدوين المقالة التي لم أكتب أبداً، ودفاتر، ومُصفف شَعري الكهربائي، وعشرة نسخ من ديواني الشعري الأول. سوف أمنحُ بعضها إلى وكيل أدبي في لندن. والأخرى كنتُ ببساطة أحملها بسبب شعوري بعدم الأمـان؛ كبطاقات للتعريف أقدمها لكل مَنْ أقابل. كانت مُصمّمة لتُثبت أنني استثنائية؛ لتُثبت أنّه يجب منحي جواز سفر. وتشبّثتُ بصورة تدعو إلى الرثاء بوضعي كشخص استثنائي، لأنني من دونه، ساكون مجرد أنثى وحيدة عادية في رحلة بحث.

سألني أدريان قبل أنْ ينطلق في سيارته «هل لديّ عنوانك؟».

«إنه في الكتاب الذي أعطيتك. في آخر ورقة ختامية».

لكنه أضاع الكتاب. النسخة التي وقّعتُ عليها بقلم الحبر الوردي الفاقع. ولا حاجة إلى القول إنه لم يُنه قراءته أبداً.

«خُذ - دعني أُحضر لك نسخة أخرى»، وبدأتُ أفتح حقيبة قماش الكنفا الضخمة في وسط الشارع. خرجت منها قوارير مساحيق التجميل، وأوراق منفلتة لتدوين الملاحظات للقصائد التي كنتُ أعمل عليها، وأشرطة تسجيل، وفيلم تصوير، وأحمر شفاه، وروايات بأغلفة ورقية، ودليل ميشلان بال. أعدت كل تلك الأغراض إلى الحقيبة الإيطالية اللينة وأخرجت أُحد كتبي. طقطقَ محور النسخة العذراء. كتبت:

إلى أدريان المُهمل

الذي يفقد الكتب.

مع حبي والكثير من القُبَل،

صديقتك في العمل الاجتماعي

من نيويورك -

وكتبتُ عنواني في نيويورك ورقم هاتفي على الورقة الختامية من جديد، وأنا أعرف أنه ربما سيُضيّع هذه النسخة أيضاً. وهكذا افترقنا. خسارة فوق خسارة. إنَّ حياتي تُراق على أرض الشارع، وليس بيني وبين الفراغ إلا ديوان صغير من الشِّعر.

في المقهى، جلستُ بجوار حقيبتي وطلبتُ كأساً أخرى من البيرة. كنتُ مُصابة بدوار ومُرهَقة - بل من فرط الإرهاق بحيث لم أتمكن من أنْ أكون بائسة بقدر عِلمي أنني يجب أنْ أكون. يجب أنْ أعثر على فندق. الظلام يقترب. حقيبتي ثقيلة جداً وربما سأضطر إلى جرّها معي وارتقاء كل ذلك الدَّرَج اللولبي لكي أستعلم عن الغرف التي سيتَّضح أنها محجوزة. وضعتُ رأسي على الطاولة. أردتُ أنْ أبكي من فرط إحساسي بالإرهاق، لكنني كنتُ أعلم أنني لا أستطيع أنْ أفعل ذلك علناً. بدأتُ أجذب نوع النظرات الفضولية التي تجذبها امرأة وحيدة. وكنتُ من فرط التعب والإرهاق بحيث عجزت عن إبداء ردّة فعل مرهفة. ولو أنَّ أحداً حاول حينئذ أنْ يأخذني معه، فلعلي كنتُ سأصرخ وأبدأ بتسديد اللكمات. لقد تجاوزت الكلام، وسئمتُ التفكير والجدال ومحاولة أنْ أبدو بارعة. أول رجل سيقترب مني مع نظرة ساخرة أو تنطوي على غزل سيحصل على نصيبه: رفسة على الخصيتين أو لكمة على الفكّ. لن أجلس ساكنة منكمشة خوفاً كما فعلت وأنا في الثالثة عشرة عندما بدأ المتعرّون بخلع بنطلوناتهم أمامي على الطريق العامة المُقفرة المؤدية إلى المدرسة الثانوية. في الواقع، كنتُ أخشى أنْ يشعروا *بالمهانة* وينتقموا مني بصورة رهيبة إلا إذا بقيتُ ثابتة في مكاني. لذلك بقيت كذلك، مُشيحة ببصري، أتظاهر بأنني لا ألاحظ، أتظاهر بأنني لست مرعوبة، أتظاهر بأنني أقرأ وآمل في أنْ يقوم الكتاب بصورة ما بحمايتي. ولاحقاً، في إيطاليا، عندما تبعني الرجال بين الأطلال أو لاحقوني بالسيارات على طول الجادات

(فتحوا أبواب بيوتهم وهم يهمسون ***vieni, vieni***)، ولطالما تساءلت لماذا شعرت بأنني شديدة القذارة وبصقت عليهم من شدّة الغضب. كان من المُفترَض أنْ يكون سلوكهم مديحاً. كان من المفترَض أنْ يُثبت أنوثتي. ولطالما عبَّرتْ أمي عن مدى إحساسها بأنها امرأة في إيطاليا. فلماذا إذن جعلني ذلك أشعر بأنني *مُلاحَقة*؟ حسبتُ أنَّ الخطأ يكمن فيَّ. في الماضي كنتُ أبتسم وأرفع شَعري لأعبِّر عن مدى امتناني. ومن ثم شعرت بأنني زائفة. لِمَ لا أشعر بالامتنان لأني مُلاحَقة؟

أما الآن فاردتُ أنْ أنفرد بنفسي، وإذا ما فسَّر أحدهم سلوكي بصورة مختلفة، فسأتصرَّف كحيوان مسعور. حتى بينيت، بكل ما يملك من عِلم نفس وبصيرة، قال إنَّ الرجال يُحاولون أنْ يصطحبوني طوال الوقت لأنني أوحي بأنني «مُتاحة» - حسب تعبيره. لأنَّ ملابسي مُغالية في إثارتها. أو لأنَّ شَعري يوحي أكثر مما ينبغي بالخلاعة. أو، باختصار، بسبب *شيء ما* أستحق بسببه أنْ أتعرُّض إلى الهجوم. كانت الرطانة القديمة نفسها عن الحرب بين الجنسين، لغة حقبة الخمسينيات القديمة نفسها تلبس قناعاً: ***لا وجود لشيء اسمه اغتصاب؛ أنتنّ معشر النساء تطلبن ذلك. أيتها السيدات***.

وجَّهت اهتمامي نحو كأس البيرة. وحالما رفعت بصري، وقعت عيني على رجل يجلس على الطاولة المجاورة. كان مظهره المُختال كأنما يقول، ***أنا أعرف ماذا تريدين، يا حبيبتي***... كان نوع الغزل نفسه الذي أوقعني أدريان في شباكه به، أما حينئذ فأثار في نفسي الاشمئزاز. إنَّ كل ما رأيتُ فيه في تلك اللحظة كان تنمُّراً وساديّة. لقد تجلّى لي فجأةً أنْ ربما ٩٠٪ من الرجال الذين يفعلون ذلك إنما يُخفون عجزهم الجنسي. ولم أُمانع في وضع تلك الفرضيّة موضع الاختبار.

حككتُ حاجبيّ وأطرقتُ بصري. ألم يرَ أنني لا أريد أحداً؟ ألم يرَ أنني مُرهقة وقذرة وفي حالة مُزرية؟ ألم يرَ أنني متشبّثة بكأس البيرة

وكأنه الكأس المقدسة؟ لماذا يحدث أنني كلما رفضت عرض رجل، رفضته بإخلاص ومن كل قلبي، يصرّ على الاعتقاد بأنني لعوب؟

تذكرت الأيام التي كنتُ أحلم بمضاجعة رجال على متن القطار. صحيح أنني لم أعمل على تحقيق تلك الأحلام وما كنتُ لأجرؤ على فعل ذلك. بل لم أكن شجاعة بالقدر الكافي لأكتب عنها إلا بعد ذلك بزمن طويل. ولكن لنفرِض أنني كنتُ قد تقدّمت بعَرض من أحد أولئك الرجال، ولنفرض أنه رفضَ عرضي، وأشاح ببصره عني، مُبدياً اشمئزازه أو امتعاضه. فماذا حينئذٍ؟ كنتُ سأتأثر كثيراً بذلك الرفض، وأعتقد أنني أخطأت، وألوم نفسي على كوني امرأة شريرة، وعاهرة، وساقطة، ومُعكِّرة صفو السلام... والأصحّ، كنتُ سأضع اللوم على الفور على افتقاري إلى الجاذبية، وليس على نفور الرجل، وكنتُ سأبقى مُحطّمة على مدى أيام بسبب رفضه لي. لكنَّ الرجل يزعم أنَّ رفض المرأة مجرد جزء من لعبة. أو، على أية حال، مُعظم الرجل يزعمون ذلك. عندما يقول الرجل كلا، فلا ريب في رفضه. أما عندما تقول المرأة كلا، فإنها تعني نعم، أو على الأقلّ ربما. بل إنّ هناك نكتة حول هذا. وشيئاً فشيئاً، أخذت النسوة يُصدّقن هذا الرأي فيهنّ. وأخيراً، بعد مرور قرون من العيش في ظل مثل تلك الافتراضات، لم يعدنَ يعرفنَ ماذا يُردن ولم يتمكنَّ من اتّخاذ قرارات حول أي شأن. وطبعاً، فاقم الرجال المشكلة بالسخرية منهنّ بسبب ترددهن ووضعوا اللوم على علِم الأحياء، والهورمونات، والتوتّر السابق للطمث.

فجأةً أدركتُ - بعدما رماني ذلك الرجل بنظرته الشزراء - الخطأ الذي ارتكبت في حق أدريان والسبب الذي دفعه إلى هجري. وكسرت القاعدة الأساسية وقمت بملاحقته. وبعد مرور سنين من التخيلات حول الرجال دون أنْ أضعها موضع الإنجاز - وللمرة

الأولى في حياتي، عشتُ تخيلاتي. لاحقت رجلاً رغبتُ فيه بجنون، وماذا حدث؟ اضطربَ كالمعكرونة الرخوة ورفض عرضي.

رجال ونساء، ونساء ورجال. قلت في نفسي، لا فائدة. في الماضي عندما كان الرجال صيادين ويشعرون بالتفوُّق وتقضي النساء حياتهن في القلق حول الحمل أو يمتن في أثناء الوضع، كنَّ في الغالب يؤخذن رُغماً عنهنّ. كان الرجال يشتكون من أنَّ النساء باردات، وغير مُستجيبات، وجامدات... أرادوا من نسائهم أنْ يكنّ لعوبات. أرادوا من نسائهم أنْ يكنَّ جامحات. والآن تعلّمت النساء أخيراً أنْ يكنَّ لعوبات وجامحات - وماذا حدث؟ وَهَنَ الرجال. وأصبح وضعهم ميؤوساً منه. لقد اشتهيتُ أدريان ولم أكن قد اشتهيت أحداً غيره قبل ذلك، وشدّة حاجتي ألغتْ حاجته. وكلما أظهرتُ شغفي، أصبح هو أكثر برودة. وكلما غامرت بوجودي معه، قلّتْ رغبته في المغامرة بالظهور معي. أكان الأمر بهذه البساطة؟ هل وصل الأمر كله إلى ما كانت أمي قد أخبرتي به قبل سنين حول «الاجتهاد للحصول على ما أريد»؟ لقد بدا صحيحاً أنَّ الرجال الذين أبدوا ليّ أشدّ الحب هم الذين كانت صِلتي بهم عابرة. ولكن ما الممتع في *ذلك*؟ ما العبرة؟ أما كان في وسعكِ أنْ تجمعي الحب والجنس معاً، ولو لفترة وجيزة على الأقلّ؟ ما معنى هذه الخسائر المتوالية المستمرة، هذه الدورة المتواصلة من الرغبة واللامبالاة، واللامبالاة والرغبة؟

كانِ ينبغي أنْ أعثر على فندق. الوقت متأخر والدنيا ظلام وحقيبتي لم تشكل فقط عائقاً كبيراً، بل فاقمت من مظهري المُغري. كنتُ قد نسيت مدى سوء وضع المرأة الوحيدة - النظرات الشزراء، وصيحات الاستهجان، وعروض المساعدة التي لا أجرؤ على قبولها خشية أنْ تصبح دَيناً جنسياً. إنه الإحساس الفظيع بالضعف. لا عجَبَ أنني

تنقلت من رجل إلى آخر وأنّ الأمر كان دائماً ينتهي بي إلى الزواج. كيف أمكنني أنْ أترك بينيت؟ كيف نسيت؟

جررتُ حقيبتي البطيئة وأنا أتجول في أرجاء رو دو لارب (حيث ظلال صديقة تشارلي سالي) ودُهشتُ عندما عثرتُ على غرفة في أول فندق ولجته. كانت الأسعار قد ارتفعت بصورة حادة منذ المرة الأخيرة التي زرته فيها وأعطوني آخر غرفة متبقّية في أعلى طابق (مسافة ارتقاء مؤلمة مع تلك الحقيبة). كان المكان شرك للنار[٢]، أشرتُ بهذا إلى نفسي باستمتاع مازوشي، وكان الطابق الأعلى هو الموقع الأكثر احتمالاً أنْ أُحتَجَز فيه. وتزاحمت أنواع شتى من الصور إلى ذهني: زيلدا فيتزجيرالد تحتضر في حريق مصحّة (كنتُ قد قرأتُ ذلك تواً في سيرة لحياتها): غرفة الفندق القذرة في فيلم *«على آخر نَفَس»*[٣]؛ والدي يُحذّرني بجديّة قبل أنْ أقوم بأول رحلة من دون مُرافقَة إلى أوروبا وأنا في التاسعة عشرة من أنه قد شاهد فيلم *«على آخر نَفَس»* وعرفَ ما حدث للفتيات الأميركيات في أوروبا: وبينيت وأنا نتشاجر بمرارة في باريس قبل مضيّ خمسة أعياد ميلاد: وبيا وأنا ننزل في ذلك الفندق

---

٢ - شرَك النار: موقع من مبنى مُعرَّض للحريق ويُصعب الفرار منه. - المترجم

٣ - «على آخر نَفَس»: فيلم فرنسي للمخرج جان لوك غودار. إنتاج عام ١٩٦٠. أحد أوائل أفلام الموجة الجديدة في فرنسا. قبل ذلك بعام، وضمن تلك الموجة كان قد عُرِضَ فيلم «٤٠٠ ضربة» لفرانسوا تروفو، و«هيروشيما، يا حبيبي» لآلان رينيه. جذب الفيلم الانتباه لجرأة إبداعه البصري الجديد. ويحكي عن شاب فرنسي مجرم وصايع يقتل رجل شرطة ويفرّ ليختبئ عند صديقته الأميركية باتريسيا التي كان يغويها ويحاول أنْ يقترض المال للرحيل إلى إيطاليا. بعد ذلك تخبره بأنها حامل منه قبل أنْ يعترف لها بما فعل. وفي مرحلة لاحقة تُفشي أمره للشرطة لكنها تعترف له بما فعلتْ قبل وصولهم. في أول الأمر يرضخ للحكم عليه بالسجن مدى الحياة، لكنه يهرب منهم في الشارع، وبعد مطاردة طويلة تطلق الشرطة النار عليه وهو على آخر نفَس. - المترجم

نفسه عندما كنا معاً في سن العشرين، ورحلتي الأولى إلى باريس وأنا في الثالثة عشرة (حين نزلتُ في جناح ممتاز في فندق جورج الخامس مع والديّ وأخواتي، وكلنا غسلنا أسناننا بالمياه المعدنية)؛ وقصص جدّي حول عيشه على أكل الموز في باريس عندما كان طالباً فقيراً؛ ورقص أمي عارية في غابة بولونيا (كما قالت)...

فرِحتُ للوهلة الأولى لحُسن حظي لأنني عثرتُ على مكان أنزل فيه، ولكن عندما شاهدت الغرفة على أرض الواقع وأدركتُ أنْ عليّ أنْ أقضي الليل وحدي هناك، غاص قلبي بين أضلعي. كانت في حقيقة الأمر نصف غرفة يقسمها لوح من رقائق الخشب (يعلم الله ماذا كان في الجانب الآخر) وهناك سرير مفرد رخو مكسو بغطاء مُطبَّع عليه طبقة كثيفة من الغبار، والجدران مغطاة بورق قديم مُخطط عليه كثير من البقع وألوانه باهتة.

جررتُ حقيبتي إلى الداخل وأغلقت الباب. عبثتُ قليلاً بالقفل قبل أنْ أتمكن من فتحه. وأخيراً، غصتُ في السرير وطفقتُ أبكي. كنتُ واعية لرغبتي في أنْ أذرف مُحيطاً من الدموع وأغرق فيه. ولكن حتى دموعي كانت محبوسة. كانت في معدتي كتلة معيَّنة جعلتني لا أكفّ عن التفكير في بينيت. وكأنّ سُرَّتي مُتّصلة بسُرّته لكي لا أغرق في الدموع من دون أنْ أتساءل وأقلق بشأنه. أين هو؟ ألا أستطيع حتى أنْ أبكي بشكلٍ لائق إلى أنْ أعثر عليه؟

إنّ أغرب شيء في البكاء (لعلّ هذه سِمةٌ حملتُها من عهد الطفولة) هو أننا لا نستطيع أبداً أنْ نبكي بحُرقة من دون مُستمع يُصغي إلينا – أو على الأقلّ مُستمع مُحتَمَل. إننا لا نستسلم إلى البكاء استسلاماً يائساً كما نشاء. لعلنا نخشى أنْ نغرق تحت سطح الدموع خوفاً من ألّا نجد من يُنقذنا. أو لعلّ الدموع هي شكل من التواصُل – كالكلام – ويتطلّب مُستمعاً.

يجب *أن تبكي*، قلتُ هذا لنفسي. لكنني كنتُ قد بدأتُ تواً أشعر بأنني انتقل إلى مرحلة إحساس بالرعب استدعت ذكرى رعب أسوأ ليلة في طفولتي. شعرتُ بشيء في داخلي يتزلقُ عائداً بالزمن على الرغم من احتجاج ذاتي الراشدة، العاقلة. *أنت لست طفلة*، قلت بصوت عال، لكنْ وجيب قلبي القوي المجنون استمر. كان العَرَق البارد يُسربلني. جلستُ بثبات على السرير. كنتُ أعرف أنني بحاجة إلى اللجوء إلى المرحاض، لكنني لم أفعل بسبب خوفي من مغادرة الغرفة. كنت بحاجة ماسّة إلى التبوُّل، لكنني خشيتُ أنْ أخرج إلى المرحاض. بل إنني لم أجروْ على نزع حذائي (خوفاً من أنْ يقبض الرجل القابع تحت السرير على قدمي). لم أجروْ على غسل وجهي (مَنْ يدري ما الذي يكمن لي خلف الستارة؟). خُيِّل إليّ أنني رأيتُ شكلاً يتحرّك على المصطبة خارج النافذة. أشباح سيارات من الأضواء تتعارض على السقف. ماء المرحاض يتدفق في الرواق فأجفل. كانت هناك آثار أقدام على طول الرواق. بدأتُ أتذكر مشاهد من قصة *«جرائم في شارع المشرحة»*[4]. تذكّرت بعض الأفلام من دون عناوينها كنتُ قد شاهدتها في التلفاز وأنا في حوالي عمر الخامسة. وفيها مصّاص دماء بمكنه أنْ يخترق الجدران. ولا يمكن لأي قفل أنْ يمنعه من ذلك. تخيّلته يخفق داخلاً وخارجاً من ورق الجدران القذر والمُبقّع. ومن جديد استنجدتُ بذاتي الراشدة طلباً للعون. حاولتُ أنْ أكون منتقدة وعقلانية. كنتُ أعلم ما الذي يُمثّله مصّاصو الدماء. كنت أعلم أنّ الرجل القابع تحت السرير يمثّل أبي جزئياً. فكّرتُ في كتاب غروديك *«كتاب الشيء»*. إنّ الخوف من الدخيل يمثّل رغبة في وجود دخيل. فكّرتُ في كل الجلسات مع الدكتور هابه التي تحدثنا في أثنائها عن ما ينتابني من رعب في أثناء الليل. تذكّرتُ تخيلاتها في عهد المراهقة

٤ - عنوان قصة قصيرة للروائي الأميركي إدغار آلن بو. - المترجم

بأنّ رجلاً غريباً يطعنني أو يُطلق الرصاص عليّ. أتخيّل أنني جالسة على طاولة المكتب أكتب وإذا بالرجل يُهاجمني دائماً من الخلف. مَن كان الرجل؟ لماذا كانت حياتي مسكونة بأشباح رجال؟

في إحدى آخر قصائدها اليائسة، تساءلت الشاعرة سيلفيا بلاث، «أما من سبيل للخروج من العقل؟». إنْ كنتُ أسيرة، فأنا أسيرة مخاوفي. كان رعبي من الوحدة هو مُحرّك كل شيء. أحياناً كان يبدو أنني مستعدة لأية تسوية، أنْ أتحمّل أي خزي وألازم أي رجل شريطة ألا أبقى وحدي. ولكن لِمَ؟ ما الشيء الرهيب في الوحدة؟ *حاولي أن تفكري في الأسباب*، هذا ما قلت لنفسي، *حاولي*.

أنا: «لِمَ كانت الوحدة فظيعة؟».

أنا: «لأنه إنْ لم يُحبني أي رجل فأنا بلا هوية».

أنا: «ولكن من الجليّ أنَّ هذا غير صحيح. أنت تكتبين، والناس يقرؤون أعمالك وهم يهتمون بها. وتعلّمين وطلابك يحتاجون إليك ويحبونك. ولديك أصدقاء يحبونك. حتى والديك وأخواتك يحبونك - على طريقتهم الخاصة».

أنا: «لا شيء من هذا يعني أي شيء وأنا في وحدتي. فأنا بلا رجل. أنا بلا طفل».

أنا: «لكنكِ تعلمين أنَّ الأطفال ليسوا منيعين ضد الوحدة».

أنا: «أعلم».

أنا: «وتعلمين أنَّ الأطفال لا ينتمون إلى والديهم إلا لفترة موقتة».

أنا: «أعلم».

أنا: «وتعلمين أنَّ الرجال والنساء لا يمكن أنْ يمتلك أحدهما الآخر بصورة تامة».

أنا: «أعلم».

أنا: «وتعلمين أنكِ تكرهين أنْ تقبلي رجلاً يمتلكك بصورة كاملة ويحتل مساحتك التي تتنفسين منها...».

أنا: «أعلم - لكنني أتوق إلى ذلك بيأس».

أنا: «لكنكِ إذا حصلتِ عليه، فسوف تشعرين بأنكِ أسيرة».

أنا: «أعلم».

أنا: «أنت تريدين أشياء متناقضة».

أنا: «أعلم».

أنا: «تريدين الحرية وتريدين أيضاً العلاقة الحميمة».

أنا: «أعلم».

أنا: «نادرون هم الذين يعثرون على هذا».

أنا: «أعلم».

أنا: «لماذا تتوقعين أنْ تكوني سعيدة في وقت مُعظم الناس ليسوا كذلك؟».

أنا: «لا أعلم. أعلم فقط أنني إذا توقفت عن التوق إلى الحب، عن توقّعه، وعن البحث عنه، فإنّ حياتي سوف تستمر مُسطّحة كصدر مُصاب بالسرطان بعد إجراء عملية استئصال جراحية. إنني أقتات على هذا الأمل. أنمّيه. وهو يُساعدني على الحياة».

أنا: «ولكن ماذا عن التحرُّر؟».

أنا: «ماذا عنه؟».

أنا: «هل تؤمنين بالاستقلال؟».

أنا: «أؤمن».

أنا: «إذن؟».

أنا: «أعتقد أنني سأتخلى عنه، وأبيع روحي، ومبادئي، ومعتقداتي، من أجل رجل واحد يُحبني حقاً...».

أنا: «*مُنافقة!*».

أنا: «معكِ حق».

أنا: «لستِ أفضل من أدريان!».

أنا: «معكِ حق».

أنا: «ألا يُزعجكِ أنْ تكتشفي النفاق في نفسك؟».

أنا: «يُزعجني».

أنا: «إذن لِمَ لا تكافحينه؟».

أنا: «أكافحه. إنني أكافحه الآن. لكنني لا أعلم مَنْ منا سينتصر».

أنا: «تذكَري سيمون دو بوفوار!».

أنا: «أنا أحبُّ جَلَدَها، لكنَّ كتبها مملوءة بسارتر، سارتر، سارتر».

أنا: «تذكَري دوريس ليسينغ!».

أنا: «إنَّ آنا وولف لا تقذف إلا وهي عاشقة... ماذا يمكن أنْ يُقال أكثر من هذا عنها؟».

أنا: «تذكَري سيلفيا بلاث!».

أنا: «إنها ميتة. مَنْ يرغب في حياة أو موت كاللذين مرّت بهما حتى وإنْ أصبحت قديسة؟».

أنا: «ألستِ مستعدة للموت من أجل قضيّة؟».

أنا: «وأنا في العشرين، نعم، ولكن ليس وأنا في الثلاثين. أنا لا أؤمن بالموت من أجل القضايا. لا أؤمن بالموت من أجل الشعر. ذات يوم تولّهت بالشاعر كيتس لأنه مات شاباً. أما الآن فأعتقد أنَّ من الأشجع أنْ يموت المرء عجوزاً».

أنا: «حسن - تذكَري كوليت!».

أنا: «مثالٌ جيد. لكنها مثال نادر».

أنا: «حسن، لِمَ لا تحاولين أنْ تقتدي بها؟».

أنا: «أحاول».

أنا: «الخطوة الأولى هي أنْ تتعلمي أنْ تكوني وحدك...».

أنا: «نعم، وعندما تتعلمين ذلك جيداً *جداً*، ستنسين كيف تكونين منفتحة للحب هذا إنْ صادفته *أصلاً*».

أنا: «مَنْ قال إنَّ الحياة سهلة؟».

أنا: «لا أحد».

أنا: «إذن لِمَ أنتِ خائفة إلى هذه الدرجة من الوحدة؟».

أنا: «إننا ندور في دوائر مُفرغة».

أنا: «هذه واحدة من مشاكل الوحدة».

لم أتمكن، وقد تولاني اليأس، من تخيُّل نفسي خارج ذلك الرعب. أصبح تنفُّسي لهاثاً قصيراً وأخذَ العرقُ يتصبب مني بغزارة. وأقول لنفسي، *حاولي أنْ تصفي الرعب، تظاهري بأنك تكتبين. تكلّمي بلسان الغائب*. ولكن هذا مستحيل. إنني أغوص في قلب الرعب. كأنَّ خيولاً جامحة تُفتتني إرباً وكأنَّ ذراعيَّ وساقيَّ تتطاير كلٌّ في اتجاه. إنَّ صوراً فظيعة من التعذيب تمسسني. قادة الحرب الصينيون يسلخون جلود أعدائهم وهم أحياء. جان دارك أُحرقَتْ على الخازوق. البروتستانت الفرنسيون مُزّقوا إرباً على الدولاب. محاربو المقاومة اقتُلعَتْ عيونهم. النازيون يُعذّبون اليهود بالصدمات الكهربائية، والإبر، وبإجراء «عمليات جراحية» بدون استخدام مُخدّر. جنوبيون يعدمون السود من دون محاكمات. جنود أميركيون يقطعون آذان الفيتناميين. هنود يُعذبون. إنَّ تاريخ الجنس البشري كله مُضرّج بالدماء الجارية والمتخثّرة وتتردد في أرجائه أصداء صراخ الضحايا.

أُغمضُ عينيّ بإحكام، لكنَّ المشاهد تتكرر داخل جفنيّ المحمومين. أشعر كأنني سُلختُ وأنا حيّة، كأنَّ أحشائي مكشوفة

للعراء، كأنَّ قمة رأسي نُسفَ وحتى مخّي أصبح مكشوفاً. وكل طرف من أطراف أعصابي لا يئِنّ إلا الألم. الألم هو الحقيقة الوحيدة. أقول، هذا غير صحيح! تذكّري أيام السرور، والسعادة بالحياة، عندما كنتِ تشعرين بفرح غامر حتى الانفجار. لكنكِ لا تتذكرين. إنني مُسمَّرة على صليب مُخيّلتي. ومخيّلتي فظيعة كتاريخ العالم.

أتذكّر رحلتي الأولى إلى أوروبا وأنا في عمر الثالثة عشرة. أمضينا ستة أسابيع في لندن في زيارة أقربائنا الإنكليز، ومشاهدة المناظر الطبيعية، وتكديس فواتير بمبالغ ضخمة في كمبريدج التي، كما قال والدي، «كان يُسدد قيمتها العم سام...». كم كان فاحش الثراء. لكنني أمضيت رحلتي شاعرة بالرعب من أدوات التعذيب التي شاهدتها في برج لندن ومشاهد الرعب التي نُفِّذت بالشمع في متحف مدام توسو. ولم أكن قد رأيتُ قبل ذلك أدوات عصر الأصابع والمخلعات. لم *يخطر في بالي* قط أنها موجودة.

سألتُ أمي: «أما زال الناس يستخدمون هذه الأشياء؟».

«كلا، يا حبيبتي. لم يستخدموها إلا في الماضي السحيق عندما كان الناس أكثر بربرية. لقد أحرزت الحضارة تقدُّماً منذ ذلك الحين».

كانت الدنيا متحضّرة في عام ١٩٥٥، بعد المحرقة النازية بعقد من الزمان أو نحوه؛ كانت فترة من التجارب النووية وزيادة المخزون الاحتياطي؛ وكان قد مرَّ عامان على الحرب الكوريّة، وبُعيد بداية ذروة ملاحقة المنشقين الشيوعية، مع لوائح سوداء تحتوي أسماء العديد من أصدقاء والديّ. لكنَّ أمي أصرَّتْ، وهي تملّس أغطية الكتّان الأصلية التي كنت أرتعش بينها، في تلك الليلة الماطرة في لندن، على كلمة حضارة. كانت تحاول أنْ توفر عليّ سماع ذلك. فإن كان سماع الحقيقة لا يُحتَمَل، فسوف تكذب عليّ.

قلت، وأنا أُغمض عينيّ، «عظيم».

والعم سام، الذي اقتطع ضرائب من العديد من الأشياء، كان قبل عامين من ذلك فقط قد أعدم بالصدمة الكهربائية آل روزنبرغ باسم الحضارة. فهل مدة عامين تُعتبر ماضٍ سحيق؟ وتآمرتُ مع أمي على أنْ نتظاهر بأنهما كذلك ونحن نتعانقُ قبل أنْ نُطفئ الأنوار.

ولكن أين كانت أمي حينئذ؟ إنها لم تنقذني في الماضي ولم تتمكن من إنقاذي حينئذ، ولكن لو أنها فقط ظهرت، لتمكنتُ من قضاء الليل بسلام؛ من الاستمرار ليلة بعد ليلة. ليت كان في استطاعتي أنْ أعتقد كما اعتقدت سكارليت أوهارا[٥] أنّ غداً يوم آخر.

---

٥ - سكارليت أوهارا: بطلة رواية «ذهب مع الريح» لمارغريت ميتشل. في المشهد الأخير من الرواية، وعلى الرغم من كل المصائب والنوائب التي تنزل بالبطلة، بالإضافة إلى فقدان الرجل الذي أحبّت، تقول جملتها الشهيرة «غداً يوم آخر» التي تنطوي على أمل جديد. - المترجم

(١٧)

مصنع الأحلام

يبدو لي الأمر كما يلي: إنه شيء فظيع - أعني قد يكون فظيعاً، لكنه ليس مُدمّراً، لن يقتلنا أنْ نستغني عن شيء واحد نحتاج إليه حاجة ماسّة... الفظيع هو أنْ نتظاهر بأنّ الرديء جيد، بأننا لا نحتاج إلى الحب ونحن نحتاج إليه ؛ أو بأننا نحب عملنا ونحن نعلم عِلم اليقين أنّ باستطاعتنا أنْ نقوم بعمل أفضل منه.

• - دوريس ليسينغ من كتاب «المفكّرة السوداء».

عندما تأكّدتُ من أنني لن أستغرق في النوم، قررتُ أنْ أنهض. وبما أنني ارِقةَ متمرّسة، كنتُ أعرف أحياناً أنّ الطريقة الناجعة لقهر الأرق هي بالدهاء: بالتظاهُر بأنني لا آبه بالنوم. ثم أحياناً تُجرَح كبرياء النوم، كالعاشق المرفوض، ويزحف مُحاولاً إغواءك.

جلستُ معتدلة على السرير، وثبّتُ شعري بالمشبك، ونزعت ملابسي القذرة. ثم مشيت إلى الستارة، وأزحتها جانباً بكثير من الشجاعة الزائفة، ونظرتُ حولي. لا أحد. باعدتُ ساقي وأنا أجلس على المبولة وتبوّلت بغزارة فيها، وأنا مندهشة من المسافة التي قطعتها دون أنْ أفرِغ مثانتي. ثم شطفت ملتقى فخذي المتقرّح واللزج

ونظّفت المبولة. رششتُ وجهي بماء الحنفية واغتسلت كعادتي بقطعة من الإسفنج. سالت القذارة على ذراعيّ كما كان يحدث وأنا طفلة عندما كنتُ ألعب خارج المنزل طوال النهار. وذهبت لأجرّب القفل على الباب لأتأكد من أنه آمن.

عندما سعل أحدهم في الغرفة المجاورة، كدتُ أرتطم بالسقف من عزم الإجفال. *اهدئي*. هكذا أمرتُ نفسي. لكنني وعيتُ بصورة غامضة أنّ مقدرتي على النهوض والاغتسال كان على الأقلّ دلالة على الحياة. إنّ المجانين الحقيقيين يكتفون بالاستلقاء ويتبولون ويتبرزون على أنفسهم. هذا مُريح بعض الشيء. كنتُ أتشبّثُ بقشّة. *إنكِ أفضل حالاً من غيرك*، قلت هذا وكان لا بد من أنْ أضحك.

وقفتُ، وأنا عارية ومتسلّحة بقدرٍ من الشجاعة بفعل كوني أكثر نظافة، أمام المرآة المتقشّرة ذات الطوّل الكامل. كانت بشرتي تحمل أغرب نوع من حروق الشمس من أيامنا التي أمضيناها في قيادة السيارة المكشوفة. كانت رُكبتاي وفخذاي حمراء اللون ومتقشّرة. وأنفي ووجنتاي محمرّة. وكتفاي وساعداي محروقة حتى الجفاف. لكنّ باقي جسمي كان تقريباً أبيض اللون. أشبه بلحاف مُرقّع غريب الشكل.

حدّقتُ إلى عينيّ، تُحيط بهما دوائر بيضاء بسبب وضع النظارات الشمسية على مدى أسابيع. لماذا لا أستطيع أبداً أنْ أُقرر ما هو لون عينيّ؟ أهذا أمرٌ هامّ؟ هل هذا بصورة ما أساس مشكلتي؟ إنه لون أزرق مشوب باللون الرمادي مع نمش أصفر. اللون ليس أزرق صافياً، وليس رمادياً نقياً. إنه أزرق أردوازي، حسب قول براين، وشعرك بلون القمح. «شعر قمحي»، كان يقول، وهو يُداعبه. كان لبراين عينان بأغرب لون بنيّ رأيته في حياتي – عينان كعينيّ قديس بيانطي مرسوم بالفسيفساء. عندما ينهار عصبياً يُحدق إلى عينيه في المرآة

على مدى ساعات. كان يُشعل الأضواء ويُطفئها كطفل، لكي يُفاجئ بؤبؤي عينيه وهما يتمددان. حينئذ كان يتحدث حرفياً عن عالم من المرايا، عالم غير مادي يمكنه أنْ يخترقه. كانت عيناه هما مفتاح ذلك العالم. كان يؤمن بأنّ روحه يمكن امتصاصها من خلال بؤبؤي عينيه كما يُمتصّ الزُّلال من بيضة مثقوبة.

تذكّرتُ كيف انجذبتُ إلى جنون براين، وكيف فُتنتُ بمُخيلته. في تلك الأيام لم أكن أؤلف قصائد سُريالية بل قصائد تقلَيدية، وصفيّة، مُفعمة باللعب بالكلمات ببراعة مفرطة. ولكن لاحقاً، عندما بدأتُ أغوص أعمق وأسمح لمُخيلتي بمساحة أكبر من الحرية، غالباً ما كنتُ أشعر بأنني أرى العالم من خلال عينيّ براين وبأنّ جنونه هو مصدر إلهامي. شعرت كأنني جُننتُ معه ومن ثم شُفيتُ. إلى هذه الدرجة كنا متقاربَين. وإنْ شعرتُ بالذنب، فذلك لأنه كان باستطاعتي أنْ أهبط ومن ثم أرتقي من جديد، في حين أنه كان أسير الشرك. كأنني دانتي وكأنه أوغولينو (إحدى الشخصيات المُفضّلة لديه من كتاب «*الجحيم*») وكان باستطاعتي أنْ أعود من الجحيم وأحكي حكايته، وأكتب الشعر الذي استلهمت من جنونه، في حين أنه كان مغموراً تماماً به. اتّهمَت نفسي، *إنك تمتصين الجميع حتى الجفاف، إنك تستغلين الجميع*. فأجبتُ نفسي، *إنّ الجميع يستغلون الجميع*.

تذكرتُ شعوري الرهيب عندما فصمْتُ زواجي من براين وتبيَّنَ لي أنني شعرتُ بأنني *أستحق* أنْ أمضي ما تبقّى من حياتي غارقة في الجنون. كان والـدايّ ووالدا براين والأطباء قد أخافوني منه. قال طبيب براين النفسي: *أنت لم تتجاوزي الثانية والعشرين؛ لا يمكنك أنْ تهدري حياتك*. وقاومته. اتّهمته بخيانتنا معاً، بخيانة حبّنا. وبقيتْ حقيقة أنه كان يمكن بسهولة أنْ أبقى مع براين لو لم يتدخّل عامل المال واحتجاجات الوالدين. شعرتُ بأنني أنتمي إليه. شعرتُ بأنني أستحق

أنْ أفقد حياتي بتلك الطريقة. حينئذ لم أشكّ أبداً في أنَّ لديّ حياة خاصة، ولم أكن بارعة في هجر الأشخاص، مهما أساؤوا معاملتي. كان هناك دائماً شيء داخلي يصرّ على إعطائهم فرصة أخرى. أو ربما كان ذلك جُبناً؛ نوعاً من شلل الإرادة. بقيتُ ودوَّنتُ غضبي بدل أنْ أتصرّف بدافع منه. كان هجري لبينيت أول عمل مستقل حقاً أقوم به، وحتى حينئذ كان جزئياً بسبب أدريان والهوس الجنسي الجامح الذي شعرت به نحوه.

كان جلياً أنَّ من الخطر أنْ يُحدّق المرء إلى عينيه في المرآة طويلاً. تراجعتُ لأتفحّص جسمي. أين ينتهي جسمي وتبدأ الهالة التي تُحيط به؟ كنتُ قد قرأتُ في مقالة عن صورة الجسم أنّنا في أوقات التوتّر - أو النشوة - نخسر حدود أجسامنا؛ ننسى أننا نملكها. كان إحساساً طالما انتابني وأصبح جزءاً هاماً من إحساسي بالرعب. الألم الممضّ، أيضاً، كان يمكن أنْ يُثيره. وكانت ساقي المكسورة قد أفقدتني التواصُل مع حدود جسمي. كان ذلك مفارقة: إنَّ ألم الجسد المُمضّ أو المتعة الجسدية الصارخة تجعل المرء يشعر كأنه ينزلق من جسده.

حاولت أنْ أتفحّص جسدي، أنْ أقيّمه لكي أتذكّر هويتي - إنْ كان يمكن حقاً أنْ أقول إنه أنا. تذكّرت قصة عن ثيودور روثكه وهو وحده في منزله القديم والكبير، يرتدي ملابسه وينزعها أمام المرآة، ويتفحّص عُريه بين فترات الكتابة. لعل القصة مشكوك فيها، أما أنا فوجدت أنها مُحاطة بهالة من الحقيقة. إنَّ جسد المرء يتّصل بصلة حميمة مع كتابته، على الرغم من أنَّ طبيعة التواصل الدقيقة مُرهفة وقد يستغرق فهمها أعواماً. إنَّ بعض الشعراء النحيلين وطوال القامة يكتبون قصائد قصيرة وبدينة. ولكنْ هذا ليس مسألة بسيطة تتعلّق بقانون التحول المُعاكس. إنَّ كل قصيدة هي، بمعنى ما، محاولة لتوسيع حدود جسد

المرء. تُصبح حدود جسد المرء مشهداً طبيعياً، سماءً، وأخيراً كوناً. لعلّ هذا هو السبب في أنني غالباً ما أجد نفسي أكتب وأنا عارية.

خلال رحلتنا الغربية فقدتُ قدراً من وزني لكنني بقيتُ أشدّ بدانة بكثير بالنسبة إلى الموجة السائدة؛ لم أكنْ بدينة ولكن فقط ممتلئة بمقدار عشرة أرطال بحيث أعجز عن ارتداء البكيني. ثديان متوسطا الحجم، مؤخرة كبيرة، سُرّة عميقة. بعض الرجال يدّعون انهم مُعجبون بقوامي. كنتُ أعلم (كما يعلم المرء أشياء لا يصدّقها حقاً) أنني أُعتَبر جميلة وأنّ البعض يعتبرون حتى مؤخرتي الضخمة جذّابة، لكنني كنتُ أمقت كل قطعة من الدهن الزائد. ولطالما كنتُ مُناضلة طوال حياتي: يزيد وزني، ثم أخسره، ويزيد من جديد وأكثر. لقد كانت كل قطعة زائدة من الدهن برهاناً على ضعفي، وكسلي، وانغماسي في الملذات. كل قطعة دهن زائدة برهنت على أنني كنتُ مُحقّة في كراهيتي لنفسي، على أنني خسيسة ومُثيرة للاشمئزاز. كان للّحم الزائد صلة بالجنس - كنتُ أعلم هذا. في سن الرابعة عشرة، عندما أنزلت وزني بالجوع إلى ثمانٍ وتسعين رطلاً، كان ذلك بسبب إحساسي بالذنب فيما يخص الجنس. وحتى بعد أنْ فقدتُ كل ذلك الوزن الذي أردتُ أنْ أفقد - *وأكثر* - حرمتُ نفسي من الماء. أردتُ أنْ أشعر بأنني *فارغة*. وفيما عدا وخز الجوع الذي كان يضجُّ بقوة، كرهتُ نفسي بسبب انغماسي في الملذات. كان جلياً أنه وهم الحمل - كما كان جديراً بزوجي الطبيب النفسي أنْ يقول - أو ربما هو خوف من الحمل. لقد صدّقت في لا وعيي أنّ استمنائي لستيف سبّب لي الحبل وكنتُ أزداد هزالاً على هزال في محاولة لإقناع نفسي بأنّ الأمر ليس كذلك. أو لعلي كنتُ *أتوق* إلى الحمل، وصدّقتُ بسذاجة أنّ فتحات الجسد كلها متشابهة، وخشيتُ أنْ يعمل الطعام الذي أتناول عمل النُطف في أمعائي، وينمو منه جنين داخلي.

قُلْ لي ماذا تأكل أقلْ لك مَنْ أنت. *Mann ist was mann isst*.
لقد بدأتْ الحرب بين الجنسَين بغرز الذَّكَر أسنانه في تفاحة الأنثى. وأقنع بلوتو برسيفون بولوج الجحيم بإغوائها ببذور الرمّان. وحالما أكلتها أصبحت الصفقة أبدية. كان الأكل هو صكّ موت المرء. اغمضي عينيك وافتحي فمك. ثم أغلقيه. كُلي، يا حبيبتي، كُلي. كانت جدّتي تقول «فقط كُلي اسمك»، «اسمي كلّه؟»، أخذت تهجي «إ...» (وتناولني لقمة من الكبد كريه الطعم)... «زين...» (ولقمة من البطاطا المسحوقة والجزر)... «ألف...» (المزيد من الكبد، القاسي، المطبوخ أكثر من اللازم)... «دال...» (لقمة أخرى من البطاطا مع الجزر البارد)... «واو...» (قطعة من البروكولي الرخوة)... «راء...» (وترفع الكبد إلى فمي من جديد فأبتعد عن الطاولة)... وتصرخ في وجهي «سوف تُصابين بالهزال!». إنَّ كل فرد من أفراد عائلتي له تاريخ طويل من أمراض نقص التغذية (التي بقيت مجهولة في نيويورك على مدى عقود). لم تكن لدى جدتي أية خلفية ثقافية، لكنها تعرف أمراض الهزال، والإسقربوط، وداء الذُّرة، وكساح الأطفال، وداء الشعرية، والديدان المستديرة، والديدان الشريطية... وكل ما يخطر في بالك. كل ما يمكن أنْ تُصاب به من الأكل وعدم الأكل. في الواقع لقد أقنعَتْ أمي بأنني إذا لم أواظب على شرب كوب من عصير البرتقال في كل يوم، فسوف أُصاب بمرض الإسقربوط، وكانت على الدوام تُمتعني برواية حكايات عن البحرية البريطانية والبحارة. البحار الإنكليزي. قُلْ لي ماذا تأكل أقلْ لك مَنْ أنت.

تذكرتُ عمود الحمية الوارد في إحدى صحف بينيت الطبيّة. تبيَّنَ لي أنَّ الآنسة فلانة كانت تتبع حِمية صارمة تتألّف من ٦٠٠ وِحدة حرارية في اليوم على مدى أسابيع طويلة ومع ذلك فشلت في تخفيف وزنها. في أول الأمر اعتقد طبيبها المحتار أنها تغشّ، لذلك دفعها إلى

وضع لوائح دقيقة بكل ما تأكل. ولم يبدُ أنها تغش. سألها: «أأنتِ واثقة من أنك وضعت في القائمة كل ما ولج فمك؟»، سألت «ولج فمي؟»، قال الطَبيب بصرامة: «نعم». قالت: «لم أكن أعلم أنَّ *ذلك* يحتوي وحدات حرارية».

حسن، زبدة القول، طبعاً (والمجاز مقصود) هو أنها كانت عاهرة تبتلع على الأقلّ ما يُعادل عشرة إلى خمسة عشر ملء فم من المني في كل يوم والوحدات الحرارية في كل كمية قذف كبيرة كانت تكفي لإقصائها من قائمة مَنْ يُراقبون أوزانهم إلى الأبد. ماذا كان مقدار الوحدة الحرارية؟ لا أتذكّر. ولكن اتّضح أنّ مقدار عشرة إلى خمسة عشر كمية قذف يُعادل وجبة من سبعة أصناف في مطعم تور دارجان[1]، وإنْ كانوا يدفعون *لك* لتأكلي بدل أنْ تدفعي *أنت* لهم. إنّ الناس يجوعون في العالم أجمع بسبب افتقارهم للمواد البروتّينية. ليتهم يعلمون! إنّ حل مشكلة الجوع في الهند ومشكلة زيادة عدد السكان - يكمن في ابتلاع كمية قذف واحدة! إنّ كمية واحدة لا تحلّ المشكلة بالكامل، لكنها تُشكّل شرب كأس واحد جيد قبل النوم.

أليس مُحتمَلاً أنني في الحقيقة كنتُ أدفع نفسي إلى *الضحك*؟

قلت لنفسي العارية «هو هو هو».

ومن ثم، وبدافع من الزخم الذي اكتسبته من تلك الموجة الصغيرة من الفكاهة الزائفة، أدخلتُ يدي في الحقيبة وأخرجتُ دفاتري وأوراق عملي وقصائدي.

---

١ - مطعم تور دارجان: مطعم عريق، يُقال إنه تأسّس عام ١٥٨٢، وإنّ هنري الرابع كان يتردد عليه، لكنّ هذه المعلومات غير موثّقة. توارثته عدة عائلات على مدى قرون. وقد ذكره مارسيل بروست في روايته **«البحث عن الزمن الضائع»**، في الجزء المُسمّى **«في ظلال الفتيات المزهرات»**. - المترجم

قلت لنفسي: «سوف أحاول أنْ أفهم كيف وصلتُ إلى هنا». كيف انتهى بي الأمر عارية وملوّحة بأشعة الشمس كدجاجة غير ناضجة، في بؤرة قذرة في باريس؟ وبحق الجحيم إلى أين سأنتقل بعد ذلك؟

جلستُ على السرير، ونشرت دفاتري وقصائدي حولي، وباشرتُ بتصفُّح ملف أوراق ضخم يعود تاريخه إلى ما يُقارب أربع سنوات. لم يكن يتسم بنظام معيَّن. إنه خربشات يومية، وقوائم مشتريات، ولوائح رسائل يجب الإجابة عنها، ومسودات رسائل كُتِبَتْ بنبرة غضب لم تُرسَل أبداً، وقُصاصات مُلصَقَة من صحف، وأفكار لقصص، ومسودات أوليّة لقصائد - كل شيء مخلوط معاً، بفوضى شاملة، تكاد تعصى على القراءة. كانت المواد مكتوبة بأقلام حبر ذات رؤوس من اللباد بألوان متعددة. ولكن من جديد، لم يكن هناك نسق في الألوان. بدا أنّ الألوان المُفضَّلة هي الوردي الفاقع، وأخضر كيللي[٢]، وأزرق البحر المتوسط، ولكن كان هناك أيضاً الكثير من ألوان الأسود والبرتقالي والقرمزي. وكاد لون الأزرق القاتم الرصين أنْ يكون مفقوداً. ولا يوجد خط بقلم الرصاص. كنتُ بحاجة إلى الإحساس بتدفق الحبر من أطراف أصابعي وأنا أكتب. وأردتُ للفورة أنْ تدوم.

تصفّحت الأوراق بعنف بحثاً عن حل لمأزقي. كانت الصفحات الأولى من دفاتري تضم سرداً لأيامي في هايدلبرغ. هنا وصف موجِع لشجارات بيني وبين بينيت، وسجلات دقيقة لأسوأ المشاحنات، ووصف لتحليل شخصيتي مع الدكتور هابه، ووصف لكفاحي من أجل الكتابة. يا إلهي - كدتُ أنسى حينئذ كم كنتُ بائسة، ووحيدة.

---

٢ - الإشارة هنا إلى غريس كيللي (١٩٢٩ - ١٩٨٢): أميرة موناكو السابقة والممثلة الأميركية السابقة. - المترجم

نسيت كم كان بينيت بارداً تماماً وبخيلاً. لماذا ينبغي أنْ يكون الزواج السيئ افضل كثيراً من عدم الزواج؟ لماذا أتشبّث ببوسي بقوة؟ لماذا اعتقد أنه كل ما أملك؟

في أثناء قراءة الدفتر، أخذتُ أنجذب إلى محتوياته وكأنه رواية. بل كدتُ أنسى إنني أنا التي كتبتها. ثم بدأتُ أكتشف أمراً غريباً. لقد كففتُ عن لوم نفسي؛ هكذا بكل بساطة. لعلَّ هروبي في نهاية المطاف لم يكن مرجعه إلى الخبث من جانبي، ولا إلى خيانة أحتاج إلى الاعتذار عنها. لعله كان نوعاً من الولاء لنفسي؛ طريقة متطرّفة لكنها ضروريّة لتغيير حياتي.

ليس على المرء أنْ يعتذر على رغبته في امتلاك روحه الخاصة. إنَّ الروح تخصّ صاحبها - في السرّاء والضرّاء. وفي نهاية المطاف، لا يتبقّى له غيرها.

كان الزواج دقيقاً لأنه من بعض النواحي كان دائماً *folie a deux* (حماقة يشترك فيها اثنان). أحياناً يكاد لا يعرف أحد الزوجين أين تنتهي حماقاته وأين تبدأ حماقات نصفه الثاني. إنَّ المرء إما يُفرط في لوم نفسه، أو لا يلومها بالقدر الكافي، على أخطائها. ويخلط بين الاتّكال والحب.

تابعتُ القراءة ومع كل صفحة أزداد تفلسفاً. كنتُ أعلم أنني لم أرغب في العودة إلى قفص الزواج الموصوف في ذلك الدفتر. ولو أننا أنا وبينيت استأنفنا علاقتنا، لحدث ذلك في ظل ظروف مختلفة كثيراً. ولو لم نفعل، كنتُ أعلم أنني سأواصل حياتي.

لم يُضئ ذهني بسبب هذه المعرفة، ولا قفزتُ في الهواء وصرختُ «وجدتها»، بل جلستُ بهدوء أنظر إلى الصفحات التي كتبت. كنتُ متيقنة من أنني لا أريد أنْ أقع في الفخ الموجود في دفتري.

وكان شيئاً مُشجعاً أنْ ألاحظ كم تغيَّرتُ خلال السنوات الأربع الأخيرة. أصبحت قادرة الآن على نشر أعمالي. ولم أعد أخاف قيادة السيارة. وصرت قادرة على قضاء ساعات طوال وحدي وأنا أكتب. درَّست، ألقيت محاضرات، سافرت. وعلى الرغم من رُعبي من الطيران حينئذ، لم أسمح لذلك الخوف من السيطرة عليّ. قد أتغلب عليه تماماً ذات يوم. وإنْ كان بالإمكان تغيير بعض الأشياء، فيمكن أيضاً تغيير البعض الآخر. مَنْ أعطاني الحق لأتكهّن بالمستقبل وأنْ أفعل ذلك بطريقة عَدَميّة؟ ومع تقدّمي في العمر قد أتغيَّر بمائة طريقة وطريقة لم أكنْ لأتوقعها. كل ما كان عليّ أنْ أفعل هو أنْ أنتظر.

كان سهلاً جداً أنْ أقتل نفسي في نوبة يأس. كان سهلاً جداً أنْ ألعب دور الشهيدة. أما الأصعب فكان ألا أفعل أي شيء. أنْ أتحمّل حياتي. أنْ أنتظر.

نمت. أعتقد أنني في الواقع استغرقتُ في النوم ووجهي مضغوط على دفتري ذي اللولب. وأتذكر أنني استيقظتُ في الساعات الأولى من الصباح شاعرة باللولب مضغوطاً على جانب وجنتي. ثم أزحت الدفتر جانباً وعدتُ إلى النوم.

كانت أحلامي معقّدة. مملوءة بالمصاعد، والمنصات في الفضاء، ودرج شديد الانحدار وزلق، ومعابد آشورية وبابلية هرميّة كان عليّ أنْ أرتقي، وجبال، وأبراج، وأطلال... كان ينتابني إحساس غامض بأنني أعيّن لنفسي أحلاماً كنوع من العلاج. وأتذكّر أنني استيقظت مرة أو اثنتين ومن ثم عدتُ إلى النوم وأنا أفكر: «الآن سأشاهد الحلم الذي سيتّخذ القرار بالنيابة عني». ولكن ما هو القرار الذي كنتُ أبحث عنه؟ لقد بدا كل خيار غير مناسب على الإطلاق بصورة أو بأخرى. كل خيار يستثني خيارات أخرى. وكأنني كنتُ أطلب من أحلامي أنْ تُخبرني مَنْ أنا وماذا عليّ أنْ أفعل. كنتُ أستيقظ ووجيب قلبي يضرب

بقوة ومن ثم أعود من جديد إلى الاستغراق في النوم. لعلي كنتُ آمل أن استيقظ وقد أصبحت شخصاً آخر.

لا زلت احتفظ بمقاطع من تلك الأحلام. في أحدها، كنتُ أمشي على لوح ضيق من الخشب ممتد بين ناطحتيّ سحاب لكي أُنقذ حياة احدهم. حياة مَنْ؟ حياتي؟ حياة بينيت؟ حياة كلوي؟ الحلم لم يُبيّن ذلك. ولكن كان جلياً أنّني إذا فشلت، فسوف تنتهي حياتي. وفي حلم آخر، مددتُ يدي إلى داخلي لأخرِج الحجاب الواقي، وهناك، كانت عدسات لاصقة كبيرة تطفو فوق عنق الرحم. رحم يطل على مشهد طبيعي. في الحقيقة عنق الرحم كان عيناً؛ عيناً حسيرة.

ثم تذكّرتُ الحلم الذي عدتُ فيه إلى الجامعة استعداداً لتسلُّم شهادتي من ميليست ماكنتوش. ارتقيتُ درجاً طويلاً كأنما في معبد مكسيكي وليس في مكتبة لو Low. تمايلت وأنا بحذائي ذي الكعبّ العالي وانتابني القلق من التعثُّر بذيل ثوبي.

مع اقترابي من المقرأ وتقديم السيدة ماكنتوش الوثيقة لي، أدركتُ أنني لم أكن فقط أتخرَّج بل أتلقّى تكريماً خاصاً.

قالت السيدة ماكنتوش: «يجب أنْ أبلّغك أنَّ الكليّة لا تُحبّذ هذا». وعلمتُ حينئذ أنَّ المنحة الدراسية منحتني الحق في أنْ يكون لي ثلاثة أزواج في وقت واحد. جلسوا مع الجمهور يعتمرون قلنسوات سوداء ويلبسون أردية سوداء. بينيت، وأدريان، ورجل آخر لا أعرفه. كانوا جميعاً بانتظار أنْ يُصفّقوا عندما أتلقّى شهادتي.

قالت السيدة ماكنتوش: «غير أنَّ إنجازاتك الأكاديمية الرفيعة منعتنا من حبس هذا التكريم، لكنَّ الكليّة تأمل في أنْ ترتدّي عن خيارك».

قلت مُحتجّة: «ولكن ما السبب؟ لِمَ لا أستطيع أنْ أحتفظ بالثلاثة معاً؟».

بعد ذلك ألقيتُ خطاباً عقلانياً مُطوّلاً عن الزواج وحاجاتي الجنسية وعن كوني شاعرة وليس سكرتيرة. وقفتُ عند المقرأ ورحتُ أُعنِّف الجمهور. بدا الاستهجان الرصين على السيدة ماكنتوش. ثم رأيتني أهبط الدرج الشديد الانحدار، شبه جاثمة ومرعوبة من السقوط. نظرتُ في بحر الوجوه وأدركتُ فجأة أنني نسيتُ أنْ آخذ شهادتي. كنتُ أعلم وأنا مرعوبة أنني ألفّقُ كل شيء: التخرُّج، منحتي الدراسية، أزواجي الثلاثة.

الحلم الختامي الذي أتذكّر هو الأغرب. كنتُ أرتقي درج المكتبة من جديد لكي أتلقّى شهادتي. هذه المرة لم تكن السيدة ماكنتوش هي الواقفة عند المقرأ، بل كوليت. غير أنها كانت امرأة سوداء ذات شعر مُجعّد لونه يميل إلى الحُمرة يتألّق حول رأسها كالهالة.

قالت: «هناك طريقة واحدة للتخرُّج، ولا صِلة لها بعدد الأزواج».

سألتُ بيأس: «ماذا عليّ أنْ أفعل؟»، شاعرة بأنني لن أفعل أي شيء.

ناولتني كتاباً يحمل غلافه اسمي. قالت «إنَّ هذا مجرد بداية مترددة، ولكن على الأقلّ *بدأت*».

اعتبرتُ أنَّ هذا يعني أنه لا زال أمامي سنوات عديدة لأحقق شيئاً.

قالت، وهي تحلّ أزرار بلوزتها: «انتظري». وفجأة فهمتُ أنَّ ممارسة الجنس معها علناً هو التخرُّج الحقيقي، وأنَّ ذلك في تلك اللحظة بدا أشدّ الأشياء عاديّة في العالم. تقدّمتُ منها، وأنا مُثارة. ثم تلاشى الحلم.

(١٨)

أعراس الدم أو هكذا يمرّ

مشكلة النساء الحقيقية هي أنهنّ دائماً يُحاولن أنْ يتكيّفن مع نظريات الرجل حول المرأة.

• د.هـ. لورنس

استيقظت عند الظهيرة لأجد الدم ينزف من بين ساقيّ. إذا باعدت ما بين فخذيّ ولو قليلاً سيتدفق على الساقان ويُلوّث الفراش. أدركتُ، مع أني مُشوّشة ومرتبكة، أنني يجب أنْ أُبقي ساقيّ مضمومتين. أردتُ أنْ أنهض لأبحث عن فوط صحية، ولكن كان من الصعب النهوض عن ذلك السرير الرخو من دون أنْ أباعد ما بين ساقيّ ولو قليلاً. فقمتُ بالوقوف فجأة وإذا بالنزيف الأحمر القاني يشقّ طريقه على طول فخذيّ من الداخل. تلألأت بقعة قاتمة من الدم على الأرض. هرعتُ إلى حقيبتي مُخلفة أثراً من البقع المتلألئة. وشعرتُ بضغط ثقيل ومألوف في أسفل بطني.

قلت: «تباً»، وأنا أتلمّس مكان نظارتي لكي أتمكن من الرؤية والتفتيش عن الفوط الصحية. لكني لم أتمكن حتى من العثور على النظارة اللعينة. أقحمتُ يدي داخل حقيبتي وبدأت أتلمّس داخلها. وأخذت أرمي الملابس، بسخط، على الأرض.

صرخت «اللعنة». بدأت الأرض تبدو وكأنها ساحة لحُطام سيارة.

كيف سأنظّف كل تلك الدماء؟ لم أكن سأفعل. كنتُ سأفرّ هاربة من باريس قبل أنْ تعلم الإدارة بالأمر.

أية كمية من الخردة التافهة أحمل في حقيبتي. كان باستطاعتي أنْ أستخدم قصائدي كفوط صحية، أليس كذلك؟ رمزية رائعة. لكنها لسوء الحظ لا تمتص جيداً.

آه – ما هذا؟ إنه أحد قمصان بينيت الرياضية. طويته ليغدو أشبه بالفوطة الصحيّة وثبّتها بدبوس واحد (واحد فقط!) لكي لا تقع مِني – حسب الموضة. كيف سأغادر باريس وأنا أضعُ فوطة؟ سوف أُضطر إلى المشي ورُكبتاي مائلتان نحو الداخل. كل مَنْ سيراني سيعتقد أني بحاجة إلى التبوُّل. أوه يا إلهي – إنَّ الجريمة حتماً لا تفيد. ها أنا ذي أتساءل إن كان عقاب هربي مع أدريان سيكون حملاً تاماً بطفل لا أعرف كيف سيكون *لونه* وبدل ذلك *أنا* التي أضع فوطة. لِمَ لا أعاني على الأقل بكرامة؟ عندما يُعاني كتّابٌ آخرون تُصبح معاناتهم ملحمية أو كونيّة أو رائدة، ولكن عندما أعاني تكون معاناتي موضع سخرية.

خرجت وأنا أعرج إلى الرواق مرتدية معطفي المطري وأضمُّ رُكبتيّ معاً لأبقي الفوطة في مكانها. وفجأةً أتذكّر أنَّ كل ما يقفُ حائلاً بيني وبين العوز موجود في حقيبة يدي: جواز سفري، وبطاقة الأميركان إكسبريس، وشيكات السفر – وأعرج عائدة إلى الغرفة. ثم أخرج من جديد إلى الرواق، مضمومة الرُّكبتين، حافية القدمين، وأتشبّث بحقيبة يدي، أمسك مقبض باب المرحاض وأبدأ بإحداث قعقعة.

يأتيني صوت رجل مُحرَج «***Une moment, s`il vous plait***» (لحظة من فضلك). بنبرة أميركية. فقبل كل شيء كنا في شهر آب، وربما لا يوجد أي شخص فرنسي على بُعد *أميال* من باريس.

أقول، وأنا أُثبّت فوطتي في مكانها بفخذيّ: «لا بأس».

«Pardon?» (عفواً؟). لم يسمع ما قلت. إنه لا يزال يُحاول أنْ يؤلف جُملاً بالفرنسية وهو يعصر لإخراج آخر كتلة من البراز.

صرخت «لا بأس. أنا أميركية».

تلعثم «Je vien, je vien» (أنا قادم، أنا قادم).

«Je suis Americaine!» (أنا أميركية).

«Pardon?» (عفواً؟).

بدأ الأمر يُصبح مُحرِجاً. في تلك الحالة لن يعرف أي منا ماذا يفعل عندما سيخرج في نهايةِ المطاف. وأقرر أنْ أهرع إلى الباب المجاور وأُجرب ذلك المرحاض. فأعود أدراجي وأنا أعرج هابطة الدرج اللولبي. المرحاض الذي يقع في الطابق الأسفل لم يكنْ مُوصداً، ولكنه لا يحتوي أية أوراق، لذلك كان ينبغي أنْ أهبط طابقاً آخر. في الحقيقة، كنتُ قد بدأتُ أصبح جيدة في ذلك. كم نُظهِر من تكيُّف في لحظات التوتّر! كما حدث عندما كسرتُ ساقي وابتكرت كل تلك الأوضاع البارعة للمضاجعة بساق طويلة موضوعة في الجبس.

Voila! (ها هو!) الورق! ولكن يا له من ورق كريه! يمكن الحديث عن تاريخ العالم من خلال المراحيض - هذا المرحاض لا يُشبه في أي شيء الـ ***oubliette*** (مرحاض)، والورق يبدو أنه يحتوي بين تضاعيفه بق السرير. أوصدتُ الباب، وفتحت بصعوبة النافذة الصغيرة، ورميتُ منها قميص بينيت المُدمّى إلى الفناء (وأنا أفكر لبرهة في السحر بالتأثير وفي كل تلك العادات القبليّة المذكورة في كتاب **«الغصن الذهبي»**[1]... هل سيعثُر أحد العرّافين الأشرار على قميص

---

١ - **«الغصن الذهبي»**: لعله أشهر كتاب في مجاله. هو دراسة مُقارنة للميثولوجيا والسحر والدين من تأليف عالم في مجال علم الإنسان الاسكتلندي السير جيمس فريزر (١٨٥٤ - ١٩٤١)، وهو موجّه إلى الجمهور العريض، وكان تأثيره على الأدب الأوروبي هائلاً. - المترجم

بينيت الرياضي المُشبَّع بالدماء ويستخدمه ليرمي سحره على كلينا؟).
ثم جلستُ على المرحاض وبدأتُ أبتكر ما يشبه فوطة صحيّة بطبقات من ورق المراحيض لكي أستخدمها.

يا للتصرفات السخيفة التي تُجبرنا أجسادنا على القيام بها! فضلاً عن الانحناء والإسهال في مرحاض يفوح بالقذارة، لا أعرف أي شيء أكثر خزياً من المرور بدورتي الشهرية وأنا خاوية الوفاض من الفوط الصحيّة. والغريب في الأمر هو أنَّ شعوري لم يكن *دائماً* هكذا حيال الحيض. في الواقع كنتُ أتطلّع إلى حلول دورتي الأولى، كنتُ أتوق إليها، أرغب فيها، *أبتهل* كي تحصل. كنتُ أفتش عن كلمات مثل «الدورة الشهرية» و«الحيض» في القاموس. كنتُ أتلو صلاة قصيرة تقول: «*أرجوك دعني أحصل على دورتي الشهرية هذا اليوم*». أو، ولأنني كنتُ أخشى أنْ يسمعني أحد، كنتُ أكتفي بذكر الأحرف الأولى من كلمات هذه الصلاة، أرتّلها وأنا جالسة على مقعد المرحاض، وأقوم بتنظيف نفسي مراراً أملاً في أنْ أعثر على الأقلّ على بقعة صغيرة من الدم. ولكن لا شيء. وحصلتْ راندي على دورتها (أو «حاضت» حسب تعبير أمي وجدّتي المتحررتين) وكذا حصل مع كل الفتيات في الصف السابع عندما كنتُ فيه. *وأيضاً* في الصف الثامن عندما كنتُ فيه. كم أضحت الصدور ضخمة وصدريات العذارى مكوّرة وشعر العانة مجعّداً! وأية أحاديث مُثيرة حول أنواع الفوط الصحيّة، وخاصة أكثرها جراءة! ولكن لم يكن لديّ ما أساهم به في ذلك. في سن الثالثة عشرة لم أكن ألبس إلا «صدرية التدرُّب» (التدرُّب على ماذا؟) لم أكن أستخدم الحشو، لم يكن لديّ أكثر من مقدار ضئيل من الشعر المجعّد البنيّ المائل إلى الحمرة (وليس حتى أشقر، مع أني كنتُ شقراء طبيعية)، وبعض المعلومات عن الجنس جمعتها من فترات المشي الطويلة طوال الليل مع راندي وصديقتها الحميمة ريتا. وهكذا

استمرت صلواتي في أثناء الجلوس على المرحاض بالأحرف الأولى للكلمات.

ومن ثم، عندما بلغت الثالثة عشرة ونصف (أي كنتُ عجوزاً مقارنة بسن راندي البالغ عشرة ونصف)، «حصلتُ عليها» أخيراً وأنا على متن سفينة *Ile de France* وسط الأطلسي، في أثناء عودة العائلة من رحلة الاستجمام الأوروبية الفاحشة التكاليف (حتى بعد اقتطاع الضريبة).

كنا نحن الأربع نتقاسم حجرة داخلية في السفينة تقع بجوار غرفة المحركات (في حين احتل الوالدان قمرة خارجية على سطح السفينة) وفجأةً بلغت مرحلة الأنوثة بعد مغادرة الهافر بيومين ونصف. ماذا أفعل؟ بما أنه لا يُفترَض بلالا وكلوي (اللتين تتقاسمان سريراً واحداً) أن تعرفا ما حصل معي - لأنهما، في اعتقاد أمي، صغيرتان جداً في السن - ننطلق أنا وراندي فيما يشبه رحلات التآمر إلى الصيدلية لنتزود ونجوس في أرجاء القمرة بحثاً عن أماكن للاختباء. طبعاً أنا في غاية السعادة بلعبتي الجديدة وبحسّ التميز الجديد في عالم البالغين حتى إنني أغيّر الفوط الصحية مرات عديدة في اليوم الواحد، ونستخدمها أسرع مما نشتريها. وتأتي لحظة الحقيقة عندما يكتشف الخادم (هو فرنسي يتلقّى الكثير من الانتقاد ذو وجه شبيه بوجه فرنانديل[٢] ومزاج كمزاج الكاردينال ريشيليو[٣]) أنّ المرحاض محشواً حتى أعلاه ويفيض.

٢- هو فرناند جوزيف ديزيريه كونتاندان، الشهير بفرنانديل (١٩٠٣ - ١٩٧١): أشهر ممثل هزلي فرنسي. يتميّز بتعبير وجهه المضحك الذي يُذكرنا بإسماعيل يس الممثل الكوميدي المصري. - المترجم

٣- الكاردينال ريشيليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢): رجل دين، ونبيل ورجل دولة فرنسي. يُعتَبَر أول رئيس وزراء في العالم. رجل فرنسا القوي وداهية في السياسة كانت له سلطة حتى على الملك نفسه. مثال للفخامة والنبالة وعُرِف عنه رعايته للعلوم والفنون. أسّسَ الأكاديمية الفرنسية. - المترجم

وحتى ذلك الحين لم أكنْ قد شعرت بكآبة شديدة بسبب الحيض. ولم أصبح من عداد الراديكاليين المُحتملين إلا بعدما بدأ الخادم (الذي لم يُعجبه أنْ يلج قمرة تشبه مهجع الفتيات) يصرخ في وجهي.

صرخ قائلاً: «ماذا وضعتم في المرحاض؟» (أو شيئاً شبيهاً بهذا). ثم أجبرني على *المشاهدة* وهو يُخرِج كتل الفوط الصحية المنحلّة شيئاً فشيئاً. أيُعقل أنه لم يكن *يعلم* ما هي؟ أم إنه كان يُحاول أنْ يُهينني؟ أكان الأمر حقاً يتعلّق بصعوبة اللغة؟ (Comment dit – on Kortex en français ?) [كيف تقولون فوطة صحية بالفرنسية؟]) أم إنه كان يُنفّس عن إحباطه بصبّه على بدء حيضي؟ ووقفتُ هناك وأخذ وجهي يحمرّ وأنا أتلعثم قائلة *الصيدلية، الصيدلية*، التي هي (كما فهمتُ لاحقاً) كلمة فرنسية.

في تلك الأثناء، كانت لالا وكلوي تقهقهان بصوت مكبوت مُساهمة منهما في ما يجري (كانتا *تعلمان* أنّ الأمر يتسم بالقذارة، وإنْ لم تفهما التفاصيل كلها. كانتا تعلمان حتماً أنّ *شيئاً ما* ليس على ما يُرام وإلا لماذا كنتُ أهرع إلى المرحاض مرات عديدة في اليوم ولماذا يصرخ ذلك الرجل المُخيف في وجهي؟) انطلقنا قاصدين نيويورك تاركين خلفنا سلسلة من الفوط المدمّاة وجبةً للأسماك.

حسب فهمي المراهق، كانت سفينة *Ile de France* أشد سفن العالم رومانسية لأنها جعلتْ ظهور حجر كريم منقوش في «هذه الأشياء الحمقاء» - تلك الأغنية الرومانسية الحالمة (بعزف والدي الرومانسي الحالم على البيانو):

في الشقة المجاورة آلة بيانو تعزف

تلك الكلمات المتعثّرة التي تحكي لكَ

ما يعتمل في قلبي...

(الشِعر الذي نشأت على سماعه!) وفي موقع ما من الأغنية تُذكَر

«سفينة Ile de France تكتنفها طيور النورس...» بنبرة حالمة. لم أكن أعلم أنّ طيور النورس سوف تغوص سعياً وراء فوّطي الصحية المُدمّاة؛ لم أكن أعلم أنني في الوقت الذي سأُصبح فيه على متن تلك السفينة سوف تكون في حال سيئة وسوف تهتز وتتمايل كمغطس قديم، وتجعل المسافرين كلهم تقريباً يُصابون بدوار البحر. وكاد الخدم يفقدون صوابهم. وكانت قاعة الطعام خالية تماماً في كل وجبة وظلت أجراس غرفة الخدم ترن. تتراءى أمامي صورتي البدينة وأنا في الثالثة عشرة متشبثة بعبوة الفوط الصحية على متن السفينة المتمايل والمتهادي أنزف طوال الرحلة حتى منزلي في مانهاتن.

أيها السيدات والسادة، إنها دورتي الشهرية الأولى.

بعد ذلك بعام ونصف، مررتُ بفترة تجويع نفسي حتى الموت وكانت دوراتي الشهرية قد توقفت تماماً. والسبب؟ الخوف من كوني امرأة، حسب تعبير الدكتور شريفت. حسن، ولِمَ لا؟ حسن. لقد كنتُ *فعلاً* أخاف كوني امرأة. لم أكن أخاف الدم (كنتُ أتطلّع إلى ذلك - على الأقلّ إلى أنْ تلقيت التأنيب بسببه)، بل خفت من كل ذلك الهراء الذي يُصاحبه. كأنْ يُقال لي أنه إذا أنجبتُ أطفالاً فلن أُصبح فنانة، كالمرارة التي تعيشها أمي، كتركيز جدّتي المُمل على الأكل والتبرُّز، كأنْ يسألني صبي بدين الوجه إنْ كنتُ أنوي أنْ أُصبح سكرتيرة. سكرتيرة! لقد صمّمتُ على ألا أتعلّم *أبداً* الضرب على الآلة الكاتبة. (ولم أتعلّم أبداً. في الجامعة كان براين يتولى طبع أوراقي على الآلة الكاتبة. ولاحقاً صرتُ أستخدم اثنين من أصابعي أو أستأجر مَنْ يطبع لي أوراقي. آه، كم أزعجني ذلك وكلفني مبالغ كبيرة من المال - ولكن ما قيمة النقود والانزعاج في مسألة تتعلّق بالمبدأ؟ وكان المبدأ هو: لم أكن ولن أكون أبداً ضاربة على الآلة الكاتبة. حتى لصالح *نفسي*، مهما كان ذلك سيُسهّل عليّ حياتي).

إذن، إنْ كان الحيض يعني أنَّ عليّ أنْ أضرب على الآلة الكاتبة، فسوف أتوقف عن الحيض! *وأيضاً* أتوقف عن الضرب على الآلة الكاتبة! أو عن كليهما! ولن أُنجبَ أطفالاً! سوف أقطع أنفي نكاية بوجهي. وسوف أرمي الطفل بالمعنى الحرفي للكلمة مع ماء الاستحمام. وهذا، طبعاً، كان سبباً آخر لتواجدي في باريس. لقد انفصلتُ عن كل شيء - العائلة، الأصدقاء، الزوج - فقط لأُثبت أنني حرّة؛ حرّة كمُختطف طائرة يهبط بالمظلة إلى وادي الموت.

لملمتُ بقايا ورق المرحاض، وحشرتها داخل حقيبة يدي، وقفلتُ عائدة إلى الغرفة. ولكن أية غرفة هي؟ لقد نسيت تماماً. بدت الأبواب كلها متشابهة. هرعتُ أرتقي مَطْلعين من الدَّرَج واتّجهتُ دون وعي نحو الباب عند الزاوية.. فتحت الباب على مصراعيه، فوجدتُ رجلاً بديناً في منتصف العمر جالساً عارياً على كرسي ويقلّم أظافر قدميه. رفع بصره بدهشة معتدلة.

قلت: «عفواً!» وصفعتُ الباب على عجل. ورحتُ أرتقي مطلعاً آخر من الـدرَج، وعثرتُ على غرفتي الخاصة فولجتها وأرتجتُ الباب. لم أتمكن من نسيان التعبير المرتسم على وجه ذلك الرجل. كان يدل على التسلية وليس على الصدمة. كابتسامة بوذا الهادئة. لم يكن مذعوراً البتّة.

إذن فهناك *فعلاً* أناس لا يستيقظون إلا عند الظهيرة، ويُقلّمون أظافر أقدامهم، ويجلسون عراة في غرف الفنادق من دون أنْ يعتبروا كل يوم بداية جديدة. شيء مذهل! لو أنَّ أحدهم اقتحم عليّ غرفتي ووجدني عارية وأُقلّم أظافر قدميّ، لمتُّ من هول الصدمة. أم هل كنتُ *سأفعل* حقاً؟ لعلي كنتُ أقوى مما ظننت.

لكنني كنتُ أيضاً أقذر مما ظننت. وعلى الرغم مما يقول أودن عن

أنّ الناس جميعاً يحبون رائحة برازهم الخاص، فإنّ رائحتي الكريهة قد بدأت تؤذي منخريّ. ولما لم يكن في حوزتي فوط صحيّة، فإنّ الاغتسال كان أمراً غير وارد، ولكن كان يجب أنْ أفعل شيئاً بشأن شعري المتدلّي على شكل خيوط رخوة ولزجة. وبدأتُ أهرش كأنني مُصابة بالقمل. بداية جديدة. سأغسل شَعري على الأقلّ، وأُغرق نفسي بالعطر كما كان أفراد حاشية البلاط الملكي ذوو الرائحة الكريهة في فرساي يفعلون، وانطلقت إلى الخارج. ولكن إلى أين كنتُ ذاهبة؟ لأبحث عن بينيت؟ لأبحث عن أدريان؟ لأبحث عن فوط صحيّة؟ لأبحث عن إيزادورا؟

قلت: «اخرسي واغسلي شَعرك. الأهمّ فالمهم».

لحُسن الحظ، كان لديّ كمية وافرة من الشامبو، وعلى الرغم من أنّ المغسلة كانت صغيرة والماء بارد، إلا أنّ غسل شَعري منحني إحساساً بالسيطرة.

بعد ذلك بساعة، كنتُ قد حزمتُ أمتعتي، وارتديت ملابسي، وتبرجتُ وربطتُ شَعري الرطب بوشاح. وضعت نظارتي الشمسية من أجل المزيد من الوقاية من العين الشريرة. كنتُ قد ارتجلتُ صنع فوطة صحية أخرى بورق المرحاض وثبّتها بسروالي التحتي. لم يكن تدبيراً مُريحاً جداً، ولكن مع ذلك، كنتُ مستعدة لدفع قيمة الفاتورة، وجرّ حقيبتي، ومواجهة العالم.

قلت في نفسي، في أثناء خروجي إلى الشارع، ***شكراً لك يا رب على ضياء الشمس***. ولما كنتُ عضواً سابقاً في جماعة الدرويد[٤]، تعلّمتُ أنْ أشكر الآلهة على أفضالها الصغيرة. لقد اجتزتُ الليل حيّة! بل نمت! وسمحت لنفسها برهة برفاهية الاعتقاد أنّ كل شيء على ما يُرام.

٤ - الدرويد: جماعة من الكهنة ظهرت قبل المسيح.

قلت في نفسي، *لا تفكري، لا تفكّري، لا تُحللي، ولا تقلقي*... فقط ركّزي على الوصول إلى لندن وشدّ عزمك. فقط اعبري هذا النهار اللعين.

جررتُ حقيبتي إلى إحدى الصيدليات، وأحضرت فوطاً صحية، ومن ثم جررتُ نفسي بصعوبة عائدة إلى مقهى الليلة السابقة في ساحة سان ميشيل. تركتُ الحقيبة بجوار إحدى الطاولات وهبطتُ إلى الطابق السفلي إلى المرحاض لأضع فوطة صحية. انتابني شيء من القلق حول تركي الحقيبة، لكنني بعد ذلك قررت أنْ أقول لا يهمني. سيكون ذلك نذيراً. إنْ وجدتُ الحقيبة في مكانها لدى عودتي (ومحشوة بالفوط الصحية)، فذلك يعني أنَّ كل شيء سيسير على ما يُرام.

وقد كان كذلك.

جلستُ بجوار الحقيبة وطلبتُ فنجاناً من الكابوتشينو. كانت الساعة قد اقتربت من الواحدة وشعرت بالسكينة، بما يشبه الانتعاش. ما أقلّ ما تعتمد عليه سعادتنا: صيدلية تفتح أبوابها، حقيبة لم تتعرَّض للسرقة، فنجان من الكابوتشينو! فجأة أصبحتُ أعي بقوة كل مسرات الحياة الصغيرة. مذاق القهوة الممتاز، ضوء الشمس وهو ينتشر، أشخاص يتخذون وقفة عند زوايا الشوارع لكي تُبدي إعجابك بهم. بدا كأنَّ الحيّ اللاتيني كله أصبح مُحتلاً بأكمله بالأميركيين. إلى يميني وإلى يساري، سمعت أحاديث عن متطلبات الدورة الدراسية في جامعة متشيغان ومخاطر النوم على شواطئ إسبانيا. كانت هناك مجموعة من النسوة السوداوات في منتصف العمر يعتمرن قبعات مرصّعة بالأزهار يعبرن ساحة سان ميشيل قاصدات نهر السين ونوتردام، وأزواج شبان أميركيون مع أطفالهم الحديثي الولادة وحقائب ظهر. «إنَّ بيكاسو كان *حتماً* يضع تعويذة على صدره...»، هذا ما قاله رجل يرتدي قميصاً على طريقة أوسكار وايلد لرفيقه (الذي كان متأنّقاً بآخر ما أنتجه كاردان).

أعتقد أنه كان هناك حرف ك صغير مطبوع على سروال السباحة الصغير. يا له من مشهد! إنه يشبه رحلات حج تشوسر إلى كانتربري. زوجة باث[5] على هيئة سيدة أميركية سوداء تقوم برحلة حج إلى نوتردام؛ والعراقي[6] على هيئة زميل دراسة فتى رقيق قسمات الوجه وذو لحية شقراء يحمل نسخة من كتاب *«النبي»*[7]؛ ورئيسة *دير الراهبات*[8] متمثلة بطالبة جميلة في تاريخ الفن خارجة حديثاً من مدرسة مس هيويت، ورقصة أو اثنتين، وجامعة سارة لورنس الخاصة (وترتدي جينزاً قذراً لكي تعيش بعيداً عن ماضيها وحياتها الأرستقراطية)؛ والراهب الفاسق على هيئة واعظ يقف على قارعة الطريق يدعو إلى الحياة النباتية واتباع أساليب حياة طبيعية؛ وأخ راهب على هيئة مُهتدٍ إلى وعي كريشنا يزيّن رأسه بريش وشرائط ملونة؛ والطحّان على هيئة ناشط سياسي سابق من جامعة شيكاغو وهو الآن يوزع كتب الأدب على مكتبات النساء الفرنسيات... («لماذا تدعم حقوق المرأة؟»، سألتُ مؤخراً رجلاً أعرفه كان شديد الحماس لتلك الحركة. أجاب: «لأنها أفضل طريقة لعينة لمضاجعة امرأة هذه الأيام»). كان جديراً بتشوسر أنْ يتلاءم مع هذه الأفكار، ويُحسن التعامل معها.

شعرت بالسكينة وبالاتزان الفكري برهة حتى إنني صمّمت على قضاء وقت ممتع قبل أنْ يُعاودني الرعب. إذن فلستُ حبلى على الإطلاق، بمعنى مشوب بالحزن - لطالما كان الحيض مصحوباً بقليل من الحزن - لكنه كان دائماً يشكّل بداية جديدة. لقد مُنحتُ فرصة أخرى.

---

٥ - حكاية زوجة باث: إحدى **«حكايات كانتربري»** لتشوسر. - المترجم
٦ - شخصية وعنوان لإحدى تلك الحكايات. - المترجم
٧ - **«النبي»** لجبران خليل جبران. - المترجم
٨ - شخصية وعنوان لإحدى تلك الحكايات. - المترجم

طلبتُ المزيد من القهوة ورحت أراقب مرور عرض عسكري. لهفي على كل أولئك الأبرياء البعيدين عن أوطانهم! راقبتُ زوجاً يتبادلان القُبَل على قارعة الطريق، وأنا أفكر في أدريان. كان كلٌّ منهما يُحدق في عينيّ الآخر وكأنّ سرَّ الحياة يكمن هناك. ماذا يرى العشّاق في عينيّ كل منهما الآخر؟ في كلٍّ منهما الآخر؟ تأمّلتُ في فكرتي المجنونة التي مفادها أنّ أدريان هو توأمي العقلي وكم كنتُ مُخطئة في ذلك. هذا ما أردتُ في الأصل: رجلاً يكمّلني؛ كما يُكمّل باباغينو باباغينا[٩]. ولكن ربما كان ذلك أشد الضلالات ضلالاً في حياتي. إنّ الناس لا يُكمّلوننا؛ نحن نكمّل أنفسنا. فإنْ لم تكن لدينا القُدرة على إكمال أنفسنا، فإنّ البحث عن الحب يتحوّل إلى بحث عن تدمير الذات؛ وحينئذ نحاول أنْ نُقنع أنفسنا بأنّ تدمير الذات هو حب.

كنتُ أعلم أنني لن ألاحق أدريان حتى هامستد؛ كنتُ أعلم أنني لن أُفسد حياتي إكراماً لشغف بتدمير عظيم للذات. كان هناك جزءٌ مني أراد ذلك وجزء آخر احتقر إيزادورا لأنها *ليست* من النوع الذي يمنح كل شيء في مقابل الحب. ولكن لم هناك فائدة من الادّعاء. لستُ من ذلك النوع. لم أكنْ أُحبّذ التدمير الكامل للنفس. لعلّي لم أكنْ لأصبح بطلة رومانسية، لكنني سأبقى على قيد الحياة. وكان ذلك هو أهمّ شيء في تلك اللحظة. أنْ أحتفظ به بالتخلّي عنه.

صحيح أنني كنتُ أحياناً أشتاق إليه بشدة. لقد راقبت ذلك الزوج يتبادلان القُبل وكدتُ أشعر بلسان أدريان في فمي. وانتابتني أيضاً الأعراض السخيفة الأخرى كلها: صرتُ لا أكفّ عن الاعتقاد

---

٩ – باباغينو وباباغينا: شخصيتان في أوبرا موتسارت «الناي السحري». – المترجم

أنني شاهدتُ سيارته تجتاز الشارع وربما لاحقاً كنتُ أتقدّم مسرعة لأتفحص صفائح الإجازة. وأعتقد برهة أنني شاهدتُ رأسه من الخلف في المقهى ومن ثم أجدني فجأة أُنعِم النظر في وجه أحد الغرباء. وظللتُ أتذكّر، في لحظات غريبة، رائحته، وضحكه، ونكاته...

لكنها كانت تزول في حينها. كان ذلك يحدث دائماً، للأسف. وألم قلبي الذي يبدو في أول الأمر رقيقاً لدى أقلّ لمسة يُطفئ أخيراً ألوان قوس قُزح كلها ويكفُّ عن التألم. وننساه. بل إننا ننسى أنْ لنا قلوباً حتى حلول التجربة التالية. وحينئذ عندما تحدث من جديد نتساءل كيف حدث ونسينا. ونفكر: «هذه التجربة أقوى، هذه أفضل...» لأننا، في الواقع، لا نستطيع أنْ نتذكّر بصورة تامة التجربة السابقة.

كان أدريان قد سأل: «لِمَ لا تنسين الحب وتكتفين بعيش حياتك الخاصة؟». وجادلته. ولكنْ لعلّه كان على حق أصلاً. ماذا منحني الحبّ غير الإحباط؟ أو لعلي بحثتُ عن الأشياء الخاطئة في الحب. لقد أردتُ أنْ أذوب في رجل، أنْ أُلغي نفسي، أنْ أنتقل إلى الجنة على متن جناحَين مُستعارَين. كان ينبغي أنْ أدعو نفسي إيزادورا إيكاروس. والجناحان المُستعاران لم يثبتا في مكانهما عندما احتجت إليهما. ربما كنتُ في الحقيقة في حاجة إلى تنمية جناحين خاصين بي.

قال: «أنت لديك عملك الخاص». وكان على صواب في ذلك أيضاً. آه لقد كان على صواب لكل الأسباب الخاطئة. على الأقلّ كان لديّ التزام على مدى الحياة، نداء باطني، شغف هادِ. كان ذلك حتماً أكثر مما باستطاعة معظم الناس أنْ يتقبّلوا.

استقللتُ سيارة أجرة إلى محطة غار دو نور، وأودعتُ فيها حقيبتي، وبدّلت العملة وسألتُ عن مواعيد القطارات. كانت الساعة قد بلغتْ حوالي الرابعة وهناك قطار سفينة في تلك الليلة يُقلِع عند

العاشرة. لم يكن أحد القطارات السريعة التي تحمل اسماً فخماً، بل كان الوحيد المتوجه إلى لندن. ابتعتُ بطاقتي، وأنا لا أزال لا أعلم لماذا أنا ذاهبة إلى لندن. كل ما كنتُ أعرف هو أنَّ عليَّ أنْ أغادر باريس. وأنَّ لديّ أعمالاً أُنجزها في لندن. أنَّ هناك عميلاً يجب أنْ أقابله وأشخاصاً معيَّنين يجب أنْ أعرِّجَ عليهم. فهناك أناس آخرون يقطنون لندن غير أدريان.

لستُ متأكّدة كيف ضيَّعت باقي فترة ما بعد الظهيرة. قرأت الصحيفة وخرجت لأتناول وجبة. وعندما حلّ الظلام، رجعتُ إلى المحطة وجلست أكتب في دفتري في أثناء انتظار وصول القطار. وعندما أقمتُ في هايدلبرغ كنتُ أُمضي الكثير من الوقت في الكتابة في محطات القطار، حتى إنني بدأتُ أشعر من جديد بتآلف مع العالم.

مع وصول القطار إلى المحطة، كانت مجموعات صغيرة من الناس قد تجمّعت على الرصيف. كانت تعلو سيماهم تلك المسحة البائسة التي ترتسم على وجوه المسافرين لدى رحيلهم في أوقات نومهم. كانت هناك سيدة عجوز تبكي وتقبّل ابنها، وفتاتان أميركيتان قذرتان تجران حقيبتيهما على حامل كريات. وامرأة ألمانية تُطعم وليدها من برطمان وتُخاطبه بـ *Schweinchen* (خنزيري الصغير). كلهم بدوا أشبه باللاجئين. وأنا أيضاً.

جررتُ حقيبتي الضخمة إلى القطار ثم على طول الرواق بحثاً عن مقصورة خالية. وأخيراً عثرتُ على واحدة تفوح منها رائحة براز قديم وقشور موز متحللة. إنه عفن الإنسانية. وكنتُ أقوم بدوري في المساهمة في هذا العفن. بألا أستحم مهما كان الثمن.

رفعتُ حقيبتي الثقيلة عالياً ولكن ليس بالقدر الكافي لوضعها

على الرف. كان مفصل ذراعي يؤلمني. في تلك اللحظة ظهر خادم قطار يافع بزي أزرق وأخذ الحقيبة من يدي. وبحركة واحدة رفعها ووضعها على المنصب فوق الرؤوس.

قلت: «شكراً لك»، وأنا أمدّ يدي إلى كيس النقود. لكنه مشى وتجاوزني دون أنْ يلاحظ ذلك.

سألني بعبارة غامضة: «أنتِ وحدكِ؟». لم يكن واضحاً إنْ كان يعني «هل تريدين أنْ تبقي وحدكِ؟» أم «هل ستكونين وحدكِ؟». ثم باشر بإسدال الستائر كلها. قلت في نفسي، لفتة لطيفة منه. إنه يُريد أنْ يُبيّن لي كيف أمنع الآخرين من إزعاجي، كيف أحتفظ بالمقصورة لنفسي. فما إنْ بدأتُ أيأس من الناس، حتى ظهر أحدهم ويقدِّم لي معروفاً دون مقدمات. كان يدفع بمساند المقعد ليحولها إلى سرير لأجلي. ثم مرّر يده على طول المقاعد إشارة منه إلى المكان الذي يجب أنْ أستلقي عليه.

قلت، وقد شعرت فجأةً بالذنب لاستئثاري بمقصورة كاملة، «في الحقيقة لا أعلم إنْ كان هذا تصرفاً مُنصفاً بحق الآخرين». لكنه لم يفهمني ولم يتمكن من شرح وجهة نظره بالفرنسية.

سأل من جديد «أنتِ *seule?*»، وهو يضع كف يده على بطني ويدفعني إلى أسفل نحو المقعد. وفجأة أصبحت يده بين ساقيّ وكان يُحاول أنْ يُجبرني على الاستلقاء.

صرخت «ماذا تفعل؟»، وأنا أقفز واقفة وأبعده عني. لقد أدركتُ جيداً ما الذي كان يفعل، ولكن استغرق مني بضع ثوان لتسجيله.

قلت باحتقار: «أيها الخنزير!». ابتسم بخبث وهزّ كتفيه استخفافاً، وكأنه يقول «لا بأس بالمحاولة».

صرخت ***«Cochon»*** (خنزير)، قمتُ بالترجمة ليفهم. ضحك

بوهن. لم يكن بالضبط يُحاول أنْ يغتصبني، لكنه أيضاً لم يفهم حنقي. فقبل كل شيء، كنتُ وحيدة، أليس كذلك؟

وبفورة من الطاقة قفزتُ واقفة على المقعد وأمسكت بحقيبتي، وكدتُ أُسقطها على رأسي. وخرجتُ كالعاصفة من المقصورة بينما بقيَ هو واقفاً يرسم ابتسامته الخبيثة ويهزّ كتفيه استخفافاً.

كنتُ شديدة الحنق من نفسي بسبب سذاجتي. كيف أشكره على مراعاته لظروفي في حين أنّ أي أحمق كان جديراً بأنْ يعلم أنه يُخطط للانقضاض عليّ حالما يُسدل الستائر؟ لقد كنتُ بلهاء حقاً - على الرغم من ادّعاءاتي كلها بأنني دنيويّة. لقد كنتُ دنيوية كفتاة لعينة في الثامنة. إيزادورا في بلاد العجائب. الساذجة الأبدية.

قلت لنفسي في أثناء سيري في الرواق بحثاً عن مقصورة أخرى: «يا إلهي، أنت حقاً حمقاء». أردتُ واحدة مزدحمة هذه المرة. واحدة تشغلها راهبات، أو عائلة من اثني عشر شخصاً، أو كلاهما. كنتُ أتمنى لو أنني تحليت بالشجاعة الكافية لأسدد له لكمة. ليتني كنتُ إحدى تلك النسوة الحكيمات اللائي يحملن علب بخّ الدخان أو تعلمت الكاراتيه. أو ربما كنتُ بحاجة إلى كلب حراسة. كلب ضخم مُدرَّب على أداء خدمات متنوعة. كان يمكن أنْ يكون أكثر براعة من رجل.

لم يتبيَّن لي - إلا بعد أنْ استقرّ بي المطاف أمام عائلة صغيرة ولطيفة - من أم، وأب، وطفل وليد - كم كان ذلك الموقف مُضحكاً. يا لنظريتي عن النكاح الحر! مع شخص غريب على متن قطار! وها قد توفّرت لي الفرصة لأحقق فكرتي الخيالية. الفكرة التي جعلتني أتسمّر إلى المقعد المهتز في القطار على مدى ثلاث سنوات في هايدلبرغ وبدل أنْ تُثير شهوتي الجنسية، أثارت اشمئزازي!

شيء مُذهل، أليس كذلك؟ إنه ثناء لغموض النفس. أو ربما كانت نفسي قد بدأتْ تتغيّر بطريقة لم أتوقّعها. لم يعد هناك أي شيء رومانسي يكتنف الغرباء على متن القطارات. ربما لم تعد هناك أية هالة رومانسية تُحيط بالرجال؟

لقد اتّضح أنَّ الرحلة إلى لندن كانت مُطهِّرة. أولاً، كان هناك رفاقي في المقصورة: بروفسور أميركي مُتجهِّم، وزوجته بمنظرها الزريّ، وطفلهما الذي يُريِّل. قاد الزوج الاستجواب. هل أنا متزوجة؟ بمَ كان يمكن أنْ أُجيب عن هذا؟ لم أعد *أعرف* إنْ كنتُ كذلك أم لا. كان يمكن أنْ يكون وضعاً سهلاً جداً بالنسبة إلى شخص صموت أكثر، لكنني أحد أولئك الحمقى الذين يشعرون بأنهم مُجبرون على سرد قصة حياتهم لأي عابر سبيل يطلب سماعها.

حشدتُ كل ما أنطوي عليه من قوة إرادة لأقول «كلا».

«لمَ لا تتزوج فتاة جميلة مثلك؟».

ابتسمت. إيزادورا صامتة كأبي الهول. هل أباشر بإلقاء خُطبة قصيرة حول الزواج واضطهاد المرأة؟ هل أستجدي التعاطُف، قائلة إنَّ حبيبي تخلّى عني؟ هل أُبدي شجاعةً وأقول إنَّ زوجي غرق في الرطانة في فيينا؟ هل ألمّح إلى وجود ألغاز سحاقية خلف مظهرهم؟

قلت، وأنا أبتسم ابتسامة عريضة لأحرِّك جمود قسماتي، «لا أعلم».

قلت في نفسي، غيِّري الموضوع بسرعة، قبل أنْ أُفشي لهم السر. وإنْ كنت بارعة في شيء فهو الاختباء.

سألتُ بإشراق: «إلى أين أنتم ذاهبون؟».

كانوا ذاهبين إلى لندن في إجازة. كان الزوج يتكلّم والزوجة تُرضِع الطفل الوليد. الزوج يُصدِر تصريحات سياسية والزوجة تلزم الصمت.

قلتُ في نفسي «لمَ تبقى فتاة جميلة مثلك عزباء؟». كأنَّ دواليب القطار تقول لي، أوه اخرسي يا إيزادورا، لا تتطفّلي... اخرسي... اخرسي... اخرسي...

كان الزوج بروفسوراً في مادة الكيمياء، يُدرِّس في برنامج فولبرايت في تولوز. إنه يحب النظام الفرنسي حقاً. قال «الانضباط». إننا في حاجة إلى المزيد منه في أميركا - أليس كذلك؟

قلت: «لا أظن ذلك». بدا غاضباً. في الحقيقة، لقد أبلغته أنني أنا نفسي سأدرِّس في الجامعة.

«أحقاً؟». لقد أضفى عليّ ذلك مرتبة رفيعة جديدة. لعلي أنثى وحيدة فضولية، لكنني على الأقلّ لستُ خادمة حقيرة كزوجته.

سألني، بكل افتخار وعنجهية: «ألا توافقين على أنَّ نظامنا التعليمي الأميركي يُسيء تفسير معنى الديموقراطية؟».

قلت: «كلا، لا أوافق».

قلتُ في نفسي: آه يا إيزادورا، إنك تزدادين فظاظة. متى كانت آخر مرة قلتِ فيها «لا أوافق...»، وبهدوء؟ لقد بدأتُ أُعجَب بنفسي كثيراً.

قلت: «نحن لم نفهم بعد كيف نفعِّل الديموقراطية في مدارسنا، ولكن هذا ليس سبباً كافياً للعودة إلى نظام نُخبويّ كما فعلوا هنا...» (وأومأتُ بحركة مُقتَضَبة إلى الفناء المُظلِم الذي يقع خارج النافذة) «... على أية حال، إنَّ أميركا هي أول مجتمع في التاريخ يواجه هذه المشاكل مع سكان متبايني العناصر. إنه مُغاير للوضع في فرنسا أو السويد أو اليابان...».

«ولكن هل تعتقدين حقاً أنَّ زيادة التساهُل هو الحل؟».

هآه، *التساهُل* - الكلمة الأساسية عند المتزمتين.

قلت: «أعتقد أنه ليس لدينا تساهل حقيقي، ولدينا الكثير من الفوضى البيروقراطية التي تلبس قناع التساهُل. أما التساهُل الحقيقي، التساهُل البنّاء، فمسألة أخرى تماماً». شكراً لك يا د. هـ. لورنس وينغ.

بدت عليه الحيرة. ماذا أعني؟ (كانت الزوجة تُهدهد الطفل وتلزم الصمت. بدا أنَّ بينهما اتّفاقاً غير مُعلَن على أنْ تلزم هي الصمت وتتركه يظهر بمظهر المُثقّف. فمن السهل أنْ تبدو مُثقفاً مع زوجة خرساء).

ماذا أعني؟ أعني نفسي، طبعاً. أعني أنَّ التساهُل الحقيقي يدعم الاستقلالية. أعني أنني مُصممة على أنْ أتولى مصيري بيديّ. أعني انني سوف أكفّ عن كوني تلميذة مدرسة. لكنني لم أجهر بهذا. وبدل ذلك تابعتُ ثرثرتي حول التعليم والديموقراطية وأنواع الهراء العام كافة.

هذا الحديث المُمل حتى الموت استغرق منا نصف المسافة إلى كاليه. ثم أطفأنا الأنوار واستغرقنا في النوم.

أيقظنا قاطع التذاكر في ساعة لعينة للحاق بسفينة. عندما ترجّلنا من القطار كان الجو كثيف الضباب وكنتُ من شدّة النعاس بحيث لو أنَّ أحداً سار بي إلى داخل مياه القنال لما كان لديّ من حضور الذهن ما يجعلني أقاوم. وبعد ذلك أتذكّر أنني جررتُ حقيبتي على طول أروقة لا نهاية لها، وحاولت أنْ أنام على كرسي قابل للطيّ على سطح السفينة المتأرجح، وانتظرتُ في الطابور في رطوبة الصباح الباكر بينما موظفو الهجرة يتفحصون أوراقنا. حدّقتُ إلى جروف دوفر البيضاء على امتداد ساعتين بعينين غائمتين ونحن نقف في الطابور لكي نختم جواز السفر. ثم كان هناك ممر من الإسمنت بطول حوالي ميل جررتُ عليه حقيبتي من أجل الوصول إلى القطار. وعندما وصلت السكك الحديدية البريطانية أخيراً لتنقذنا، أخذ القطار يزحف

بطيئاً ويتوقف ويتوقف ويزحف على امتداد أربع ساعات حتى واترلو. كان الريف أجرد وتغشوه الكآبة. تذكّرتُ بليك[10] والطواحين[11] الشيطانية المشؤومة. وأدركتُ أنني وصلتُ إنكلترا من رائحتها.

---

١٠ - تعني الشاعر وليم بليك. - المترجم

١١ - «الطواحين الشيطانية المشؤومة»: بيت شِعر في قصيدة «ميلتون» للشاعر وليم بليك. - المترجم

(١٩)

خاتمة بأسلوب القرن التاسع عشر

... لا تُصغ إلى تصريحات المؤلّف المُملّة، بل إلى بكاء الشخصيات المنخفض، الهاتف، وهي تتجول في غابات مصيرها المظلمة.

• د.هـ. لورنس

كان الفندق بناءً قديماً متهالكاً على الطريقة الفيكتورية يقع بالقرب من كنيسة سينت جيمس، يحتوي قفصَ مصعد قديم يُصدرُ هديراً كجدجد أصابه الجنون، وأروقة مُقفرة، وعند كل مسطبة درج هناك مرآة حائط.

عند طاولة الاستقبال سألت عن الدكتور وينغ.

قال حاجب طويل القامة، نحيل، يشبه بوب كراتشيت[١]، «ليس لدينا أحد بهذا الاسم، مدام».

١ - بوب كراتشيت: شخصية روائية في قصة تشارلز ديكنز **«ترتيل عيد الميلاد»**. هو الموظف الصغير عند أبينيزر سكروج الذي يُسيء معاملته ولا يدفع له راتبه بسبب شدّة بخله، ومع ذلك يبقى مُخلصاً لسيده. ويمثّل أحوال الطبقة العاملة الفقيرة، خاصة تلك التي تعمل ساعات طويلة. إنه قبيح الخلقة ويُحيط عنقه بلفاح زريّ لأنه لا يستطيع تحمّل نفقات شراء معطف. - المترجم

غاص قلبي بين أضلعي.

«أواثق أنت؟».

«إليكِ، يمكنك أنْ تُلقي نظرة على السجل - إنْ شئت...»، ومرّر الدفتر نحوي. لم يكن يحتوي إلا على أسماء حوالي عشرة من الضيوف ينزلون في المكان. والسبب واضح. إنَّ لندن المزدهرة مرّت من هنا ولم تتوقف.

استعرض الأسماء في السجل. ستروبريدج، هنكل، هاربيلو، بوتوم، كوهن، كيني، وونغ... *هذا* هو. يجب أنْ يكون وونغ. طبعاً جدير بهم أنْ يُخطئوا في هجاء الاسم. إنَّ كل الصينيين متشابهون في الشكل وكلهم يحملون اسم وونغ. وشعرتُ بقربٍ شديد من بينيت، لاضطراري إلى التعامل مع مثل هذا الهراء طوال حياتي دون أنْ أشعر بالمرارة.

سألت، مشيرة إلى سوء الهجاء الأحمق: «ماذا عن نزيل الغرفة رقم ٦٠؟».

«أوه، الجنتلمن الياباني؟».

قلت في نفسي، *تباً*. إنهم لا يميزون.

«نعم، هلا اتصلت بغرفته هاتفياً من فضلك؟».

«مَنْ سأقول إنه يسأل عنه؟».

«زوجته».

كان جلياً أنْ لكلمة «زوجة» نفوذ هنا في القرن التاسع عشر. هبَّ صديقي بوب كراتشيت نحو الهاتف.

لعله حقاً مجرد شخص ياباني. لعل اسمه توشيرو ميفيون؟ مُسلّح بسيف الساموراي وشعره مكوّم على قمة رأسه لتكتمل الصورة؟

كأحد المغتصبين في مسرحية *راشومون*؟ أو شبح يوكيو ميشيما[٢] وجراحه لا زالت تنزّ؟

قال موظف الاستقبال: «أنا آسف، مدام، لا أحد يُجيب».

«هل لي أنْ أنتظر في الغرفة؟».

«كما تشائين، مدام».

وبهذا ضرب على جرسٍ موجود على الطاولة ونادى على حمّال. كان أشبه بإحدى شخصياتِ ديكنز النمطية. هذا كان أقصر قامة مني وله شَعر مدهون بالفازلين حتى اللمعان.

تبعته حتى قفص المصعد، وبعد بضع دقائق من الهدير، وصلنا إلى الطابق السادس.

كانت فعلاً غرفة بينيت؛ ستراته وربطات عنقه مُعلّقة بأناقة وترتيب في الخزانة. وكمية من برامج العروض المسرحية على رف المزينة، وفرشاة أسنانه والشامبو على حافة المغسلة عتيقة الطراز. خفّه على الأرض. ملابسه الداخلية وجواربه تجفّ على أنابيب التدفئة المركزية. أكاد لا أشعر أنني كنتُ غائبة طوال تلك المدّة. هل كنتُ غائبة؟ أكان بينيت قادراً إلى *هذه الدرجة* على التكيُّف مع غيابي، بحيث يذهب بهدوء لحضور المسرحيات ثم يعود إلى المنزل ليغسل جوربه؟ كان السرير مفرداً وغير مُرتَّب ولكن يكاد لا يبدو مُشوَّشاً على الإطلاق.

استعرضتُ كمية برامج العروض المسرحية.. لقد شاهد كل مسرحية عُرِضَتْ في لندن؛ لم ينهر أو يقوم بأي عمل جنوني. بل بقيَ بينيت الذي لا يمكن التكهّن بتصرفاته كما عرفته.

تنهدتُ بارتياح، أم هل كان تعبيراً عن الإحباط؟

٢- يوكيو ميشيما (١٩٢٥ - ١٩٧٠): روائي ياباني. انتحر على طريقة الهاراكيري اليابانية. - المترجم

أعددتُ الحمّام لأستحم وتجرّدتُ من ملابسي القذرة، وتركتها ورائي على الأرض كالأثر.

كان حوض الاستحمام أحد تلك الأحواض الطويلة، والعميقة. إنه تابوت حقيقيّ. غصتُ فيه حتى ذقني.

قلت، عندما طَفَتْ أصابع قدمي على السطح عند نهاية الحوض، «مرحبا يا قدمي». ذراعايّ متعبتان وتؤلمانني جرّاء جرّ تلك الحقيبة، وقدماي متقرّحتان. شعرتُ بالماء للوهلة الأولى شديد الحرارة حتى ظننتُ أنني سأموت. كتبتُ داخل رأسي في صحيفة *«ناشونال إنكوايرر»*، «غريقة في حوض استحمام زوجها السابق». ليست لديّ أدنى فكرة عمّا سيحدث بعد ذلك وللوهلة الأولى لم أهتم لذلك.

طفتُ بخفّة في الحوض العميق، شاعرة بأنَّ ثمة شيئاً مختلفاً، شيئاً غريباً، لكني لم أتبيَّنه.

نظرتُ إلى جسمي. هو نفسه. مُلتقى فخذيّ الوردي، مثلّث الشعر المجعّد، خيوط الفوطة الصحية تصطاد في الماء كأحد أبطال هيمنغواي، البطن الأبيض، الثديان نصف عائمان، الحلمتان نضرتان ووورديتان تبرزان من الماء المتبخّر. جسم جميل. إنه لي. قرّرتُ أنْ أحتفظ به.

عانقت نفسي. الشيء المفقود هو خوفي. الحجر البارد الذي حملته في صدري على مدى تسعة وعشرين عاماً زال. ليس فجأةً. وربما ليس إلى الأبد. لكنه زال.

لعلي جئت فقط لكي أستحم. لعلّي سأرحل قبل أنْ يعود بينيت. أو قد نعود معاً إلى المنزل ونحل خلافاتنا. أو قد نذهب إلى المنزل وننفصل. ليس واضحاً كيف سينتهي الأمر. في روايات القرن التاسع عشر، يتزوجون. وفي روايات القرن العشرين، يطلّقون. هل تستطيعين

أنْ نأتي بنهاية لا يفعلون فيها هذين الأمرين؟ ضحكتُ لنفسي لأنني ألجأ إلى الأدب. أحد أفضل الأقوال بالنسبة إليّ «ليس للحياة حبكة». على الأقلّ لا يكون لها حبكة ما دمتَ حيّاً. وبعد أنْ تموت، لا يعود للحبكة أية أهمية بالنسبة إليك.

ولكن كائناً ما كان ما حدث، كنتُ أعلم أنني سأنجو منه. كنتُ أعلم، قبل أي شيء، أنني سأواصل العمل. البقاء على قيد الحياة يعني أن نولد مراراً وتكراراً. وهذا ليس سهلاً، وهو دائماً مؤلم. ولكن ليس هناك من خيار آخر غير الموت.

ماذا سأقول إذا دخل بينيت عليّ، «لقد جئت فقط لأستحم»؟. هل سأبدو، وأنا عارية، مُلتبسة؟ إلى أي مدى يمكن أنْ أبدو ملتبسة وأنا عارية؟

كان أدريان قد قال لي: «إذا تذللتِ، فسوف تعودين إلى نقطة البداية». كنتُ متأكدة من أنني لن أتذللَ. ولكنَّ ذلك كان كل ما أعلم. وكان كافياً.

صببتُ المزيد من الماء الساخن ووضعتُ الصابون على رأسي. فكّرتُ في أدريان وأرسلتُ له فقاعات على سبيل القبل. فكرتُ في المُخترع المجهول لحوض الاستحمام. كنتُ متيقنة بصورة ما من أنه امرأة. وهل كان مُخترع سدادة الحوض رجلاً؟

دندنتُ لحناً وأنا أشطف شعري. وفي أثناء وضع الصابون عليه من جديد، إذا ببينيت يدخل عليّ.

- انتهى -

كلمة أخيرة

عيد ميلاد سعيد لـ «الخوف من الطيران» للعام الثلاثين

ثلاثون عاماً! أكاد لا أصدق أنه مرّ ثلاثون عاماً على صدور *«الخوف من الطيران»*. إما أنّ الزمن وهمٌ (كما اعتقدتُ دائماً) أو إنني كنتُ طوال تلك المدة نائمة كما فعل ريب فان وينكل[1]. إنّ الفتاة التي ألّفت هذا الكتاب أصغر سناً من أنْ تكون ابنتي.

إنني ألقي نظرة إلى الماضي بحنوّ. كم كانت مهووسة. إنّ الهورمونات الجامحة تهيمن على حياتها. ولطالما عشقت الرجل غير المناسب ولطالما كتبت كُرهاً عن ذلك. أريد أنْ أقول لها: «على رسلك، اهدئي، تأمّلي، مارسي اليوغا، وسوف يُصبح كل شيء على ما يُرام»، لكنها لا تسمعني. وليست هناك آلة زمن تعود بي إليها لأعيد النظر في محتويات مخها المزدحم. ولو كان لها وجود، لما رأى هذا الكتاب النور.

---

١ - ريب فان وينكل: اسم شخصية روائية في القصة القصيرة التي تحمل اسم بطلها، من تأليف الكاتب الأميركي واشنطن إرفينغ. في إحدى مراحل القصة ينام البطل كما حدث لأهل الكهف، وعندما يستيقظ يجد أنه قد مر وقت طويل جداً وأنّ حرباً نشبت وانتهت والثورة الأميركية قامت وانتهت وتغير الملك وجاء جورج واشنطن، ويقابل شخصاً آخر يحمل اسمه، يتّضح أنه ابنه.... - المترجم

إنَّ حقبة العشرينيات من العمر مسعورة كحقبة المراهقة. إنَّ في داخلك صوتاً لا يني يردّد *أريد، أريد، أريد*، لكنكِ لا تعرفين ماذا تريدين أو كيف تحصلين عليه. إنكِ تكادين لا تعرفين مَنْ أنتِ. إنكِ تعيشين بالغريزة. وغريزتك في الغالب تدفعكِ نحو خوض مغامرات لن تُحيطين بمغزاها إلا عندما تعودين بذاكرتك إليها. إنَّ الحياة لا يمكن فهمها إلا باستعادة ذكراها.

إنَّ إيزادورا تريد أنْ تحب، ولكن كيف في وسعها أنْ تتعرَّف إلى الحب في حين أنَّ جنون الحب يُعميها؟ إنَّ طموحها عنيف لكنَّ أخيلتها الرومانسية تعترض طريقها على الدوام. إنها تريد أنْ تتحرر من أبويها، تريد أنْ تعثر على نفسها - ومع ذلك تقودها قوى عائلية لا تفهمها فهماً تاماً. إنها تريد أنْ تتحرر من القيود لكنها دائماً تقع أسيرة صور جديدة للأشراك القديمة نفسها. إنها تهرب من طغيان رجل لكي تقع في طغيان آخر. في الغالب تتعرّض لطغيان اضطرابها العصبي. إنها تريد كل شيء في الحال. إنها لا تتصف بصفاء النفس. وترغب بقوة في أنْ تُصبح كاتبة لكنها غير قادرة على الجلوس بهدوء.

إنَّ قلبي يتعاطف مع نساء في عشرينيات أعمارهن - بينهم خليقتي، إيزادورا وينغ. دعيني أحاول أنْ أعود في الزمن وأتذكّر كيف اخترعتها.

في أواخر حقبة الستينيات، وأوائل السبعينيات، كنتُ في الأساس طالبة تكتب الشعر. مُرشّحة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي في القرن الثامن عشر من جامعة كولومبيا، وكنتُ أيضاً أُدرّس في سيتي كوليدج في نيويورك. كنتُ أجرّ قدميّ جيئة وذهاباً من الشارع رقم ١١٦ وبردواي إلى الشارع ١٣٥ وجادة كوفنت حاملة حقيبة مترعة بدفاتر امتحان الطلاب الزرقاء في الأدب الإنكليزي من تشوسر إلى بوب ودفاتر الإنشاء لطلاب السنة الأولى. كنتُ مُثقلة بالعمل، ولا أتلقّى راتبي وشديدة القلق على مستقبلي. وكنتُ قد مررتُ مؤخراً بتجربة مُدمّرة من

رعاية حبي الأول جراء إصابته بنوبة من انفصام الشخصية قضت على زواجنا. أردتُ أنْ أصبح كاتبة ولكن لم أكن أعلم كيف أبداً. بين دورات التخرُّج وممارسة التدريس، كنتُ أؤلف القصائد - لقد برهن الشعر على أنه عصب إبداعي في الحياة حتى يومي هذا - ولكن لم يكن يتوفر لي الوقت لأباشر تأليف الرواية التي طالما تقتُ إلى تأليفها. أو لعلي كنتُ فقط خائفة. وإذا كانت قصائدي مقروءة، فإنَّ قرّاءها كانوا قلّة قليلة. كان يمكن للرواية أنْ تقدّمني بوضوح أكبر للجمهور العريض.

لقد أحببتُ طلابي في سيتي كوليدج في نيويورك، لكنني لم أكن متيقّنة من أنّ برنامج درجة الدكتوراه في كولومبيا كان مناسباً لي. لقد أردتُ أنْ أؤلف كتبي الخاصة بدل أنْ أقرأ كتب أشخاص آخرين عن كتب تتحدث عن كتب؛ كنتُ فتاة شديدة البراعة وطالبة بالإكراه بحيث ما كان يمكن أنْ أبقى أفوز بالمنح الدراسية. بل لم أرغب في ذلك حقاً، لكنني لم أتحلَّ بالشجاعة لأتخلّص من المجال الأكاديمي.

وكما يحدث مع الكتّاب جميعاً، كنتُ مرعوبة من السير في الشارع وأنا عارية. وكما يحدث مع الكتّاب جميعاً، خشيتُ أنْ أكون محتالة. لقد بدت الكتابة عملاً ينطوي على مُخاطرة. وبدا التدريس عملياً. كيف كان لي أنْ أعرف أنه سيتّضح أنّ حياتي هي النقيض الصحيح؟ لقد أردتُ أنْ أؤلف الرواية لتكون نهاية الروايات كلها، لكنني خشيتُ أنْ أفشل، أنْ أسقط، أنْ أطير.

لذلك فعلتُ ما كنتُ دائماً أفعل في تلك الأيام عندما أقع في مأزق. ووقعتُ في شِباك حب رجل ظننتُ أنه شكّل بالنسبة إليّ مهرباً.

إنَّ المهرب - سواء اتّخذ شكل زواج أم جيش أجنبيّ - وهْم. كلنا نعلم أننا نحمل أنفسنا معنا أينما ذهبنا. ربما بدا زواجي الثاني من طبيب نفسي شاب (بعد الزوج المُصاب بانفصام الشخصية، بدا أنَّ الطبيب

النفسي شخص آمن) وسيلة للهروب ولكنْ اتّضح أنه دفعني من جديد إلى الغرق في نفسي.

كانت الحرب الفيتنامية دائرة في عام ١٩٦٦، لكننا لم نكن نعي ذلك. اختير زوجي الثاني في أول قُرعة للأطباء أُجريَتْ منذ الحرب الكورية للالتحاق بالجيش. لقد اختار أنْ يمنح الجيشَ ثلاث سنوات من حياته لكي يتمكن من الذهاب إلى أوروبا وليس إلى فيتنام - ولحقت به.

عندما وجدتُ نفسي في هايدلبرغ، ألمانيا، بعيدة عن والديّ، ومدرسة التخرّج، وأصدقائي في نيويورك، بدأتُ أكتب وكأنّ حياتي كلها تعتمد - بالمعنى الحرفي للكلمة - على ذلك. لقد كانت الكتابة بمثابة ممارستي للتأمُّل، وسلامة عقلي، ومهربي، وعودتي إلى منزلي. ألّفتُ الشِّعر، والقصص القصيرة، وأجزاء من روايات. في المعتاد كنتُ أخاف أنْ أنهي أعمالي القصصية لأنَّ إنهاءها يعني ضمناً الحُكم عليها. ولم أكنْ مستعدة لسماع الحكم عليّ. (وهل يُصبح المرء أبداً مستعداً لذلك؟). ومع ذلك، اكتشفتُ في نفسي وأنا في هايدلبرغ عناد الكاتبة؛ اكتشفتُ طاقتي على الجلوس بهدوء، والعيش على مدى سنوات من دون التزود بالمعلومات، أو التمرّغ في بذخ كهف الذات السرّية حيث يعيش الكاتب في الغالب.

قرأتُ وقرأتُ للكتّاب الذين طالما أحببت مؤلفاتهم، وجعلتهم أساتذتي. وعثرتُ على مُحلل نفسيّ يتحدث الإنكليزية ساعدني على حل الأنماط المُدمّرة للذات التي كان يمكن لولا ذلك أنْ تُفسد حياتي.

لقد وضع غراهان غرين، الذي وصفَ حياة الكاتب بأنها «شبه حياة»[٢]، عنواناً للجزء الثاني من سيرته الذاتية هو «*أساليب الهروب*». الهرب هو أسلوب الكتّاب في العمل. إننا نحاول أنْ نهرب من أنفسنا

٢ - «**شبه حياة**»: هو عنوان الجزء الأول من سيرة حياة غراهام غرين. - المترجم

لكي نعثر عليها. وهذا ما كنتُ أفعل في هايدلبرغ خلف قناع زوجة طبيب في الجيش.

إنها حقاً شبه حياة. إنَّ الحياة التي تُعاش على طاولة الكتابة أشدّ حيوية بكثير من الحياة بعيداً عنها. خلال سنواتي الثلاث في هايدلبرغ وجدتني أؤدي أعمالاً كثيرة أخرى - التدريس، الكتابة لصالح مجلة سياحية، الخضوع لجلسات تحليل نفسي - ومع ذلك عندما أستعيد ذكرى تلك السنوات، أتذكر دائماً نفسي جالسة على طاولة الكتابة في غرفة النوم الثانية المُعتمة في المُجمّع السكني الكئيب الخاص بالجيش حيث كنا نُقيم. قرأتُ بنهم وكتبتُ دون توقف. والأعمال المنزلية والتدريس والكتابة لصالح المجلة التي كنتُ أُثقِل بها على ممارستي الكتابة كلها تلاشت تقريباً بالمقارنة مع ذكرياتي عن نفسي وأنا مُنكبّة بانضباط ذاتيّ فوق تلك الطاولة.

السنوات من ١٩٦٦ إلى ١٩٦٩ كانت حيوية في هايدلبرغ - وفي العالم. فقد نزل طلاب جامعة هايدلبرغ في مسيرة إلى شارع هاوبتشتراس يهتفون: «هو هو هو تشي مينه» ورموا حجارة على رجال الشرطة كما فعل زملاؤهم في باريس. وكانت حبوب الهلوسة واسعة الانتشار؛ والجو يعبق بآثار الثورة الجنسية والاجتماعية.

على الرغم من مصادر الإلهاء هذه التي تؤثر في العقول - واغفر لي هذا التعبير - صممتُ على العودة إلى نيويورك مع مخطوط كتاب يستحق النشر. واحتفظتُ بوعدي لنفسي.

رجعتُ في عام ١٩٦٩ مع ديوان شعر تحول خلال العام التالي أو نحوه إلى ***«ثمار وخضروات»***، أول كتاب لي، ونُشرَ في عام ١٩٧١. ولكن بين أمتعتي كانت هناك أيضاً بذور كتاب ***«الخوف من الطيران»*** تنبُتُ.

في هايدلبرغ، كنتُ أعمل على تأليف رواية تُدعى ***«الرجل الذي اغتال الشعراء»***. بطل الرواية شاب مجنون ينطلق ليقتل طيفه لكي ينتحل قواه الإبداعية. لماذا أؤلف رواية تُروى بلسان مجنون؟ من الواضح أنني كنتُ أحاول أنْ أعالج جراح زواجي الأول بعبارات أدبية. حينئذ كان نابوكوف[٣] هو كاتبي المفضّل وكنتُ أناقش أحد مواضيع نابوكوف. خلف تلك الدوافع كان هناك دافع أكثر أهمية بكثير. كنتُ مُقتنعة بأنه لا توجد أية رواية مكتوبة بوجهة نظر أنثى يمكنها أنْ تحمل الختم الأدبي الذي تقت إليه.

ها هنا شيء يبدو مُدهشاً عند استعادة ذكراه. في تلك الأيام كانت الكاتبات غير مرئيات في وضح النهار. أذكرُ أنني بحثت عن كتاب نقديّ حول إيميلي ديكنسون في مكتبة بتلر في جامعة كولومبيا وعثرتُ على سلسلة من الكتب تحت عنوان «أدباء أميركا من الرجال». كانت كتب جين أوستن وشارلوت برونتي تُقرأ ككلاسيكيات خالية من الحياة وليس بوصفها من تأليف امرأتين من لحم ودم. كانت إديث وارتون[٤] تُعتَبَر أقلّ شأناً من هنري جيمس. وفي كلية بارنارد من عام ١٩٥٩ إلى ١٩٦٣ كنا لا نقرأ تقريباً لأية شاعرات أو روائيات - على الرغم من أنَّ الكليّة كانت ولا زالت معروفة بتشجيعها للتميُّز النسائي، وقدَّمت كوكبة مذهلة من الكاتبات المُبدعات: مارغريت ميد، زورا نيل هيوستون، هورتنس كاليشر، بلفا بلين، روزالين براون، ميري غوردون، آنا كويندلن، إدويغ دانتيكات - فقط على سبيل المثال. وعلى الرغم من هذا السجل، فإنّ الشعر الحديث في كلية بارنارد في أيامي كان يعني ت. س إليوت، و. هـ أودن، وإزرا باوند. والرواية المعاصرة هي فلاديمير نابوكوف، وبرنارد

---

٣ - فلاديمير نابوكوف: صاحب رواية **«لوليتا»**. - المترجم

٤ - إديث وارتون (١٨٦٢ - ١٩٣٧): روائية أميركية. أشهر رواياتها **«منزل المرح»** و**«إيثان فروم»**. - المترجم

مالامود، وشاؤول بيلو. والكاتبات كنّ محصورات بفئة الثقافة الرائجة. لم يكن يُسمح لهنّ بالظهور إلا في مجال قصص الألغاز، والروايات الرومانسية والتاريخية، بل كان يتم التساهُل معهن عندما يكسبن مبالغ طائلة ما دمن لا يرتقين إلى مرتبة الأدب. ولكن إنْ أردت أنْ تُعاملي بجديّة، فعليكِ أنْ تكوني ذَكَراً. (نعم، كانت هناك بعض الاستثناءات - مثل ميري مكَارثي - ولكن معظم النساء الكاتبات [الدخيلات على حقوق الرجال] كنّ يختبئن في فئة الأدب الشعبي الخاصة بالنساء).

في أثناء كتابتي قصائد من وجهة نظر أنثى، كنتُ أؤلف رواية من وجهة نظر ذكر. ولأنَّ الشِّعر سرّيّ وغير مقروء على نطاق واسع، سمح لي أنْ أقوم بتجارب بصدق أنثويّ. ولأنّ أدب النثر شائع، قادني إلى تلبُّس ثوب الروائي الذَّكر.

لذلك رجعتُ إلى نيويورك في عام ١٩٦٩ مع ديوان شعر وجزء من رواية. رجعتُ من جديد إلى جامعة كولومبيا، ولكن هذه المرة ليس إلى برنامج نيل درجة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي في القرن الثامن عشر بل إلى مدرسة الفنون، لكي أدرس كتابة الشعر مع ستانلي كونيتز ومارك ستراند. ورحت أهذب ديوان شعري الأوَل وأشذّبه، إلى أنْ وجد في نهاية المطاف ناشراً في هولت، راينهارت ووينستون.

نُشِرَ ديوان «*ثمار وخضروات*» في ربيع عام ١٩٧١ - أيام طيش الكاتبات النسائية. فقد شرّعت آنْ سكستون وسيلفيا بلاث أبواب الحنق الشِّعري الأنثوي واسعاً. وكان كتاب «الأنثى الخصيّ» من تأليف جرمين غرير قد أيقظ الوحش الكامن في غضب المرأة. (وبسبب جرمين غرير، أردنا جميعاً أنْ نتذوق طعم دماء حيضنا). والنجاحات التي حققتها كتب «*مذكرات ملكة حفل تخرُّج سابقة*» من تأليف أليكس كيتس شولمن، و«*أصدقاء صدوقين*» من تأليف لويز غولد، و«*يوميات ربّة منزل مجنونة*» من تأليف سو كوفمان، كشفتِ النقاب عن جوع نهم

إلى روايات تجارب النساء. وفجأةً، اضحت حياة النساء - ومؤلفات النساء - تتصدر الأخبار.

لا ريب في أنَّ ديوان *«ثمار وخضروات»* استفاد من هذا السحر. إذ لم أكتف بأنْ انضممتُ إلى فريق المؤلفين المنشورة أعمالهم، الذي كان من المُفترَض أنْ يحلّ مشاكلي كلها - أو هذا ما يظنه المؤلفون عندما تُنشَر أعمالهم الأولى - بل كنتُ الجنس المناسب لذلك الزمان. قد يُشبه نشر ديوان شعر رمي بتلة وردة في وادي غراند كانيون، ولكن في عام ١٩٧١، كانت النساء سلعة رائجة. ثم إنني كنتُ صاحبة شعر أشقر، أرتدي التنورة شديدة القصَر وحذاءً عالي الرقبة كانت حينئذ (ولا زالت) الموضة الشائعة. وعلى الرغم من رعبي من الطيران، كنتُ مستعدة للذهاب إلى أي مكان وأقرأ شعري.

في عام ١٩٧١، أراد الجميع أنْ يعرف كيف تشعر النساء، وكيف يكتبن، وبما يُفكّرن. وأصبح جنسي الذي كان في السابق خفياً هو الصرعة الرائجة. وحتى في ذلك الحين، رأيتُ أنه كما أنَّ كون المرء امرأة يمكن أنْ يُصبح موضة، كذلك يمكن أنْ يُصبح عتيق الطراز، ولكن لا أحد أراد أنْ يسمع هذا الكلام حينئذ. الموجة الثانية لحركة حقوق المرأة أطلقتْ سيلاً من الكتب بأقلام نساء وتتحدث عن النساء.

طبعاً لم يفرح الجميع بهذا. فقد أبدى المؤلفون الذكور امتعاضهم من بادرة خسارتهم أهليتهم. ورأيتُ أنه عندما أطلقَ بول ثيرو على بطلتي لقب «فرْج ماموث[٥]» في صحيفة *«نيو ستيتمنت»*، كانت تلك ردّة فعل على خوفه من خسارة امتيازه أكثر منه على الرواية نفسها. وكان هناك العديد من أمثاله. لكنَّ مؤلفين ذكور آخرين اعترفوا بأهمية ثورة المرأة.

٥ - الماموث: فيل بالغ ضخامة الجثة ومكسو بالشّعر، منقرض.

مثال لويس أنترماير، وجون أبدايك وهنري ميللر[٦] - الذين أصبحوا الأبطال الأوائل لأعمالي - فهموا أنَّ أصوات النساء سوف تغيِّر طبيعة الأدب إلى الأبد. في الحقيقة، يمكن القول إنه لولا الموجة الثانية لحركة حقوق المرأة ليس فقط لما رأى ازدهار النساء الكاتبات طوال العقود الثلاثة الماضية النور، ولا عُرِفَتْ التجارب على وعي المرأة التي أجراها جون إرفنغ، وجون أبدايك، وجيفري يوجينيدس والعديد من الكتّاب الموهوبين الآخرين. ولحسن الحظ، غيَّرت كتابات النساء أدبنا كله وبعمق.

بالعودة إلى تلك الشاعرة الشابة ذات التنورة شديدة القصَر التي كانت تدرِّس مادة الشِّعر في الشارع التاسع والعشرين Y، وتقرأ مؤلفاتها في الجامعات، والمدارس الثانوية والمقاهي ولا تزال مترددة في مواصلة العمل لنيل درجة الدكتوراه لكي يكون لديها «شيء تتكئ عليه». طلب ناشرها منها رواية، لكنها كانت شديدة الرعب من الكشف عن مؤلفها النثري إلى درجة أنها أنتجت ديواناً آخر من الشِّعر. ولكي نتبيَّن كم كان أمر النشر مختلفاً حينئذ، نقول إنَّ الناشر قبله. (أصبح عنوان الديوان «أشباه حيوات»)، عام ١٩٧٣، ونُشرَ قبل صدور ***«الخوف من الطيران»*** بستة أشهر). ولكن الآن بدأ ناشرها يفقد صبره. وأخذ يُكرر سؤاله «أين الرواية التي تعملين عليها؟»)، وأُجيبه دائماً «ستراها قريباً». لكنني كنتُ قلقة من إخراج رواية ***«الرجل الذي اغتال الشعراء»*** إلى العلن، لأنني كنتُ أعلم في قرارة قلبي أنَّ عليَّ أنْ أكتب شيئاً يجعلني أتملَّص من الكتاب.

في نهاية المطاف استجمعتُ شجاعتي وكشفتُ النقاب عن المخطوط الناقص لآرون آشر. قرأه على عجل وأعلن: «إنه قابل للنشر،

---

٦ - أبدى ميللر إعجابه الصادق برواية **«الخوف من الطيران»**، وبقيَ بعدها على تواصُل مع الكاتبة إريكا يونغ عبر الرسائل على امتداد عام كامل. - المترجم

لكنني لن أنشره وذات يوم ستشكرينني على ذلك. لِمَ لا تذهبين إلى المنزل وتؤلفين رواية بالصوتِ النسائيّ الذي تؤلفين به قصائدك؟».

بمناسبة الحديث عن الكلام المناسب في الوقت المناسب. لقد استلمتُ تواً رخصة بتأليف *«الخوف من الطيران»*. (أما لماذا كنتُ بحاجة إلى تلقّي رخصة من رجل فمسألة أخرى). وكان آرون مُحرراً لأساطين الأدباء المُفضّلين لدي، أمثال فيليب روث وشاؤول بيلو، كذلك بدا حكمه لا جدال حوله. سوف أبقى دائماً ممتنّة له لأنه رفض نشر روايتي الأولى وحثّني على مباشرة تأليف *«الخوف من الطيران»*.

لقد كتبتها بمزيج من الحماس والرعب. وبينما كنتُ أدوّن المشاهد على الورق الأصفر العادي، وعدتُ نفسي بألا أعرض المخطوط أبداً على أي شخص. كان خداع النفس ذاك هو الوسيلة الوحيدة للاستمرار. إنها استراتيجية لا أزال أوصي بها الكتّاب الشبّان. إرمي ذلك الناقد الأبوي وراء ظهرك! اكتبي ما يُرضيك أنت فقط. إذا فكرتِ في الجمهور، أي جمهور، فسوف تتوقفين عن الكتابة. لا زالت أذكِّر نفسي أحياناً بهذا كلما باشرت تأليف كتابٍ جديد.

نُشرَ *«الخوف من الطيران»* بطبعته ذات الغلاف المقوّى في شهر تشرين الثاني عام ١٩٧٣. وخلافاً للاعتقاد العام، لم يُحقق نجاحاً باهراً فورياً. ولمّا كان يُظن أنها ستكون أول رواية أدبية من تأليف شاعر، صُمّمَ لها غلاف مزوّق وأُصدرَت بطبعة صغيرة. ولولا حماسة مُحررة الطبعة ذات الغلاف الورقي - إلين كوستر، وتعمل الآن وكيل أعمال أدبي - التي عشقتِ الرواية واشترتها لكي تُعيد طبعها في العام التالي، لما تجاوزت طبعة الغلاف المقوى.

كانت الآراء النقدية الأولية فيها متضاربة. تراوحت بين الحماسة الجامحة أو الرعب من أنْ «تتكلّم النساء هكذا». ولم تتمكن النسخ

من تلبية نهم السوق. فما إنْ تتمكن كلمة شفهية من السيطرة - ذلك أنْ الرواية كانت تُثير نقاشات حادّة منذ أنْ ظهرتْ في المطابع - حتى تنفد طبعات الرواية وتختفي. وقد مرّت بضعة أشهر بقيتْ في أثنائها في المراكز الدنيا من لائحة أفضل الكتب ونفدتْ طبعاتها مراراً وتكراراً. ثم قام جون أبديك بمدحها في *النيويوركر* وبدأ الوضع يتغيّر. ولكن ما لم اعلمه هو أنْ ناشري كان يُزمع مغادرة الشركة. وعلى امتداد أشهر عديدة بقيَ مركزه كرئيس تحرير وناشر شاغراً في وقت أصبح فيه «*الخوف من الطيران*» كتاباً يسمع به الجميع ولا أحد يستطيع أنْ يحصل عليه. وفي وقت من الأوقات في تلك الفترة المؤلمة، اكتشفَ هنري ميللر «*الخوف من الطيران*» وكتب مقالة حماسية عنه في النيويورك تايمز. وصفَ الرواية بأنها النسخة الأنثوية من «*مدار السرطان*» وتوقّع أنْ تغيِّر طبيعة الكتابة في أميركا. ونتيجة لكرمه ذاك، بدأنا هو وأنا نتبادل كمية هائلة من الرسائل حول الكتابة. وقد اكتشفتُ في ميللر توأم روحي الأدبية غذّتني صداقته في زمن الفوضى. وعندما صدرت طبعة «*الخوف من الطيران*» ذات الغلاف الورقي في شهر تشرين الثاني عام ١٩٧٤، بيع منها ملايين النسخ في خلال الأشهر القليلة الأولى.

في نهاية المطاف، بيع من «*الخوف من الطيران*» سبعة ملايين نسخة في الولايات المتحدة وحدها واستمرَّ كتاباً رائجاً في العالم أجمع. وعلى مدى الثلاثين عاماً التي مرت حتى الآن، صُعقتُ بمدى تشابه الاستجابات للرواية في ثقافات مختلفة اختلافاً شاسعاً. القرّاء اليابانيون، والصينيون والكوريون، لم يكونوا أقلّ حماساً عن القراء الفرنسيين، والإسبان، والألمان، والإيطاليين واليوغوسلاف. ومع سقوط الشيوعية، أصبحت الرواية متوفرة في بولندا، وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتي السابق. وقد سحرني أنْ أرى مدى تشابه قضايا السياسة الجنسية في أرجاء العالم كله.

لقد قرأ رواية «*الخوف من الطيران*» أناسٌ نادراً ما يقرؤون الروايات. وبالنسبة إلى الكثير من المُعجبين، إنها أكثر من مجرد كتاب - إنها تشكّل جزءاً من حياتهم. وغالباً ما يستوقفني الناس في الشارع، وعلى متن الطائرات، والقطارات ويُخبرونني عن مكان تواجدهم في أول مرة قرؤوا «ذلك الكتاب» وكيف أثّر على حياتهم. «أذكرُ أنني كنتُ في اليونان، أتساءل هل أضاجع شاباً وسيماً - وقد فعلت (أو لم أفعل)، فشكراً جزيلاً لكِ لأنكِ غيّرتِ حياتي». وأحد الرجال الذين قابلتهم في حفل عشاء في نيويوركَ هتف قائلاً: «إنني كلما رأيتُ ذلك الكتاب على طاولة زينة في غرفة نوم إحدى النساء، أعلمُ أنني سأكون محظوظاً».

لقد استُقبلنا بحفاوة أنا وإيزادورا (أو شُجبنا) كمُحرّرتين، ومُخرّبتين، ومُعلّمتين، وصديقتين؛ تعرّضَ كتابنا للمنع والحرق، لكنّه *قُرئ*.

وأُعيدتْ قراءته ووُضعت خطوط تحت بعض عباراته وتناقلته الأيدي. وبالنسبة إلى الكاتب، يُعتبر هذا ذروة المديح. إنني ممتنة بصورة تعصى على الوصف.

في الماضي كنتُ أقلق لأنْ «*الخوف من الطيران*» هو أشهر كتبي العشرين أو نحوها إلى درجة أنه يُقلل من أهمية إنجاز حياتي. كنتُ أخشى أنْ يضعوا على شاهد قبري عبارة «*النكاح الحرّ*». ذلك القلق أصبح الآن من الماضي. من النادر أنْ تصبح مادة مكتوبة حَدَثاً في حياة الناس. لقد نال هذا الكتاب حظاً استثنائياً. وبوصفي مُبدعته، أرى أنّ معجزة حدثتْ وأخجلتْ تواضعي.

إريكا يونغ - مدينة نيويورك

١/ كانون الأول / ٢٠٠٢

انتهــى *حقاً*



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

إريكا يونغ كاتبة ومُدرّسة أميركية، من أصل بولوني. ولدت عام 1942 لعائلة يهودية من أب يعمل رجل أعمال ولد في إنكلترا لعائلة من المهاجرين الروس وأم رسّامة ومُصممة رسوم أقمشة ودُمى. ولإريكا أخت اسمها سوزان متزوجة من رجل أعمال لبناني اسمه آرثر ضوّ. تزوجت إريكا أربع مرات ولها ابنة اسمها مولي يونغ - فاست من زواجها الثالث. وتقوم إريكا بزيارة هايدلبرغ في ألمانيا حيث كانت تُقيم مع زوجها الثاني في ثُكنة عسكرية، وتزور مدينة البندقية كثيراً. أتى المغني الأميركي بوب ديلون على ذِكرها في أغنيته «Highlands». ساندت المثليين جنسياً وتشريع زواجهم مدَّعية أنَّ «زواج المثليين نعمة وليس نقمة ويُعزز الاستقرار والعائلة وهو حتماً في صالح الأطفال». أشهر أعمالها قاطبة رواية «الخوف من الطيران» عام 1973، وهي رواية أثارت وتُثير جدلاً واسعاً بسبب صراحتها الشديدة حول شؤون المرأة الجنسية، صدر منها أكثر من ثلاثين طبعة، وبيع منها أكثر من 20 مليون نسخة. ومن مؤلفاتها الأخرى: «كيف تنقذين زواجك»، «مظلات هبوط وقُبلات»، «الشيطان طليقاً: إريكا يونغ تكتب عن هنري ميللر» و«الخوف من الخمسين: مذكرات منتصف العمر» وغيرها... يتميَّز أدب يونغ بجرأته الشديدة في الأمور الجنسية إلى درجة الإباحية أحياناً.